

طه جابر العلواني رحمه الله:
عطاؤه العلمي ومشروعه الإصلاحية
بتاريخ 23 - 24 - 25 أبريل 2024

الجزء الأول

تنسيق:

د. محمد البنعياي

الكتاب: طه جابر العلواني رحمه الله: عطاؤه العلمي ومشروعه الإصلاحية

تأليف: كتاب جماعي

الطبعة: الأولى 2024

رقم الإيداع القانوني: 2024MO2910

الرقم الدولي: 978-9920-8876-5-6

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبع: مطبعة وراقية بلال – فاس، المغرب

الهاتف/ الفاكس: 05.35.61.86.03

العنوان: رقم 204 شارع المدينة المنورة حي الأمل، النرجس – فاس

الدراسات الواردة في هذا الإصدار تعبر عن آراء أصحابها .

اللجنة العلمية

الشرقي إدريس/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس/ فاس
البنعيادي محمد/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز
حمدوشي الحسن/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز
جدية عمر/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس/ فاس
الحاجي الدريسي محمد/ المدرسة العليا للأساتذة فاس
رفيع محماد/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز
بلكا إلياس/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز
مومني هشام/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس/ فاس
داودي نعيمة/ المعهد الأوروبي للدراسات الفلسفية IPSE
بلحسن يحيى/ جامعة ليل بفرنسا
محمد ناصيري/ دار الحديث الحسنية-الرباط
أوهنا إدريس/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس/ فاس
زيان جميلة/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس/ فاس
الهلاي عبدالله/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز
اليعقوبي عبد العزيز/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز
المسؤول عبد العلي/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس/ فاس
الينبجي محمد/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز
شهيد الحسان/ كلية أصول الدين تطوان
العمراوي محمد/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس
الأنصاري محمد/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس
الوافي حميد/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس
الوزاني الطيب/ الأكاديمية الجهوية للتربية والتعليم فاس/بولمان
كعواس ميلود/ الكلية متعددة التخصصات/الناضور
تمتاه هشام/ كلية أصول الدين تطوان
يحياوي عبد الغني/ كلية أصول الدين تطوان
القلالي عبد الكريم/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان
الأنصاري محمد/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان

كلمة اللجنة المنظمة

منسق المؤتمر:

د. محمد البنعادي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله،

أيها السادة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وبعد: فإن الأمة التي تبحث في تراث رجالها وترجع إليه وتنظر فيه استثمارا وتقييما وتقويما، وتعرض اجتهاداتهم للدرس والتحليل والتفسير والتوجيه والنقد، لتستفيد من تجاربهم، أمة حية نشطة تستطيع أن تصلح حال حاضرها، وتبني أسس مستقبلها، وأحسب أننا اليوم - ونحن نعقد هذا المؤتمر الدولي العلمي المحكم في موضوع: طه جابر العلواني رحمه الله: عطاءه العلمي ومشروعه الإصلاحية، - نقوم ببعض حق علماء الأمة علينا، خصوصا الذين كان لهم الأثر الواضح في خلق حركية فكرية لامست قضايا الأمة وعالجت مواطن الركود والجمود في (ما من الواجب تنقيحه وتجاوزه داخل دائرة المعفو عنه)، في واقع تراجع فيه حضور الوحي في مواقع متعددة من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية... واستمرت فيه القناعة بما خلفه السابقون - وخاصة منه ما لا ينبني على أسس الوحي الصارمة بشقيه: القرآن الكريم والسنة الطاهرة المطهرة - وهي الأسس التي وجب الرجوع إليها والعرض عليها بالنواجد، واستثمارها من أجل تجديد النظر في كثير من قضايا الأمة، تجديد بهذه الأسس لا بغيرها، وبهذه المصادر لا بغيرها، وبمقاصد هذه الأسس والمصادر لا بغيرها، أي تجديد لا يكون حيلة لتقليد الغرب فقط كما يقول محمد إقبال... وإنما التجديد يجب أن يكون بالإسلام لا بغيره.

وأملنا أن يكون مؤتمرنا هذا - وهو يتناول تراث طه جابر العلواني أحد رموز الثقافة الإسلامية المعاصرة - إضافة نوعية للجهود المبذولة في هذا المسعى

الحضاري المنشود، الذي يتوخى إبراز جهود علماء المسلمين المعاصرين في تطوير الفكر الإسلامي المعاصر من خلال مصادره المعصومة المستندة إلى: ماض محمود، هو مجال الاستفادة والاعتبار والاستمداد، وواقع مشهود، هو مجال التحليل وإعادة التركيب، ومستقبل منشود، هو مجال البناء واستعادة الريادة العلمية والإمامة الحضارية؛

وشرط كل ذلك منهجٌ قاصد وفقهٌ راشد، وروح وثابة معتزة بتراثها منفتحة على واقعها، متطلعة إلى مستقبلها، مسترشدة بأصالتها، مستثمرة لكل كسب إنساني يتساق مع تطلعات الأمة، وهي الشروط التي أسست بها الأمة مجدها، وصنعت بها حضارتها، وسيجت بها عناصر دوراتها الحضارية على مر التجربة الإسلامية التاريخية.

وأحسب أن هذا المؤتمر الذي ينظمه مختبر العلوم الدينية والإنسانية وقضايا المجتمع التابع لجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس بشراكة متميزة مع المعهد الأوروبي للدراسات الفلسفية ببروكسيل خطوة مهمة في انفتاح جامعتنا على مراكز البحث العلمي الأكاديمي الجاد عبر العالم، للبحث في رصيدنا العلمي الإسلامي المعاصر ورصد عناصر قوته، ونفض غبار الإهمال عنه بغية الاستفادة منه في هذه المرحلة التاريخية الدقيقة التي تمر بها أمتنا، خاصة على مستوى (الصراع القيمي) الذي بدأ يستشري داخلها إلى حد مطالبة بعض (الأقليات الأيديولوجية) بتجاوز الثوابت الدينية - التي ظلت محل تقدير وإجماع الأمة - بحجة عدم قدرة الإسلام على مسايرة المواثيق الدولية مما يستوجب الاجتهاد والتجديد ولو بتطويع النصوص الأصلية لرغبات المؤدلجين.

أيها السادة:

كان من أقدار الله سبحانه أن يُولد الشيخ طه جابر العلواني يوم 4 مارس (آذار) عام 1935م (1353هـ) وأن يتوفاه الله سبحانه في اليوم نفسه من

عام 2016 (1437هـ). وبين الولادة والوفاة عاش تحولات كبيرة وعميقة في حياته العلمية وخبراته الحياتية.

فبعد فشل تجربته السياسية في العراق، اضطر إلى مغادرة وطنه والإقامة بالمملكة السعودية، حيث عمل أستاذاً للفقهاء بجامعة الإمام. وبعد ذلك، ستظهر أجيال جديدة من الإسلاميين - خاصة الذين درسوا في الغرب - تبحث عن أطر جديدة تعبر من خلالها عن الفكرة الإسلامية، وهنا برز المجال المعرفي باعتباره جوهر المشروع الغربي الذي يفسر استمرار النفوذ الغربي رغم طي مرحلة الاستعمار، فكانت فكرة إنشاء كيان مؤسسي إسلامي يضطلع بمهمة نقد المعرفة الغربية وإنتاج معرفة إسلامية بديلة، من خلال "المعهد العالمي للفكر الإسلامي"، وكان الدكتور العلواني أحد مؤسسيه الأوائل بالإضافة إلى الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي والدكتور عبد الحميد أبي سليمان والدكتور أنور إبراهيم، وقد احتضنت الدول الإسلامية الأسيوية هذه المجموعة الفكرية الشابة، وانهقد أول مؤتمر للمعهد العالمي في باكستان والثاني في ماليزيا، توج كل ذلك بإنشاء "الجامعة الإسلامية العالمية" في ماليزيا برعاية محاضير محمد .

ومع إنشاء المعهد العالمي، استقال العلواني من منصبه بجامعة الإمام وغادر إلى الولايات المتحدة، حيث شغل منصب مدير الأبحاث، وسرعان ما تولى رئاسته خلفاً للدكتور الفاروقي، وفي أواخر حياته أسس جامعة قرطبة وانكب على مشروعه المتعلق بالدراسات القرآنية وأنتج عدة مؤلفات في هذا الصدد.

هذه المنعطفات الحاسمة التي شهدتها حياة العلواني انعكست جلية على مشروعه الفكري الذي استله بالاهتمام بتحقيق التراث؛ حيث حقق كتاب المحصول للإمام فخر الرازي (1980) وكتاب "النبي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار" للوارداني (1983)، وانتهى بمراجعة جذرية للتراث كما تجلى ذلك في كتابيه: لا إكراه في الدين (2003)، وإشكالية التعامل مع السنة النبوية. (2014).

مارس العلواني كثيراً من النشاطات العلمية والفكرية الإسلامية، وشارك في كثير من المجمع العلمية الدولية والمحلية؛ فكان عضواً مؤسساً في رابطة العالم الإسلامي، وعضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن، وعضواً في مجمع الفقه الإسلامي الدولي في جدة، والرئيس المؤسس لمجلس الفقه الإسلامي في أمريكا الشمالية.

ويقوم المشروع الفكري للدكتور العلواني على عدد من المحاور منها:
- الجمع بين القراءتين: ويعني الجمع بين قراءة الوحي (الغيب) وقراءة الكون (الشهادة).

- حاكمية القرآن وأسبقيته: وتعني أن القرآن الكريم قاض على ما سواه.

- عالمية الخطاب القرآني: فالخطاب القرآني كما يراه العلواني يخالف خطابات الأنبياء السابقين التي كانت خطابات اصطفاوية موجهة إلى أمم وشعوب بعينها، أما الخطاب القرآني؛ فقد تدرج من الرسول - ﷺ - إلى عشيرته الأقربين، إلى أم القرى ومن حولها، ثم إلى الشعوب الأمية كلها، ثم إلى العالم بأسره. وبذلك صار القرآن الكريم الكتاب الوحيد الذي يستطيع مواجهة الحالة العالمية الراهنة.

- مراجعة التراث وتجديده: اتخذ العلواني موقفاً مزدوجاً من التراث الفقهي الإسلامي، فمن جهة رأى ضرورة مراجعة بعض القضايا التراثية كحد الردة، ومن جهة أخرى آمن بضرورة التجديد الفقهي بل طبقه في محاولته وضع أسس "فقه الأقليات" ومعالم منهجيته.

أيها السادة:

لقد كان الدكتور العلواني صاحب رسالة ورأي وعقلية مؤسسية وخبرة تنظيمية كبيرة، علاوة على فهمه العميق لرسالة الإسلام والتحديات التي تواجهه، وأنفق حياته كلها في خدمة العمل الإسلامي ورسالته، وقد أبدع رحمه الله في تطوير وتجديد الفكر الإسلامي، فله العديد من النظريات القرآنية والفقهية المتميزة مثل:

الجمع بين القراءتين "قراءة الوحي وقراءة الوجود" ومقاصد الشريعة من منظور التوحيد والتزكية والعمران، وفقه الأقليات، وكتب قيمة حول فكر التجديد والاجتهاد، وإصلاح الفكر الإسلامي، والعديد من البحوث العلمية التي أثارت جدلا واسعا بين الباحثين مثل إشكالية الردة والرجم في القرآن، وإشكالية التعامل مع السنة النبوية، وقد خالفه فيها كثير من الباحثين، كما اتفق معه البعض الآخر.

وبالجملة، فقد استطاع العلواني أن يؤسس مشروعاً فكرياً جمع بين الأصالة والمعاصرة، ورغم بعض الانتقادات المعرفية التي وجهت إليه، إلا أنه يحمل إمكانيات معرفية ومنهجية يمكن الاستفادة منها والبناء عليها في مقارنة الأفكار الحداثية، أو تلك التي مازالت تراهن على الغرب رغم مآزقه الأخلاقي المعاصر كما يعبر عن ذلك روني جينو (عبد الواحد يحيى) في كتابه (أزمة العالم الحديث) و(هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان).

وإن مختبر العلوم الدينية والإنسانية وقضايا المجتمع والمعهد الأوروبي للدراسات الفلسفية ببروكسيل، وهما ينظمان هذا المؤتمر العلمي يهدفان إلى التعريف بهذا العلم ومناقشة أطروحاته، والاستفادة مما تركه منهجا وموضوعا، إسهاما في نشر المعرفة الشرعية الصحيحة البانية للإنسان الشاهد باعتباره محور الاستخلاف وأداته ومقصده.

أيها السادة

لقد اجتهدنا في انتقاء أكثر البحوث تحقيقا علميا، وأجودها صناعة أكاديمية بعد أن عرضناها للتحكيم العلمي على ثلة من خيرة أساتذة الجامعة المغربية والمعهد الأوروبي للدراسات الفلسفية ببروكسيل، متخصصين أكفاء متميزين، فكانت المحصلة هي ما توزع على برنامج المؤتمر من خلال المحاور التالية:

- معالم المنهجية المعرفية في القرآن والسنة عند العلواني
- معالم المنهج التوحيدي والتكامل المعرفي عند العلواني
- إسهامات العلواني في تطوير الدرس المقاصدي
- إسهامات العلواني في تطوير فقه المراجع

■ من قضايا المشروع الإصلاحي في تراث العلواني

■ من مصطلحات ومفاهيم المشروع الإصلاحي في تراث العلواني

نأمل بإذن الله أن تسهم هذه الأوراق البحثية في مزيد من الفائدة والإفادة، للطلبة الباحثين وعموم الدارسين والمهتمين.

هذا، وإن التعاون بين الباحثين في هذا المضمار، وتكاتف الجهود بين المؤسسات البحثية سيثمران بإذن الله ثمارا نافعة وقطوفا يانعة.

وفي ختام هذه الكلمة، أتقدم بالشكر الجزيل إلى سائر المشاركين في إنجاح هذه التظاهرة العلمية - باحثين ومنظمين ومؤسسات داعمة - وهم:

- رئاسة جامعة سيدي محمد بن عبد الله وعمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس

- والمعهد الأوروبي للدراسات الفلسفية ببروكسيل وحضوره الفعال في التحضير لهذا المؤتمر، وأخص بالذكر رئيسه د.بدي المرابطي، ومديرته التنفيذية الدكتورة نعيمة داودي، وكذا د.يحيى بلحسن الأستاذ بجامعة ليل الفرنسية، والدكتور محمد ناصيري من دار الحديث الحسنية بالرباط.

- والمعهد الوطني للبحث العلمي والتنقني CNRST على دعمه المشكور لأنشطة المختبر السنوية.

- والسادة أعضاء اللجنة العلمية التي سهرت على تحكيم البحوث بكل ما يلزم من الجدية والفحص والتدقيق،

- وزملائي أعضاء لجنة التنظيم والتنسيق على ما بذلوه من جهد طيلة فترة الإعداد لهذه التظاهرة.

وشكر خاص لطالباتنا وطلبتنا الأعزاء الذين رابطوا على ثغور هذه التظاهرة إعدادا وتنظيما وتنفيذا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وحرر بتاريخ: 2024/04/22

المحور الأول:

معالم المنهجية المعرفية في القرآن والسنة
عند طه جابر العلواني

المنهجية المعرفية القرآنية عند العلواني

دراسة في المفهوم والمحددات

د. محمد أمين الخنشوفي

باحث بمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) بفاس

ملخص:

لقد بذلت الأمة في خدمة القرآن الكريم جهودا عظيمة عبر تاريخها الطويل العريض، غير أن النظر فيما آل إليه حالها اليوم؛ من البعد عن القرآن، ليدل على أن تلك الجهود قد حومت بالأمة حول بعض شواطئ ذلك الكتاب المجيد، وقدمت شيئا من الفوائد، ولكنها قد قصرت عن الإلمام بمطلق الكتاب، وهي إذ عجزت عن الإحاطة بذلك المطلق، حاولت من حيث لا تدري تقييده إلى مدركاتها ومحدداتها، فصار بذلك الكتاب خادما بعدما كان مخدوما، ومحكوما بقواعد العلوم وضوابط الفهم بعد ما كان حاكما.

ولقد تفتن عدد من الحكماء لهذا المنزل الخطير، وهم في خضم البحث عن أجوبة للأزمة الحضارية التي تعيشها الأمة اليوم، فانبثقت جهود علمية قوامها العودة إلى الوحي، ومنها جهود الدكتور طه جابر العلواني الذي ما فتئ يدعو إلى بناء "منهجية معرفية قرآنية"، تستنبط من القرآن وتستند إليه، اعتمادا على محددات أربعة، هي: الجمع بين القراءتين، والوحدة البنائية للقرآن المجيد، والخصوصية الدلالية لمصطلحات القرآن المجيد، وفقه أسماء القرآن المجيد وأوصافه.

الكلمات المفتاحية: المنهجية، المعرفة، القرآن، المفهوم، المحددات.

“The Quranic Epistemological Methodology According to Al-Alwani: A Study of the Concept and Determinants.”

Abstract:

The Muslim world (ummah) has a rich history of scholarship dedicated to serving the Holy Quran. However, a critical examination of the current state of the ummah reveals a noticeable disconnection from the Quran itself. This paradox suggests that past efforts, while offering some benefits, have failed in achieving a holistic understanding of the Quran's message. This failure to grasp the Quran's full scope has inadvertently led to the marginalization of the text itself. The Quran, once seen as a source of guidance and authority, now appears constrained by external frameworks like traditional Islamic sciences (ulum) and the limitations of human comprehension.

In the midst of this current civilizational crisis facing the Muslim world, a number of scholars have recognized the dangerous path that the ummah has taken. These scholars have called for a return to the Quran as the foundation for a new epistemological framework. Among these scholars is Dr. Taha Jabir Alwani, who has tirelessly advocated for the construction of a "Quranic epistemology." This approach would be derived from and grounded in the Quran itself, relying on four key principles: the combination of the two readings, the structural unity of the Quran, The semantic specificity of Quranic terminology, and the understanding of the Quran's names and attributes. Alwani's Quranic epistemology offers a promising approach to bridge the gap between the ummah and the Quran's message.

Keywords: methodology, knowledge, Quran, concept, determinants.

تقديم:

لقد أنزل الله تعالى القرآن المجيد على نبيه محمد ﷺ، ولم يكن للأمة وجود يذكر، ولا سمعة تعتبر، فولدت وترعرعت في ظلاله؛ إذ كان النبي ﷺ يربي من أسلم معه من أصحابه في دار الأرقم بما أنزل عليه من القرآن. يتدارسونهم، فيعلمهم ما فيه من علم وعمل، ثم نشأت تلك الطائفة المباركة تحت عين الوحي حتى أصبحت أمة عظيمة الشأن رفيعة القدر.

وتوفي النبي العدنان وترك في الأمة القرآن، فبذلت طاقتها في خدمته؛ جمعا وتدوينا، بياناً وتفسيراً، تفصيلاً وتأسيساً لعدة علوم قصد الإعانة على فهمه والاستنباط منه، والتمكين لرؤيته في واقع الحياة.

وإن النظر فيما آل إليه حال الأمة اليوم من البعد عن القرآن، ليدل على أن "تلك الجهود قد حومت بالأمة حول بعض شواطئ ذلك الكتاب المجيد، وقدمت شيئاً من الفوائد، ولكنها قد قصرت عن الإمام بمطلق الكتاب"¹، وهي إذ عجزت عن الإحاطة بذلك المطلق، حاولت من حيث لا تدري تقييده إلى "مدركاها الظرفية ومحدداتها الزمانية والمكانية، وسقوفها المعرفية"²، فصار بذلك الكتاب خادماً بعدما كان مخدوماً، ومحكوماً بقواعد العلوم وضوابط الفهوم بعد ما كان حاكماً.

ولقد تفتن عدد من الحكماء لهذا المنزلق الخطير وهم في خضم البحث عن أجوبة للأزمة الحضارية التي تعيشها الأمة اليوم، فانبثقت مشاريع علمية قوامها العودة إلى الوحي؛ عملاً بتوجيه أئمة سلف الأمة في أن حال آخرها لا يصلح إلا بما صلح به أولها، ومن ذلك جهود الدكتور طه جابر العلواني الذي ما فتى يحث على العودة إلى القرآن، والحرص على حسن فهمه والتفاعل معه في معترك الحياة، منها في عدد من الكتابات إلى أنه لا حل لما تتخبط فيه البشرية اليوم من انتكاسات حضارية، إلا بالعكوف على بابه، والارتواء من معينه، وتلمس الرحمة من ينابيعه.

ولقد صاحبت هذه الدعوة تأصيلات وإرشادات منهجية، مدارها على ضبط التعامل مع هذا الكتاب العظيم؛ كشفاً لسبل النهل منه، وإرشاداً لمداخل استنباط هداياه في مختلف جوانب الحياة، وقد جعل ذلك تحت مسمى المنهجية المعرفية القرآنية، أو ربما سماها منهجية القرآن المعرفية.

وإن المستقري لما كتبه الرجل في هذا الصدد، ليظهر له بوضوح أنه -رحمه الله تعالى- بعدما حدد مقصوده بالمنهجية المعرفية القرآنية، ما فتى يؤكد على مجموعة من المحددات التي تعتبر مداخل أساسية لاستنباط هذه المنهجية ومن ثم الاحتكام إليها في تقويم الذات، وتقويم الحركة في السياق الحضاري للأمة.

¹ - نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، طه جابر العلواني، الناشر: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 2004م، ص: 9.

² - نفسه.

ولا شك أن الكشف عن مفهوم المنهجية المعرفية القرآنية لدى العلواني، والوقوف على مداخلها ومحدداتها، يستدعي إعمال المنهج الاستقرائي؛ جمعا لعناصر ذلك المفهوم، وتأليفا لتلك المداخل والمحددات من كلامه المتفرق في كتبه ومقالاته، مع ما يلزم لذلك من استدعاء المنهج التحليلي أيضا، للاستعانة به في تفكيك جزئيات الموضوع، وإعادة تركيبها، فاستنتاج ما يمكن استنتاجه منها.

والنظر في تراث الرجل بهذين المنهجين قادني إلى الوقوف على أربعة محددات أساسية، لا يمكن إهمالها بحال من الأحوال، ونحن نحاول استخلاص منهجية القرآن المعرفية، وهي:

- الجمع بين القراءتين.
- الوحدة البنائية للقرآن المجيد.
- الخصوصية الدلالية لمصطلحات القرآن المجيد.
- فقه أسماء القرآن المجيد وأوصافه.

فهذه أربعة محددات هي كالكليات بالنسبة لغيرها عند العلواني –فيما أحسب- فجاء البحث مقسما بحسبها إلى مبحثين اثنين، جعلت الأول للنظر في مفهوم المنهجية المعرفية القرآنية، محاولا الوقوف على أهم أبعادها المفهومية كما يراها الدكتور طه جابر العلواني. فيما جعلت المبحث الثاني للنظر في المحددات أعلاه، بحيث توقفت عند المقصود منها وعند أبعادها وأهميتها في الكشف عن المنهجية المعرفية القرآنية، فجاء هذا المبحث مقسما إلى أربعة مطالب، ثم ختمت البحث بخاتمة ضمنيتها مجمل نتائج البحث وخلاصاته.

المبحث الأول: مفهوم المنهجية المعرفية القرآنية عند العلواني

لا شك أن تحديد المقصود بـ"المنهجية المعرفية القرآنية" بما هي ضميمة اصطلاحية لها مفهوم خاص في تراث العلواني، يقتضي الوقوف أولا على الألفاظ المكونة لها؛ وهي المنهج والمعرفة والقرآن، وقد اكتفيت بالنظر في مفهوم المنهج والمعرفة، مستغنيا في القرآن بشهرته وشيوع كونه اسما للكتاب المنزل من عند الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام.

المطلب الأول: مفهوم المنهج والمنهجية:

المنهج مصدر ميمي من نهج ينهج نهجا ومنهجاً ومنهجا، ومعناه في اللغة الطريق الواضح المستقيم والسبيل البين المحقق للمراد، ومنه: "نَهَجَ الأَمْرُ وأَنْهَجَ: وَضَحَ"¹، و"طريق نَهَج: بين واضح مستقيم، وطريق ناهجة: واضحة بينة"²، جاء في الصحاح: "وأَنْهَجَ الطريق، أي استبانَ وصار نَهَجاً واضحاً بَيِّنًا... وَنَهَجْتُ الطريق، إذا أَبْنَيْتُهُ وَأَوْضَحْتُهُ"³، ومنه قولهم: "اعمل على ما نَهَجْتُهُ لك، وَنَهَجْتُ الطريق أيضاً، إذا سلكته، وفلان يَسْتَنْهَجُ سبيل فلان، أي يسلك مسلكه"⁴.

ثم انتقل المنهج من دلالاته على الطريق الواضحة البينة، إلى الدلالة على طريقة البحث التي يعتمد عليها الباحثون في مختلف التخصصات العلمية للإجابة على إشكالية معرفية معينة، وهو يختلف ويتنوع باختلاف تلك الإشكاليات والتخصصات، ولذلك "فإن أي اختيار للإشكال، هو اختيار للمنهج ابتداء"⁵، وقد عرفه الدكتور فريد الأنصاري بأنه: "نسق من القواعد والضوابط التي تتركب البحث العلمي وتنظمه... أي منظومة من القواعد والضوابط، التي تتركب وتنظم العمل الذي يهدف إلى حل مشكلة معرفية باستقراء جميع مكوناتها التي يظن أنها أساس الإشكال"⁶، وقال في تعريفه الدكتور عبد الرحمن بدوي: إنه "الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"⁷.

¹ - المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ، مادة نهج.

² - المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن حسن جبل، الناشر: مكتبة الآداب - القاهرة، الطبعة: الأولى، 2010م، مادة نهج.

³ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، المحقق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987م، مادة نهج.

⁴ - نفسه.

⁵ - أبجديات البحث في العلوم الشرعية، فريد الأنصاري، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - القاهرة، الطبعة: الثانية، 2010م، ص: 49.

⁶ - نفسه.

⁷ - مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، الناشر: وكالة المطبوعات شارع فهد السالم - الكويت، الطبعة: الثالثة، 1977م، ص: 5.

وأما المنهجية فتختص في عرف الباحثين "بدراسة المناهج أو الطرق التي تسمح بالوصول إلى معرفة علمية للأشياء والظواهر"¹، فهي إذن تنظر في علمية المنهج من حيث خطواته وأركانه وسائر مكوناته، كما تنظر في مدى تحقيقه لمقاصده المعرفية في المجال الذي ولد فيه، ولذلك كانت المنهجية بهذا المعنى فرعاً من فروع الإبستمولوجيا (علم المعرفة)².

ولا شك أن من أهم مقاصد المنهج والمنهجية؛ ترشيد الجهد، والحيلولة دون إضاعة الوقت فيما لا يوصل إلى حل الإشكال محل البحث، ومن هنا أخذ الدكتور طه جابر العلواني تسمية الرؤية القرآنية للوجود بالمنهجية المعرفية القرآنية، فالقرآن الكريم ميزان توزن به الأشياء، ومنظار ينظر من خلاله إلى الوجود بمختلف أبعاده ومحدداته، وهو بذلك أفضل معول عليه في بناء المناهج في مختلف الميادين والمجالات؛ الفكرية والاجتماعية والسياسية وغيرها، من خلال ما يقدمه من معارف قطعية تتعلق بحقيقة الكون والحياة والإنسان، خاصة إذا علمنا قدرته على نقل الإنسان إلى البعد الغيبي من الوجود، والذي يعتبر أعظم مؤثر في عالم الشهادة الذي ظل الإنسان المعاصر حبيسه ولم يستطع عنه فكاً.

وقبل تحديد المفهوم الدقيق للمنهجية المعرفية القرآنية كما يراها الدكتور العلواني، أقف ملياً على مفهوم المعرفة، محققاً معناها في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: المعرفة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

المعرفة مصدر من الثلاثي عرف يعرف عرفانا ومعرفة³، ومدار مادتها اللغوية على الظهور الناتج عن ارتفاع الشيء على ما سواه، ومن المعاني الحسية التي تطور عنها، قولهم: "عُرِفَ الفرس والدابة: شعر عنقهما، وعرف الديك: ريش عنقه والهنه الحمراء فوق رأسه"⁴، والمشارك بين جميعها هو ظهورها وبروزها لارتفاعها، ونفسه في العُرْف والعُرْف، وهو الرملُ

¹ - مناهج البحث في العلوم الإنسانية، محمود أحمد درويش، الناشر: مؤسسة الأمة العربية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 2018م، ص: 49

² - نفسه.

³ - تهذيب اللغة/ عرف.

⁴ - المعجم الاشتقاقي/ عرف.

المرتفع¹، وكذلك في العُرْفَة، وهي أرض مُنْقَادَة مُرْتَفَعَة بين سهلتين²، وسعي المعروف معروفا، لظهوره وانتشاره، فكل الناس عارفه، وضده المنكر³، ولوحظ معنى الانتشار وما يؤول إليه من الظهور في "العُرْف، وَهِيَ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ"⁴، والتعريف: الإعلام، وهو إنشاد الضالة أيضا⁵. ومنه قولهم: "عَرَفَهُ الْأَمْرُ: أَعْلَمَهُ إِثَارُهُ. وَعَرَفَهُ بَيْتُهُ: أَعْلَمَهُ بِمَكَانِهِ. وَعَرَفَهُ بِهِ: وَسَمَهُ"⁶.

واشتقت المعرفة من هذه المادة لتدل على "إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره، وهو أخص من العلم"⁷، لأن العلم قد يحصل عن أثر مادي، كما قد يحصل في القلب من دلائل وأسباب ليست مادية عينية بالضرورة، ولذلك قالوا في المعرفة: إنها "مأخوذة من عرفان الدار يعني آثارها التي تعرف بها"⁸، فتقرر من هذا أن كل معرفة علم، وليس كل علم معرفة.

ويختلف مفهومها باختلاف المجال الذي تم تداولها فيه، فهي عند النحاة: "ما وضع ليبدل على شيء بعينه وهي المضممرات والأعلام والمبهمات، وما عرف باللام، والمضاف إلى أحدهما"⁹.

وهي عند الصوفية: "سمو اليقين. وقيل سقوط الوهم لوضوح الاسم. وقيل زوال البرهان بكمال العيان. وقيل دثور الريب لظهور الغيب. وقيل هجوم الأنوار على الأبرار"¹⁰. ولما كانت المنهجية المعرفية منسوبة عند العلواني إلى القرآن الكريم: "المنهجية المعرفية القرآنية"، كان لزاما من الناحية المنهجية أن ننظر في طبيعة استعمال المعرفة في القرآن الكريم، انطلاقا من حجم ورودها ودلالاتها، ومصادرها، ووسائلها:

¹ - الصحاح/ عرف.

² - مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ- 1979م، مادة عرف.

³ - ينظر المفردات/ عرف.

⁴ - المقاييس/ عرف.

⁵ - مختار الصحاح/ عرف.

⁶ - لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ، مادة عرف.

⁷ - المفردات/ عرف.

⁸ - معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي بقم، الطبعة: الأولى، 1412هـ، ص: 500.

⁹ - التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين المناوي، الناشر: عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت-القاهرة، الطبعة: الأولى، 1410هـ- 1990م، ص: 310.

¹⁰ - نفسه.

أما من جهة حجم الوجود فقد وردت مادة (عرف) بمختلف الصيغ والاشتقاقات في سبعين موضعا من الذكر الحكيم¹، بمعان متعددة كلها منسوبة إلى الإنسان، فتأتي تارة في مقابل الإنكار، كما في قوله تعالى: "يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ" [النحل:83]، وتارة بمعنى الإدراك الحسي للأشياء عن طريق علامات مادية ظاهرة، كما في قوله جل جلاله: "وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ" [الأعراف:48]، وتارة تأتي بمعنى العلم اليقيني الذي لا يعتريه شك أو ريب، كما في قوله جل جلاله: "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۚ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" [البقرة:146].

كما تنفرع المادة لتشمل الاعتراف، وهو الإقرار مرتبطا بالذنب خاصة، في مثل قوله جل جلاله: "وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" [التوبة:102]، كما تنفرعت لتشمل التعارف أيضا في قوله جل شأنه: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" [الحجرات:13].

وبعد النظر والتأمل في مجموع الآيات القرآنية التي وردت فيها المعرفة بمختلف مشتقاتها واستعمالاتها، يمكن القول: إن أهم خصيصة من خصائصها كونها ذات طبيعة كسبية؛ فالمعرفة يكتسبها الإنسان من خلال احتكاكه بالآخرين والاطلاع على ثقافتهم وتصوراتهم فيتعرف عليهم ويتعرفون عليه، وذلك هو التعارف، كما يكتسبها من خلال التأمل في علامات دالة على الشيء المراد إدراك حقيقته وما يرتبط به، سواء أكان هذا الشيء هو الإنسان نفسه، أم كان من سائر المخلوقات غيره؛ وتلك هي المعرفة.

وللمعرفة وسائل في القرآن الكريم، يلخصها قوله جل جلاله: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" [النحل:78]، فالله عز وجل خلق الإنسان لا يعرف شيئا، غير أنه بلطفه ورحمته وهب له من آليات الإدراك ووسائل المعرفة؛ السمع والأبصار والأفئدة، والتي يسلطها على ما سيأتي ذكره من مصادرها، فيحصل له من العلم والإدراك ما يحصل.

¹ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الحديث - القاهرة، تاريخ النشر:

ولعل الترتيب بين هذه الوسائل في الآية، يرمي إلى أن المعطيات التي يتم من خلالها الإدراك وتحصل المعرفة، إنما تُنقل عن طريق السمع والبصر إلى الفؤاد الذي هو محل العقل، وبه تتم عمليات من قبيل التحليل والاستدلال والتركيب والاستنتاج وغيرها، وفي ذلك يقول الطاهر بن عاشور: "فالسمع والبصر أعظم آلات الإدراك إذ بهما إدراك أهم الجزئيات، وهما أقوى الوسائل لإدراك العلوم الضرورية، فالمراد بالسمع: الإحساس الذي به إدراك الأصوات الذي آتته الصمّاخ، وبالإبصار: الإحساس المدرك للذوات الذي آتته الحدقة، واقتصر عليهما من بين الحواس لأنهما أهمّ، ولأن بهما إدراك دلائل الاعتقاد الحقّ، ثم ذكر بعدهما الأفئدة، أي العقل مقرّ الإدراك كلّّه، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتها، وهي العلم بالتصورات المفردة"¹.

أما مصادر المعرفة في القرآن الكريم، التي هي محل أعمال تلك الأدوات واستثمارها، فمصدران اثنان:

أولهما: الوحي؛ قرآناً وسنة، وهو مصدر يتسم بالقطع فيما يقدمه من معارف ومناهج عامة شاملة للإنسان والكون والحياة، لا يشذ عنها شيء، ولا يخرج منها شيء.

وثانيهما: الكون، أو بعبارة أخرى؛ سائر ما يحيط بالإنسان من هذا الخلق العظيم، الذي سخره الله تعالى للإنسان وبث فيه من الآيات والعلامات ما يدلّه ويوجهه، قال جل جلاله: "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ" [القمان:20].

والتوجيه إلى هذين المصدرين كان مع أول آيات نزلت من الذكر الحكيم، وذلك قوله جل جلاله: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" [العلق:1-5]، فالأمر في هذا النص الكريم -كما يقول الدكتور أحمد عبادي- متوجه إلى قراءتين اثنتين: "الأولى: قراءة في الخلق، "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ"... والقراءة الثانية التي تبرز: هي القراءة في الكتاب المسطور؛ "اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ..."². وهذا المعنى الذي أشار إليه الدكتور أحمد عبادي نجده ماثلاً في كتابات الدكتور العلواني تحت مسمى "الجمع بين القراءتين"، وسيأتي الحديث عنه.

¹ - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: 1984 هـ، 233/14.

² - الوحي والإنسان، نحو استئناف التعامل المنهجي مع الوحي، أحمد عبادي، الناشر: دار النيل للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، 2013م، ص: 69.

المطلب الثالث: مفهوم المنهجية المعرفية القرآنية عند د. العلواني:

إن الجمع بين القراءتين عند الدكتور العلواني، يفضي إلى الجزم بكون القرآن العظيم حاكما وموجها للإنسان إلى كيفية تفعيل ما وهبه الله تعالى من إمكانيات في علاقته بما حوله من عناصر الوجود، فيسخرها في خدمته ومنفعته.

وإن أي انحراف عن منهجية القرآن في التعامل مع الكون يؤدي إلى الفساد المبين، وبناء على هذا التصور تحدث الدكتور العلواني عن منهجية معرفية قرآنية، تكون منطلقا في التعامل مع الوجود، وأساسا في تقويم المعارف الإنسانية؛ سواء ما تعلق منها بالتصورات أو بالتصرفات (السلوك الحضاري)، قال رحمه الله تعالى: "لقد أنزل الله تبارك وتعالى القرآن المجيد على عبده ورسوله محمد ﷺ؛ (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) [النحل:89]، ومنذ نزوله ورسول الله ﷺ يبين للناس الذي اختلفوا فيه بهذا الكتاب... ليحملهم على التفكير والتذكر والتلاوة والتدبر والتعقل والترتيل، ليعلم رافضوه والكافرون به أنهم كانوا كاذبين في تصوراتهم وسائر شأنهم، ويهتدي المؤمنون إلى التي هي أقوم في ذلك كله وفي غيره، فهو شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة، وهو منهج يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام"¹. ومجالات الهداية عنده تشمل العلوم الشرعية، وكذا المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية².

انطلاقا من هذه الرؤية، وبالجمع بين مفاهيم: "المنهجية" و"المعرفة"، عرف العلواني منهجية القرآن المعرفية بقوله: "ونعني بمنهجية القرآن المعرفية: المنهج الذي يقدمه لنا القرآن المجيد في شكل محددات وسن قوانين يمكن استنباطها من استقراء آيات الكتاب الكريم، تلاوة وتدبرا وترتيلا وتنزيلا وتفكرا وتعقلا وتذكرا، ثم التعامل مع هذه المحددات تعاملًا يسمح لنا بأن نجعل منها محددات تصديق وهيمنة"³.

¹ - نحو منهجية معرفية قرآنية، ص: 7.

² - ينظر أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، طه جابر العلواني، الناشر: دار الشروق، سنة النشر: 2005م، هامش الصفحة: 32.

³ - الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، طه جابر العلواني، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة: الأولى، 2006م، ص: 27.

وإن من شأن هذه المنهجية المعرفية القرآنية أن تمكن الإنسانية -في نظر العلواني- "من الاهتداء بهداية الكتاب الحكيم؛ وضبط عقولها ومعارفها ومسيرتها الثقافية والحضارية بضوابطه وموازينه، فتتحرك في ظل هديه وهيمنته من منطق الظاهرة الكونية والتجربة الإنسانية، والسنن الإلهية والقواعد الكونية والاجتماعية في منهج قرآني يجعل حركتها منسجمة مع الغيب منفتحة على آفاقه، منطلقة في عمق التجارب العلمية والنهايات الفلسفية باتجاه عالمية الهدى الخالص والدين الحق، المحتم ظهوره على الدين كله، ولو كره الكافرون، وقصر الجامدون، وانحرف المنحرفون".¹

ومن شأنها كذلك ضبط "سائر خطواتنا المعرفية، ومنها تصحيح مسار المنهج العلمي، وإخراج فلسفة العلوم الطبيعية والاجتماعية من مضايق النهايات التي تتوقف عندها الآن".² ثم من شأنها أن "تعلم الإنسان التركيب بعد حالات التفكك"³، التي وصلت إليها البشرية اليوم ببعدها عن الاسترشاد بالمنهجية المعرفية القرآنية، والتي من مظاهرها؛ التشتت الأسري والتفكك الاجتماعي، وأنواع من الشذوذ والشرود.

غير أن هذه المنهجية لا شك أن لها -عند العلواني- مداخل تعين على إدراكها واستنباطها من الذكر الحكيم، ثم تجليتها وإعمالها، وليس الجمع بين القراءتين إلا مدخل واحد من تلك المداخل، يضاف إليه مدخل الوحدة البنائية للقرآن الكريم، ومدخل خصوصية مصطلحات القرآن الكريم وتفرداها في استعمالاتها ودلالاتها، ومدخل فهم أسماء القرآن العظيم وأوصافه. وفي المبحث الموالي بيان عام لهذه المداخل، ثم تفصيل للقول في المدخل الذي اعتبره أهمها وأعظمها، وهو مدخل أسماء القرآن وأوصافه.

¹ - نحو منهجية معرفية قرآنية، ص: 137-138.

² - الجمع بين القراءتين، ص: 27.

³ - مقدمة في إسلامية المعرفة، طه جابر العلواني، الناشر: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 2001م، ص: 174.

المبحث الثاني: محددات المنهجية المعرفية القرآنية عند العلواني

المطلب الأول: الجمع بين القراءتين:

الجمع بين القراءتين عند العلواني -رحمه الله تعالى- مفهوم حاول من خلاله التأسيس لمعرفة تنطلق من القرآن والكون في مواءمة تامة بينهما، بحيث ينطلق الناظر من القرآن الكريم في قراءته للكون، ومن الكون في قراءته للقرآن، فيستحضرهما معا في قراءة كل منهما؛ "قراءة تبدو غيبية تنشأ في إطار الوحي وتنطلق باتجاه الكون، وقراءة موضوعية تنطلق من الكون وعناصره باتجاه الوحي. فقراءة الوحي بمثابة تنزل من الكلي إلى الجزئي، فتدرك بقدر ما تتيحه القدرات البشرية النسبية من الفهم لتنزلات الكلي وكيفياتها. وقراءة الكون تقدم القضايا والمسائل، والأسئلة الجزئية وترفعها إلى سدة الوحي لهتدي الإنسان القارئ في الاثنين إلى الإجابات السليمة من المصدر الذي يهدي للتي هي أقوم. وتبدو للإنسان القارئ - آنذاك- جدلية العلاقة بين المصدرين: الوحي والكون، أو علاقة الفهم التكاملي المتبادل والجدل والتفاعل بينهما بأوضح ما تكون"¹.

ومنطلق هذا المدخل تلکم النصوص القرآنية التي زاوجت بين التنبيه على الآيات الكونية المنظورة، والتنبيه على الآيات القرآنية المسطورة، والتي غالبا ما تأتي مبينة لمنهج النظر في الآيات الكونية من جهة طبيعتها الخلقية، ومقاصدها التسخيرية، وآليات الانتفاع بها، دينا ودنيا؛ دينا من حيث دلالتها على الواحد القهار، وما يستتبع ذلك من طاعته وعبادته وابتغاء مرضاته من خلال الحركة الفاعلة في الوجود، ودنيا من حيث تحصيل الملذات ودفع المضرات، بما يفعل الطاقات الكامنة في الإنسان ويعينه على أداء مهام الخلافة على أحسن وجه وأكملة.

وهذا التنبيه من الذكر الحكيم كان مع أول قطرة من قطرات الوحي، وذلك قوله جل جلاله: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" [العلق:1-5]، فتضمن النص الكريم قراءتين اثنتين؛ الأولى في الكون، والأخرى في الكتاب، ولا شك أن بينهما تكاملا من جهة كون الأولى تقصد إلى تفعيل الحركة، وكون الثانية تقصد إلى تحديد الوجهة والمنهج، فيحصل انتفاع الإنسان بما

¹ - الجمع بين القراءتين، ص: 30.

حوله، ويتحقق مقصد التسخير، بما هو مفهوم مؤطر لعلاقة الإنسان بالكون في الرؤية القرآنية. وقد سبقت الإشارة إلى هذا النص بما أغنى عن إعادة تحليله والنظر فيه.

وأضيف إليه من الآيات الدالة على هذا المعنى قوله جل جلاله في سورة الأعراف: "وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" [الأعراف:52-53]، وقد عقب القرآن الكريم على هذا التنبيه على طبيعة الكتاب وفضله ومقصده، وسوء عاقبة المعرضين عنه، بالتنبيه على ما بث في الكون من المسخرات، التي قصد بها نفع الناس، فقال جل شأنه: "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْثِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" [الأعراف:54-57].

إن الموازنة بين هاذين التنبيهين فيه إيحاء إلى أن صلاح حال الإنسان في علاقته بالكون إنما ينتج عن الجمع بين القراءتين ضرورة؛ قراءة في الكتاب المسطور وأخرى في الكتاب المنظور، يقول الدكتور أحمد عبادي: "إن العناية -بإزاء القراءة في الكون مرجع الحركة والفعل- بالقراءة في الوحي لاستبانة القبلة، ولاستمداد الوجهة منه في محافظة دائمة على الوصل، والجمع بين هاتين القراءتين هو ما يجعل الحركة والفاعلية راشدين بانييتين"¹،

وكل حركة عارية عن هذا الجمع سيجعل منها حركة فاتكة بالإنسان والكون معا².

¹ - الوحي والإنسان، ص: 75.

² - وهو ما أنتج التصور الغربي القائل بمنطق الصراع مع الطبيعة عوض التسخير في الرؤية القرآنية الراشدة، والفرق بينهما واضح؛ إذ الصراع يُدخل الإنسان في حرب مع ما حوله، فلا يسلم من أذاه، وكل أذى يصدر من الإنسان اتجاه ما حوله يؤذيه هو نفسه بالضرورة؛ إن لم يكن عاجلا فأجلا. أما التسخير، فإنه يضع الإنسان في مواءمة مع ما حوله من عناصر الوجود، فلا يصدر منه أذى اتجاه غيره، فيتحقق السلام والوئام.

وهو ما أراده الدكتور العلواني حين تحدث عن عواقب إهمال الجمع بين القراءتين، قال: "أما إهمال القراءة الثانية في الكون والطبيعة المسخرة، أي إهمال قراءة الوجود والكون والاقتصار على قراءة الوحي وحده منقطعاً منبثاً عن الوجود، فإنه يؤدي إلى نفور من الدنيا، واستقذار لها ولما فيها، يشل طاقات الإنسان العمرانية والحضارية، ويعطله عن أداء مهام الخلافة والأمانة والعمران، ويحول بينه وبين التمتع بنعمة التسخير، ويعطل فكره، وينقص من قيمة فعله، بل قد يلغي إدراكه لفعله فلا يرى الإنسان نفسه فاعلاً في شيء، ولا يرى لوجوده في الحياة معنى عمرانياً، وكل هذه الأفكار منافية تماماً لمنهج القرآن العظيم"¹.

إن الدكتور العلواني لما اعتبر المنهجية القرآنية المعرفية "دعامة أساسية للجمع بين القراءتين، وضرورة معرفية وحضارية... للخروج من المأزق المعرفي المعاصر والأزمة الفكرية العالمية المعاصرة"²، فإنه -بالضرورة- جعل من الجمع بين القراءتين مدخلاً أساسياً للكشف عن منهجية القرآن المعرفية، بحيث يأخذ كل منهما من الآخر، ويرتكز أحدهما على الآخر في علاقة جدلية تفاعلية، فلا يمكن الوقوف على معالم تلك المنهجية إلا بالنظر في الكتاب المسطور مترجماً على صفحات الكون، باعتبار هذا الأخير وسيلة من وسائل الفهم والإدراك الإنساني الإسلامي للقرآن المجيد، فينتج عنه الفقه الأكمل للقرآن والحركة الأرشد لدى الإنسان، كما لا يمكن استنباط تلك المنهجية بعيداً عن هذه المزاوجة؛ إذ من خلالها يتم الوقوف على عناصرها وأسسها ومقاصدها وآلياتها... إلخ.

لقد أشار العلواني إلى ارتكاز المنهجية المعرفية القرآنية على الجمع بين القراءتين في عدد من المواضع من كتاباته، من ذلك؛ قوله: "ولقد استطاع الإسلام أن يبني للأمة الأمية نظاماً معرفياً متكاملًا، بنظرية معرفية ومصادرها ونماذجها وأهدافها، قائماً على الجمع بين القراءتين: قراءة القرآن المجيد، وقراءة الكون الفسيح المديد، باعتبارهما كتابين لا يمكن الاستغناء عن قراءتهما أو التفريط بأي منهما... ليجعل من القرآن الكريم مصدراً للفكر والحكمة، ومن الكون ميداناً للفعل الحضاري والعمل... والحضارة الإسلامية التي بناها النظام المعرفي القائم على الجمع بين القراءتين، استطاعت أن تضع للمرة الأولى أمام الإنسانية

¹ - الجمع بين القراءتين، ص: 25-26.

² - المرجع نفسه، ص: 27.

نموذج حضارة ربانية إلهية، لا يستعبد الإنسان فيها الإنسان... بل كانت حضارة قائمة على تحرير الإنسان¹.

وأوضح من ذلك قوله: "تبرز محددات منهجية القرآن المعرفية وتحقق من قراءة الكتابين: القرآن والكون، وتؤسس على مقابلهما والكشف عن التكامل والتفاعل بينهما، وإبراز المنهجية في البحث والاكتشاف انطلاقاً منهما... فالقرآن العظيم والكون البديع كلاهما يدل على الآخر، ويرشد إليه، ويقود إلى قواعده وسننه"².

المطلب الثاني: الوحدة البنائية للقرآن المجيد:

الوحدة البنائية، كما يسميها العلواني تارة، أو الوحدة العضوية كما يسميها هو نفسه تارة أخرى³، أو النظم القرآني كما يعبر عبد القاهر الجرجاني في إعجاز القرآن⁴، أو الاتساقية أو المعمارية⁵ أو غير ذلك مما عبر به علماؤنا قديماً وحديثاً عن مسمى واحد؛ هو ذلك التماسك والترابط بين سور القرآن الكريم ومقاطعته وآياته، وألفاظه ومفاهيمه، بل وفردة كل ما يرتبط به، فهو واحد لا شبيه له، وكل لا يتجزأ، ونسق لا يقبل تفريقاً ولا تمزيقاً، يأخذ بعضه بتلايب بعض، ويدلّك بعضه على بعض.

وقد بين العلواني مقصوده بالوحدة البنائية بما يقارب هذا المعنى فقال: "المراد بهذا المركب "الوحدة البنائية" للقرآن: أن القرآن المجيد واحد لا يقبل بناؤه وإحكام آياته التعدد فيه أو التجزئة في آياته، أو التعضية بحيث يُقبل بعضه، ويرفض بعضه الآخر، كما لا يقبل التناقض أو التعارض وغيرهما من عيوب الكلام. فهو بمثابة الكلمة الواحدة أو الجملة الواحدة أو الآية الواحدة، وإذا كانت قد تعددت آياته وسوره وأجزاؤه وأحزابه، فذلك التعدد ضرورة لا غنى عنها في التعليم والتعلم، والتنزيل لتغيير الواقع وإبداله"⁶.

¹ - نحو منهجية قرآنية معرفية، ص: 111-112.

² - الجمع بين القراءتين، ص: 29.

³ - مقدمة في إسلامية المعرفة، ص: 87.

⁴ - وقد فصل القول فيها في كتابه البديع دلائل الإعجاز.

⁵ - هي ألفاظ أوردها الدكتور أحمد عبادي في كتابه: الوحي والإنسان، ص: 33.

⁶ - الوحدة البنائية للقرآن المجيد، طه جابر العلواني، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة: الأولى، مارس 2006م، ص: 14.

لقد ذم الله تعالى من يكفرون ببعض الكتاب ويؤمنون ببعض، فقال: "أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۖ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَسَدِّ الْعَذَابِ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" [البقرة:85]، كما توعده الله جل جلاله: "الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ" [الحجر:91]؛ حيث "قالوا بعنادهم وعدوانهم بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقتسموه إلى حق وباطل، وعضوه"¹، وهذا الوعيد يؤكد على وجوب أخذ القرآن الكريم باعتباره نسفا واحدا ونظاما متكاملا.

ولعل الدكتور محمد عبد الله دراز أحسن التعبير عن هذه الوحدة في كتابه النبأ العظيم حين قال: "ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضوعي من أنفسهما، كما يلتقي العظامان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشترك العضوان بالشرابين والعروق والأعصاب... كما يأخذ الجسم قواما واحدا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية"².

والبنائية القرآنية مماثلة للبنائية الكونية، فكما أن الكون مبني بطريقة متناسقة، فالقرآن الكريم بني بناء يماثل ذلك البناء ويشابهه، وقد ربط الله تعالى بين مواقع النجوم ضمن النسق الكوني العام، وبين القرآن الكريم في اتساقه وانسجامه، تنبها على تلك المماثلة، فقال جل جلاله: "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. إِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ" [الواقعة:75-80]، يقول الدكتور أبو القاسم حاج حمد: "فالقرآن في بنائيته الحرفية يماثل البنائية الكونية بحيث إذا تفلت نجم عن موقعه اختل النظام الكوني كله"³.

¹ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ، 589/2.

² - النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز، اعتنى به عبد الحميد الداخني، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: الثانية، 2000م، ص: 195.

³ - منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، للدكتور محمد أبو القاسم حاج حمد، الناشر: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 2003م، ص: 96.

ولذلك كان لزاماً أن يقرأ القرآن الكريم في إطار وحدته البنائية، ولا شك أن ذلك سينعكس تلقائياً على طريقة تفكيرنا، وطبيعة رؤيتنا للكون والحياة والإنسان، ومن ثم على سلوكنا وحركتنا اتجاه هذه المكونات، وهي ما تروم المنهجية المعرفية القرآنية ضبطه، مما يستلزم أن تكون الوحدة البنائية للقرآن الكريم من أهم المداخل والمحددات التي تكشف من خلالها عن هذه المنهجية.

ولعل أهمية هذا المدخل تبرز من خلال كون "القرآن المجيد في اتساق وحدته البنائية يحقق للبشرية وحدة معرفية تلملم شتات الإنسان المعرفي، وتوحد بين زوايا إدراكه، بما يشبه إكسابه جهاز تنسيق معرفي يمكنه من الخروج من التفرع الإدراكي ومرحلة الشركاء المتشاكسين إلى صيرورته سلماً لله رب العالمين، فيطفق في السير سوياً على صراط مستقيم"¹، مصداقاً لقوله جل جلاله: "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" [الزمر:29]، والقصد أن قراءة القرآن الكريم في هذا الإطار يضمن انتفاء التناقض والتشتت في المنهجية المعرفية القرآنية، ولذلك وجدنا أن الأمة من خلال بعض معارفها وعلومها فككت الوحدة البنائية للقرآن بالاقصصار على بعضه وعدم ربطه بغيره، فانعكس ذلك على وضع الأمة؛ حيث تفككت وحدتها، و"تفكك ائتلافها، وتناثر جمعها، وانحطت إلى مستوى التمزق الطائفي، والتشتت المذهبي"².

وقد أكد العلواني على أن قارئ القرآن في إطار وحدته البنائية يحدث له فرقان، يفرق به بين الحق والباطل والخير والشر والصواب والخطأ، ثم عقب قائلاً: "فالقرآن يكون بمثابة النموذج المعرفي الكلي للإنسان القارئ التالي المتدبر للقرآن في كليته"³، مما يجعله منضبطاً ومتسقاً في تفكيره وتعبيره وتدييره.

وليس يُقرأ القرآن ولا ينهل منه إلا من منطلق وحدته البنائية، وإلا كان النظر خداجاً، ولم يخرج الإنسان منه بشيء ذي بال، إذ القرآن -كما نص على ذلك العلواني- "أراد قائله ومنزله تبارك وتعالى له أن يُقرأ ويُتدبر، ويتفكر فيه، ويعقله العالمون، ويرتله المرتلون... فأودع الله فيه كل ما يجعله جاذباً لأصناف الخلق... ووحدته تمثل الركن الأساس في هذا كله

¹ - مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج، للدكتور أحمد عبادي، دار أبي رُقراق للطباعة والنشر، ط: الأول، 2007م، ص: 63.

² - أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، ص: 34.

³ - الجمع بين القراءتين، ص: 32.

ولذلك فإنه مهما اتخذنا من الأساليب في الرجوع إليه فلن نستطيع أن نهتم بجانب من جوانبه، ونهمل الجوانب الأخرى... فمعاني الآيات لن تسفر عن وجهها حتى تقرأها في سياقها وموقعها وبيئتها... ولن تدرك المراد حتى تلاحظ سائر العلاقات بين الآية وبين القرآن كله... لأن القرآن بناء محكم واحد، ونظم متفرد واحد، تسري فيه كله روح واحدة تحوله إلى كائن حي يخاطبك كفاحاً... ويعيد تصميم تصوراتك وبناء قواعد ومنطلقات أفكارك، وتصحيح معتقداتك حتى يضعك على الصراط المستقيم"¹.

من هنا إذن كانت الوحدة البنائية للقرآن المجيد محدداً مركزياً في الكشف عن المنهجية المعرفية القرآنية لدى العلواني، فلا يقرأ القرآن إلا ضمنها، ولا يصح استنباط منه إلا بمراعاتها، فهي "خطوة منهجية ضرورية، وحلقة من سلسلة من المحددات والقواعد المنهجية التي لو أهملت أو أهمل بعضها فليس من الممكن أن نتلو القرآن حق تلاوته، أو نرتله ترتيله المنشود"²، بل إننا -كما يقول رحمه الله تعالى- "إذا لم نعد قراءته بنور القراءتين المذكورتين في بداية نزوله وأوائل آياته... وفي إطار وحدته البنائية، فإننا لن نتمكن من فهمه معرفياً، ولن نتمكن من تحليل آياته وتثويرها واستنطاقها، وإذا لم نصل لذا فلن نستطيع أن نستوعب به مناهج العلوم المعاصرة ونتجاوزها، بحيث نتمكن من إعادة فهمها وتوظيفها في إطار الكونية"³.

وإذا كانت قراءة القرآن المجيد في إطار وحدته البنائية من شأنها أن تضبط تفكيرنا وتعبيرنا وتديرننا، وتلمم شتاتنا وشعثنا المعرفي والمنهجي، ومن ثم ترشيد فعلنا الحضاري، فإن من شأنها أيضاً أن تمكننا من آليات منهجية قوية نراجع بها علومنا في تراثنا الإسلامي، وهو ما أشار إليه -رحمه الله- حين أراد بيان آثار الوحدة البنائية ضمن كتابه الوحدة البنائية للقرآن المجيد، فقال: "للوحدة البنائية باعتبارها محدداً منهجياً من محددات منهجية القرآن، آثار على جانب كبير من الأهمية على سائر العلوم والمعارف العقلية، وحين يجري توظيفها بشكل منهجي دقيق فإنها سوف تقدم للمنشغلين بهذه العلوم والمعارف وسيلة من أكثر الوسائل

¹ - الوحدة البنائية للقرآن المجيد، ص: 17-18.

² - نفسه، ص: 30.

³ - أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، ص: 48.

فاعلية في مراجعة ونقد التراث الإسلامي كله؛ وفي مقدمتها ما يعرف بعلوم المقاصد، وهي: التوحيد، أو الكلام، والتفسير، وأصول الفقه، وعلوم الحديث، والفقه¹.

المطلب الثالث: الخصوصية الدلالية لمصطلحات القرآن المجيد:

إن من بين أهم مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم أخذه لألفاظ عربية ووضعها في أساليب وتراكيب وسياقات جديدة، وإدارتها في معجمه إدارة أحدثت فيها طفرة دلالية كانت كالصدمة بالنسبة للعربي التي أخرجته من تصوراته الفاسدة، ووضعت في منظومة لغوية شكلت رؤيته وتصوره على وفق فطرة الله التي فطر الناس عليها، فأصبح ينظر إلى الوجود بحسب ما تقتضيه مقاصد وجوده، وأصبح ينظر إلى ما حوله على أنها وسائل أتاحت له لإعاقته على تحقيق تلك المقاصد، بعدما كانت موضوعة في ذهنه في غير محلها من سلم أولوياته.

من هنا وجب القول؛ إنه لا يصح فهم القرآن إلا بفهم مصطلحاته وألفاظه الفهم الذي به نزل أول ما نزل، انطلاقاً من مسلمة كون: "الوحي قرآناً وسنة مجموعة من المفاهيم؛ إذا حُصلت حصلت كليات الدين، وإذا لم تفقه لم يفقه الدين، وقد تكفل كلام الله تعالى: القرآن -وهو يتنزل على مدى ثلاث وعشرين سنة- ببناء المفاهيم، وتكفلت السنة بالبيان، حتى تم الحلول التام للإسلام في الواقع، وخرج الناس الخروج التام من مفاهيم الجاهلية ودخلوا الدخول التام في نور الإسلام... لكن تلك المفاهيم ليست معزولة عن بعضها بعضاً، وليست منثورة كيفما اتفق، وإنما هي فصوص في العقد الفريد للإسلام، منظومة نظماً بديعاً رائعاً في نسق... لا تقبل المس بما يخل بنسقيتها: لا تقبل زحزحة في المواقع أو تغييراً في الترتيب ولا تقبل تغييراً للأحجام أو الألوان، وإلا صار الأمر إلى شيء آخر غير الإسلام، وقد دخل من هذا الباب على المسلمين عبر التاريخ الطويل العريض شر طويل عريض، مس التصور والتنزيل معاً، ولإعادة الأمور إلى نصابها، لابد من إعادة مفاهيم الوحي بعد تحصيلها إلى مواقعها وأحجامها، وإلا تشوه الدين، وازداد فساد المسلمين"².

¹ - الوحدة البنائية للقرآن المجيد، ص: 64-65.

² - دراسات مصطلحية، الشاهد البوشيخي، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة: الأولى، 2012م، ص: 99.

والوعي بالمسألة المصطلحية القرآنية -مؤسسا على هذا التصور- قديم؛ بدأت ملامحه وتجلياته تظهر بظهور فساد الفهم في الأمة، نجده عند الراغب الأصفهاني -مثلا- الذي وعى خطورة هذه القضية فألف كتابه المصون "المفردات في غريب القرآن"، الذي أكد في مقدمته على أن تحصيل العلوم اللفظية وتحقيق الألفاظ المفردة من أول وأعظم ما يعين على إدراك معاني القرآن الكريم¹.

ولقد كان الدكتور طه جابر العلواني واعيا بفرادة اللفظة القرآنية وتميزها بالنظر إليها في حد ذاتها، وبالنظر إلى استعمالاتها ودورانها في القرآن، الأمر الذي أكسبها خصوصية دلالية وأبعادا معرفية غير معهودة في كلام البشر، يقول رحمه الله: "فالقرآن يقدم شبكة من المفاهيم، فإذا قدم العدل مثلا قدم له مفهوما كاملا، ويحوّله من مجرد كلمة إلى مفهوم واسع، فاللفظة قد يكون لها معنى ثابت، فيقوم بتفريغها وشحنها من جديد؛ لأنه يريد أن يستوعب كل حياة البشر بكل ثقافتهم وأنساقهم الحضارية"²، ويقول: "ويمكن القول بأننا إذ نسلم بأن القرآن جاء بأساليب العرب في كلامها، ولكنه قد استوعب تلك الأساليب وتجاوزها؛ فالمموه من المعادن بالذهب، أو بماء الذهب قد يبدو للجاهل بالصنعة ذهباً، لكنه لدى الفحص يتبين ما هو ذهب حقيقي، وما هو معدن آخر مموه بالذهب"³.

ويؤكد هذا الوعي في موضع آخر من كتاباته، مبرزاً أهميته في بناء منهجية القرآن المعرفية، يقول: "وكلمات القرآن الكريم ليست كأية كلمات عربية وإنما هي كلمات إلهية، وذلك يجعلها ذات مستوى عال بحيث ترتقي إلى مستوى المفاهيم... [بما] تحمل من ثراء المعاني... والمفاهيم دعائم تقوم عليها الحقول المعرفية، والأنساق الثقافية والحضارية، وعلى القارئ أن يدرك الفرق الكبير بين الاستعمال الإلهي للكلمة والاستعمال البشري لها، ومن ثم فأولى المصادر بأن يكون مصدرا للتعريف بكلمات القرآن الكريم هو القرآن نفسه الذي يجعل من

¹ - ينظر مقدمة المفردات في غريب القرآن الكريم للراغب الأصفهاني.

² - مقدمة في إسلامية المعرفة، ص: 87.

³ - الوحدة البنائية للقرآن المجيد، ص: 54.

الكلمة الواحدة ما يشبه غرفة أو دعامة في بناء أو لبنة في بناء منهاجي كامل تعطي فائدتها منفردة ومستقلة، وفي الوقت نفسه تعطي جملة من الفوائد وهي في داخل البناء¹.

المطلب الرابع: فقه أسماء القرآن المجيد وأوصافه:

لقد عَدَّ الدكتور عمر بن عبد العزيز الدهيشي من أسماء القرآن خمسة، وهي: القرآن، والكتاب، والفرقان، والذكر، والتنزيل²، مستدركا على الطبري الاسم الخامس، وهو التنزيل؛ إذ حصرها في مقدمة تفسيره في أربعة فقط، قال: "إن الله عز وجل سعى تنزيله الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ أسماء أربعة، ومنهم القرآن، والفرقان، والكتاب، والذكر"³، وكذلك فعل ابن عطية في المحرر الوجيز⁴.

والمرجع في هذا الحصر أن غيرها مما عُدَّ أوصافا للقرآن الكريم، كثيرا ما يضاف إلى هذه الأسماء الخمسة⁵، أو ترتبط بها ارتباط الصفة بالموصوف، كإضافة الهدى إلى الكتاب في قوله جل وعلا: "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ" [البقرة:2]، ووصف القرآن بأنه مبين في قوله جل جلاله: "تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ" [الحجر:1]، ووصف الكتاب بالعزيز في قوله جل وعز: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالدِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ" [فصبت:41].

وأحسب أن التفريق بين الاسم والصفة فيما يرتبط بالقرآن المجيد، ليس أمرا يستحق الوقوف عنده طويلا، خاصة وأنه لا يترتب عليه كثير عمل، ثم إن كثيرا من الفروق التي أوردها الدكتور عمر الدهيشي بين الاسم والوصف هي فروق غير مسلمة في ارتباطها بالقرآن الكريم⁶؛ كالتفريق بين الاسم والصفة باعتبار كون الأخيرة تحتل الصدق والكذب،

¹ - أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير، طه جابر العلواني، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، تاريخ النشر: يناير 2010م، ص: 34.

² - ينظر أسماء القرآن وأوصافه في القرآن الكريم، عمر بن عبد العزيز الدهيشي، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة: الأولى، 1430هـ، ص: 26.

³ - جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000م، 94/1.

⁴ - ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ، 56/1.

⁵ - ينظر أسماء القرآن وأوصافه في القرآن الكريم، ص: 27.

⁶ - تنظر في أسماء القرآن وأوصافه في القرآن الكريم، ص: 25 وما بعدها.

والاسم لا يحتمل إلا صدقا، فإن وصف القرآن الكريم بالحكيم والكريم وغيرهما لا يحتمل إلا صدقا، وكذلك الأمر في التفريق بينهما باعتبار كون الاسم ثابتا غير متغير، والصفة متغيرة غير ثابتة، فإن هذا ينتفي في القرآن الكريم؛ إذ وصفه بالحكمة والعزة وغير ذلك باق أبدا، لا يعثره تغيير ولا تبديل.

ولعل هذا الملاحظ هو ما جعل الدكتور العلواني يتحدث عن أسماء القرآن الكريم، في مقال له نشر بمجلة المسار، مقررًا أن عددها أكثر بكثير مما أورده الرازي في تفسيره، قال: "إن أسماء القرآن وألقابه وما وصف به أكبر بكثير من هذا العدد... إذ إن الله تعالى وصفه بأوصاف أخرى كثيرة يمكن أن نشق منها أسماء كثيرة أخرى غير ما ذكره، منها على سبيل المثال لا الحصر: المخرج من الظلمات، والمفضل، الموصل، المحكم، المتشابه، المتحدي، المعجز، الوحي، العربي، الآيات، المجيد... وغير ذلك كثير"¹، فواضح من خلال هذا النص أنه لا يعتبر الفروق بين الاسم والوصف في شأن القرآن الكريم، بل يشتق الاسم من الوصف نفسه.

لقد جعل العلواني من شأن معرفة هذه الأسماء بمعانيها "أن تزيد في فهم القارئ وفي وعيه بأهمية القرآن وإدراك عظمته، ومن ثم تهيئة النفس والعقل والقلب والوجدان لاستقبال مُحكم آياته قراءة أو استماعا، استقبالا يليق بعظمته، ويساعد على حسن تدبره، وهي لا تدل على وجود الترادف في القرآن، فالترادف يتحقق بوجود ألفاظ متعددة تطلق على معنى واحد، وهنا كل اسم وإن أُريد به القرآن الكريم، لكن ذلك كان من حيثية مختلفة، فليس هناك اسمان متفقان في دلالة مطابقة تامة على مدلول واحد"².

واختلاف تلك الحيثيات التي جعلت من أسماء القرآن الكريم متعددة، هي التي تجعل من هذه الأسماء محددات منهجية تدلنا على كيفية التعامل مع هذا القرآن، كما تدلنا على طبيعته وخصائصه ومقاصده وغير ذلك من العناصر المكونة لمنهجيته المعرفية المتفردة، فتسميته بالفرقان يوجه إلى اتخاذه ميزانا توزن به الأشياء، فيفرق به بين غثها وسمينها، بين

¹ - القرآن وخطابه العالمي، أسماء القرآن العظيم، لطفه جابر العلواني، مجلة المسار، العدد 13، 8 يناير 2004، ص: 24.

² - أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير، ص: 35-36، ونفسه في مداخل فهم القرآن الكريم، طه جابر العلواني، بحث مرقون، منشور على موقع أكاديمية العلواني، رابطته: <https://alwani.org/?p=11911>، ص: 23.

حقها وباطلها، بين خالصها ومشوبها، وتسميته بالحديث في مثل قوله جل جلاله: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا" [الزمر:23]، حتى يألفه المخاطبون و"يتعاملوا معه، ولا يلبس عليهم الشيطان فيصرفهم عنه بحجة ارتفاعه عن مستواهم، أو الفجوة الواسعة بين المتكلم به سبحانه والمخاطب به. فهذه التسمية تتضمن معنى الحض والحث على تلاوته وعدم الانشغال بأي حديث غيره"¹.

ومن تسميته بالمحكم، كان الحديث عن وحدته البنائية، وتماسكه، وإتقان بنيانه، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن تسميته بالحكم، أخذنا حاكميته، فاحتكم الناس إليه، وجعل الفيصل فيما اختلفوا فيه من أمر الدنيا والدين.²

كما أن من تسميته بالهدى، أخذنا مقاصد هذا الكتاب المجيد التي تجمل في هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن اسمه الشفاء أخذنا كونه يشفي الناس من أمراض نفسية واجتماعية مزمنة³، ولا يخفى شفاؤه للأمراض العضوية كذلك.⁴

والخلاصة، أنني لو تتبععت أسماء القرآن العظيم، وما يلزم عنها من توجهات منهجية ومعرفية لاحتجت مع ذلك إلى مجلدات طوال، وحسبي التنبيه على هذا المدخل العظيم الذي من شأن النظر فيه والعناية به أن يختصر الطريق في تجديد صلتنا بالذكر الحكيم، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

خاتمة:

بعد هذه النظرات في بعض دراسات الدكتور طه جابري العلواني رحمه الله تعالى، أسجل ما يلي:

- أن منهجية القرآن المعرفية عند العلواني هو ذلك "المنهج الذي يقدمه لنا القرآن المجيد في شكل محددات ورسائل قواعدي يمكن استنباطها من استقراء آيات الكتاب الكريم، تلاوة وتدبرا وترجيلا وتنزيلا وتفكرا وتعقلا وتذكرا، ثم التعامل مع هذه المحددات تعاملًا يسمح لنا بأن نجعل منها محددات تصديق وهيمنة". وقد حاول البحث الوقوف عند مستويين من النظر، نظر امتد إلى مفهوم المنهجية المعرفية القرآنية من حيث أبعادها وامتداداتها عند

¹ - القرآن وخطابه العالي، أسماء القرآن العظيم، ص: 33.

² - ينظر المصدر السابق، ص: 36.

³ - نفسه، ص: 36.

⁴ - يراجع في ذلك حديث اللديغ الذي شفي بقراءة الفاتحة عليه.

العلواني، وآخر امتد إلى المحددات الأربعة لهذه المنهجية.

أما على مستوى النظر في المفهوم، فقد أفضى البحث فيه إلى أن من شأن المنهجية المعرفية القرآنية:

- أن تُمكن الإنسانية من الاهتداء بهداية الكتاب الحكيم؛ وضبط عقولها ومعارفها ومسيرتها الثقافية والحضارية بضوابطه وموازينه التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

- أن تضبط سائر خطواتنا المعرفية، ومنها تصحيح مسار المنهج العلمي، وإخراج فلسفة العلوم الطبيعية والاجتماعية من مضايق النهايات التي تتوقف عندها في العصر الحاضر.

- أن نُعلم الإنسان التركيب بعد حالات التفكك والتشتت، والشعث المعرفي الذي عاناه وما زال يعانيه في العصر الحاضر.

أما على مستوى المحددات الأربعة، فقد أفضى البحث فيها إلى ما يلي:

- أن الجمع بين القراءتين، القراءة في الكتاب المسطور، والقراءة في الكون المنظور، من شأنه ترشيد الحركة والفاعلية، وكل حركة عارية عن هذا الجمع سيجعل منها حركة فاتكة بالإنسان والكون معا.

- أن قراءة القرآن المجيد في إطار وحدته البنائية من شأنه أن يضبط تفكيرنا وتعبيرنا وتديرننا، ويلملم شتاتنا وشعثنا المعرفي والمنهجي، ومن ثم ترشيد فعلنا الحضاري، كما أن من شأنه أيضا أن يمكننا من آليات منهجية قويمه نراجع بها علومنا في تراثنا الإسلامي.

- أن ألفاظ القرآن الكريم ليست كأية ألفاظ عربية وإنما هي ألفاظ إلهية، وذلك يجعلها ذات مستوى عال بحيث ترتقي إلى مستوى المفاهيم؛ بما تحمل من ثراء المعاني الناتجة عن علم الله المحيط. والمفاهيم دعائم تقوم عليها الحقول المعرفية، والأنساق الثقافية والحضارية.

- أن معرفة أسماء القرآن بمعانيها من شأنها أن تزيد في فهم القارئ وفي وعيه بأهمية القرآن وإدراك عظيمته، ومن ثم تهيئة النفس والعقل والقلب والوجدان لاستقبال مُحكم آياته، كما أن من شأنها أن تكشف عن المنهجية المعرفية القرآنية من جهة خصائصه الربانية ومقاصده المعرفية وآلياته المنهجية...

تم بحمد الله.

لائحة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1. أبجديات البحث في العلوم الشرعية، فريد الأنصاري، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - القاهرة، الطبعة: الثانية، 2010م.
2. أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، طه جابر العلواني، الناشر: دار الشروق، سنة النشر: 2005م.
3. أسماء القرآن وأوصافه في القرآن الكريم، عمر بن عبد العزيز الدهيشي، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة: الأولى، 1430هـ.
4. أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير، طه جابر العلواني، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، تاريخ النشر: يناير 2010م.
5. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: 1984 هـ.
6. التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين المناوي، الناشر: عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت-القاهرة، الطبعة: الأولى، 1410هـ-1990م.
7. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.
8. الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، طه جابر العلواني، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة: الأولى، 2006م.
9. دراسات مصطلحية، الشاهد البوشيخي، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة: الأولى، 2012م.
10. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، المحقق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م.
11. القرآن وخطابه العالمي: أسماء القرآن العظيم، طه جابر العلواني، مجلة المسار، العدد 13، 8 يناير 2004م.
12. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ.
13. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.

14. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ.
15. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله الرازي، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420 هـ / 1999 م.
16. مداخل فهم القرآن الكريم، طه جابر العلواني، بحث مرقون، منشور على موقع أكاديمية العلواني، رابطته:
<https://alwani.org/?p=11911>
17. المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن حسن جبل، الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولى، 2010 م.
18. معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، الطبعة: الأولى، 1412 هـ.
19. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الحديث – القاهرة، تاريخ النشر: 1364 هـ.
20. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399 هـ - 1979 م.
21. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ.
22. مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج، أحمد عبادي، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ط: الأول، 2007 م، ص: 63.
23. مقدمة في إسلامية المعرفة، طه جابر العلواني، الناشر: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 2001 م.
24. مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، الناشر: وكالة المطبوعات شارع فهد السالم – الكويت، الطبعة: الثالثة، 1977 م.
25. مناهج البحث في العلوم الإنسانية، محمود أحمد درويش، الناشر: مؤسسة الأمة العربية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 2018 م.
26. منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، للدكتور محمد أبو القاسم حاج حمد، الناشر: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 2003 م.

27. النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز، اعتنى به عبد الحميد الدخاخي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 2000م.
28. نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، طه جابر العلواني، الناشر: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 2004م.
29. الوحدة البنائية للقرآن المجيد، طه جابر العلواني، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة: الأولى، مارس 2006م.
30. الوحي والإنسان، نحو استئناف التعامل المنهجي مع الوحي، أحمد عبادي، الناشر: دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة: الأولى، 2013م.

"من جهود د. طه جابر العلواني في مراجعات علوم القرآن"

كتاب "نحو موقف قرآني من النسخ" نموذجاً

د. محمد الينبي

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز فاس

ملخص:

إن الباحث في علوم القرآن المتتبع لسيرورتها التاريخية وامتداداتها المعرفية؛ يلحظ أن انفصاما نكدا، وتفاعلا معكوسا قد وقع بينها وبين لسان الوحي، فأصبح القرآن الكريم تابعا لتلك العلوم وخادما لها بعد ما كان شاهدا وموجها لرؤيتها وتصورها ومقاصدها في زمن القرون الخيرية. وذلك بسبب أفول عصور الاجتهاد والتجديد، وخلود القوم إلى الجمود و التقليد، وضمور مرجعية الوحي في التوجيه والتسديد، مما يحتم على الباحثين القيام بما أسماه الدكتور طه جابر العلواني بمراجعات علوم القرآن ، كي تسهم في تبين وبيان القرآن الكريم تلاوة وتزكية ، تعليما وتعلما. وإسهاما مني في موضوع مؤتمرهم الدولي "طه جابر العلواني رحمه الله عطاؤه العلمي ومشروعه الإصلاحي" أقدم بين يدي حضرتكم هذه الورقة العلمية التي انتظم البحث فيها. ضمن مقدّمة ومبحثين، وخاتمة. خصصت المبحث الأول لبيان جهود الدكتور طه جابر العلواني في مراجعات علوم القرآن . وأفردت المبحث الثاني لبيان القواعد المنهجية والأصول المعرفية التي سلكها الدكتور طه جابر العلواني في تحديد مفهوم النسخ في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: المراجعات. علوم القرآن. النسخ. الرؤية القرآنية.

**"Dr. Tahar Jabir Al-Alwani's Efforts in Quranic Sciences Review:Book:
"Towards a Quranic Stance on Abrogation" as an Example"**

Abstract:

The researcher in the sciences of the Qur'an who follows its historical process and its cognitive extensions; It is noted that a disastrous split and a reverse interaction occurred between it and the tongue of revelation, so the Holy Qur'an became a follower of those sciences and their servant after it had been a witness and guide to their vision, perception and purposes in the era of the charitable centuries. This is due to the disappearance of the eras of ijtihad and renewal, the perpetuation of the people into stagnation and imitation, and the atrophy of the authority of revelation in guidance and guidance, which makes it necessary for researchers to carry out what Dr. Taha Jaber Al-Alwani called reviews of the sciences of the Qur'an, in order to contribute to clarifying and clarifying the Holy Qur'an in its recitation and purification, teaching and learning. As a contribution from me to the topic of your international conference, "Taha Jaber Al-Alwani, may God have mercy on him, his scientific contributions and his reform project," I present to you this scientific paper, in which the research was organized. It includes an introduction, two sections, and a conclusion. I devoted the first section to explaining the efforts of Dr. Taha Jaber Al-Alwani in reviews of the sciences of the Qur'an. The second section was devoted to explaining the defining methodological rules and cognitive principles followed by Dr. Taha Jaber Al-Alwani in the concept of abrogation in the Holy Qur'an.

Keywords: reviews, Qur'anic sciences. Nskh. Quranic vision.

مقدمة:

إن الأصل في مباحث علوم القرآن وغيرها من العلوم الشرعية أن تكون وفيه لروح الوحي الذي منه انبثقت، ولخدمته أنشئت وأُسست، وعلى عينه صنعت وحررت. لكن الباحث في علوم القرآن المتتبع لسيرورتها التاريخية وامتداداتها المعرفية؛ يلحظ أن انفصاما نكدا، وتفاعلا معكوسا قد وقع بينها وبين لسان الوحي، فأصبح القرآن الكريم تابعا لتلك العلوم وخادما لها بعد ما كان شاهدا وموجها لرؤيتها وتصورها ومقاصدها في زمن القرون الخيرية. وذلك بسبب أفول عصور الاجتهاد والتجديد، وخلود القوم إلى الجمود والتقليد، وضمور

مرجعية الوحي في التوجيه والتسديد، مما يحتم على الأساتذة الصادقين والطلبة الباحثين القيام بما أسماه الدكتور طه جابر العلواني بمراجعات علوم القرآن، كي تسهم في تبين وبيان القرآن الكريم تلاوة وتزكية ، تعليما وتعلما.

فما هي القواعد المنهجية والأصول المعرفية لتلك المراجعات؟ وما أثر اللسان القرآني في تحديد مفاهيم علوم القرآن عامة ومفهوم النسخ خاصة؟ وما موقع كتاب "نحو موقف قرآني من النسخ" من الجودة والجدية في تحرير وتنقيح مفهوم النسخ في القرآن الكريم؟ تفاعلا مع هذه الأسئلة وغيرها، وإسهاما مني في موضوع مؤتمركم الدولي: "طه جابر العلواني رحمه الله: عطاؤه العلمي ومشروعه الإصلاحي" أقدم بين يدي حضرتكم هذه المشاركة العلمية المتواضعة في موضوع: من جهود الدكتور طه جابر العلواني في مراجعات علوم القرآن كتاب "نحو موقف قرآني من النسخ" نموذجا.

وقد أطرت البحث، الذي سلكته فيه المنهج الوصفي التحليلي، ضمن مقدمة ومبحثين، وخاتمة. خصصت المبحث الأول لبيان جهود الدكتور طه جابر العلواني في مراجعات علوم القرآن . وأفردت المبحث الثاني لبيان القواعد المنهجية والأصول المعرفية التي سلكها الدكتور طه جابر العلواني في تحديد مفهوم النسخ في القرآن الكريم. وضمنت الخاتمة خلاصات واستنتاجات. فنقول وبالله التوفيق:

المبحث الأول: من جهود د. طه العلواني في مراجعات علوم القرآن

لعل الدارس المستقرئ لتراث الدكتور طه جابر العلواني¹ في مختلف كتاباته ومحاضراته يلحظ بيسر أنّ معظم إنتاجه العلمي يندرج في إطار تأسيس رؤية منهجية لمراجعة علوم عصر التدوين ، لاسيما بعد أن بلغ مرحلة الرشد العلمي والثراء المعرفي ، ونضجت عنده فكرة الوحدة البنائية للقرآن الكريم ، وصارت منهجا معتمدا لديه في كل مراجعاته المنهجية وتحقيقاته العلمية..

1 - طه جابر العلواني، من مواليد مدينة الفلوجة، بمحافظة الأنبار في العراق (1935- 2016)

ويقصد بعلوم عصر التدوين تلك المباحث التي عرفت بعلوم القرآن¹، مثل علم التفسير، وأسباب النزول، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ ونحوها. من المباحث العلمية التي خدمت النص القرآني خدمة عظيمة، توثيقاً وتفسيراً، لكنها لم تستطع التخلص والتجرد من أحوال أصحابها، ولم تقو على تجاوز الأفق المعرفي الذي صاحب ميلادها ونشأتها. مما جعلها تتحول بعد حين إلى قيود خارجية ذات تأثير كبير في تأويل النص القرآني، وتحظى باهتمام عظيم يكاد يضاهي الاهتمام بالنص القرآني ذاته. فتوهم العوام، بتعبير السيوطي- تبعاً لذلك- أن لا سبيل إلى فهم النص القرآني بدونها. وتوارت بذلك الوحدة البنائية، والنسق الكلي للقرآن الكريم. وزاغت القلوب عن الدلالة الحقيقية لمفاهيم الوحي، خصوصاً تلك المفاهيم التي تُمثِّل لبنات المنهج التأويلي القديم أي: (الآية)، و(النسخ) و(الإحكام) و(التشابه)، و(الإجمال) و(التفصيل). فالدلالة المُستخدمة لهذه المفاهيم في البناء المنهجي لآليات القراءة؛ لم تنشأ عبر استقراء النصّ القرآني، بل تم فرضها فرضاً على النصّ، وفَقْلاً للعلواني الذي ما فتئ يدافع عن مركزية (الوحدة البنائية) للقرآن الكريم في كل كتبه وذلك عبر طريقتين:

الأول: محاولة تأسيس هذه الفكرة من داخل القرآن الكريم، ومن داخل التراث الإسلامي، وهو ما قام به أساساً في كتابه «الوحدة البنائية للقرآن المجيد».

والثاني: نقد علوم القرآن التراثية انطلاقاً من كون هذه العلوم قد فوّتت إدراك هذه الوحدة كمُحدّد منهجي في القرآن الكريم، وتعاملت مع القرآن بعد تعضيبته وتجزئته عبر رؤية مفاهيمية ومنهجية تُكرِّس هذا التقسيم للقرآن إلى مساحات المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، وهذا ما تم بيانه في كتابي (نحو موقف قرآني من النسخ)، و(نحو موقف قرآني من إشكالية المحكم والمتشابه). ذلك أنه لم يعد الوحي حاضراً بشكل قوي في بنية العلوم، لا من حيث وحدة العلوم ولا من حيث فلسفة العلوم ولا من حيث الرد إليه عند التنازع. بل أصبح القرآن الكريم تابعاً بعد أن كان متبوعاً، ومحكوماً بعد أن كان حاكماً! ولله الأمر من قبل ومن بعد. بل وقد صار كثير من المسلمين يعتقد أن الحلال ما أحلّه فلان في كتاب كذا، وأن الحرام ما حرمه فلان في كتاب كذا، وبلغ الجهل ببعض أهل العلم أن يتجرأ ويقول: إنّ هذا الشيء

¹ - المراد بـ «علوم القرآن» هي مجموعة من العلوم والمعارف التي وضعها علماءنا المتقدمون للتعريف بأمر تتعلق بالقرآن المجيد جمعاً، وتاريخاً، ونزولاً، وتسويراً، وتحزيباً، وتجزئة، وتفسيراً، وتأويلاً، ولغة، وقراءات، وأنواعاً، وأسماء، وصفات، وكتابة، ونسخاً، وإعجاماً، ومناسبات نزول، وإحكاماً وتشابهاً، وإعجازاً، وقصصاً، وأمثالا... وما إلى ذلك (انظر: القرآن الكريم والقراءات المعاصرة مع الدكتور الشيخ طه جابر العلواني. مجلة الكلمة. عدد 71. 2011)

ثابت في القرآن الكريم لأنَّ فلانا أو فلانا حملوا عليه بعض آيات الكتاب الحكيم وبذلك جعلوا القرآن تابعا لعلم الرجال بدلاً من أن يكون علم الرجال دائرا مع القرآن حيث دار¹.

بهذه الرؤية الكلية والنظرة الشمولية حاول الدكتور العلواني مراجعة التراث النقلي سواء ما سمي «بعلوم مقاصد» كالتفسير والفقه والحديث أو «علوم وسائل» مثل اللغات بنحوها وصرفها وبلاغتها وفقه اللغة، والاشتقاق ونحو ذلك. داعيا. الأمة، على سبيل الاستعجال، إلى القيام بمراجعة تراثها، ودفع ما أصابه من عيوب وانحرافات، اعتمادا على كتاب الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وما صح من بيان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قولاً وفعلاً وتقريراً. وذلك انطلاقاً من تحديد فترات الاتصال والانفصال بين التراث الإسلامي الإنساني وبين نصوص ومقاصد الوحي الرباني لتستبين تلك الإصابات التي لحقت التراث الإسلامي نتيجة الانفصام بينه وبين مصادر تكوينه التي ما كان ينبغي أن ينفصل عنها، أو يبتعد عن أصولها وقواعدها. وليتبين "المسلم معاني القرآن، خالصة من جميع الشوائب التي تتنافى مع روح القرآن، ولتبرئ ساحة القرآن من كل مالا يمت بسبب ولا نسب إلى القرآن الكريم، أو السنة الصحيحة التي هي بيان القرآن..."²

بهذا الفقه الدقيق والفهم العميق لمعارف الوحي انخرط الدكتور العلواني بقوة في عملية مراجعة علوم القرآن مستفيداً من رشد المنهجي ونبوغه العلمي، ومستجيباً لطموحه المعرفي. وحيث إن المقام لا يسمح باستقراء وتحليل كل مقومات الرؤية التجديدية لعلوم القرآن عند الدكتور العلواني، فإننا نعرض لنماذج منها، تمثيلاً لا حصراً، ليقاس عليها غيرها، وهي على النحو الآتي:

- نضج الملكة النقدية والتزعة التجديدية

تحدث الشيخ العلواني عن ذلك في كتابه "التعليم الديني بين التجديد والتجميد"³ مبرزاً أنه كان ذا استعداد مبكر لتكوين ملكة نقدية قادرة على النقد والمراجعة لكل ما يقرأ، وكل ما يتعلم. وأن هذه الحاسة النقدية بدأت صغيرة ثم نمت وكبرت معه إلى أن أصبحت لا

1 - نحو موقف قرآني: 17

2 - التيسير في أحاديث التفسير. الشيخ محمد المكي الناصري 8 / 1

3 - التعليم الديني بين التجديد والتجميد. طه جابر العلواني. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

ط. 2009، ص 53

ط. 2009

تفارقه في أي نوع من أنواع القراءة لهذه المعارف . وحين بلغ مرحلة الدكتوراه وبدأ في إعداد رسالته عن الإمام «فخر الدين الرازي وآرائه الأصولية وتحقيق كتابه المحصول: وجد نوعاً من التوافق بينه وبين الإمام الرازي، الذي قضى معه ست سنوات دارساً لتراثه المتنوع ، مع تركيز خاص على كتابه المحصول، وبدأ يضع علامات استفهام على كثير من تلك المسائل، خاصة ما اتفق على ترديده وتدعيمه علماء القرآن والمفسرون والأصوليون كذلك في مثل قضايا «الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والقراءات الشاذة، والاستدلال بها وما إلى ذلك. وكما كانت دهشته واستغرابه حين أكتشف في مرحلة من المراحل أن اللغة العربية نفسها قد جرى نوع من التطويع القسري لها لكي تستجيب لاتجاهات الفقهاء ومناهجهم، بقطع النظر عن الدوافع التي كانت وراء تلك الاتجاهات والتوجهات. وهناك الكثير من الأساليب والاستعمالات اللغوية التي لا تنسجم مع لسان القرآن وسياقاته نراها شائعة لديهم. فكان يراجع ذلك ويجد فيما ذكره الفخر الرازي عن بعض النحاة واللغويين وتجروء بعضهم على التخلي عن لسان القرآن والأخذ بلغة البدو وألسنتهم، وجعلها الأصل وجعل لسان القرآن فرعاً¹ ، ورأى الفخر كيف يوجه اللوم -محققاً- إليهم وهو يعلق على قولهم: ورد في القرآن شذوذاً، كما زعم بعضهم في: ﴿رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾²

- الحاجة إلى تخلية علوم القرآن من آثار عصر التدوين

اقتنع الشيخ العلواني رحمه الله قناعة تامة بأن هناك أموراً قد حدثت قبل التدوين وأثناءه وبعده، حجب الكثير من انوار الوحي ، وأبعدت الناس عن اكتشاف حقائق هذا الدين العظيم، والاهتداء بهداه!! . وأن تراثنا قد أضر بها بشكل تتحتم معه المراجعة وإعادة الارتباط بينه وبين مصدري التكوين المنشئ والكاشف ثم المؤول والمبين وتحرير مفاهيم القرآن من أسر المفسرين واللغويين وغيرهم. ذلك بأن حفظ الله تعالى للقرآن الكريم وحمايته من التزييف والتحرif في ألفاظه لم يمنع من اللجوء إلى التزييف في التفسير والمعاني والدلالات، وما شاكل

1 - حوار حول القرآن الكريم .. والقراءات المعاصرة. موقع أكاديمية العلواني للدراسات القرآنية

<https://alwani.org>

² - سورة الحجر:2. قال الرازي في مفاتيح الغيب : إِنْ أَتَى أَقُولُ قَوْلَ هَؤُلَاءِ الْأَدْبَاءِ: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ دُخُولُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عَلَى الْفِعْلِ الْمُسْتَقْبَلِ، لَا يُمَكِّنُ تَصْحِيحُهُ بِالْدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ، وَإِنَّمَا الرُّجُوعُ فِيهِ إِلَى النَّقْلِ وَالِاسْتِعْمَالِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ وَجَدُوا بَيِّنَاتٍ مُشْتَمِلَةً عَلَى هَذَا الْإِسْتِعْمَالِ لَقَالُوا إِنَّهُ جَائِزٌ صَحِيحٌ، وَكَلَامُ اللَّهِ أَقْوَى وَأَجَلُّ وَأَشْرَفُ، فَلِمَ لَمْ يَتَمَسَّكُوا بِوُجُودِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى جَوَازِهِ وَصِحَّتِهِ ؟

ذلك. لكن الله -تبارك وتعالى- بعصمته لهذا القرآن، حفظه من بين يديه ومن خلفه فلا يمكن لهذا القرآن أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾¹، وقد كانت أمنيته رحمه الله أن يرى مدرسة نقدية قد نشأت وحددت لنفسها وللباحثين منهجاً كاملاً قرآنياً نبوياً لهذه المراجعات وعمليات النقد من داخل التراث نفسه، ومن منطلق الالتزام بوحدة الأمة وضرورة قيامها بتنقية التراث من الانحرافات التي لحقت، وجعلت القوم يحملون الوحي حملاً حمارياً²، وليس حملاً ربانياً. لأن الفهم التراثية شكلت حاجزاً بين الجيل المسلم وبين كتاب الله عز وجل، فحاكمنا القرآن بتلك الفهم بدلاً من محاكمة تلك الفهم إلى القرآن، فجرد هذا التراث صفة الإطلاق من القرآن، وأحاطه بنسبية هذه الفهم.³

- ضرورة تخلص علوم القرآن من شبهات المستشرقين والمستغربين.

وجد المستشرقون في بعض ما عرف «بعلوم القرآن» أرضية خصبة لإثارة الشبهات ونشر الأباطيل؛ فأخذوا ما ورد فيها من أحاديث ضعيفة، لا يصح شيء منها، مما ورد في «الناسخ والمنسوخ» خاصة، وبعض التصورات الخاطئة في تفسير «المتشابه» وبعض الروايات التي شاعت في عصر التدوين حول تاريخ القرآن الكريم، وإعدام سيدنا عثمان للنسخ الخاصة التي كان جُلها عبارة عن نسخ شخصية كتبها أصحابها لأنفسهم ليقروا فيها، ونحو ذلك مما أشهره الدسائسون الأوائل وتعلّق به بعض المستشرقين الأواخر فبنوا عليها منظومات ونظريات من الأطروحات التي لا قيمة لها دون أن يكلف أيّ منهم نفسه عناء فحص أو تدقيق أو نقد تلك المرويات الهزيلة. ومعروف أنّ حركة الوضع للحديث الشريف وحركة حشو التفسير بالإسرائيليات حركتان قديمتان منظمتان تنظيمًا دقيقًا، فعبد الكريم بن أبي العوجاء؟ حين قبض عليه وتقرر إعدامه بتهم نسبت إليه قال: «وماذا ستفعلون بالآلاف من الأحاديث التي وضعتها على لسان نبيكم؟ ولما لا تتركوني إلى أن أدلكم على تلك الأحاديث؟ فقل له: إنّ هذه الأحاديث التي وضعتها لا نحتاجك لرصدها لأنّ لدينا الجهابذة من العلماء الذين يستطيعون

¹ - سورة فصلت: 42.

² - لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، طه جابر العلواني، ص 76.

³ - انظر: رحلة في فكر ومنهجية طه جابر العلواني التيجاني عبد القادر، مركز الإسلام في العالم المعاصر. ط 2022/1. الولايات المتحدة الأمريكية.

ميزها وفصلها عن الأحاديث الصحيحة وأعدموه!!، لكن الوضع لم يعدم واستمرت الموضوعات ونحوها بالتداول!!

ورغم كل الجهود المشكورة التي بذلها المحدثون من سائر المذاهب في عمليات التوثيق والتضعيف للروايات وموازين نقد المتون التي وضعوها؛ كل ذلك لم يحل دون تسرب بعض الأحاديث الموضوعية والضعيفة إلى معارفنا، ومنها «أحاديث النسخ» التي من المؤسف أن نجدها متداولة في كتب علوم القرآن، والتفسير، وأصول الفقه، والحديث. بحيث أصبحت من الأحاديث المشتهرة على الألسنة على وهنها وتهافتها، وما تحمله من أفكار معادية للقرآن المجيد طاعنة في سلامته. وقد قمت بتخريجها -كلها- وكشفت عن بعض عيوبها في كتابي المطبوع «نحو موقف قرآني من النسخ»¹

- أزمة القراءات المعاصرة للتراث -

هناك فرق كبير بين الباحثين الصادقين وبين الخائضين المستغربين الذين يرددون المطاعن في القرآن الكريم والسنة البيان، وهي المطاعن نفسها التي وضعها أعداء القرآن، وهم يروجون لها بحجة أنها من البحث العلمي. والبحث العلمي منها براء. ذلك أننا قد عرفنا في تاريخنا نماذج كثيرة من الباحثين الذين كانوا يثيرون بعض الشبهات، ولكن من غير تبني لها ولا تحيز، بل يتناولونها بشكل يدل على أنهم باحثون عن الحقيقة، إذا أرشدوا إليها أو وجَّهوا سرعان ما يستجيبن، وتستطيع أن تجد نماذج من تلك المقولات والمناظرات مستفيضة عقلية ومنطقية في نحو كتاب القاضي الباقلاني «الانتصار لنقل القرآن العظيم»، وقبله «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة و«تنزيه القرآن عن المطاعن» للقاضي عبد الجبار وغيرهم.

لكن جل القراءات المعاصرة للتراث الإسلامي تعاني من أزمة مركبة: معرفية ومنهجية وإيمانية تحتاج إلى معالجة من هؤلاء القارئ المعاصرين (أو ذوي القراءات المعاصرة) ليلجوا إلى رحاب القرآن بدون أزمة فيُفيدون ويستفيدون، وتتميز آنذاك دراساتهم عن الدراسات التقليدية لأهل التراث الذين يرددون المرويات الخاصة بالتاريخ والفضائل والجمع والتدوين والتفسير والتأويل والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه وما إلى ذلك من دون توثيق صحيح ولا تأويل دقيق، ولا فهم عميق.

¹ - نحو موقف قرآني من النسخ . 45

ويرى الدكتور العلواني أن هناك ثلاثة مواقف للمثقفين العرب تجاه التراث الإسلامي، وهي كالآتي:

- الأول: الموقف المتبني للتراث المدافع عنه الذي يعتبره - كله - وعاء للهوية لابد من حفظه، والدفاع عنه بكل ما نملك من مشاعر وقوة، بغض النظر عن قوة دليله وصحة تصوره. كما قال الشاعر:

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ... غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةُ أُرْشِدِ

- الثاني: . يرى أن التراث شر لا بد من التعامل معه!! ولكن بقراءة جديدة كفيلة بأن تأخذ مشروعيته وتتجاوزه جملة وتفصيلا.

- الثالث: موقف انتقائي قريب من موقف اليسار المعتدل. فبعض العلمانيين يقسمون التراث إلى المعقول واللامعقول وربما إلى الثابت والمتغير. ولكن بقراءة خاصة وآليات ومنهجيات خارجية.

ويرى أن المسافة لاتزال شاسعة لصياغة موقف عربي إسلامي معرفي ومنهجي إزاء التراث، فالمثقفون العرب والمسلمون لم يتوصلوا بعد إلى تحديد هذا المفهوم تحديدا علميا يمكن الاتفاق عليه. ويرى الدكتور العلواني أن المفاهيم الخاطئة والمحرفة والمنحرفة أفرزت أزمة فكرية، ما زادت محاولات الخروج منها، أو تجاوزها إلا تعقيدا، لأن تلك المحاولات لم تستطع تجاوز مشكلات عصر التدوين، التي أحاطت بفهم الأمة لكتاب ربها، ودوره، وبالسنّة النبوية، ودورها،... وأضافوا إلى الكتاب والسنة صفات التعارض والتعادل؛ ليقولوا بوقوع النسخ في كل منهما، بل وقالوا بنسخ كل منهما للآخر .

وبعد نقده لتلك المواقف والتصورات، يقترح الدكتور العلواني منهجية ملائمة في التعامل مع التراث تقوم على ما يلي:

- عدم رفض التراث رفضا قاطعا كما يفعل العلمانيون
- عدم تبني التراث تبنيًا تاما كما يذهب إلى ذلك الماوضيون.
- عدم الانتقاء العشوائي غير الملتزم بمنهج، وإنما يتعين تتبع المنهج القرآني في التعامل مع التراث.

والمنهج القرآني الذي يدعو إليه الدكتور العلواني هو استعادة النص القرآني لمركزيته في مجالات البحث العلمي، باعتباره النص التأسيسي الذي قامت عليه علوم

المسلمين، وانطلقت منه حضاراتهم في الماضي، وتستقيم به نهضتهم في الحاضر والمستقبل، إذ الأصل في العلوم الإسلامية أن تكون منبثقة، رؤية وتصوراً ومنهاجاً، من القرآن الكريم. وفق رؤية منهجية تستند إلى الوحدة البنائية للقرآن الكريم، وتقوم على دعائم ثلاث:

الدعامة الأولى: تحقيق الإصلاح والاستقامة واستخلاص الدروس والعبر ولذلك يلاحظ أن القرآن المجيد يقوم بنفسه بعمليات مراجعة نقدية لتراث الإنسانية بحيث يراجع ذلك التراث في ضوء قيم الإسلام الحاكمة التوحيد/التزكية / العمران باعتبار أن التاريخ نتاج جدلية بين الغيب والإنسان والطبيعة.

الدعامة الثانية: الإيمان الصادق بأن مصدر الخلق والأمر هو الله الواحد، وأن الإنسان يمثل الخليفة، ويمثل الكون مجال العمران. .

الدعامة الثالثة: هيمنة المرجعية المطلقة للكتاب مصدقاً لما بين يديه ومهيماً عليه . وقد حدد الشيخ العلواني رحمه الله ملامح المنهج القرآني في التعامل مع التراث في القواعد الآتية :

القاعدة الأولى: مراعاة القيم الحاكمة الثلاثة: التوحيد، التزكية، العمران .

القاعدة الثانية: الجمع بين القراءتين.

القاعدة الثالثة: الوحدة البنائية.

القاعدة الرابعة: حاكمية القرآن.

القاعدة الخامسة: طلب البرهان والدليل.

القاعدة السادسة: ختم النبوة

القاعدة السابعة: مراعاة الرحمة والتخفيف في التشريع.

القاعدة الثامنة: ربانية المصدر و عالمية الخطاب.

القاعدة التاسعة: الاستيعاب والتجاوز.

القاعدة العاشرة: ارتباط المسببات بالأسباب. لأن القرآن كتاب كوني، ولا كتاب كوني

في الوجود (سواه)¹

¹ - تفسير سورة الأنعام الدكتور طه العلواني، دار السالم للطباعة والترجمة والنشر، 2012 ص.25

المبحث الثاني: النسخ في القرآن الكريم عند د. طه جابر العلواني

يستطيع الدارس الباحث أن يتبين رؤية الشيخ العلواني لقضية النسخ في القرآن الكريم من خلال كتابه " نحو موقف قرآني من النسخ " وهو الكتاب الخامس من سلسلة الدراسات القرآنية التي تنتظم في مشروعه الطامح إلى نقد التراث بمعية القرآن الكريم. وهو على لطافة حجمه وقلة صفحاته، قد تضمن، بفضل الله تعالى معالجة علمية جادة اشتملت على كثير من المسائل التي يحتاجها المبتدئ في الدراسات القرآنية والأصولية ، ولا يستغني عنه المنتهي من الباحثين¹ ، فقد تعددت مراجعه ، وتنوعت موازده ، وعظمت فوائده .

وقبل الشروع في دراسة وتحليل قضية النسخ في كتاب (نحو موقف قرآني من النسخ في القرآن)² للدكتور العلواني يحسن بنا طرح بعض التساؤلات بين يدي الموضوع توطئة لبيان المعنى الذي يبدو راجحاً في مفهوم النسخ. وهذه التساؤلات هي:

- هل ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم نص صحيح صريح في معنى النسخ في القرآن الكريم؟

- هل نص أحد من رواة الحديث على ذلك ؟

- هل كان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يطلقون مصطلح "النسخ" ويقصدون به ما استقر عليه فهم المتأخرين من رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر، أم كانوا يقصدون ما هو أعم من ذلك ؟.

- كيف تم نقل مفهوم النسخ من مجالاته الكلامية المتعلقة بنسخ الشرائع السابقة إلى مجال النسخ بين النصوص القرآنية؟

- وكيف ومتى تسرب القول بالنسخ -بمعنى رفع الحكم التكليفي - إلى مباحث علوم القرآن ؟

من خلال التفاعل مع هذه الأسئلة وغيرها تحليلًا وتعليلاً، ندلف إلى بيان مفهوم النسخ عند الدكتور طه جابر العلواني . فنقول وبالله التوفيق:

¹ - نحو موقف قرآني من النسخ : 6

² - هذا هو الكتاب الخامس من سلسلة الدراسات القرآنية للعلواني والذي يبحث فيه قضية النسخ وإشكالاته

إن من قرأ كتب الحديث الستة المعروفة أو التسعة بإضافة الموطأ ومسنند أحمد والدارمي، أو الأربعة عشر بإضافة مسندي أبي يعلى والبزار ومعجم الطبراني الثلاثة، أو السبعة عشر بإضافة صحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم، وأكثر منها: لم يجد فيها حديثاً ثابتاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه: إن الآية كذا في سورة كذا منسوخة وقد رفع حكمها، أو يقول: إن هذه الآية من سورة كذا قد أبطلت حكم آية كذا من سورة كذا ... مع أهمية هذا البيان وضرورة وحاجة المسلمين الماسة إليه، وقد قرر العلماء أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لما فيه من إضلال الناس عن الحقيقة¹ يقول الشيخ العلواني: (بل نستطيع أن نجزم بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم تجر على لسانه كلمة النسخ والمادة اللغوية التي تألفت منها كلماته، اللهم إلا في تلاوته لكتاب الله - تعالى - ولكنها ذكرت في السنن والآثار مروية عن أصحابه -رضوان الله عليهم أجمعين- وفي ذلك ما يستفاد منه أن هذا المصطلح لم يكن متداولاً في المرحلة الأولى من جيل التلقي، وهي المرحلة النبوية التي امتدت اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً²

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كانوا يعتبرون النسخ ضرباً من أضرب البيان كبيان المجمل، وتقييد المطلق وتخصيص العام... ولم يكونوا يقصدون به المعنى الاصطلاحي الذي آل إليه الأمر عند الأصوليين.

ولو أن المتأخرين التزموا بما فسّر المتقدمون "النسخ" به لما وقع ذلك الاضطراب الشديد الذي نشهده في هذه القضية لدى علماء القرآن والأصوليين ومن بعدهم لدى الفقهاء والمفسرين قديماً وحديثاً.

وقد أشار غير واحد من أئمة المتقدمين إلى مدى حاجة هذه القضية الخطيرة إلى تحرير وتنقيح. فهذا ابن الجوزي يقول في مقدّمة كتابه: "أمّا بعد فإن نفع العلم بدرايته، لا بروايته. وأصل الفساد الداخل على العلماء: تقليد سابقهم، وتسليم الأمر إلى معظّمهم من المتقدّمين، من غير بحث عما صنّفوه، ولا طلب للدليل عما ألفوه، وإنّي رأيت كثيراً من

¹ - النسخ في القرآن . محمد الناصري. مقال نشر في موقع:

<https://www.google.com/url?sa=i&url=http%3A%2F%2Fwww.almultaka.org%2Fsite.php%3Fi%3D3D776>

² - نحو موقف قرآني من النسخ : 18

المتقدِّمين على كتاب الله - عز وجل - بأرائهم الفاسدة... ثم إنني رأيت الذين وقع منهم التفسير صحيحاً قد صدر عنهم ما هو أفظع فآلني، وهو الكلام في الناسخ والمنسوخ، فإنَّهم قد أقدموا على هذا العلم فتكلموا فيه، وصنّفوه، وقالوا بنسخ ما ليس بمنسوخ ومن نظر في كتاب الناسخ والمنسوخ للسدي رأى التخليط والعجائب، ومن قرأ كتاب هبة الله المفسر رأى العظائم، وقد تداوله الناس لاختصاره.¹

بعد هذا البيان يحق للدارس الباحث ان يتساءل : من أين جاء المؤلفون في الناسخ والمنسوخ بأقوالهم التي تباينت في عدد الآيات المنسوخة كثرة وقلة. علما أن المحققين قد اشتراطوا أن "الزمن الذي يسوغ فيه نسخ النصوص هو عصر الرسالة، دون ما بعده، ومن ثم يجب أن ترفض كل دعوى نسخ لم تؤثر عن هذا العصر، إذ لا ينبغي أن ينسخ نص تشريعي تركه الرسول صلى الله عليه وسلم محكما ... ويزداد هذا وضوحا إذا نحن تركنا الزمن الذي يسوغ فيه النسخ إلى من له الحق في النسخ"² يقول الإمام الشاطبي :

"ان الأحكام إذا ثبتت على المكلف فادعاء النسخ فيها لا يكون إلا بأمر محقق، لأن ثبوتها على المكلف أولا محقق، فرفعها بعد العلم بثبوتها لا يكون إلا بمعلوم محقق، ولذلك اجمع المحققون على أن خبر الواحد لا ينسخ القرآن ولا الخبر المتواتر، لأنه رفع لمقطوع به بالمظنون"³

وقال السيوطي نقلا عن ابن الحصار "... إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح ولا معارضة بينة، لأن النسخ يتضمن رفع حكم ، وإثبات حكم تقرر في عهده صلى الله عليه وسلم، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد"⁴

¹ - نواسخ القرآن لابن الجوزي، ص (74-76) و(123).

² - النسخ في القرآن مقال نشر في موقع

<https://www.google.com/url?sa=i&url=http%3A%2F%2Fwww.almultaka.org%2Fsite.php%3Fi%3D776>

³ - الموافقات في أصول الشريعة . أبو إسحاق الشاطبي. 3 / 105-106. تحقيق عبد الله دراز.. دار الشروق. ط 2 . 1975

⁴ - الإتقان في علوم القرآن . جلال الدين السيوطي . 2 / 24 . القاهرة : 1935.

أما الإمام الزركشي فقد حكي الإجماع على عدم تصور وقوع النسخ بدون المتواتر فقال: (لا خلاف أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواترا في أصله وأجزائه... والبلاغ العام إنما هو بالتواتر، فما لم يتواتر مما نقل أحادا نقطع بأنه ليس من القرآن).¹

فكيف حكم المؤلفون في الناسخ والمنسوخ بوقوع النسخ في القرآن دون اعتماد على نقل محقق، وكيف تلقت الأمة عنهم ذلك بالقبول، ومتى تسرب هذا الفهم إلى تراث الأمة على حين غفلة من علماءها؟

إن البحوث والدراسات العلمية تشير إلى ارتباط الحديث عن الناسخ والمنسوخ بفترتين مختلفتين تاريخيا هما : القرنان الرابع والخامس عشر الهجريان ، حيث إن أول مَنْ أنكر (النسخ في القرآن) في تاريخ الإسلام هو أبو مسلم الأصفهاني، وهو من علماء القرن الرابع الهجري، ولم يسجل مُنكِرٌ لهذه المسألة بعد هذا التاريخ، إلا في القرن المعاصر؛ مع مدرسة الإحياء والتجديد الديني بقيادة الشيخ محمد عبده، حيث تابع جماعةٌ أبا مسلم الأصفهاني، وقاموا بإحياء نظريته مرة أخرى.

وبالتدقيق في ظروف هذين القرنين نخلص إلى نتيجة مفادها أن (شبهة تحريف القرآن ونقصانه) من الدوافع والخلفيات التي أفرزت إنكار النسخ، مضافاً إلى الدوافع السياسية والاجتماعية والاجتهادية والعقدية. وفي العصر الحديث أدّت شبهات المستشرقين حول ظاهرة النسخ إلى أن يتصدّى مجموعة من العلماء المصريين إلى تأليف كتب مستقلة في هذا الباب؛ في محاولة منهم لرفع كل شبهة عن ساحة القرآن، حَسَبَ زعمهم. ويبدو أن هناك ظروفاً ومتغيرات كانت تحكم هاتين الحقتين (القرن الرابع والخامس عشر الهجري) أدّت إلى إثارة قضية النسخ... وإن أحد دوافع إنكار النسخ يتمثل بتأثر بعض المنكرين بآراء البعض الآخر، وبالأخص أبي مسلم، حيث نقل الكثير منهم آراءه في كتبهم. وكذلك تابع كلٌّ من رشيد رضا أستاذه محمد عبده؛ وعبد المتعال الجبري أستاذه علي حَسَبَ الله؛ وأحمد حجازي السقا وعلي حَسَبَ الله أستاذهم الشيخ محمد الخضري، منكرين كلٍّ نوعٍ من النسخ في القرآن.²

1- البرهان في علوم القرآن 47/2

2- إنكار النسخ في القرآن الكريم . محمد تقي ديارى . مقال نشر في الموقع الرسمي لمركز البحوث المعاصرة في بيروت . سنة 2017 .

وبالعودة إلى قضية النسخ عند الدكتور العلواني في كتابه (نحو موقف قرآني من النسخ) ندرك أنه كان على بينة من خطورة موضوع النسخ وعلى دراية تامة بالأبحاث والدراسات التي أنجزت في شأنه ولذلك فهو سلك في هذا الكتاب استراتيجية علمية صارمة، فيبدأ بتحديد مفهوم النسخ في القرآن، والطرق التي يعرف بها، ثم يعتمد إلى تحديد الأصل المعتمد في إثارة مشكلة النسخ. ويتوقف طويلاً عند الآية 106 من سورة البقرة باعتبارها منطلق الباحثين والخائضين في قضية النسخ على حد سواء. معتبرا على سبيل القطع، أنها ليست نصا في وقوع النسخ بمعناه عند المتأخرين، وأن قضية نسخ بعض آيات القرآن الكريم قضية يرفضها القرآن، ولا يستسيغها الحس العلمي الذي بناه القرآن المجيد في عقول وقلوب وأفئدة المسلمين¹. وقد اعتمد في نقده ومراجعته لموضوع الناسخ والمنسوخ على مداخل علمية ومنهجية مختلفة نذكر منها ما يلي:

المدخل الأول: الوحدة البنائية في الخطاب القرآني

لقد حاول الدكتور العلواني تتبع معاني النسخ في القرآن ثم في السنة ثم في اللغة، خلافا لمنهج الكاتبين في العلوم والمعارف الإسلامية، إيمانا منه أن للقرآن لسانا تميز به عن لغة العرب²، ثم عرج على استعمال الأصوليين والمفسرين واللغويين المختلف لمفهوم النسخ حسب تخصصاتهم العلمية جازما بأن جميع الآيات التي وردت مادة "نسخ" فيها لا يقصد بها تلك المعاني التي ذهب الأصوليون والمفسرون واللغويون إليها بناء على ما سبق إلى الأذهان واستقر فيها من معان اصطلاحية (رفع حكم بحكم، أو إبطال حكم متقدم بمتأخر، أو بيان انتهاء مدة حكم)³، مرجحا أن النسخ حقيقة في النقل مجاز في الإزالة. ومؤكدا أن الوحدة البنائية للقرآن تحيل إمكان قيام تعارض أو تناقض أو تمناع أو معاندة بين آياته، ولذلك فإن هذه الوحدة مانعة من قبول "نظرية النسخ" بكل تلك المعاني بين أي الكتاب العزيز، أو بينها وبين السنة النبوية المطهرة⁴.

ولعل اعتماده الأساس في إبطال دعوى النسخ – بمفهوم المتأخرين - لم يكن قائما على تتبع أقوال المجتهدين والمفسرين، وإنما على مراعاة (خصائص الخطاب القرآني)، والتي

¹ - نحو موقف قرآني: 71

² - لسان القرآن. ومستقبل الأمة القطب طه جابر العلواني مكتبة الشروق الدولية. ط 1، ص 9.

³ - نحو موقف قرآني: 15

⁴ - نحو موقف قرآني: 39

يأتي في مقدمتها مراعاة الوحدة البنائية، والجمع بن القراءتين، وعدم التعارض بين نصوص الوحي.

ذلك أن كلمة "آية" المفردة التي وقع عليها فعل النسخ قد وردت في القرآن الكريم في أربعة وثمانين موضعا... والمراد بها جميعها - ودون أي استثناء- العلامة والمعجزة والحجة . ولم ترد هذه الكلمة " آية " ولو مرة واحدة مراداً بها جملة أو عبارة - أي آية - من آيات القرآن الكريم...ومن ثم فإن المراد بالآية المنسوخة ، والتي حلت أخرى محلها في سورة البقرة هي المعجزات المادية التي كانت حجة وعلامة للرسل السابقين والتي نسخت وحلت محلها معجزة عقلية - جمعت بين الإعجاز وبين ذات الرسالة - هي معجزة القرآن الكريم...فلا علاقة لهذه الآية بذلك النسخ الذي فهم منها لآيات القرآن الكريم أو الأحكام التي جاءت بها هذه الآيات...وكذلك الحال مع آية سورة النحل فكلمة آية فيها - كما هي في كل الآيات القرآنية التي وردت فيها - المراد بها المعجزة.¹ وبنحو هذا المعنى قال جل المفسرين قديماً وحديثاً.² بدلالة قوله تعالى (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)³ بعد قوله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير مَّثْلها أو مِثْلها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)⁴ . وإنما زاغت فهوم البعض عن هذا المعنى القرآني بسبب ما صار من المؤلف لكثيرين منهم أن ينشئوا مواقف أو يتبنوا آراء وأفكاراً ، يستندون فيها إلى سنن سبق إلى الأذهان وصولها واستقرارها إليها بمختلف المناهج، واجتهادات توصل من توصل ، إليها بمختلف المناهج ومتنوع الوسائل فإذا أنزل "الخطاب القرآني بعد ذلك حملوه على تلك المسلّمات والثقافات الموروثة التي سكنت عقولهم من قبل. وحين شاعت الروايات في "جيل الرواية" حملوا القرآن على ذلك الفهم الذي استقر لديهم من معاني تلك الروايات، فإن وجدوا تعارضاً بينه وبين ذلك المستقر في الأذهان لجأوا إلى التأويلات المختلفة، ومنها القول "بالنسخ"، للخروج من ذلك التعارض⁵، محاولين بذلك المزج بين القرآن واللغة ومتناسين أنَّ القرآن له لغة خاصة ولسان خاص هو الأصل الذي يجب أن يكون المرجع؛ لأنه

¹ - حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم : 34 - 35 .

² - راجع الكشف للزمخشري 1 / 303 . والمنار 2 / 12 ، والتحرير والتنوير : 655/2

³ - سورة البقرة : 108

⁴ - سورة البقرة : 106

⁵ - نحو موقف قرآني : 17

استوعب اللغة وتجاوزها، وامتاز عليها، فله لسانه المتميز ، فهو يجمع بين اللسان العربي ويشتمل على مزايده، ويرقى بها ، ويتجاوز سلبياته وينأى عنها¹.

المدخل الثاني قواعد اللسان العربي

قال رحمه الله: (أما ما أورده اللغويون، متأثرا وممتزجا بالمعاني الاصطلاحية لدى الأصوليين وما قرره الأصوليون في هذا المفهوم تبعا للغويين فإنه قد تمت صياغة تلك المعاني وإشاعتها بعد أن أبرزوا المعنى الذي بنوه على قبول فكرة "النسخ" التي كانت قد شاعت وانتشرت في جيل الفقه، وحملوا عليها كل ما استعمل من هذه المادة ، وامتد بها الذين توسعوا في هذا المفهوم حتى كاد يصبح مرادفا لمصطلحي "التفسير والتأويل" حيث استعملوه في تقييد المطلق، وتخصيص العام، وبيان المجمل، وتوضيح المبهم، فذلك - كله - قد يطلق البعض عليه مصطلح "النسخ". وكل تلك المعاني المضافة إلى هذا المصطلح قابلة للنظر.² ذلك أنه (بالتأمل في هذا الذي قالته معاجم اللغة العربية ، عن معنى النسخ ، وفي تقسيمها لمعانيه ، وفي الأمثلة التي مثلت بها لهذين المعنيين - الإثبات والإبطال والإزالة ، نجد أننا ، في الحقيقة ، أمام معنى واحد للنسخ ، هو الإثبات والتثبيت . لأن الإزالة التي تحدثت عنها هذه المعاجم لمعنى النسخ ، والتي ضربت لها أمثلة : نسخت الشمس الظل ، ونسخت الريح الآثار ، هي إثبات . مثلها مثل نسخ الكتاب وليس إزالة ولا محو ولا إبطالا بحال من الأحوال. فنسخ الشمس للظل هو نقل له من مكان إلى مكان آخر ، مثل نسخ الكتاب من صورة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر وليس إزالة ولا محو ولا إبطالا وإعداما... وكذلك نسخ الريح للآثار هو نقل لها من مكان إلى آخر...فهو بعبارة ابن منظور : نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو...وكذلك الحال في المثال الذي أورده الراغب الأصفهاني لتناسخ الأرواح " أي بقاؤها وانتقالها إلى الأجسام على التأبید).³

وقد اعتبر العلواني أن اكتشاف دلالة النسخ مرتبط باستحضار الآيات السابقة واللاحقة على الآيتين موضع الاستدلال { مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }⁴ و{ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ

¹ - نحو موقف قرآني....21

² - نحو موقف قرآني من النسخ في القرآن : 15

³ - حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم . د محمد عمارة : 22

⁴ - سورة البقرة : 106

مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ¹ ومرتببط كذلك باستحضار دلالة لفظ (آية) في القرآن الكريم ، مدعما موقفه بدلالة السياق الذي يهدف إلى بيان روح العداء المستحكم بين المسلمين وأهل الكتاب. و مستشهدا بقول الرازي في بيان معنى «ما» في الآية الكريمة التي - تفيد الشرط والجزاء، كما في قولك: من جاءك فأكرمه، لا يدل على حصول المجيء، بل على أنه متى جاء وجب الإكرام² فكذا هذه الآية لا تدل على حصول النسخ بل على أنه متى حصل النسخ وجب أن يأتي بما هو خير منه³،

المدخل الثالث علم الاجتماع الديني⁴

نظرا لأهمية تحديد مفهوم النسخ وتشعب قضاياها أفرد له الدكتور العلواني فصلا من كتابه تحت عنوان (النسخ بين المصطلح والنظرية) والفرق بين المصطلح والنظرية كبير جدا . (فالنظرية تستوعب المصطلحات والمفاهيم، بل وكما كبيرا من المعارف في بعض الأحيان لتكون إطاراً معرفياً يثبت ببرهان من ناحية، ويكون مرجعاً في تفسير مجموعة كبيرة أو صغيرة من القضايا العلمية أو الفنية التي لولا تلك النظرية لبقيت تلك القضايا غامضة أو غير مفهومة)⁵. ثم أردفه بمبحث بين فيه طريقي معرفة النسخ وهما:

(الأول أن يرد نص من الشارع يقول : هذا النص منسوخ بهذا . أو يقول هذا النص ناسخ لذلك⁶ . ولم يذكر لنا واحد من الأصوليين وعلماء القرآن مثالا واحدا على وجود هذا النوع في القرآن المجيد .

¹ سورة النحل : 97 - 98

² - نحو موقف قرآني 27

³ - نحو موقف قرآني 43

4 - أما علم الاجتماع الديني تحديداً، فيدرس، في رأي المنظرين له، تأثير الدين في المجتمع والثقافة والشخصية، كما أنه، بحسب اعتقادهم، يدرس عدداً من الحقول مثل: وظيفة الطقوس الدينية في المجتمع، تصنيف التنظيمات الدينية، استجابة هذه التنظيمات للنظام الاجتماعي العام، أثر الحركات الدينية في المجتمع... الخ.

5 -- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب، بيروت. 1994. 2 / 477

6 - المحصول بتحقيقنا ط. مؤسسة الرسالة - لبنان- (3/377).

الثاني : ما لم ينص فيه على وقوع النسخ به أو عليه نصاً، بل يأتي الشارع - تبارك وتعالى - أو رسوله - صلى الله عليه وسلم - بنقيض حكم الأول أو بضده مع العلم بالتاريخ¹. ثم ذكر الأصل المعتمد في إثارة إشكالية النسخ . وجعل من أهم مهمات البحث تحرير معنى النسخ فقال: «وفي بحثنا -هذا- محاولة لتحرير هذا المفهوم بعد تفكيكه ، وإعادة بنائه بناء مفاهيمياً دقيقاً انطلاقاً من استعمالات القرآن الكريم له². لأن مفهوم النسخ - في رأيه - ليس مجرد مصطلح معزول، بقدر ما هو (نظرية متكاملة) يمكن أن يطلق عليها "نظرية النسخ"، وهي نظرية تستوعب مصطلحات ومفاهيم ، وتقف إطاراً يرجع إليه في التفسير³.

إنها نظرية لا تنفصل عن قضايا جمع القرآن ، وتاريخه وتدوينه ، وأسباب نزوله، وقراءاته وتناقله. ومن المتعذر تصور جوانبها - كلها - دون الإحاطة بذلك كله، والنظر فيه بشكل منطقي مترابط، وكذلك النظر في اختلافات الصحابة في تلك المرحلة، ومآخذ بعضهم على سيدنا عثمان، ومآخذ بعضهم على اللجنة التي شكلها لكتابة القرآن في المصاحف، وتنافسهم في نيل ذلك الشرف، وما ورد من اعتراضات على عثمان وزيد من قراء آخرين مثل ابن مسعود وابن عباس وسواهما، فكل ذلك لابد أن يؤخذ بنظر الاعتبار، وكذلك لابد أن يؤخذ بنظر الاعتبار تناول البعض من الذين اطلعوا على بعض مصاحف الصحابة، والخلط بين ما كتبوه باعتباره قرآناً يتلى ، وبين ما كتبوه تعليقا واستنباطات فقهية ، أو تفسيرات وتأويلات لهم... كذلك لابد أن يأخذ الباحث في هذه المسائل بنظر الاعتبار الخلافات التي ثارت بين أهل الشام وأهل العراق والتي جعلت حذيفة وغيره يهرعون إلى عثمان بحثاً عن علاج لتلك الظواهر التي بدأت تبرز وتنميتها الفتن، وتقويها الاختلافات، ولو أن علماء القرآن وعلماء أصول الفقه التفتوا إلى مثل هذه الأمور التي لا يستطيع أن يتجاهلها أي مهتم "بعلم الاجتماع الديني" و"علم اجتماع المعرفة" الذي نبه كثير من أئمتنا إلى قواعده، بدءاً بالإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والثوري، وانتهاءً بابن خلدون وابن تيمية ومن إليهم⁴، ولذلك فإن لنا كبير الأمل في أن ترفع تلك الروايات الغثية في قضايا "الناسخ والمنسوخ" من برامج التعليم في "علوم القرآن وفي علم أصول الفقه"، وتحال مسائلها إلى التراث الذي يرجع إليه الباحثون

¹ - نحو موقف قرآني....23

2 - وفق منهج الدراسة المصطلحية للمفاهيم القرآنية الذي حددت أركانه المدرسة الفاسية بإشراف الدكتور الشاهد البوشيخي حفظه الله تعالى.

³ - نحو موقف. قرآني من النسخ في القرآن..ص 21.

4 - اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، 2/ 848. المقدمة. عبد الرحمان بن خلدون: 332.

المتعمقون والمتخصصون في هذه المجالات، لمعرفة كيف تنعكس مشاكل المجتمعات وتطور الفتن على مواقفها من مرجعيتها وأصول تلك المرجعية، ويعرف الناس ما حاكه الكفار والمشركون والمنافقون والمغفلون من شبهات حول القرآن المجيد.¹

بهذا البعد السوسيولوجي وغيره من الأبعاد النفسية والتربوية سلك الدكتور العلواني طريقه في تحليل النصوص، والتخلص من إشكالية النسخ . فهو يلجأ أحيانا إلى المدخل النفسي والتربوي، فتجده مثلا يرفض ادعاء نسخ آية الأنفال: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۖ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ۚ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ، الْأَن حَقَّقَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ۚ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)؛ ويرى أنها جاءت على سبيل التحفيز، وتحريك الطاقة النفسية، وتعزيز الرغبة في العطاء والتضحية؛ لتحقيق غاية عليا يمكن الوصول إليها. قال رحمه الله: هاتان الآيتان وردتا في سورة الأنفال، وسورة الأنفال اشتملت على آيات كثيرة تنبه إلى أن السياق سياق تشجيع وتعبئة نفسية للمؤمنين ... وسياق السورة كله يدور حول رفع معنويات المسلمين الذين وجدوا أنفسهم في معركة لم يكونوا يتوقعون حدوثها، بل كانوا لا يريدونها....وبالتالي فهذا كله يؤكد أن هذه السورة الكريمة هي سورة تعبئة للجماعة المسلمة لتحقيق نصرا بإذن الله فإدخالها في مجال الأعمال التكليفية أمر لم يكن واردا ، خاصة وأنه ما من فعل تكليفي إلا وقد علَّقه الله تبارك وتعالى – فضلا منه ونعمة – بالاستطاعة بما في ذلك التقوى، لكن العقل الفقهي يحرص على الدوام أن يترجم كل شيء إلى حلال وحرام، وأمر ونهي، وناسخ ومنسوخ. وعمليات بناء الأمم وتربيتها لا تتوقف على التقنين الفقهي وحده).²

وبمثل هذا التحليل يمكن دفع توهم النسخ عن النصوص الحديثية أيضا كما قال الشيخ القرضاوي رحمه الله: (والحق أن كثيرا مما قيل فيه بالنسخ ، ليس بمنسوخ حقيقة، بل كلا النصين كان يمثل سياسة شرعية نبوية في موقف معين ولأسباب وملابسات معينة، فلما تغير السبب الموجب ، تغير الحكم....وهذا ما قاله بعض الأئمة في النهي عن الادخار في لحوم الأضاحي ثم إباحتها بعد ذلك ، إنه لم يكن نسخا ...فقد منع النبي صلى الله عليه وسلم

¹ - نحو موقف قرآني83

² - نحو موقف قرآني94

2 - نحو موقف قرآني94

من ادخار لحوم الأضاحي ، بعد ثلاثة أيام من يوم عيد الأضحى حين كان بالناس جهد ومشقة وحاجة إلى اللحم ، وقد وفد عليهم وافدون محتاجون فأصدر النبي صلى الله عليه وسلم أمره بمنع الادخار بوصفه إمام الجماعة ورئيس الدولة ... فلما زالت العلة زال الحكم، وجاء الحديث مصرحاً بالإباحة . "كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي، فكلوا وأطعموا وادخروا" ... وهذا معنى دقيق بديع ، يحتاج إلى تأمل ، وبعد نظر ، وسعة اطلاع على الكتاب والسنة ومعانيهما . وتطبيقه في كثير من المسائل عسير إلا على من هدى الله¹

المدخل الرابع : علم الكلام

لقد كان الخلاف العقدي المتعلق بقضية خلق القرآن الكريم ، من أخطر المعارك الفكرية التي وقعت في تاريخنا ، والتي ما زالت آثارها عالقة في تراثنا الفكري، وهي التي عرفت بمحنة "خلق القرآن" يوم ذهب المعتزلة إلى القول بالخلق، وخالفهم الأمة - كلها - في توكيد قدم القرآن المجيد وإطلاقه ونفي تاريخانيته وأنه كلامه - تعالى - غير مخلوق. وقد دفع بعض علماء الأمة حياتهم ثمناً لذلك ، ودفع بعضهم حريتهم في هذه المعركة، ولم يسأل المسرفون في دعاوى "النسخ" أنفسهم حول مدى قيمة أو أهمية هذه القضية إذا قيل بالنسخ ، خاصة نسخ التلاوة، وكيف يستقيم لهم القول بالنسخ والقول بقدم القرآن المجيد في وقت واحد ؟ إنها عقلية التجزئة ، تقول القول، وتتجاوز لوازمه المنطقية ، أو تتغافل عنها لعدم الخضوع لمنهج صارم يضبط حركة العقل الإسلامي وهو يقرأ الخطاب القرآني.

والعجب من الأشاعرة ومن إليهم من القائلين "بالكلام النفسي" كيف يتقبلون القول "بنظرية النسخ" ويروجون لها مع القول "بالكلام النفسي"، الذي اعتمدوه لتوكيد صفة القرآن المجيد الأساسية ألا وهي "القدم"، مقابل القول "بخلق القرآن" الذي تبنته المعتزلة، فإنَّ القدر المشترك بين سائر معاني النسخ التي ذكروها "كالرفع والنقل والإزالة والتبديل والإبطال وما إليها" إنما هو "التغيير"، ففي كل تلك المعاني تغيير ما، وهذا يتنافى مع القول "بقدم القرآن" باعتباره كلام الله - تعالى - وصفة من صفات ذاته العلية لا يقبل التغيير، والفوائد والحكم التي ذكروها للنسخ لا تكفي للتخلص من هذا الإشكال، فإما القول بقدم القرآن، - وأنداك - لابد من نفي النسخ كلياً بسائر معانيه، أو تحويل كل ما ادعي وقوع النسخ فيه إلى أمور أخرى يمكن أن تشكل أدوات لفهم المجتهد، لا أحكاماً تسري على الخطاب القرآني، ولا

¹ - السنة مصدراً للمعرفة والحياة . د يوسف القرضاوي. دار الشروق ، القاهرة . ط 3 . 2002 ص 61-63 .

تتناقض واتصافه "بالقدم"، كأن يعتبر النصان المتعارضان أو المتعادلان - في ذهن المجتهد - من قبيل عام وخاص، فيخصص العام بالخاص، أو يقيد المطلق بالمقيد أو يبين المجمل بالمبين أو نحو ذلك مما لا يعد تغييراً ولا يخل بصفة القدم أو يعارضها.¹

خاتمة:

إن الدكتور العلواني لم يكن بدعا من العلماء حين اعترض على كثير من مباحث النسخ المبتوثة في كتب التراث، بل هو في ذلك تابع لمن سبقه من العلماء الأعلام، فهذا الإمام الطبري شيخ المفسرين يضيق ذرعا بدعوى النسخ، ويرد في غضب على من زعم أن آية (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) قد نسخها آيات الجهاد، ويرى أن هذا قول لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة ولا عقل.² وهذا الإمام مكي بن أبي طالب يرى أن أكثر المؤلفين قد أدخلوا في الناسخ والمنسوخ آيات كثيرة كان حقها ألا تضاف إلى الناسخ والمنسوخ، لأننا لو اتبعنا هذا النوع لذكرنا القرآن كله في الناسخ والمنسوخ.³!!

وهذا ابن الجوزي يتألم مما صدر من بعض المفسرين الذين أقدموا على هذا العلم فتكلموا فيه، وصنفوه، وقالوا بنسخ ما ليس بمنسوخ. ومن نظر في كتاب الناسخ والمنسوخ للسدي رأى التخليط والعجائب، ومن قرأ كتاب هبة الله المفسر رأى العظائم، وقد تداوله الناس لاختصاره.⁴

- إن الدعوة إلى إعادة قراءة التراث هي دعوة إلى تجديد التواصل مع القرآن الكريم، ولن يشفع لنا أمام الله رمي جمل القراءة على السلف؛ لأنهم قدموا ما عندهم لعصرهم، ولم يقدموه لنا، بل نحن من افترض ذلك، وهم براء من دعوانا هذه، لأنهم لو فكروا بهذه العقلية لما أبدعوا كل ذلك الإبداع.

ومن المهم أيضاً أن نتنبه إلى أننا عندما ندعو لقراءة التراث لا يعني ذلك حرباً مع السلف كما يفهم البعض، فيبدوون بكيال الاتهامات لهم ووصفهم بالتقصير...، صحيح هم

¹ - نحو موقف قرآني: 89

² - جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، 42/14، تحقيق شاکر، ط: 1، مؤسسة الرسالة، 2000

³ - الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، لمكي بن أبي طالب، ص (٤٩-٤١).

⁴ - نواسخ القرآن لابن الجوزي، ص 123

قاصرون عن إدراك مقاصد عصرنا وهم لم يدَّعوا ذلك أصلاً، بل نحن الذين ألبسناهم ذلك اللبوس. وإنما هم اجتهدوا وأبدعوا في معالجة قضايا زمانهم.

- إن غالب ما ذكره العلماء في الناسخ والمنسوخ لم يرد فيه نص صريح بوقوع النسخ، وإنما هو مجرد اجتهد منهم بناء على ما ظنوه من تعارض بين ما فهموه من آيات القرآن الكريم. قال الشاطبي: "غالب ما ادَّعى فيه النسخ إذا تُأَمِّل وجدته متنازعاً فيه، ومحتماً، وقريباً من التأويل بالجمع بين الدليلين على وجه، من كون الثاني بياناً لمجمل، أو تخصيصاً لعموم، أو تقييداً لمطلق، وما أشبه ذلك من وجوه الجمع، مع البقاء على الأصل من الإحكام في الأول والثاني"¹.

- إن النسخ نوعان : نسخ كلي يتعلق بنسخ الشرائع السماوية بعضها لبعض، ونسخ جزئي يقع في أحكام الشريعة الواحدة نفسها . ولا يوجد مسلم ينكر هذه الحقيقة، إذ لا نعلم أحداً من المسلمين أنكر نسخ شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لجميع ما سبقها من شرائع، إلا ما ادعى على أبي مسلم الأصفهاني، وهذا من التحامل عليه، فإنه إنما أنكر النسخ الجزئي في الشريعة الإسلامية لا النسخ الكلي، وكلامه منصب على إنكار النسخ في القرآن على وجه الخصوص .

وختاماً، وبعد هذا البيان، نتساءل كما تساءل الباحثون من ذي قبل : هل ما يزال القرآن الكريم هو المصدر الموجه لهذه العلوم والمعارف؟ أم أن هذه العلوم والمعارف قد اتخذت لها معارف ومصادر أخرى تهيمن عليها وتوجهها أكثر مما يوجهها القرآن الكريم؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف ضاقت مساحة القرآن الكريم في هذه العلوم واتسعت مساحات أخرى ربما قد لا يكون المصدر الأول فيها هو القرآن نفسه؟ وكيف تحول هذا القرآن من كونه شاهداً على المعرفة إلى كونه شواهد لهذه المعرفة؛ التي انبثقت منه ابتداءً. هذه الأسئلة وغيرها تنادي الأكياس من ذوي الخبرة والمراس هلاً أدركتم هذا الإفلاس الذي أصاب القوم في التعامل مع كتاب رب الناس ، بسبب ما غشي الفؤاد من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس . وهلا عقدتم العزم على الصدق والإخلاص في خدمة ما فيه شفاء ورحمة لكل الناس. ويسألونك متى هو قل عسى أن يكون قريباً . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ..

¹ - الموافقات . أبو إسحاق الشاطبي . 3 / 106 .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- الإتقان في علم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق حامد بن أحمد الطاهر البسيوني، دار الفجر للتراث القاهرة، 1427 هـ - 2007 م.
- البرهان في علوم القرآن . بدر الدين الزركشي. ت محمد أبو الفضل إبراهيم. ط 3 / 1400. دار الفكر.
- الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، مكي بن أبي طالب، تحقيق . أحمد حسن فرحات. دار المنارة 1986 .
- تفسير سورة الأنعام الدكتور طه العلواني . دار السالم للطباعة والترجمة والنشر، 2012 القاهرة.
- التعليم الديني بين التجديد والتجميد . طه جابر العلواني. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة . ط . 2009
- التيسير في أحاديث التفسير، الشيخ محمد المكي الناصري: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1405 هـ بيروت.
- جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، 42/14، تحقيق شاكر، ط: 1، مؤسسة الرسالة، 2000
- حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم . د محمد عمارة . ط 1 / 2010. دار السلام. القاهرة
- رحلة في فكر ومنهجية طه جابر العلواني التيجاني عبد القادر حامد) مركز الإسلام في العالم المعاصر. ط 1 / 2022 . الولايات المتحدة الأمريكية .
- السنة مصدرا للمعرفة والحياة . د يوسف القرضاوي . دار الشروق . القاهرة . ط 3 . 2002
- الكشف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، على محمود معوض، .الرياض مكتبة العبيكان، 1998
- لسان القرآن . ومستقبل الأمة القطب طه جابر العلواني . مكتبة الشروق الدولية . ط 2006.
- المحصول في أصول الفقه . فخر الدين الرازي . تحقيق طه جابر العلواني . مؤسسة الرسالة – لبنان.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا بيروت: الشركة العالمية للكتاب، 1994 .
- الموافقات في أصول الشريعة . أبو إسحاق الشاطبي. تحقيق عبد الله دراز.. دار الشروق. ط 2 . 1975
- نحو موقف قرآني من النسخ . الدكتور طه جابر العلواني. مكتبة الشروق . القاهرة . 2006 .
- النسخ في القرآن بين المؤيدين والمعارضين . محمد الناصري. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال.
- نواسخ القرآن لابن الجوزي، تحقيق . محمد أشرف علي الملباري . ط 1 . 1984 . المجلس العلمي. إحياء التراث الإسلامي. المملكة العربية السعودية.

الرؤية الكونية القرآنية ومنطلق التغيير في المشروع المعرفي لطفه جابر العلواني

د. كريمة دوز

باحثة في العقيدة والفكر ومقارنة الأديان

ملخص:

لا يخفى علينا أن بناء التصورات والمفاهيم والكشف عن المصطلحات مفتاح المعرفة، وباب من أبواب الفهم والفقه، وعلما تتأسس الرؤية الكونية أو التصور الكلي لأي حضارة أو عقيدة دينية أو فكر إنساني، لذلك كان العمل على إعادة بناء المفاهيم وفق رؤية قرآنية أصيلة وتنقية الثقافة الإسلامية من المفاهيم الغربية من المشاريع العظيمة التي شغلت حركة "إسلامية المعرفة"، كما كانت من أهم القضايا الفكرية التي كرس لها "طفه جابر العلواني" -أحد أقطاب الحركة- جهده المعرفي والفكري، الذي اعتبر أن إحياء الرؤية الكونية القرآنية لا يكون إلا بتفعيل قواعد العقيدة معرفيا وتحويلها إلى طاعة معرفية مبدعة تقدم إجابة شافية عما يطلق عليه "الأسئلة الكلية أو النهائية".

ومن هذا المنطلق جاءت هذه الورقة الموسومة بـ"الرؤية الكونية القرآنية ومنطلق التغيير في المشروع المعرفي لطفه جابر العلواني" للوقوف على أثر الرؤية الكونية القرآنية في تغيير النظر الإنساني لله والإنسان والكون، ثم موقع هذه الرؤية في المشروع المعرفي لطفه جابر العلواني، ومقاربة المرتكزات المنهجية لهذا التصور وأثره في بناء الإنسان وتشديد العمران. كلمات مفتاحية: رؤية كونية، معرفة، إنسان، العلواني، توحيد، القرآن...

**"The universal Quranic Vision and the Starting Point for Change in
Tahar Jaber Al-Alwani's Epistemological Project".**

Abstract:

It is widely acknowledged that developing perceptions and concepts and defining terminology is crucial for acquiring knowledge. This process serves as a gateway to understanding and consciousness, and is the basis for the worldview or total perception of any civilization, religious doctrine, or human thought.

Thus, one of the major projects undertaken by the 'Islamization of knowledge' movement was the reconstruction of concepts in accordance with an accurate

Qur'anic vision and the purification of Islamic culture from Western concepts, and it was also one of the most important intellectual issues to which 'Taha Jaber Al-Alwani' - one of the polar figures of the movement devoted his cognitive and intellectual efforts.

The author argues that the revival of the Qur'anic worldview can only be achieved by activating the rules of faith (Al-Aqidah) and transforming them into creative cognitive obedience. This will provide the necessary answers to what he calls the "big or final questions".

Keys words: Worldview, knowledge, Man, Alalwani, Tawhid, Quran...

مقدمة:

بدخول الحضارة الغربية عالم الحداثة وانفصال عالم الغيب عن عالم الشهادة، بدأت أركان الرؤية الدينية عن العالم تتلاشى، إلى أن أرسى الرؤية العلمية معالمها المنهجية، فصارت الحاكم على شتى صنوف المعرفة، فتلكت الرؤية التي كانت تضع الإله مرجعية نهائية في النظر للإله والإنسان والكون صارت من أشواق الماضي، وأبدلت بنظرة حسية تحاكم الواقع إلى العقل والتجربة، فصارت إشكالات العلوم والمعارف الإنسانية تحل بهذا المنهج العلمي الجاف الذي ألغى الغيبيات.

وبحكم العولمة وقوة الثقافة الغربية الغالبة بدأت هذه الرؤية تتسرب إلى العالم الإسلامي، فكانت دافعا لإعادة تجديد النظر في علاقة القرآن بواقع الأمة ودوره في حل الأزمة، فوجدت مجموعة من المفكرين أقلامهم وعقولهم للبحث عن منهجية إسلامية تُقام وتقومُ بها المعارف الإنسانية، وكان طه جابر العلواني من أبرز المفكرين الذين عملوا طيلة حياتهم على إيجاد منهجية كونية قرآنية يرى من خلالها المسلم الله والكون والإنسان، منهجية تستوعب المنهج العلمي وتتجاوزه. تنطلق من التوحيد لبناء الإنسان وتشديد العمران.

ولعل في هذه المقدمة ما يؤكد أهمية تجديد نظرنا لكتاب الله -تعالى- وإعادة قراءته بروح تجديدية ترى بيقين أن لا مخرج للأزمة إلا بالانفتاح على كلام الله، واستنباط منهج قرآني تحاكم إليه العلوم والمعارف وتحل في رحابه مشكلات الواقع، والورقة جاءت للنظر في صروح هذا المنهج الكوني الذي حبره العلواني وعمل على جلاء معالمه ومحدداته المقاصدية في كتبه ومصنفاته.

• الأهداف: تهدف الورقة إلى بيان معالم المنهج القرآني من خلال ما حبره العلواني، وجلاء الرؤية القرآنية المقاصدية في بناء الإنسان المسلم وتفعيل دوره في الوجود.

• الإشكالية: تنطلق إشكالية البحث من استفهامين هما: هل يمكن أن نعد القرآن منهجا في ذاته؟ وهل يحمل بين آياته العظيمة محددات نظرية وضوابط يمكن استنباطها منه للخروج من مأزق المنهج العلمي؟

• منهج البحث: لبيان التصور العلواني ومعالجة إشكال الورقة اعتمدنا المنهج الاستقرائي، وذلك باستقراء المنهج العلواني من خلال ما حبره في مصنفاته، واعتمدنا كذلك على المنهج التحليلي وذلك بتحليل الرؤية العلوانية التجديدية في النظر لعلاقة المسلم بالقرآن الكريم وتنزيله على الواقع.

• عناصر البحث:

- المبحث الأول: الرؤية الكونية (من مجال التداول الغربي إلى مجال التداول الإسلامي)

- المبحث الثاني: المنهجية الكونية القرآنية والثلاثية المقاصدية (نحو بناء رؤية

مقاصدية قرآنية)

- المبحث الثالث: الرؤية القرآنية منطلق لبناء الإنسان (من إنسان التدسية إلى إنسان

التزكية)

المبحث الأول: الرؤية الكونية (من التداول الغربي إلى التداول الإسلامي).

يعد مصطلح "الرؤية الكونية" من المصطلحات الشائعة التي انتقلت من بيئة معرفية مباينة للبيئة المعرفية الإسلامية، لذلك سنمضي في لمحتنا التعريفية هذه للوقوف على الجذور التاريخية والمفهومية للمصطلح في بيئته الأم، لنسير فيما بعد إلى معرفة السياقات التاريخية والمعرفية التي واکبت انبثاق المصطلح في مجال التداول المعرفي الإسلامي، والوقوف على إطلاقاته في البيئة الفكرية الإسلامية.

المطلب الأول: مصطلح "الرؤية الكونية" في المجال التداولي الغربي:

مصطلح "رؤية كونية" أو "رؤية العالم" هو تعريب للكلمة الإنجليزية "Worldview" التي تعد ترجمة للكلمة الألمانية "Weltanschauung"، وهي من المصطلحات الحديثة التي إن لم تكن شائعة في اللغة الرومانية، غير أنها مفهوم رئيس في الفلسفة والإيستمولوجيا Epistémélogie الألمانية ⁽¹⁾، حيث صيغ المصطلح واشتهر في سياق المثالية والرومانسية الألمانية مع ازدهار الروح الحديثة التي هيمنت على التاريخ الفكري اللاحق ⁽²⁾، وأضحت منذ 1840 م العبارة الرئيسة في معجم المثقف الألماني ⁽³⁾، وفي نهاية القرن التاسع عشر ميلادي، بدأ المصطلح ينفذ إلى لغات أخرى، ليؤسس طريقه العملي إلى كل خطاب جمعي في العالم الغربي، إما ترجمة افتراضية أو استعارة، وإن كانت الاستعارة "Weltanschauung" غالباً هي الأكثر استخداماً الآن إلى حد بعيد ⁽⁴⁾.

ومن اللافت أن الجذور التاريخية لاستعمال المصطلح تعود إلى القرن الثامن عشر ميلادي مع الفيلسوف المثالي الألماني كانط، من خلال كتابه نقد الحكم ⁽⁵⁾ "critique of

⁽¹⁾ Weltanschauung, from concept to rough guide questionnaire on personality, Luliana Zaharia, international journal of academic research and business and social science, July 2014, v(4), p(434).

⁽²⁾ On the Idea of worldview and its relation to philosophy, Albert M. Wolters, stained Glass university press America, (1983), p(18).

⁽³⁾ Ibid, p(14).

⁽⁴⁾ Ibid, (p15).

⁵ Critique of judgment, Immanuel Kant, translated by: Werner s. Pluhar, Hackett Publishing company, Cambridge-USA, (1987), p(111).

”judgment، حيث استعمله مرة واحدة في سياق حديثه عن قوة العقل البشري على الإدراك الحسي⁽¹⁾، ليصبح فيما بعد نظرية لدى فلهلم دلتاي⁽²⁾، ويتم تداوله ليس فقط في الفلسفة وإنما في الشيولوجيا، والأنثروبولوجيا⁽³⁾، وغيرهما من حقول المعرفة الإنسانية. وتتفق المعاجم الألمانية على تحديد معنى ”Weltanschauung“، التي تُكون عندنا مواقف وتصورات انتقلت إلينا جراء معتقد ديني أو نمط سلوكي، اجتماعي أو ثقافي أحكمت جميعها تصورنا عن الكون والحياة⁽⁴⁾، وبذلك نجد أن الرؤية الكونية قد تختلف باختلاف الأنماط العقائدية والثقافية والاجتماعية التي تتربى في أكنافها وتولد من رحمها، لتُشكل فيما بعد تصورات الإنسان ورؤاه عن نفسه والآخر والكون وما يحيطه من موجودات. فهي إذن تعكس فهما خاصا للكون الذي يحيا فيه الإنسان، وتصل وجوده بالآخرين والكون، وهذه الرؤية شخصية وجماعية، تتشكل من خلال الذاكرة الشخصية، أو الفكر الاجتماعي⁽⁵⁾، إنها وحدة من المعتقدات حول أكثر القضايا أهمية في الحياة⁽⁶⁾، ونظام كامل من

(1) ينظر: رؤية العالم والعلوم الاجتماعية، حسن فتحي ملكاوي، مجلة إسلامية المعرفة، مجلد (11)، ع(42)-

(43)، (2006م)، ص(52).

(2) ينظر: القيم القرآنية ورؤية العالم مسارات التفكير والتدبير، رضوان السيد، أعمال الندوة العلمية الدولية: القرآن الكريم ورؤية العالم مسارات التفكير والتدبير، الرابطة المحمدية للعلماء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط-المغرب، الطبعة الأولى، (1436هـ-2015م)، ص(21).

(3) what is a worldview, Clement Vidal, p (12)

رابط المقال:

https://pdfs.semanticscholar.org/375a/4866b97c532c04026a52581b9d68a78910da.pdf?_ga=2.202637649.1587687763.1595590377-1929228219.1595590377

(4) رؤية العالم في معنى المصطلح وما يضاعفه، محمد آيت الفران، أعمال الندوة العلمية الدولية: القرآن الكريم ورؤية العالم مسارات التفكير والتدبير، ص(56)، (بتصرف).

(5) The challenge of pluralism to the western and Muslim worldviews, reading Islamic worldviews, Muhammed Khalid Masud, le noble Coran et vision du monde voies de reflexion et d'action, série colloques et conference, Maroc, Rabita Mohammadia des Oulémas, (03 et 04 juin 2014), p (7).

(6) worldviews in conflict, Ronald H. Nash, p (16).

الأفكار التي تجيب عن الأسئلة التي يقدمها واقع الوجود⁽¹⁾، وتنعت هذه الأسئلة في الفلسفة بالأسئلة الكلية أو الكبرى، أي التساؤلات عن الإله والإنسان والكون وعلاقة كل منها بالآخر وعن المبدأ والمصير، والإجابة عنها تشكل شبكة كلية ونظرة شاملة للوجود أو رؤية للعالم⁽²⁾ Worldview.

فالرؤية الكونية تختلف باختلاف المرجعيات والأيديولوجيات، بين من يتخذ الميتافيزيقا أساسا للنظر في ماهية وجوده، وبين من يلغي التفسيرات الماورائية ويكتفي بالحس والطبيعة في بناء تصورات، وتركيب مواقف الحياتية.

ووفقا لما سلف من تعريفات، ينكشف لنا أن الرؤية الكونية، تصور عام للقضايا الوجودية، والأسئلة الفلسفية الملحة على العقل البشري، يتحدد من خلالها موقف الإنسان العقائدي من الثلاثية الأنطولوجية (المبدأ، الحال، المصير)، وينطرح على ضوء المرجعية المؤسسة لهذه الرؤية، غائية الإنسان في الكون، وعلاقته بما يحيطه من موجودات.

وهكذا نصل إلى كون الرؤية الكونية، بمنأى عن استخدام المصطلح واستعمالاته في مجال التداول الغربي، هي بوصلة الفكر الإنساني، إذ ترخي بظلالها على سائر جوانب شخصية الإنسان، فتتدخل في تحديد نوع القيم الأخلاقية والمعايير التي يتعامل بها مع الأشياء، وترسم له أهدافه التي يتطلع إلى تحقيقها، والبرامج والمسارات التي يتعين عليه أن يختارها للوصول إلى تلك الأهداف والتطلعات⁽³⁾.

المطلب الثاني: مصطلح "الرؤية الكونية" في المجال التداولي الإسلامي:

انتقل المصطلح إلى مجال التداول الإسلامي في مطلع القرن العشرين، واشتهر سنة 1960م، حينما نقد المفكرون الإسلاميون، أمثال: سيد قطب، وسيد مودودي، الحداثة،

⁽¹⁾Worldview: definitions, history, and importance of a concept, David Naugle, Dallas Baptist University, Texas-USA, P(3), paper link :

https://www3.dbu.edu/naugle/pdf/Worldview_defhistconceptlect.pdf

⁽²⁾ ينظر: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية، عبد الله محمد أمين، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف، الدوحة- قطر، الطبعة الأولى، (1434هـ-2012م)، عدد (153)، ص(33)، والأيديولوجية المقارنة، محمد تقي مصباح اليزدي، ترجمة: عبد المنعم الخافاني، دار المحجة البيضاء، بيروت-لبنان، (1413هـ-1992م)، ص(10).

⁽³⁾ معرفة الإسلام، علي شريعتي، ترجمة: حيدر أمير، دار الأمير، بيروت-لبنان، (الطبعة الثانية)، (1428هـ-2007م)، ص(172).

والشيوعية، والعلمانية، والإسلام الحداثي، ليقدموا من ناحية أخرى عبارات مختلفة لتعريف الرؤية الإسلامية "Islamic⁽¹⁾Worldview"، فقد كتب المودودي عن "منهج الحياة الإسلامية"، وجاء سيد قطب -الذي كان مشغولاً منذ مطلع الخمسينات بالربط بين الفهم الذي تتطلبه عقيدة الإسلام وما يبني عليها من سلوك، والفكرة الكلية عن الكون والحياة والإنسان-⁽²⁾، بمصطلح "التصور الإسلامي"، الذي عرض ماهيته ومقوماته من خلال كتابه "مقومات التصور الإسلامي"، ثم توالى استعمال مصطلحات أخرى كلها تصبو إلى تعريف الرؤية الكونية الإسلامية وإبراز معالمها.

غير أن الانطلاقة الفعلية للنظر في مصطلح "الرؤية الكونية" وما يندرج تحته من قضايا فكرية ومعرفية، لم ينل أهميته إلا بعد حركة إسلامية المعرفة⁽³⁾ في 1979م، حيث انطلقت هذه الحركة في بداية القرن 14هـ، لتنقية الثقافة من الأفكار والمفاهيم الغربية، وارتأت أن أسلمة المعرفة لا يمكن أن تتم دون إعادة تعريف رؤية العالم الإسلامية التقليدية⁽¹⁾، وأن بناء نظام معرفي إسلامي لا يكون إلا بإعادة كشف وبناء النظام التوحيدي

⁽¹⁾ The challenge of pluralism to the western and Muslim worldviews, reading Islamic worldviews, Muhammed Khalid Masud, le noble Coran et vision du monde voies de reflexion et d'action, série colloques et conference, Maroc, Rabita Mohammadia des Oulémas, (03 et 04 juin 2014), p(9).

⁽²⁾ رؤية العالم والعلوم الاجتماعية، فتحي حسن ملكاوي، مجلة إسلامية المعرفة، عدد (42-43)، مجلد (11)، ص(58)

⁽³⁾ للوقوف على معالم ومرتكزات ومسارات مشروع إسلامية المعرفة وأهم المنجزات الفكرية التي أنتجتها هذه الحركة يمكن الاطلاع على كتاب "إسلامية المعرفة" لإسماعيل فاروقي، حيث بين من خلاله مقصود الحركة وأسسها العامة، ومنطلقاتها المنهجية والمعرفية. (إسلامية المعرفة: الخطة العامة، المبادئ العامة، الإنجازات، إسماعيل فاروقي، دار الهادي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، (1421هـ-2001م))، وينظر كذلك: إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة-مصر، الطبعة الأولى، (1417هـ-1996م).

⁽¹⁾ The challenge of pluralism to the western and Muslim worldviews, reading Islamic worldviews, Muhammed Khalid Masud, le noble Coran et vision du monde voies de reflexion et

للمعرفة القائم على جناحين أساسيين هما: تفعيل قواعد العقيدة معرفيا وتحويلها كما يرى طه جابر العلواني -أحد أقطاب الحركة- إلى طاعة معرفية مبدعة تقدم إجابة شافية عما يطلق عليه "الأسئلة الكلية أو النهائية"، وذلك من خلال الفهم المعرفي لقواعد الإيمان والتركيز على الأبعاد المنهجية لها⁽¹⁾.

فالحركة ترمي من خلال مشروعها إلى بناء رؤية كونية توحيدية تسلم بأن لهذا الكون خالقا، استخلف الإنسان وعلمه ما لم يكن يعلم، وجعل الوحي مصدرا إنسانيا أساسيا لمعرفته، والوجود مصدرا موازيا، وبقراءتهما في إطار التوحيد الخالص، معرفة التوحيد والاستخلاف والأمانة والعمران والشهود الحضاري⁽²⁾.

وهذه القراءة التي يتأسس عليها مشروع إسلامية المعرفة القائمة على النظر في الوحي والكون بالموازاة، نجد أصولها في كتاب الله-جل وعلا- الذي يحث على التدبر في الكتاب المسطور فيقول الله - تعالى:- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۖ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝ ﴾⁽³⁾، والتبصر في الكتاب المنظور فيقول سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝ ﴾⁽⁴⁾، والآيات تترى في الإبانة عن الموقف العقدي الذي يجب على المسلم أن يسلكه في السير إلى الغاية المنشودة، لتحقيق رؤية كونية خلاقة.

فهذا هو السياق والمسار التاريخي لظهور مصطلح "الرؤية الكونية" في الساحة المعرفية العربية، غير أن صياغة المصطلح اختلفت باختلاف الترجمات إلى اللغة العربية، بين

d'action, série colloques et conference, Maroc, Rabita Mohammadia des Oulémas, (03 et 04 juin 2014), p(9).

⁽¹⁾ إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة-مصر، الطبعة الأولى، (1417هـ-1996م).

⁽²⁾ ينظر: المرجع السابق، ص(12).

⁽³⁾ سورة محمد، آية: (25).

⁽⁴⁾ سورة آل عمران، آية: (191-192).

من ترجم مصطلح "Worldview" ترجمة حرفية فكان المقابل العربي "نظرة العالم"، وبين من اختار أن يترجم المصطلح إلى عبارات أخرى ، كالرؤية الكونية، أو الرؤية الكلية، أو الفكرة الكلية، أو التصور الكلي، أو الفلسفة العامة، أو التفسير الشامل، أو النموذج التفسيري...⁽¹⁾، وكلها ترمي بسهامها إلى بيان موقف الإنسان من الكون وإجابته عن الأسئلة الكلية أو الكبرى.

ولعل طه جابر العلواني من أبرز المفكرين المشددين على ضرورة بناء رؤية كونية قرآنية لها محدداتها المنهجية، وسماتها المعرفية والمقاصدية التي من خلالها يمكن الإجابة على ما سماه "العقدة الكبرى"⁽²⁾، أو الأسئلة النهائية، وليصل إلى هذا المنهج الكوني القرآني تجاذبته مجموعة من الإشكالات والاستفهامات المعرفية لعل أهمها:

هل يمكن أن نعد القرآن منهجا في ذاته؟ هل يحمل بين آياته العظيمة محددات نظرية وضوابط يمكن استنباطها منه؟ وهل يملك القدرة على استيعاب سائر منجزات العقل البشري العلمي والمنهجي؟ أم أنه لا يملك القدرة على ذلك؟ وهل يستطيع إذا استوعب تلك المنجزات أن يعالج أزماتها ويقوم بترقيتها ثم تجاوزها؟⁽³⁾

وليوجب على هذه الاستفهامات المعرفية الموصولة بالرؤية الكونية القرآنية، قضى طه جابر العلواني ما يقارب ثلاثين سنة من عمره للكشف عن منهج القرآن المجيد ومنهجيته، وللبحث في الخارطة المقاصدية لهذه المنهجية القرآنية، ولعل المبحث القادم فيه لباب ما يمكن أن نصطلح عليه "التصور العلواني للمنهج القرآني ومقاصده العظمى".

المبحث الثاني: المنهجية الكونية القرآنية والثلاثية المقاصدية (نحو بناء رؤية مقاصدية قرآنية)

⁽¹⁾ رؤية العالم والعلوم الاجتماعية، حسن فتحي ملكاوي، ص(58).

⁽²⁾ ينظر: التوحيد والتزكية وال عمران، طه جابر العلواني، دار الهادي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، (1424هـ-2003م)، ص(72).

⁽³⁾ ينظر: معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني دار السلام، القاهرة-مصر، الطبعة الأولى، (1431هـ-2010م)، (79-80).

المنتبج للحالة المعرفية والفكرية للقرن الواحد والعشرين يلحظ أن روحه غربية خالصة، فهي وليدة إشكالاته وتضاده وصراعه، وما تحياه الحضارة المعاصرة التي أضحت حضارة ضلال للوجهة وفقدان للمعنى وتيه في فقه ثلاثية الوجود الإنساني (المبدأ، الحال، المصير)، يتلخص فيما يمكن الاصطلاح عليه "ثلاثية أزمة الحضارة المعاصرة" والتي جمعها طه جابر العلواني فيما يلي: ضلال الحضارة عن الإله وتوحيده في ذاته، وانحصار الدين في مهام محدودة ثم فقدان بوصلة الجواب عن ذلك الكم الهائل من التساؤلات الأنطولوجية⁽¹⁾.

ولا يوجد في النظرة العلوانية غير القرآن الكريم منقدا للبشرية من ضلال هذه الحضارة المادية، وفي ذلك يقول العلواني: "إن القرآن وحده القادر على أن يحيي البشرية وإنجازها ويمنعها من العودة إلى نقطة الصفر أو البداية أو الجاهلية وذلك لو أصاحت البشرية السمع لهذا القرآن، وأصغت إليه، وتعلمت "التوحيد" من محكم آياته وتعلمت منه منهج "الله أكبر" و"الله أعلم"⁽²⁾.

غير أن المشكلة والأزمة الإضافية كما صورها العلواني تتمثل في أن الأمة الحاملة للواء هذا القرآن غارقة في الوهن والجهل وتعيش حالة "الاسترخاء الحضاري" وهي أزمة شبيهة بحالة الطفيلي العاجز المسترخي الذي يعيش على ما عند غيره ولا يبالي⁽³⁾.

فالأزمة إذن في إيجاد منهج قرآني يخرج الأمة من سباتها ويعيدها إلى قيادة قافلة النجاة، لأن العصر يحتاج منا اتقان دراسة وتحليل وفهم مشكلاته وفق منهج أصيل يراعي جوانب الإنسان، وهذا المنهج لا يتأتى إلا باستنطاق آيات القرآن الكريم ووصل القلب به علما وعملا، ولعل طه جابر العلواني قد حاول تحديد معالم هذا المنهج ورسم مقاصده الكونية بعد محاوراته المتكررة لكلام الله تعالى.

المطلب الأول: الرؤية الكونية القرآنية (معالم ومحددات منهجية):

الرؤية الكونية كما أسلفنا هي المنظار الذي يرى من خلاله الإنسان العالم، وينظم

(¹) ينظر: التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، ص(81-82)،

(²) نفس المرجع، ص(81-82).

(³) ينظر: التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، ص(82).

من خلالها أفكاره وتصورات، وكلما كانت هذه الرؤية متساوقة مع الذات كلما كانت آثارها الإيجابية مشهودة في الواقع، ولعل الأزمة المعاصرة نابعة من أزمة في التصور أو أزمة في الرؤية الكونية، لذلك يرى طه جابر العلواني أن لا مخرج للإنسانية من ضيق الرؤية المادية إلا بمنهج رباني مستخلص من القرآن الكريم، الذي يمكن بكونيته أن يبني ويؤسس الإطار الكوني الشامل للفكر الإنساني، ويصدق على العلم ومنهجه ومنطقه، ويهيمن ويوجه الجهود الإنسانية بشكل جماعي لتطوير الأرض وإعمارها⁽¹⁾.

الفرع الأول: كونية القرآن الكريم

لذلك يطرح طه جابر العلواني فكرة وجود منهج كوني مبثوث في القرآن الكريم أو "الكتاب الكوني"، حيث يمكن أن نجد الشريعة القرآنية مبسوبة مفصلة في سور كثيرة منه، فهو ظاهرة فريدة لأول مرة في تاريخ البشرية ولآخر مرة ينزل للبشرية وحى الله وكلمته بشكل متحجّ معجز للخلق كافة، وفي مقدمتهم النبيون والمرسلون وهو خطاب مطلق، يتعالى على الزمان والمكان، ويستوعبهما ويتجاوزهما ويستهدف هذا الكتاب أن ينشئ ويبني أمة قطبا ووسطا، ويخرجها نموذجا ومثالا للناس باعتبارها خير أمة⁽²⁾.

فالقرآن الكريم خطاب كوني، يستمد كونيته من خصائصه الكبرى الموصولة بثلاثية الشمول والاستيعاب والتجاوز، فتنزهه قبل 14 قرنا تضمن خاصيتين: الهيمنة وإحاطته بما سبق من الأزمنة، وقدرته على استيعاب ما يليه من الأزمنة، فهو المصدق والمهيمن على ما سبق، والمستوعب والمهيمن والمتجاوز لما لحقه، وهكذا ارتأى طه جابر العلواني أن عالمية الإسلام تبدأ من فهم خصائص الكتاب المتضمن لعالمية الخطاب المستوعب، والمتجاوز بذات الوقت لإشكاليات كافة الأنساق الحضارية والمناهج المعرفية والإدراكية لا في الماضي فحسب، ولكن في الحاضر والمستقبل أيضا⁽³⁾.

لكن الإشكال الذي تعيشه الأمة يكمن في أزمة استخلاص هذا المنهج وسبل تنزيهه وإقناع الناس بوجوده مبثوثا بين ثنايا الكتاب الهادي، وطه جابر العلواني قد تنبه لذلك حين قال: "لكن البشرية ومنها غالبية المسلمين وجمهورهم تنظر إلى القرآن على أنه كتاب ديني بالمفهوم اللاهوتي الديني وهذا أكبر عائق يواجه حملة القرآن، ويعرقل جهودهم في إبراز

(1) معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، ص(81)، (بتصرف).

(2) نفس المرجع، ص(75).

(3) ينظر: حاكمية القرآن، طه جابر العلواني، الدار العالمية للفكر الإسلامي، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، (1996م)، ص(34).

وتقديم "المنهج القرآني" لعالم اليوم، فهم في حاجة ليقنعوا أنفسهم وأمتهم أولا- وفي مقدمتها النخب العربية المسلمة- أن في القرآن "منهجاً علمياً كونياً ومنهجية كونية" لا تقاس بالمنهجية العلمية المعاصرة ولا تتنافى معها ولا تناقضها- في الوقت نفسه- بل تستوعبها وترقيها بحيث تصبح قادرة على تجاوز "النسبية" و"الاحتمالية"⁽¹⁾.

فالمنهج الكوني القرآني إذن هو بوصلة الإنسانية للخروج من مأزق اللامعنى وتسلط المنهج العلمي الجاف على شتى جوانب المعرفة الإنسانية وإفقادها روح الوصل بالغيب، فالمنهجية القرآنية تعد أهم مقدمة لبديل حضاري عالمي، لا يستهدف إصلاح أوضاع المسلمين فقط، بل يستهدف إصلاح العالم كله⁽²⁾.

فما هي محددات هذا المنهج وفق الرؤية العلوانية، وكيف يمكن قراءة القرآن الكريم للوصول إلى منهج كوني متكامل؟ ثم ما سبيل الوصول إلى هذا المنهج؟

فهذه الاستفهامات لا يمكن الإجابة عنها دون تقديم لكيفية قراءة كلام الله تعالى لاستخلاص منهجه، وهنا يجيبنا طه جابر العلواني بأن الوصول إلى هذا المنهج لا يتطلب قراءة جديدة للقرآن الكريم تعتمد على المقاربة أو المقارنة أو التأويل، بل لابد من تلاوة تستنطق القرآن ذاته، إجابته الشافية وحلوله لتحديات وأسئلة كل عصر وجيل باعتباره الكتاب المنزل تبياناً لكل شيء إلى يوم القيامة.⁽³⁾

لذلك كان لزاماً على من أراد أن يكتنز منه منهجاً ربانياً ويجني ثماره ويستخرج جواهره المقاصدية أن يكون على أعلى مستوى ممكن من الدقة، ومن أهم مزايا هذا المنهج أن يكون مستنبطاً من ذات القرآن، لأن للقرآن منطقاً الخاص ومنهجه وأساليبه⁽⁴⁾.

وليصـل إلى لباب هذا المنهج عليه أن يتجنب آفة: الانتقائية، والقراءة الجزئية، والقراءة المؤدلجة، ومقصود العلواني بهذه الآفات، صياغة الأفكار والتصورات ومعالجتها خارج دائرة القرآن وفقاً لأيديولوجيا نتبناها، ثم نأتي القرآن نلتمس من آيات متفرقات فيه أحياناً ومن أجزاء منه أحياناً أخرى دعماً وتأييداً وشواهد تؤيدنا في ذلك الفهم المؤدلج وتعاضده وتؤصل له⁽¹⁾، فالمطلوب أن تبدأ حركة التغيير بالقرآن ومن داخل القرآن، ولا يكون

(1) ينظر: معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني ص(62).

(2) الجمع بين القراءتين، طه جابر العلواني، دار السلام، القاهرة-مصر، ص(78).

(3) لماذا إسلامية المعرفة، طه جابر العلواني، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 1، (1416هـ-1995م)، ص(21-22).

(4) معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، (76)، (بتصرف).

(1) ينظر: معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، ص(76).

ذلك إلا بحوار القرآن الكريم: نحاوره في كل شأن، ونستشيره في كل أمر، ونثوره لنستخرج معانيه، ونبني على قواعده مشاريع إصلاحنا، وتجديد أمتنا، فليس في الوجود كتاب يمكن أن يعيد تأسيس الوعي لأمتنا وإعادة بناء الذات سوى هذا الكتاب الكريم⁽¹⁾، ولا يتأتى ذلك إلا بمنهج محدد المعالم نستطيع من خلاله تجاوز الأزمة.

الفرع الثاني: محددات المنهجية القرآنية

ركزت كتابات الدكتور طه جابر العلواني على مفهوم المنهج، واعتبر أن خلاص الأمة لا يكون إلا باستنهاض الهمم المعرفية لإعمال المنهجية الكونية القرآنية، واعتبر مفهوم المنهج القرآني من أهم المفاهيم القرآنية بعد التوحيد، وقد وُصل بشبكة من المفاهيم الفرعية والمصطلحات القرآنية التي أحاطت بمفهومه، ومن هذه المفاهيم: "الصرط المستقيم" و"السبيل الأهدى" و"السبيل السوي"، و"سبيل الله" و"الهدى" و"النور" و"الاتباع" و"الافتداء" و"الشفاء" و"الأسوة الحسنة" و"الطريق الواضح البين" الذي لا يخشى سالكه تهما أو ضللاً، فهو محاط بالنور المبين ومزود بكل معالم الهداية التي لا تسمح بالانحراف عنه لمن يسلكه إذ "لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا"⁽²⁾.

وقد خلص طه جابر إلى محددات منهجية مؤطرة للمنهجية الكونية القرآنية وهي:

1. العقلانية التوحيدية: وهي عقلانية تكسب الإنسان "الاستقامة العلمية" في فهمه لما حوله وتفسيره له، فالتوحيد وفق الرؤية العلوانية مدخل تفسيري ذو قابليات هائلة، وقدرات متنوعة لتفسير آلاف الظواهر النفسية والسلوكية والمعرفية في مختلف المستويات، والتفسير الذي يقدمه القرآن المجيد يؤدي إلى الفهم العميق لتلك الظواهر، ويمكن من صياغة الأسئلة المعرفية وتعليم الناس طرق الإجابة عنها⁽³⁾، وهذا القول نجده عند مجموعة من المفكرين الذي ارتأوا في التوحيد منهج حياة وفي ذلك يقول علي شريعتي: "إذا أردنا أن نتكلم بلغة القرآن فالتوحيد يهب للإنسان الحكمة والميزان والسلام"⁽⁴⁾.

(1) حوار القرآن تجرية ذاتية ودعوة للتدبر، طه جابر العلواني، دار السلام، القاهرة-مصر، الطبعة الأولى، (1465هـ-2014م)، ص(17).

(2) ينظر: معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، ص(68).

(3) ينظر: نفس المرجع، ص(83).

(4) الإنسان والإسلام، علي شريعتي، ترجمة: عباس الترجمان، دار الأمير، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، (1428هـ-2007م)، ص(72).

2. الجمع بين القرائتين: يعد طه جابر العلواني هذا المحدد من الركائز الكبرى للمنهجية الكونية القرآنية، فهو يرى أن المنهج القرآني قائم على الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون⁽¹⁾، فالقرآن العظيم والكون البديع كلاهما يدل على الآخر ويرشد إليه ويقود إلى قواعده وسننه، فالقرآن يقود إلى الكون ويمارس دوره في الهداية فيه، ويوظفه بوجوه عديدة لتسخير مكوناته، ولتوضيح قضاياها، وتأبيد دعاواها، والكون أيضا يقود القرآن ليسقط أسئلته عليه ويستعين به لإرشاد الإنسان إلى كيفية التعامل معه، واستثمار تسخير، ومعرفة هذا أو إدراكه والعمل بمقتضاه هو ما أطلق عليه "الجمع بين القرائتين"⁽²⁾.

لكن حين يحدث الفصام بين القرائتين كما هو حاصل اليوم فإن مناهج المعرفة البشرية تصل إلى نتيجتين خطيرتين وهما: فكر سكوني جامد أو فكر وضعي جاف، وفي ذلك يقول طه جابر العلواني: "فالذين يتعلقون فقط بالجانب الغيبي في القراءة، أي القراءة الأولى ويسقطون الجانب الموضوعي من حسابهم فيتحولون بالدين إلى لاهوت يستلب الإنسان والكون وينفي الأسباب وقوانين الحركة وصيرورتها وكافة السنن الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية التي يتفاعل معها الإنسان لينتهي الفكر الإنساني إلى فكر سكوني جامد يحسب خطأ الدين، والذين يتعلقون فقط بالجانب الموضوعي في القراءة الثانية، فإنهم ينفون البعد الغيبي الفاعل في الوجود وحركته، فينتهون تدريجيا إلى الفكر الوضعي الذي يؤثر على النسق الحضاري بدوره بذلك التأثير السلبي وذلك هو الوجه السائد للفكر الغربي الآن، والذي بدأت مدارس فكرية غربية كثيرة تحاول الخروج عليه والتنصل منه بعد أن خربت ويلاته وأدى إلى تقسيم البشرية وتصارع اللاهوت والوضعية"⁽³⁾.

وهكذا ينتج عن الجمع بين القرائتين فهم تكاملي متبادل فسر طه جابر العلواني بقوله: "فالوحي بمثابة تنزل من الكلي إلى الجزئي، فتدرك بقدر ما تتيحه القدرات البشرية النسبية من الفهم لتنزلات الكلي وكيفياتها، وقراءة الكون تقدم القضايا والمسائل والأسئلة الجزئية وترفعها إلى سدة الوحي، لمهتدي الإنسان القارئ في الاثنين إلى الإجابات السليمة من

(1) معالم في المنهج القرآني، ص(84)

(2) ينظر: الجمع بين القرائتين، طه جابر العلواني، ص(30)

(3) التوحيد والتزكية والعمران، ص(101).

المصدر الذي يهدي للتي هي أقوم، وتبدو للإنسان القارئ آنذاك جدلية العلاقة بين المصدرين: الوحي والكون، أو علاقة "الفهم التكاملي المتبادل" والجدل والتفاعل بينهما بأوضح ما تكون"⁽¹⁾.

3. الوحدة البنائية والاستيعاب الكوني القرآني: وهي وحدة تجعل من المحال أن

يقع في القرآن الكريم تضارب أو اختلاف أو نسخ أو تعارض، وأن كلماته وحروفه لا يمكن أن تكون ميدانا للتأويلات الشاذة المتضاربة إذا تلي حق تلاوته، فالمفردة القرآنية أحكم وضعها في الآيات، كما أن الآيات أحكم وضعها في السور لتكون كلها كتابا محكما مفصلا على علم الله سبحانه متشابه المثاني يحدث من الآثار في العقل والنفس وفي الفرد والمجتمع ما لا يمكن لكلام آخر أن يحدثه مهما اجتهد المجتهدون في صياغته وبنائه⁽²⁾.

فالقرآن المجيد إذن لا يمكن أن يفهم إلا في إطار وحدته البنائية، والجمع بين القراءتين هو أهم خطوة منهجية وأبرز محدد منهجي يساعد على كشف وتحديد بقية المحددات المنهجية القرآنية⁽³⁾، ودون فهم القرآن فهما منهجيا في إطار وحدته وبنائيته الكاملة فهما يتصل وينعكس على فهمنا المنهجي المعاصر للظواهر الكونية وسنن حركتها في وحدتها البنائية سيستحيل تأسيس عمران سليم"⁽⁴⁾.

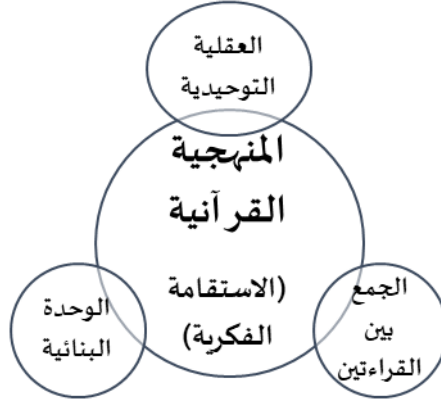
ولعل العقلانية التوحيدية هي التي ترسم مسارات هذا المنهج وتكسب المسلم تلك الاستقامة الفكرية التي تمنحه رؤية متعقطة قائمة على النظر في القرآن كلا لا جزءا، ثم إن وصل آياته المسطورة بآيات الله المنظورة هي الأساس الصلب للمنهج الكوني القرآني الذي من خلاله يمكن تحقيق التغيير المنشود واستعادة مفهوم "الأمة القطب" الشاهدة على الناس في تصور طه جابر العلواني.

⁽¹⁾ الجمع بين القراءتين، طه جابر العلواني، ص(30-31).

⁽²⁾ معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، ص(86-87).

⁽³⁾ نفس المرجع، ص(89).

⁽⁴⁾ الجمع بين القراءتين، طه جابر العلواني، ص(78).



المطلب الثاني: الثلاثية القرآنية المقاصدية (الهرم القرآني المقاصدي):

يحمل خطاب الدكتور العلواني خارطة مقاصدية قائمة على ثلاثية (التوحيد، التزكية، العمران)، موصولة بالبناء المنهجي القرآني المحدد للرؤية الكونية الإسلامية، وذلك لتحقيق الانفصال عن النموذج المعرفي الغربي المتحيز، وتحقيق رؤية إسلامية خالصة غير تابعة.

فهو يرى أن الإسلام أعلمنا منذ البداية عن مقاصده وأهدافه التربوية وغاياته وقيمه الحاكمة، ووضع ذلك كله في مراتب يأخذ بعضها في عضد بعض حتى تبلغ الغاية الأسى ألا هي سعادة الإنسان في الدارين بشروطها وأركانها وضوابطها، فأعلى المقاصد الشرعية، وأسمى القيم الحاكمة هي: التوحيد والتزكية والعمران، وسائر القيم الأخرى كلية منها وجزئية تنتهي إلى هذه القيم الثلاث التي لا يمكن أن تنفصل أي منها عن الآخرين⁽¹⁾، وفيما يلي بسط لهذه الثلاثية المقاصدية:

• المقصد الأول: التوحيد

من يراجع ما حبره المفكرون عن الرؤية الكونية الإسلامية وسبل التغيير، يجدهم يركزون الحديث على التوحيد باعتباره قوام هذه النظرة وأساسها، فهو قاعدة الهرم وبدونه لن تتحقق تلك الرؤية الربانية لله والكون والإنسان، ولعل إسماعيل راجي فاروقي ممن خطى هذا المسلك وارتأى أن التوحيد سارٍ في كل جوانب الحياة الإنسانية، بدأ بالفرد وانتهاء بالمجتمع، وقد فصل هذه الرؤية في كتابه "التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة"، فالتوحيد

(1) الجمع بين القراءتين، طه جابر العلواني، ص(114).

في نظره وحده هو الركيزة النواة التي ينبغي تأسيس أي برنامج إصلاحي في أي مجال كان عليها، فالتوحيد هو جوهر الإسلام ونواته، ولا نجاح لأي حركة إصلاحية لا تنطلق منه⁽¹⁾.

وطه جابر العلواني قد سلك هذا المسلك أيضا، وارتأى أن التوحيد هو أساس المنهج الكوني القرآني وأسمى مقاصده، حيث فصل في كتاباته عن هذا المقصد القرآني العظيم ومستويات تناوله في كتاب الله تعالى⁽²⁾، وفي ذلك يقول: "التوحيد جوهر العمران وأساس البناء الحضاري، لذلك كان للتوحيد انعكاساته على سائر جوانب الحياة، ابتداء بالفكر والتصور والاعتقاد، مروراً بالمعرفة والتجديد وشبكة النظم والعلاقات المتنوعة، وانتهاء بإقامة العمران وانتظام الخلق في ذلك التسبيح ومدار التنزيه ومسيرة التقديس والعبادة لله الواحد القهار"⁽³⁾.

غير أن هذه المكانة السامية للتوحيد لم يُفصّل لها في كتابات المتقدمين من علماء الكلام والفلاسفة، وهذا ما يعيبه طه جابر العلواني على الفرق الكلامية التي انشغلت برد الشبهات عن ما سماه بـ "البيان القرآني المشرق للتوحيد"⁽⁴⁾ وتجلياته على الحياة، مما أدى إلى تضرر الجانب المعرفي المنهجي للتوحيد، لذلك ارتأى أن الحاجة ماسة إلى تناول هذا الجانب من آثار التوحيد والعمل على إعادته إلى وضعه الطبيعي وموقعه الملائم من الدراسات المعنية بإبراز الجوانب المتعددة للتوحيد وأثاره المنبثقة من نور القرآن المجيد وهديه لا من المقولات الكلامية أو المناهج الفلسفية التي اختبرها كثير من أسلافنا فلم يجدوا فيها شيئا مما وجدوه في القرآن المجيد⁽⁵⁾.

ولعل تجليات التوحيد كانت واضحة المعالم في الرعيل الأول، وأثارها كانت ماثلة في جوانب حياتهم عامة، فهو الجيل الذي أرسى القرآن الكريم دعائم التوحيد في ضميره ووجدانه وعقليته وكيانه ومجتمعه عبر العهد المكي كله، حيث كان محور القرآن المجيد النازل في تلك الفترة الأول والأخير إنما هو التوحيد فقط لا غير⁽⁶⁾.

(1) التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة، إسماعيل راجي فاروقي، ترجمة: السيد عمر، مدارات للنشر والأبحاث، القاهرة-مصر، الطبعة الأولى، (1435هـ-2014م)، ص(37).

(2) التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، ص(52-53).

(3) نفس المرجع، طه جابر العلواني، ص(49).

(4) التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، ص(14).

(5) ينظر: نفس المرجع، نفس الصفحة.

(6) ينظر: نفس المرجع، ص(223).

فهذا النموذج المثالي الذي كان موصولاً بالتوحيد وكانت كلمة "لا إله إلا الله" منهج حياتهم، يستدعي كما يرى طه جابر العلواني إعادة قراءة القرآن كله وخاصة القرآن المكي في مجال التوحيد وذلك لتنقية الإيمان وتصفية التوحيد من كل مؤثرات الجاهلية القديمة والحديثة، قراءة قائمة على قطبي إعادة البناء وإعادة التكوين بمقتضى الكتاب الذي لم يخالطه ولم تشبه الشوائب⁽¹⁾.

وهكذا نستمد التوحيد الخالص الذي نرى من خلاله الحياة ونعمل بمقتضاه على تغيير الواقع، والسير في إعمار الكون وفق منهج توحيدي رباني يصل عالم الغيب بعالم الشهادة، ويمنح الإنسان اتزاناً وحكمة في تحليل الوقائع وبناء التصورات.

• المقصد الثاني: التزكية

إذا كان التوحيد حق الله تعالى على عباده فإن التزكية في تصور طه جابر العلواني هي المفعول لهذا التوحيد، والمؤهل للقيام بهذه المهمة السامية، فتزكية الإنسان هي سبيل فلاحه وصلاحه ومفتاح استقباله لنسائم التوحيد، إنها المؤهل الأساس والشامل الذي يجعل الإنسان قادراً على القيام بمهمة الاستخلاف وأداء الأمانة والوفاء بالعهد⁽²⁾، فهذه المهام لا يستطيع القيام بها على وجهها إلا إنسان قد تحلى بالتزكية بكل مواصفاتها⁽³⁾.

وليصل طه جابر العلواني إلى اللباب المفهومي للتزكية تتبع دلالاتها في النصوص الوحي المؤسسة، وتتبع حيث وردت مشتقات زَكُوَ تسعا وخمسين مرة، منها زَكَى، وزَكَّى، ويُزَكَّى، وأزكى، وزكيا، وزكاة، وأزكى إلخ....، ومنها اثنتان وثلاثون مرة بلفظ الزكاة، أي زكاة المال على وجه التحديد، بمعنى التطهير والبركة والنمو، وأربع مرات بمعنى المدح والثناء، وأربع مرات بوصف التزكية واحداً من مقاصد الوحي الأربعة، وبقية الآيات تتحدث عن مجالات مختلفة من التزكية بمعاني: التطهير والترقية والتنمية والزيادة في الحسن والنفع⁽⁴⁾.

(1) ينظر: نفس المرجع، ص(25).

(2) الجمع بين القراءتين، طه جابر العلواني، ص(39-40).

(3) ينظر: التوحيد والتزكية والعمران، ص(8).

(4) ينظر: التزكية في منظومة القيم الحاكمة، فتحي حسن ملكاوي، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (57).

(2009م-1430هـ)، ص(6).

وهكذا تكون التزكية في التصور العلواني من ركائز تغيير الإنسان، وبدون هذا المقصد لا يمكن تفعيل المنهج التوحيدي، فالإنسان المُزكى هو الإنسان المدرك لواقعه، والمبصر لغاية وجوده، وهو المسلح بالوحي فلا ينظر للعالم إلا من خلاله ولا يحلل مستجدات الواقع إلا به وفق المنهجية القرآنية التي تجمع كما أسلفنا بين قراءة الكتاب المسطور والكتاب المنظور.

• المقصد الثالث: العمران

يؤكد طه جابر العلواني بعدما أرسى في رؤيته المقاصدية مقصدي التوحيد والتزكية، أن العمران مطلب إلهي، فالإنسان مطالب بتحقيق العمران وبناء الحضارة، فهو الغاية التي سخر الله الطبيعة -كلها للإنسان من أجل تحقيقها، وليس العمران إلا غراس التوحيد والتزكية، غير أنه لا يكون إلا بالقيم التي أمر الله بمرعاتها، فلا يكون الإنسان طالبا في تشييد العمران للعلو والإفساد وإنما يكون المبتغى والمقصد أن تسري معالم التوحيد الخلاص في دنيا الناس⁽¹⁾.

فهذه إذن هي المقاصد القرآنية العليا الحاكمة، أو " الهرم المقاصدي القرآني"، قاعدته التوحيد وأعلى هرمه العمران، فإذا انتفى التوحيد علما وعملا اهتزت القاعدة ولم يتحقق العمران، والتزكية هي العصا التي تدفع الإنسان إلى العمل بمقتضى التوحيد، والثلاثية المقاصدية هي المؤطرة لإنسان التزكية الذي يجعل القرآن منطلقا للتغيير.



المبحث الثالث: الرؤية القرآنية منطلق لبناء الإنسان (من إنسان التدسية إلى إنسان التزكية).

كانت حياته صلى الله عليه وسلم وحياء أهل بيته وآله وصحابته، بصفة عامة القرآن، منه وبه يستمد النور وبه تصاغ الحياة، وبآياته المحكمة ترسى دعائم المدنية

(1) ينظر: نفس المرجع، ص(9)، و الجمع بين القراءتين، طه جابر العلواني، ص(40).

والحضارة، وتبنى الأمة وتحقق شهودها الحضاري⁽¹⁾، وعليه تعرض مشكلات الواقع ومستجداته فهو الحكم والفصل، ومبدأ التغيير ومنطلقه.

فكان المنبع الذي يستقي منه الجيل الأول سبل السير في الدنيا فهو مدار حياتهم ومقصدهم في فهم قضايا الوجود، وفي ذلك يقول طه جابر العلواني: "فكانوا يقرؤون ألفاظه فينزلونها على قلوبهم قبل ألسنتهم، ويتدبرونها في عقولهم وقلوبهم قبل أفواههم، ويكيفون بها واقعهم قبل أن يقوموا بزخرفتها وطباعتها بأجمل الخطوط وأحسن الأوراق، لأنهم أدركوا أن هذا القرآن المجيد إنما أنزل ليكون مرشد الإنسان وقائده لأداء مهامه كلها"⁽²⁾.

فهذه الرؤية العلوانية نجد ملامحها في تصور علي عزت بيجوفيتش الإصلاحية إذ يرى أن الأمة قد أهملت تفعيل القرآن الكريم وعده القطب الذي تدور في رحابه سبل التغيير والإصلاح حيث يقول عبارة بليغة فيها جماع التصور حول واقع الأمة في تعاملها مع كتاب الله تعالى: "إن الإخلاص للقرآن لم يتوقف، ولكنه فقد خصوصيته الفاعلة، ولقد استبقى الناس في أفئدتهم من القرآن ما أشيع حوله من تصوف ولا عقلانية، فَقَد القرآن سلطانه كقانون ومنهج حياة واكتسب قداسته كشيء"⁽³⁾.

وطه جابر العلواني من خلال رؤيته المنهجية في تعامله مع كتاب الله تعالى، يرى أن صلاح الأمة وسبيل خلاصها في رجوعها إلى قراءة الوحي قراءة تستحضر الأبعاد المقاصدية للقرآن الكريم، فهو منطلق التغيير، وعلنا نقف بين ثنايا هذا المبحث على لباب هذا التصور.

المطلب الأول: ميثاق التغيير:

تنطلق الرؤية الإصلاحية القرآنية حسب تصور طه جابر العلواني من قول الله تعالى:

﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۚ﴾⁽⁴⁾، فالإنسان هو أول مدارج التغيير ولا سبيل لبناء الحضارة إلا ببناء هذا الإنسان، والعمل على إخراجهم من ضلال إنسان التدسية إلى صلاح إنسان التزكية، قال

(1) ينظر: حوار مع القرآن، طه جابر العلواني، ص(37)

(2) حوار مع القرآن، طه جابر العلواني، ص(37-38).

(3) الإعلان الإسلامي، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة: محمد يوسف العدس، مدارات للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، (1439هـ-2018م)، ص(97).

(4) سورة الرعد، الآية (12).

تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾⁽¹⁾، وفي ذلك يقول طه جابر العلواني: "أما انطلاقه من الأنفس فيتضح عندما ندرك أن التغيير - في المنظور الإسلامي راجع إلى الحقيقة الذاتية للإنسان. فوعي الإنسان بإنسانيته يستلزم وعيه بموقعه، وعبوديته لله - جل شأنه - وبخلافته في الكون ومسؤوليته عنه ووعي الإنسان بإنسانيته يستلزم وعيه بموقعه، وعبوديته لله تعالى - جل شأنه - وبخلافته في الكون ومسؤوليته عنه"⁽²⁾.

وقد حدد مبادئ للسير نحو التغيير المنشود في الأنفس، وهو بمثابة ميثاق يمكن أن نطلق عليه "ميثاق التغيير"، وهو ينبي على:

- ميثاق العهد: وهو العهد الذي بين الإنسان وبين الله في عالم الذر والمبثوث في كتاب الله تعالى، قال تعالى: ⁽³⁾.

- ميثاق الخلافة: في عالم الاستخلاف، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۖ شَهِدْنَا ۚ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾⁽⁴⁾.

- ميثاق الأمانة: فعند عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال أبين أن يحملنها، ولما عرضت على الإنسان قبلها ورضي الالتزام. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۚ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾⁽⁵⁾.

مبدأ الابتلاء: قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾⁽⁶⁾.

- ميثاق الجزاء الأخروي: قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾⁽⁷⁾.

(1) سورة الشمس، الآية (9-10).

(2) آفاق التغيير ومنطلقاته، طه جابر العلواني. ص (11)، ينظر في ذلك: أكاديمية العلواني الإلكترونية:

<https://alwani.org/?p=6265>

(3) سورة الأعراف، الآية (172).

(4) سورة البقرة، الآية (29).

(5) سورة الأحزاب: (72).

(6) سورة الملك، الآية (2).

(7) سورة النور، الآية (38).

فهذه هي مبادئ ومواثيق التغيير القرآني، التي تصل الإنسان بربه وتذكره بخالقه وغايته الوجودية في الكون، فالخطاب القرآني كما يرى طه جابر العلواني بدأ بتهيئة سائر الظروف لاستخلاف الإنسان في هذا الوجود ومع الاستخلاف والائتمان جاء الأمر بالقراءة، ليكون أول أمر يتلقاه الإنسان في هذه الرسالة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾⁽¹⁾، وذلك ليوضح للإنسان أن الحقائق كلها متاحة له بالقراءتين اللتين أمر أن يقرأ بهما، فكل خطوة من خطوات الإنسان بخطوها وهو على بينة من ربه وبصيرة من عقيدته، ونور من هدى نبيه صلى الله عليه وسلم لا يكون فيها تعارض بين عقله ووجدانه ولا تمزق ولا فصام بين روحه ونفسه وجسمه يستشعر الكمال في ذاته، فينعكس ذلك الكمال على أفكاره ومعارفه وفنونه وأدابه لتكون ثقافة توحيدية وحضارية إيمانية تنبثق عن الأمة⁽²⁾.

إن قبول الإنسان لهذا الخطاب الإلهي سيحرر العقل الإنساني من القيود والأوهام التي قد تكبله وتقيد حركته، ويوجد في النفس الإنسانية حالة الاستقرار الذاتي، والأمن الداخلي، والطمأنينة التامة بما يحقق انسجام الإنسان مع ذاته، واطمئنانه لمعالم إنسانيته، وهكذا يصبح الإنسان وحدة التغيير الفاعلة ونواته الأساسية⁽³⁾.

وهكذا نجد أن الإنسان الذي قبل الخطاب الإلهي هو الإنسان الذي يحمل رؤية منهجية، إنه إنسان التزكية، الذي يُعمل العقلانية التوحيدية في فهم الوجود، وتغيير الواقع، إنسان حددت معاملته في القرآن الكريم، وُبَيِّنَتْ وجهته بين ثنايا كلام رب العالمين.

المطلب الثاني: الإنسان الإبراهيمي (من إنسان التدسية إلى إنسان التزكية):

يعتبر طه جابر العلواني أن الانطلاقة الحقيقية والاستجابة لدواعي الإصلاح والتجديد لابد من أن تبدأ بتحقيق إنسانية الإنسان، وبناء الأمن الداخلي في ضمير الفرد المسلم، لتألف فيها مداركه الإنسانية كلها، ويتجاوز الإنسان بذلك ويلات الحيرة والاضطراب، ويسود السلام بين المعقولات والعقائد والمنقولات، ويتحقق الانسجام الواعي بين الروحانيات والماديات، وتنطلق قوة النظر لتسير في الأرض، وتقرأ الكون بانطلاق تام⁽⁴⁾.

(1) سورة العلق، الآية (1).

(2) آفاق التغيير ومنطلقاته، طه جابر العلواني، ص (17)، بتصرف.

(3) نفس المرجع، ص (18).

(4) لماذا إسلامية المعرفة، طه جابر العلواني، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 1، ص (20).

وهذه الإنسانية لن تتحقق إلا في رحاب رؤية توحيدية تفعل مبادئ المنهج القرآني في الوجود، لأن تحرير الإنسان وتمكينه من تزكية نفسه، ومجتمعه، تأتي بعد أن يدخل في مجال التوحيد، ويستجيب لدعوته.

لذلك كان خطاب الإصلاح والتغيير الذي جرى تكوين المسلم بمقتضاه خطاباً قرآنياً، فهو يتجه بشكل مباشر هادف إلى الإنسان في كينونته الكاملة عقلاً ونفساً ووجداناً وعاطفة، فهو خطاب لا بد أن يبدأ بالإنسان ذاته ونفسه في إطار الأمة من غير انحراف عرق أو طبقة أو لاهوت أو ما إليها، فإنها كلها تتنافى مع مكونات هذا الإنسان وخصائصه، ولا يمكن لأي نوع من أنواع الخطاب الأخرى التي تمت صياغاتها قديماً وحديثاً أن تشكل منظومة دوافع الفاعلية لدى الإنسان المسلم، وذلك قدره⁽¹⁾.

فالقرآن بين بأجلى بيان أنه الهادي لعقل الإنسان والمرشد لمسيرته، وأن عليه أن يعمل عقله ويسترشد به وبالقرآن في معالجة ما يعترضه، ليميز به وبالعقل الحق من الباطل والشر من الخير، ويستقيم على الطريقة، فلا يذل ولا يخزي، وأن النفس عليه أن ينهاها عن الهوى، فإن هو فعل وتحولت نفسه إلى نفس مطمئنة في جانب، ونفس لوامة في جانب آخر فستكون مساعداً كبيراً في إنشاء الأخلاق الكريمة والصفات العقلية المستقيمة⁽²⁾.

والقرآن الكريم قد رسم ملامح هذا الإنسان الذي به يكون شهود الأمة، وعلى استقامته يستقيم حال الأمة، إنه شعلة التغيير ومنطلق الصلاح ولبنة في بناء الحضارة، ولن يرقى إلى الكونية إلا إذا عمل بمبادئ التزكية، فارتقى بنفسه إلى علياء التوحيد، فأقام نوره في قلبه لتنتقل جوارحه علماً وعملاً.

فإنسان التزكية هو الإنسان الإبراهيمي الذي فعل مبدأ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل: 120]، وهو الفرد الأمة الذي مضى بيقين إلى مولاه طالبا الهدى والرشاد، لذلك عد طه جابر العلواني إعادة بناء الفرد الإبراهيمي شرطاً لإعادة بناء الأمة، والفرد الإبراهيمي هو الفرد القانت لله، الخاشع له، الأواه، الحليم التواب، الذي يرتسم خطى الأنبياء وينتهي إلى أمتهم⁽³⁾.

(1) نحو منهجية معرفية قرآنية، طه جابر العلواني، دار الهادي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، (1425هـ-2004م)، ص(25).

(2) حوار مع القرآن، طه جابر العلواني، ص(70).

(3) ينظر: حوار مع القرآن، طه جابر العلواني، ص(97).

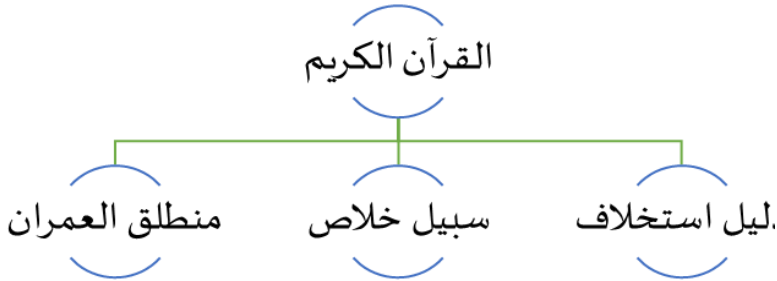
والقرآن الكريم هو منطلق بناء هذا الفرد الإبراهيمي، ومن يستنطق آيات الله تعالى سيرى كيف قاد الله خطى إبراهيم، ليؤسس في قلبه وعقله ووجدانه التوحيد الخالص والعقيدة السليمة.⁽¹⁾

وانسان التزكية (الإنسان الإبراهيمي) هو نتاج التربية السليمة التي تُحوّل المعرفة إلى إيمان، وتحفظ على الحياة قيمتها وعمرانها ولو بالتعالي على أهوائها والتضحية بالنفس من أجل المقاصد الحاكمة العليا، لذلك فإن من أهم أهداف الإسلام تحقيق "إنسان التزكية" القادر على تحقيق التوحيد وإقامة العمران.⁽²⁾

فأول لبنة إذن لبناء الفرد الأمة هو تحقيق مقصد التزكية في النفوس والعمل بمبدأ "حتى يغيروا ما بأنفسهم"، ثم السير بخطى إبراهيمية نحو المقصد الأسنى في الوجود وهو عمارة النفوس بالتوحيد وإقامته في الوجود عملاً ودعوة، واستثمار ما سخر الله تعالى للإنسان في إعمار الكون.

ولن تكتمل صورة الفرد الأمة إلا باستقامة الفكر وإعمال العقلانية التوحيدية التي تنظر للقرآن الكريم في وحدته البنائية وتستنطقه لحل الأزمت وعلاج مشكلات العصر، فكونية القرآن الكريم بخصوصيته التي تستوعب الزمان في ماضيه وحاضره، هي القدرة على إخراج العالم من ضيق المادية إلى رحابة التوحيد وسعة منهجه.

وبهذا يكون القرآن الكريم دليل خلافة، وسبيل خلاص ومنطلق تغيير لهذه الأمة القطب الشاهدة على الناس



(1) حوار مع القرآن، طه جابر العلواني، ص(97).

(2) ينظر: نحو منهجية قرآنية للبحوث والدراسات، طه جابر العلواني، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 30.

(خريف 2002)، ص(26-27).

خاتمة:

بعد البحث في المنهج العلواني في صياغة الرؤية الكونية القرآنية ومنطلقات التغيير المنشود لاستعادة الأمة القطب إلى مركزيتها وإخراجها من بوتقة الاسترخاء الحضاري يمكن الخلوص إلى النتائج التالية:

- المنهجية القرآنية منهجية كونية تنطلق من ثلاثية الشمول والاستيعاب والتجاوز.
- يعد التوحيد الركيزة الأساسية لهذه المنهجية.
- يعد الجمع بين القراءتين أهم خصائص المنهج القرآني في حل الأزمة المعاصرة.
- تنطلق بوادر التغيير القرآني من النفس عملاً بقاعدة " حتى يغيروا ما بأنفسهم".
- الفرد الأمة هو إنسان التزكية الذي يعمل على تفعيل المنهج القرآني في رؤيته الكونية.
- القرآن الكريم هو دليل الرشاد ومنطلق تغيير الفرد واستعادة إنسانية الإنسان.
- تفعيل الثلاثية المقاصدية لا يتأتى إلا بمنهج كوني قرآني ينظر للقرآن في وحدته البنائية.
- هجر القرآن قد يتعدى الهجر الفردي إلى هجر جماعي بعدم تفعيله في الحياة وتحكيمه في قضايا الأمة المستجدة.
- لا خلاص للأمة إلا بتفعيل المنهجية القرآنية التوحيدية.
- والله من وراء القصد.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

مصادر ومراجع عربية:

- إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة-مصر، الطبعة الأولى، (1417هـ-1996م).
 - الإعلان الإسلامي، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة: محمد يوسف العدس، مدارات للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، (1439هـ-2018م).
 - الإنسان والإسلام، علي شريعتي، ترجمة: عباس الترحمان، دار الأمير، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، (1428هـ-2007م).
 - التوحيد والتركيب والعمران، طه جابر العلواني، دار الهادي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى.
 - التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة، إسماعيل راجي فاروقي، ترجمة: السيد عمر، مدارات للنشر والأبحاث، القاهرة-مصر، الطبعة لأولى، (1435هـ-2014م).
 - الجمع بين القراءتين، طه جابر العلواني، دار السلام، القاهرة-مصر، الطبعة الأولى، (2013م).
 - حاكمية القرآن، طه جابر العلواني، الدار العالمية للفكر الإسلامي، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، (1996م).
 - حوار القرآن تجربة ذاتية ودعوة للتدبر، طه جابر العلواني، دار السلام، القاهرة-مصر، الطبعة الأولى، (1465هـ-2014م).
 - معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني دار السلام، القاهرة-مصر، الطبعة الأولى، (2431هـ-2010م).
 - نحو منهجية معرفية قرآنية، طه جابر العلواني، دار الهادي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، (1425هـ-2004م).
- مراجع أجنبية:

- On the Idea of worldview and its relation to philosophy, Albert M. Wolters, stained Glass university press America, (1983).

- Weltanschauung, from concept to rough guide questionnaire on personality, Luliana Zaharia, international journal of academic research and business and social science, July 2014, v(4).

مجالات:

- مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية.

- .le noble Coran et vision du monde voies de reflexion et d'action, série colloques et conference, Maroc, Rabita Mohammadia des Oulémas, (03 et 04 juin 2014),

مواقع إلكترونية:

- أكاديمية العلواني الإلكترونية: <http://www.alwani.or>

"وقفات علمية مع د. العلواني في كتابه "إشكالية التعامل مع السنة"

(إسهام في نقد النقد)

د. إدريس الشرقي

أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس

مدير مختبر العلوم الدينية والإنسانية وقضايا المجتمع

ملخص:

تروم هذه الورقة الوقوف وقفة علمية مع بعض النصوص والنقول التي استشهد بها الدكتور طه جابر العلواني رحمه الله في كتابه: "إشكالية التعامل مع السنة النبوية"، إما على سبيل الاحتجاج بها أو إبداء رأيه فيها، في سياق منهج النقد الذي اعتمده وهو يؤسس لنظره في مسائل تتعلق بالسنة النبوية في كتابه.

وحيث إن نظره لهذه النصوص والنقول مما أسس عليه أغلب ما ذهب إليه في كتابه، وحيث إنه في أحيان كثيرة لم يكن يتثبت فيما استنبطه وفهمه من تلك النصوص والنقول مما أفضى به إلى نتائج أقل ما يقال عنها أنها مخالفة لمنهج المحدثين غالباً، كل ذلك دفعني إلى النظر في تلك النصوص والنقول والوقوف على دلالاتها ومعانيها ومصادرها.

الكلمات المفتاحية: نصوص ونقول العلواني- منهج النقد- السنة النبوية- منهج المحدثين.

"Reflections on Dr. Al-Alwani's Approach to the 'Problematic of Dealing with the Sunnah'"

Abstract:

This paper aims to take a scientific stand with some of the texts and sayings cited by Dr. Taha Jaber Al-Alwani, may God have mercy on him, in his book: "The issue of Dealing with the Sunnah of the Prophet," either as a proof of it or expressing his opinion on it, in the context of the criticism approach that he

adopted and which establishes his consideration of it. Issues related to the Sunnah of the Prophet in his book.

And since his consideration of these texts and sayings is what he based most of what he reached in his book, and since in many cases he was not confirmed in what he deduced and understood from those texts and sayings, which led him to results that, to say the least, are often contrary to the method of the hadith scholars, all of this prompted me to Consider these texts and sayings and find out their connotations, meanings and sources.

Keys words: Alwani's texts and sayings - criticism approach - the Sunnah of the Prophet - the hadith scholars' approach.

مقدمة:

لم تنقطع عناية علماء الأمة بالحديث النبوي رواية ودراية، إذ حرص الصحابة على حفظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم كما حرصوا على إسماع ما حفظوه من ذلك إلى غيرهم من الصحابة الذين لم يحضروا وكذا إلى أبنائهم وإلى التابعين الذين تولوا نفس المهمة، حيث اعتنوا بحفظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم، بل أضافوا إلى ذلك عنايتهم بوضع القواعد العلمية لحماية الحديث من أن يزداد فيه أو ينقص، وتوالى اهتمام الأجيال بعد ذلك على نفس المستوى، بل انضاف إليه التأليف والتصنيف والتوسع في وضع القواعد الضابطة للرواية والدراية، فظهر ما لا يحصى من أنواع المصنفات التي اختلفت أغراضها ومناهجها، ومضامينها كلها تصب في خدمة حديث النبي صلى الله عليه وسلم ضربا من الخدمة.

واستمر هذا الاهتمام إلى عصرنا الحالي، فقام كثير من المعاصرين بالتأليف فيما ظهر لهم أنه مما هو في حاجة ليكتب فيه، وكان من أولئك الدكتور طه جابر العلواني الذي ظهر له أن ما قام به أهل الحديث في دراساتهم للحديث وتصحيحه وتضعيفه، وتعديل الرواة وتجريحهم، فيه نوع قصور واستشكال، مما دفعه ليكتب في ذلك بما ظن أنه يرفع الإشكال، وسعى كتابه: "إشكالية التعامل مع السنة" ولشهرة الدكتور العلواني، فإني لن أقف على ذكر سيرته لكن أقتصر على القول بأن ثقافة الرجل رحمه الله أصولية (علم أصول الفقه)، ثم انفتح على علوم أخرى مشاركا فيها، وقد دعاه حال الأمة إلى أن ينخرط في وضع ما حسبه

مشروع إصلاح، وقدم لذلك آراءه وأنظاره في القرآن والسنة، والفقه وأصوله، ومقاصد الشريعة، وغير ذلك مما تناوله بالتنظير والتوجيه والاقتراح.

ولقد بذل العلواني جهدا في إبراز مشروعه الإصلاحي، حيث ألف لهذا الغرض مؤلفات عنيت بالقرآن وعلومه والحديث والفكر الإسلامي عامة.

وكان مما ألفه في السنة كتاب: "إشكالية التعامل مع السنة" بسط فيه آراءه في كثير من القضايا المتعلقة بالسنة النبوية من حيث مفهومها والاحتجاج بها وتدوينها وحجيتها وغيرها من القضايا التي شكلت عناصر فصول الكتاب، على أن القضية المحورية التي شغلت في هذا الكتاب هي قضية حجية السنة النبوية، وحيث إن آراء العلواني كثيرة وبعضها شذ به عما عليه جمهور المحدثين، فقد ارتأيت أن تعنى هذه الورقة ببعض عناصر "إشكالية التكامل مع السنة" خاصة ما تعلق بإشكاليات التعامل مع رجال الحديث، وما ساقه المؤلف من نصوص ونقول تؤيد ما ذهب إليه من بيان لأنواع الخلل الذي وقع فيه المحدثون في تناولهم لرجال الحديث، مما أثر على النتائج التي تم التوصل إليها في تصحيح الأحاديث وتضعيفها، وتعديل الرواة وجرحهم، وجعل الطريقة التي تمت معالجة المحدثين للرواة والروايات، -في نظر العلواني- يفرض على الباحثين إعادة النظر في المنهجية التي تعمل بها مع الحديث، وقد جمع نصوصا عدة نقلها عن أهل الحديث وعن بعض الدارسين والباحثين لقضايا السنة قديما وحديثا، وظفها وهو يحلل ويفسر وينتقد ويعلل آراءه ومنهجيته المقترحة لدراسة سليمة للسنة، تجنبنا الأخطاء التي حصلت لقرون عدة.

وحيث إن تلك النصوص والنقول تشكل مادة رئيسة في الكتاب، عليها بنى كثيرا من آرائه؛ وحيث إن تناوله وتوظيفه لتلك النصوص والنقول غلب عليها الارتجال وعدم التثبت وسوء الفهم، بل وظفت عنوة لما يعتقده مخالفا بذلك رأي الجمهور، لتلك الأسباب ارتأيت أن يكون عنوان هذه الورقة: "وقفات علمية مع د. العلواني في كتابه "إشكالية التعامل مع السنة % (إسهام في نقد النقد)".

وأحسب أن أهمية هذه الوقفات تكمن في مناقشة النصوص والنقول التي عليها بنى كتابه وآراءه وجزءا من مشروعه، وبيان سوء توظيفه للنصوص والنقول، إذ ظهر أن الآراء التي بنيت عليها يجب إعادة النظر فيها، ثم إن فهم تلك النصوص والنقول في سياقها وبالمنهجية التي تعامل بها أهل التحقيق من أهل الحديث، يجعلنا نطمئن إلى مناهج المحدثين

فلا مجال للتشغيب من أي كان، كما تكمن أهميتها في محاولة تلمس الخلفيات المنهجية التي اعتمدها العلواني في كتابه، والتي كان لها بالغ الأثر في طريقة إثارة الإشكالية عنده، وفي تصورها وكيفية معالجتها.

ولمعالجة ذلك اعتمدت المنهج الوصفي أولا في نقل النصوص التي (خضعت للمناقشة)، كما وظفها تحليلا واستنتاجا، وثانيا اعتمدت المنهج التحليلي الذي أخضعت له تلك النصوص وفهمه وتوظيفه لها، ثم المنهج النقدي الذي ناسب أن أتناول به ما سبق، فصارت الورقة من هذه الزاوية نقد النقد.

وقد قسم العلواني رحمه الله كتابه الى:

مقدمة

الفصل الأول: النبوة ومهام الأنبياء.

الفصل الثاني: السنة بين المفهوم والمصطلح.

الفصل الثالث: القرآن هو المصدر المنشئ والسنة هي البيان التطبيقي.

الفصل الرابع: كيف تضخم دور الرواية: رؤية تاريخية.

الفصل الخامس: السياق التاريخي لتدوين السنة الأحاديث.

الفصل السادس: حجية الإخبار بالسنة.

خاتمة

ولإنجاز هذه الورقة، اقتضى العمل تقسيمها إلى المحاور الآتية:

- ◆ محور أول: المعالم الفكرية الموجهة لفكر العلواني رحمه الله.
- ◆ محور ثان: وقفة مع موارد العلواني في الكتاب وكيفية اعتمادها.
- ◆ محور ثالث: مناقشة العلواني في كيفية توظيف النصوص.
- ◆ خاتمة.

محور أول: المعالم الفكرية الموجهة لفكر العلواني رحمه الله

إن المتتبع لحياة العلواني يلحظ أنه مر بمراحل متعددة كان لها تأثير واضح في بناء شخصيته العلمية والفكرية، ويمكن رصد ذلك على الشكل الآتي:

• لقد جمع العلواني بين الدراسة الشرعية الأصيلة والانفتاح على الثقافة الغربية ومناهجها، برز ذلك واضحا من خلال تكوينه العلمي في العراق ومصر وتدريسه في السعودية، حيث غلبت في هذه المرحلة الدراسة الشرعية، يدل على ذلك إنتاجه الفكري الذي كان ألصق بالعلوم الشرعية، كما أن الرجل كان منخرطا في مشروع الإصلاح الذي رسخ قواعده عدد من الإصلاحيين الذي بلغ تأثيرهم سائر البلاد الإسلامية على اختلاف في المناهج والأدوات والتصورات، لكن مهما تكن درجة الاختلاف إلا أنه كان مهتما كثيرا بإصلاح حال البلاد الإسلامية، ثم بدا انفتاحه قويا بعد أن انتقل إلى أمريكا، حيث كان له نشاط علمي وثقافي كبير، تجلّى في تأسيس بعض المؤسسات الفكرية كالمعهد العالمي للفكر الإسلامي، وجامعة قرطبة، وغير ذلك من الأنشطة التي فرضت عليه التعامل مع القضايا والمستجدات في أمريكا بشكل أكثر انفتاحا.

• ترسخ لدى العلواني أن القرآن هو مصدر التشريع والأحكام، والسنة مبينة فقط، ولذلك لا عبرة بسنة عارضت قرآنا مهما تكن درجة ثبوتها، وعليه فتح باب "التأويل" لدفع ذلك التعارض حسب ما بدا له، وانتهى إلى أن السنة لا يمكن أن تستقل بالتشريع.

• تحصل لدى العلواني قناعة ملحة بإعادة النظر في التراث الإسلامي، وكيفية الاستفادة من القرآن والسنة، حيث صدر له عدد من المؤلفات اعتنى فيها كثيرا بالجانب المنهجي في النظر إلى القرآن، منها:

- نحو منهجية معرفية قرآنية، محاولات بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة.
- أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها.
- الوحدة البنائية للقرآن المجيد.
- لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب.
- معالم في المنهج القرآني.
- حوار مع القرآن تجربة ذاتية ودعوة للتدبر.

• وإلى جانب اهتمامه بالقرآن الكريم، فقد كان له اهتمام بالسنة النبوية قصد ترسيخ ونشر ما كان يعتقد، حيث نشر أولا مجموعة من الكتب ثم ثانيا ألف بنفسه في هذا المجال، فقد نشر كتاب حجية السنة لعبد الغني عبد الخالق، ثم كتاب السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث لمحمد الغزالي، وكتاب كيف نتعامل مع السنة للشيخ يوسف القرضاوي، وكلها ليست في مستوى ما كان يطمح إليه العلواني:

- إذ الأول يخالف كثيرا قناعات العلواني وطموحه، فالشيخ عبد الغني عبد الخالق شدد في كتابه على حجية السنة، وأنها المصدر الثاني للتشريع وأنها تستقل بالتشريع، وسلك في هذا الكتاب مسلك من سبقه من أهل الحديث، واختار نفس النظر في المفاهيم والمصطلحات وتعريفها، وهذه أمور يعتقد عكسها العلواني،
 - والثاني تناول قضايا جزئية يتعلق بعضها بالمرأة وبعضها بالأداب والفتن وغير ذلك،
 - والثالث أيضا تناول جزئيات لم تشف غليل الشيخ العلواني وفي جانب منها لم يكن الشيخ القرضاوي على نفس مسلك العلواني خاصة حجية السنة.
- وحيث إن هذه الكتب لم تجب عما كان يخالج الدكتور العلواني، فإنه بادر بتأليف كتاب إشكالية التعامل مع السنة.

محور ثان: وقفة مع موارد العلواني في الكتاب وكيفية اعتمادها.

اعتمد العلواني في "إشكالية التعامل مع السنة" على عدد كبير جدا من المصادر والمراجع المتنوعة القديمة والحديثة، من كتب التفسير وعلوم القرآن وكتب الحديث (مصنفات وعلوم حديث) وكتب فقه وأصول وعقيدة وفرق وفكر إسلامي، وكتب لغة، كما أنه لم يكتف بالاعتماد على كتب المنتسبين إلى أهل السنة بل اعتمد بعض كتب المعتزلة والشيعة والخوارج، وكتب بعض المعاصرين الذين لهم آراء تخالف كثيرا ما عليه إجماع علماء الأمة، كالقرآنيين وبعض الحدائين.

وهذا التنوع وهذه الكثرة مقبولة في البحث العلمي إذا استطاع المؤلف استغلالها استغلالا علميا سليما، والحال أن العلواني الغالب على منهجه في هذه الموارد أنه ينقل من المصادر القديمة، النصوص التي ساقها شواهد لما ظن أنه يخدم توجهه وموقفه من السنة وإشكالاتها.

وهذا أمر محمود لو أن المؤلف اعتمد تلك المصادر نفسها في الوقوف على سياق إيراد تلك النصوص في تلك المصادر، إذ أن العلواني غلب عليه اجتزاء النصوص وقطعها عن سياقها، وبذلك فاتته الاستفادة منها بشكل كبير جدا، بل إن الأمر بلغ إلى حد أنه جانب الصواب في أغلب ما ساقه من النصوص وفهم منها ما لم تتضمنه، غير أن الرجل لما كان مهوسا بأفكار معينة، فإنه سلك مسلكا انتقائيا أوقعه في مخالفة جهود علماء الأمة، وأوقعه في سوء فهم تلك النصوص، وبذلك لم يستفد من تلك المصادر بالقدر الكافي.

أما المراجع المعاصرة التي اعتمدها والتي هي متفقة مع ما عليه جمهور العلماء فإنه وإن اعتمدها إلا أنه لم يعرفها أي اهتمام من حيث مناقشتها والتأني في الإفادة منها، وأما التي هي مخالفة لما عليه جمهور العلماء، فالغريب أن الدكتور العلواني كان ينقل منها دون أن يكلف نفسه مناقشتها ولا تحليلها، فكان يأخذ منها أفكارا وكأنها مسلمات، والطامة العظمى أن الأمر يتعلق أحيانا بقضايا جوهرية في السنة، كعدالة الصحابة، مثلا ينقل عن إبراهيم فوزي أن معاوية فرض على الخطباء سب علي على المنابر، ومر على ذلك كأن الأمر من المعلومات من الدين بالضرورة ! وهو شيء تكرر عنده عندما ينقل أحيانا عن الشيعة والمعتزلة والحدائين والقرآنيين، وإن كان قد حذر من منهج القرآنيين، إلا أنه يلتقي معهم في إنكار الاحتجاج بالسنة ولو مع قدر من الاختلاف.

محور ثالث: مناقشة العلواني في كيفية توظيف النصوص

حيث إن النصوص التي وظفها في الكتاب كثيرة جدا، فإني اكتفيت بمناقشة بعض النصوص التي اعتمدها في الفصل السادس: حجية الإخبار بالسنة خاصة ما تعلق ببعض العناصر في هذا الفصل وبالأخص العنصر الخامس: علم رجال الحديث بين الموضوعية والذاتية والسادس: علم مصطلحات الجرح والتعديل والسابع: خوارم المنهجية في علم الرجال وقسم كل عنصر إلى فروع تناول في كل فرع قضية من القضايا ومن ذلك:

1- المواقف المختلفة من الصحابة:

بعد أن تكلم عن تعريف الصحابي وعدالة الصحابة وعلمهم، انتقل إلى الكلام عن المواقف المختلفة من الصحابة.

بدأ هذه النقطة دون تمهيد بأن معاوية بن أبي سفيان بعد أن آلت الخلافة إليه، فرض على أئمة المساجد شتم علي بن أبي طالب على المنابر والخط من شأنه، والدعاء للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، ونسج أتباعه الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بتفضيلهم عليه، وقد قابلت الشيعة هذه الأحاديث بأحاديث ترفع من شأن علي وأهل بيته وتفضله على جميع الصحابة الآخرين¹.

¹ - إشكالية التعامل مع السنة النبوية، ص: 342.

واعتمد في هذه المعطيات على كتاب "تدوين السنة"¹، حيث نقل عنه هذه الفقرة بالحرف، وأضاف إليها فقرة نقلها أيضا بالحرف مفادها أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كانت أولى إصلاحاته منع شتم علي على المنابر أو التجريح بأحد الصحابة. وكعادته لم يعلق على كلام فوزي بشيء يذكر ولو على سبيل أن يأتي بالأدلة التي يستفاد منها فرض معاوية شتم علي على المنابر.

ويبدو أن العلواني قد اعتمد كثيرا على هذا الكتاب وإن لم يفصح عن ذلك، والواقع أن اعتماد أمثال العلواني على مثل إبراهيم فوزي منقصة ومذمة، إذ خلا كتاب إبراهيم فوزي من أي شيء اللهم إلا من الكذب والزور والمغالطة والإرراء بالصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم، فإلا ليته نزه كتابه عن أن يعتمد فيه على إبراهيم فوزي، بل لا ليته إذ نقل منه تعقبه أو على الأقل ذكر مصادره في دعوى فرض معاوية شتم علي.

ولم يكتف بإيراد ما أورد عن فوزي، بل ختم نقله عنه بقوله: "وقد كان التجريح بالصحابة شيئا مألوفاً في العصر الأول للهجرة وقبل أن يتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز"². هكذا يستنتج ويحكم دون أن يكلف نفسه إيراد أي دليل على كلامه، وزاد الأمر فسادا حيث أحال على "المحصول للرازي" وبالرجوع إلى المحصول تبين أن الرازي إنما أورد ما أورد من الطعون والتجريح في الصحابة على سياق نقل بعض طعون الخوارج في الصحابة لأجل الرد عليها لا أنه يقول بذلك. ولا أدري كيف لمثل العلواني أن يقع في ذلك؟! قال الرازي: "اعلم أن اعتماد أصحابنا في هذا الباب على حجة واحدة وهي أن آيات القرآن دالة على سلامة أحوال الصحابة وبراءتهم من المطاعن وإذا كان كذلك وجب علينا أن نحسن الظن بهم"³.

وختم هذا العنصر بقوله: "وعُرف البخاري خرج عن هذا التعريف، فعرف الصحابة بقوله: كل من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه"⁴ وعلق على ما نسبته إلى البخاري⁵ دون أن يوثقه بقوله: "ويرفض كثير من الفقهاء هذا التعريف". ولا أدري من هم هؤلاء الفقهاء الذين رفضوا هذا التعريف إذ الذي عليه المحدثون وكثير من الأصوليين هو هذا الذي ذكره البخاري، قال الإمام بدر الدين الزركشي-رحمه الله-: "ذهب

¹ - إبراهيم فوزي، ص: 58.

² - إشكالية التعامل مع السنة، ص: 342.

³ - انظر المحصول، 349/4.

⁴ - إشكالية التعامل مع السنة، ص: 343.

⁵ - كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، (2/5).

الأكثر إلى أن الصحابي من اجتمع - مؤمناً - بمحمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ولو ساعة، روى عنه أو لا، لأن اللغة تقتضي ذلك، وإن كان العرف يقتضي طول الصحبة وكثرتها وهو ما ذهب إليه جمهور الأصوليين، أما عند أصحاب الحديث فيتوسعون في تعريفهم لشرف منزلة النبي صلى الله عليه وسلم¹.

ويقول ابن حزم: "فأما الصحابة - رضي الله عنهم - فهم كل من جالس النبي صلى الله عليه وسلم ولو ساعة، وسمع منه ولو كلمة فما فوقها، أو شاهد منه عليه السلام أمراً يعيه"².
والتعريفات التي وضعها العلماء للصحابة (اصطلاحاً) كثيرة، ولكن التعريف الصحيح المعتمد هو ما قرره الحافظ ابن حجر بقوله: "وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي هو من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به، ومات على الإسلام، ولو تخللت ردة على الأصح"³.
قال الحافظ السيوطي مؤيداً ابن حجر "وهو المعتمد"⁴.

وذهب إليه الجمهور من الأصوليين، منهم ابن حزم، والآمدي في الإحكام⁵، والزرکشي وابن عبد الشکور في فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت⁶، والشوکاني في إرشاد الفحول⁷.
وغيرهم. فأی الفقهاء الذين خالفوا البخاري؟

2 - التدليس والمدلسون:

في كلام العلواني عن التدليس -بعد أن عرفه وذكر أقوال العلماء في ذمه- قال:
"وبرغم انتشار التدليس بصورة مخيفة بين الرواة عامة ورواة الطرق خاصة إلا أن عدد من ترجم لهم في كل كتب الرجال من المدلسين لم يتجاوزوا المائة"⁸.
وبعد مقارنة بين من وصف بالتدليس وبين ما يوجد في الكتب التي جمع فيها أصحابها طبقات المدلسين خلص إلى نتيجة وهي: "فهل هذا العدد استوعب فعلاً كل مدلس؟

¹ - البحر المحيط في أصول الفقه (301/4).

² - الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم (86/5).

³ - الإصابة، 10/1 - 12، ونزهة النظر ص 51، 52.

⁴ - تدريب الراوي (216/2).

⁵ - الإحكام للآمدي، (84، 85/2).

⁶ - فواتح الرحموت (158/2).

⁷ - إرشاد الفحول (1، 279، 280).

⁸ - إشكالية التعامل مع السنة، ص: 349.

بالطبع لا"، وأورد نصوصاً تدل على كثرة التدليس، منها قول ابن عبد البر "التدليس في محدثي الكوفة كثير" وقول يزيد بن هارون: "لم أر بالكوفة أحداً إلا وهو يدلس إلا مسعراً وشريكاً" وقول شعبة: "ما رأيت أحداً إلا وهو يدلس إلا عمرو بن مرة وابن عون".¹

أما انتشار التدليس بهذه الصورة المخيفة فإنما هي مبالغة يأبأها البحث العلمي الرزين، قال الحاكم: "إن أهل الحجاز والحرمين، ومصر والعوالي، ليس التدليس من مذهبهم، وكذلك أهل خراسان، والجبال وأصبهان، وبلاد فارس، وخوزستان وما وراء النهر لا يعلم أحد من أئمتهم دلس، وأكثر المحدثين تدليساً أهل الكوفة، ونفر يسير من أهل البصرة، فأما مدينة السلام بغداد، فقد خرج منها جماعة من أئمة الحديث مثل أبي النضر هاشم بن القاسم، وأبي نوح عبد الرحمن بن غزوان، وأبي كامل مظفر بن مدرك، وأبي محمد يونس بن محمد المؤدب، وهم في الطبقة الأولى من أهل بغداد، لا يذكر عنهم، وعن أقرانهم من الطبقة الأولى التدليس، ثم الطبقة الثانية بعدهم الحسن بن موسى الأشيب، وسريج بن النعمان الجوهري، ومعاوية بن عمرو الأزدي، والمعلّى بن منصور، وأقرانهم من هذه الطبقة لم يذكر عنهم التدليس، ثم الطبقة الثالثة إسحاق بن عيسى بن الطباع، ومنصور بن سلمة الخزاعي، وسليمان بن داود الهاشمي، وأبو نصر عبد الملك بن عبد العزيز التمار لم يذكر عنهم وعن طبقتهم التدليس، ثم الطبقة الرابعة، منهم مثل الهيثم بن خارجة، والحكم بن موسى، وخلف بن هشام، وداود بن عمر الضبي، لم يذكر عنهم وعن طبقتهم التدليس، ثم الطبقة الخامسة مثل إمام الحديث أحمد بن حنبل، ومزي الرواة يحيى بن معين، وصاحب المسند أبي خيثمة زهير بن حرب، وعمرو بن محمد الناقد، لم يذكر عن واحد منهم التدليس، ثم الطبقة السادسة والسابعة، فلم يذكر عنهم ذلك إلا أبي بكر محمد بن محمد بن سليمان الباغندي الواسطي".²

وما ذكر من نصوص تفيد كثرة التدليس فقد يكون ذلك على سبيل المبالغة، أو قد يكون لما كان عليه بعض من يفعل ذلك على سبيل اختصار السند، فهو نوع إرسال، قال محمد سعيد عبد الجليل: "ويختلف الحال في كراهة ذلك بسبب الغرض الحامل عليه فقد يحمله على ذلك: وأما من الثقات فلهم فيها أغراض لا تضر فمها الاختصار وكان تدليسهم بمنزلة روايتهم المرسل".¹

¹ - إشكالية التعامل مع السنة، ص: 350.

² - معرفة علوم الحديث، ص: 111.

¹ - مصطلح التدليس بين المتقدمين والمتأخرين دراسة تأصيلية نظرية تطبيقية، المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق، المجلد 32 العدد 3، ص: 102.

والحال أن التدليس له أقسام ودرجات فيها ما لا يضر، قال النووي: "والصحيح ما قاله الجماهير من الطوائف أن ما رواه بلفظ محتمل لم يبين فيه السماع فهو مرسل وما بينه فيه كسمعت وحدثنا وأخبرنا وشبهها فهو صحيح مقبول يحتج به وفي الصحيحين وغيرهما من كتب الأصول من هذا الضرب كثير لا يحصى كقتادة والاعمش والسفيانين وهشيم وغيرهم"¹. وقال الحاكم في معرفة علوم الحديث: "فالتدليس عندنا على ستة أجناس فمن المدلسين من دلس عن الثقات الذين هم في الثقة مثل المحدث، أو فوقه، أو دونه، إلا أنهم لم يخرجوا من عداد الذين يقبل أخبارهم، فمنهم من التابعين أبو سفيان طلحة بن نافع، وقتادة بن دعامة وغيرهما، ... وأما الجنس الثاني من المدلسين فقوم يدلسون الحديث فيقولون: قال فلان، فإذا وقع إليهم من ينقر سماعتهم، ويلج ويراجعهم، ذكروا فيه سماعتهم، ... والجنس الثالث من التدليس قوم دلسوا على أقوام مجهولين لا يدرى من هم، ومن أين هم، ... والجنس الرابع من المدلسين قوم دلسوا أحاديث روهها عن المجروحين فغيروا أساميتهم وكناهم، كي لا يعرفوا، ... الجنس الخامس من المدلسين قوم دلسوا عن قوم سمعوا منهم الكثير، وربما فاتهم الشيء عنهم، فيدلسونه، ... والجنس السادس من التدليس قوم روهوا، عن شيوخ لم يروهم قط، ولم يسمعوا منهم، إنما قالوا: قال فلان: فحمل ذلك عنهم على السماع، وليس عندهم عنهم سماع عال، ولا نازل"².

ثم أضاف (العلواني) إلى كثرة التدليس عسر كشف المدلسين، وهذا تناقض بين، إذ الكثرة موجبة أن الكشف سهل، وإلا ما اكتشفوا كل ذلك العدد كما يدعي، والحال أن المحدثين اكتشفوا التدليس وأصحابه، وهذه من مهماتهم فلا حاجة لاستصعاب هذا عليهم. كما ذكر ذهاب بعضهم إلى تضليل من يسألهم عن السماع³، وجاء بقصة زيد بن أسلم عندما حدث بحديث عن ابن عمر فقال سفيان بن عيينة لرجل سل زيد بن أسلم (عن سماعه) فقال له هل سمعت هذا من ابن عمر، فقال له يا أبا أسامة أسمعته من ابن عمر؟ قال زيد: أما أنا فقد رأيته؛ قال العلواني: "فهذا تضليل من الراوي الذي يسمع"، ثم ذكر قول ابن عبد البر: "جواب زيد هذا جواب حيرة عما سئل عنه، وفيه دليل والله أعلم على أنه لم

¹ - شرح النووي على مسلم، (33/1).

² - ص: 103-109.

³ - إشكالية التعامل مع السنة، ص: 351.

يسمع هذا الحديث من ابن عمر، ولو سمعه منه لأجاب بأنه سمعه، ولم يجب بأنه رآه، وليست الرؤية دليلاً على صحة السماع"¹.

ولو كلف نفسه البحث لوجد الجواب، لكن حيث إن غايته أن يجد ما يقوي مراده فلم يكلف نفسه البحث، والجواب أنه لا يُظن بمثل زيد بن أسلم وهو من هو في الثقة والضبط والورع أن يُظن به ذلك، بل إن ابن عبد البر نفسه وصفه بذلك حيث قال: "وزيد بن أسلم أحد ثقات أهل المدينة وكان من العلماء العباد الفضلاء"². كما أن ابن عبد البر لم يقطع بعدم سماع زيد من ابن عمر.

كما أن زيدا بن أسلم قد صرح بالسماع وذلك ما فات ابن عبد البر، قال ابن خزيمة بعد إيراد الحديث: "هذا حديث أبي عمار (أحد رجال السند) زاد عبد الجبار، قال سفيان: قلت لزيد: سمعت هذا من ابن عمر؟ قال نعم"³.

وذهب محمد بن علي الإثيوبي في "ذخيرة العقبى" إلى أنه لا تنافي بين القصتين، وهذا هو الذي يجب أن يجتهد فيه الباحث إذ لا يصار إلى التعارض إلا بعد استحالة الجمع قال الإثيوبي: "لا تنافي بين القصتين، لإمكان الجمع بينهما بكون سفيان أولاً هاب أن يسأل زيدا، فأمر رجلاً أن يسأل له، فسأله؟ فأجابه بما ليس صريحاً في السماع، ثم سأله ابن عيينة بنفسه ليتبين السماع، فأجابه بسماعه صريحاً"⁴.

ثم على فرض كون زيد رفض أن يجيب السائل فهذا لا يصلح أن يكون دليلاً على ما ذهب إليه العلواني في ممارسة المحدثين للتضليل، إذ هي حال خاصة فلا سبيل لتعميمها وجعلها قاعدة. كما أن ذلك لا يليق أن نصف به علماء الأمة، وإلا كيف نصف هذا الذي قام به هو في هذا الكتاب.

كما ساق العلواني قول شعبة، "ما فتش الحديث أحد تفتيشي..." وهذا النص على فرض صحة نسبته إلى شعبة فقد خرج مخرج المبالغة فقط، وهو مع ذلك في سنده يزيد بن محمد المهلب وهو شاعر غير معروف بين المحدثين تماماً.

¹ - التمهيد، (340/3).

² - نفسه.

³ - صحيح ابن خزيمة، (49/2).

⁴ - (168/14).

3- الكذب:

بدأ الكلام عن الكذب بأن "ظل الكذابون يتزايدون ومن ثم الروايات المكذوبة وبتعقب هذا الكذب نجده واقع كما يصدق أهل الحديث من أيام الصحابة"¹، وهو كلام فيه ما فيه، ثم أورد قول عثمان رضي الله عنه: "إن أناسا يتحدثون عن رسول الله أحاديث لا أدري ما هي".

يستفاد من قول عثمان غير هذا الذي ذكره العلواني، قال الإثيوبي: "وأما قول عثمان رضي الله عنه هذا فالظاهر أنه من باب الإنكار عليهم، ويحتمل أن يكون قال ذلك فيما لم يتبين له ثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم وعدمه"². وقال الدكتور موسى لاشين: "يؤخذ من قول عثمان "إن ناسا يتحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث لا أدري ما هي؟" أدب السلف الصالح، وموقفهم من روايات الحديث المختلفة، وعدم تكذيب بعضهم بعضها، واقتصرارهم على نفي العلم"³.

فتبين أن كلام عثمان يفسر على أوجه متعددة وليس أحد هذه الأوجه أولى من غيره، وإذا الأمر كذلك فلا يجوز المصير بالنص بعيدا خاصة مع حسن الظن بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أن كلام عثمان موجه لغير الصحابة.

وفي نفس السياق يورد نصا لمعاوية رضي الله عنه وفيه: "أما بعد فإنه بلغني أن رجالاً منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله، ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأولئك جهالكم"⁴، وكلام معاوية جاء ردا على قول لعبد الله بن عمرو بن العاص، حيث ساقه البخاري⁵ بسنده عن الزهري قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية، وهو عنده في وفد من قريش أن عبد الله بن عمرو يحدث أنه سيكون ملك من قحطان، فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد، فذكر مقالته السابقة.

ولو رجع إلى شروح الحديث لانتفت عنده الشبهة، فقد نقل ابن الملقن رحمه الله في التوضيح لشرح الجامع الصحيح، عن المهلب أن ذلك يمكن أن يكون ملكا يتغلب على الناس من غير رضا ببيعته، وأما إنكار معاوية فلئلا يظن أن الخلافة في غير قريش، قال رحمه الله:

¹ - إشكالية التعامل مع السنة 352.

² - البحر المحيط الثجاج، (6/142-143).

³ - فتح المنعم، (2/124).

⁴ - إشكالية التعامل مع السنة، ص: 352.

⁵ - صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب الأمراء من قريش، (9/62).

"فصل: قال المهلب: "وأما حديث ابن عمرو أنه (سيكون ملك من قحطان). فيحتمل أن يكون الملك فيه غير خليفة يتغلب على الناس من غير رضا به.

وإنما أنكر ذلك معاوية؛ لئلا يظن أن الخلافة تجوز في غير قريش، ولو كان عند أحد علم من ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخبر به معاوية حين خطب بإنكار ذلك عليهم، وقد روي في الحديث ما يدل أن ذلك إنما يكون عند ظهور أشرار الساعة، وتغيير الدين.

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه"¹، وهو دال على أن ذلك من أشرائها ومما لا يجوز"².

وذهب شمس الدين البرماوي إلى الجمع بين ما ذكره عبد الله بن عمر وبين إنكار معاوية حيث قال: "واعلم أن ما رواه معاوية لا ينافي مقالة عبد الله - رضي الله عنهما -، وإن لم يرفعها للنبي - صلى الله عليه وسلم -:؛ لأنه عند عدم إقامتهم الدين يسلط عليهم، وذاك على وجه الاستحقاق، وقد سبق قريبا في (باب تغيير الزمان): "لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه"، وكأنها لم تبلغ معاوية"³.

كما ذهب الشيخ الكوراني الحنفي في الكوثر الجاري إلى نوع من الجمع بين القولين فقال: "وهذا الذي قاله لا يرد ما قاله عبد الله بن عمرو أما أولا فلأن حديث القحطاني رواه أبو هريرة، وقد سلف مسندا مرفوعا في أبواب الفتن، وأما ثانيا فلأن حديث القحطاني لا يعارض ما رواه معاوية، وقد رواه غيره؛ لأن القحطاني ليس من الخلفاء بل رجل متغلب، وأما [ثالثا] فلأن آخر الحديث (الأمر في قريش) مقيد بقوله (ما أقاموا الدين) فإن مفهومه دال على خروج الأمر إذا لم يقيموا الدين"⁴.

وفي نفس السياق وبنفس التحليل أورد قولاً عن رافع بن خديج: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل فقال يا رسول الله إن الناس يحدثون عنك كذا وكذا قال ما قلت ما أقول إلا ما ينزل من السماء ويحكم لا تكذبوا علي فإنه ليس كذب علي ككذب علي

¹ - صحيح البخاري كتاب المناقب، باب ذكر قحطان، (183/4).

² - التوضيح لشرح الجامع الصحيح (431-430/32).

³ - اللامع الصريح بشرح الجامع الصحيح، (84/17).

⁴ - الكوثر الجاري إلى رياض البخاري، (55/11).

غيري"¹، غير أنه ذكر في الهامش أن الحديث في كتاب الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة²، ولا أدري ما فائدة إيراده مع علمه بكونه موضوعاً.

وبنفس الطريقة يورد حديث دعاء القنوت، وفيه أن عاصماً سأل أنس بن مالك عن القنوت فقال: قبل الركوع فقلت (أي عاصم): إن فلانا يزعم أنك قلت بعد الركوع فقال: كذب؛ والجواب أن كذب لها في اللغة معان منها: أخطأ وهو الذي يحمل عليه قول الصحابي في غيره "كذب"، قال ابن حجر في فتح الباري: "ومعنى قوله كذب أي أخطأ وهو لغة أهل الحجاز يطلقون الكذب على ما هو أعم من العمد والخطأ"³.

وختم الكلام عن الكذب خاصة في زمن الصحابة رضوان الله عليهم بنص رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأخبار فقال: "إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب"⁴.

والسبب دائماً أن الرجل إنما يكتفي بما في ذهنه ولا يكلف نفسه التثبت مما فهمه، والصحيح أن كعب الأخبار إنما كان يحكي ما وجده في كتبهم، لا أنه هو من يكذب، أو لا يمكن أن يتعمد كعب الكذب، وإخبار الخبر بخلاف ما هو عليه يسمى كذباً وإن لم يكن عمداً، قال القاضي عياض في المشارق: "وإن كنا لنبلو عليه الكذب، قيل الهاء في عليه عائدة على الكتاب لا على كعب لأن كتبهم قد غيرت وكان هذا أنزه لكعب عن الكذب"⁵.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: "وعندي أنه يصح أن يعود على كعب أو على حديثه وإن لم يقصد الكذب أو يتعمده كعب إذ ليس بشرط في الكذب عند أهل السنة التعمد بل إخبار الخبر بخلاف ما هو عليه وليس في هذا تجريح لكعب بالكذب"⁶.

وقال ابن تيمية: "ومعلوم أن عامة ما عند كعب أن ينقل ما وجده في كتبهم ولو نقل ناقل ما وجده في الكتب عن نبينا صلى الله عليه وسلم لكان فيه كذب كثير"¹. وقال ابن

¹ - إشكالية التعامل مع السنة، ص: 352.

² - ص: 25، وتحذير الخواص ص: 107.

³ - (490/2).

⁴ - صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، (110/9).

⁵ - (366/2).

⁶ - مشارق الأنوار على صحاح الآثار (366/2).

¹ - مجموع الفتاوى، (151/15).

الجوزي: "يعني أن الكذب فيما يخبر به عن أهل الكتاب لا منه، فالأخبار التي يحكيها عن القوم يكون بعضها كذبا، فأما كعب الأخبار فمن كبار الأخيار"¹.

4- الجهالة:

بدأ الكلام عن الجهالة بأن "معايير الجهالة تختلف من زمان لآخر ومن مكان لآخر مما جعل الحديث يتبدل من الصحة إلى الضعف والعكس"².

هكذا بدأ الكلام عن الجهالة بإثارة هذه الدعوى، ويعضد رأيه بنص يورده بطريقة غريبة جدا لا تليق بالعمل العلمي الذي يؤسس فيه صاحبه لما يدعي أنه مشروع إعادة النظر في التراث عامة والسنة خاصة، فيقول: "فقال بعضهم كأحمد بن حنبل" هكذا بهذه الصيغة "بعضهم" والمسألة دقيقة جدا، ثم يمثل بأحمد بن حنبل الذي نسب إليه نصا لا يدل على ما بدأ به من دعوى اختلاف معايير الجهالة، يقول أحمد: "إن الجهالة ترتفع عن الراوي برواية أحد الأئمة عنه، فقد يروي أحد الأئمة عن الرجل وهو ليس بثقة"، وهذا النص ليس فيه ما يفيد اختلاف معايير الجهالة، كما أنه يغلب على الظن أنه ليس من كلام الإمام أحمد تماما ولا من كلام غيره؛ وكعاداته لم يوثق النص وتلك معضلة أخرى.

ثم علق بنص آخر عن سفيان الثوري قال فيه: "اتقوا الكلبي، فقليل له: إنك تروي عنه! قال: أنا أعرف صدقه من كذبه"، وذكر أن ابن المبارك روى عن جماعة فلما تبين أمرهم ترك الرواية عنهم، وكذلك روى كثير من الثقات عن الضعفاء كالثوري وشعبة كما نقل ذلك عن ابن رجب في شرح علل الترمذي³.

أما تحذير سفيان الثوري من الكلبي فلا علاقة له بالجهالة، وكل ما فيه أنه حذرهم من الرواية عن الكلبي، فلما أنكر عليه روايته عنه أجاب أنه يعرف صدقه من كذبه، وهذا ليس غريبا على أهل الحديث العارفين بأحوال الرواة والروايات، فلقد روى عن الضعفاء ورووا الروايات الضعيفة، لكن فعلوا ذلك وهم على علم به، وبينوا أحوال ذلك، قال الترمذي: "وروى غير واحد من الأئمة عن الضعفاء وبينوا أحوالهم للناس" ثم ذكر تحذير سفيان الثوري من الكلبي¹.

¹ - كشف المشكل، (96-95/4).

² - إشكالية التعامل مع السنة، ص: 353.

³ - نفسه والصفحة نفسها.

¹ - العلل الصغير بأخر سنن الترمذي، (237/6).

أو يكون ذلك على سبيل التعجب كما بين أبو حاتم، فقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن زيد بن الحباب قال سمعت سفيان الثوري يقول: عجباً لمن يروي عن الكلبي فذكرته لأبي وقلت له: إن الثوري يروي عن الكلبي، قال: لا يقصد الرواية عنه ويحكي حكاية تعجبا فيعلقه من حضره ويجعلونه رواية عنه"¹.

ثم قد يروي الراوي الضعيف الحديث الصحيح والضعيف فيكتب عنه أهل الحديث ثم بعد ذلك يميزون قال النووي: "إن روايات الراوي الضعيف يكون فيها الصحيح والضعيف والباطل فيكتبونها ثم يميز أهل الحديث والإتقان بعض ذلك من بعض وذلك سهل عليهم معروف عندهم وهذا احتج سفيان الثوري رحمه الله حين نهى عن الرواية عن الكلبي فقيل له أنت تروي عنه فقال أنا أعلم صدقه من كذبه"²، بل اعتبر طاهر الجزائري ذلك من البراعة والإتقان حيث قال: "وقد بلغت البراعة ببعض الجهابذة إلى أن كانوا يعرفون صدق الراوي من كذبه ولهذا كان بعضهم يروي عن بعض من يتهم بالكذب"³.

5- الإقليمية:

كعادة العلواني دون تمهيد يبدي موقفه من الإقليمية بشكل موجز وواضح حيث قال: "الإقليمية هي أحد أوجه التعصب غير العاقل، وتؤدي إلى إفساد حكم الناقد سواء بالتوثيق أو التضعيف والتجريح"⁴؛ واستند في ذلك إلى مجموعة أقوال: الأول: عن وكيع قال: "لا نعدل بأهل بلدنا أحدا"⁵.

الثاني: عن سفيان بن عيينة قال: "من أراد الإسناد والحديث المعروف الذي تسكن إليه القلوب فعليه بحديث أهل المدينة"⁶.

الثالث: عن الزهري قال: "ما رأيت قوماً أنقض لعري الإسلام من أهل مكة"¹.
الرابع: عن عبد الرحمن بن مهدي "وسئل عن حديث أهل الشام فنفض يده"².

¹ - مقدمة الجرح والتعديل، (73/1).

² - شرح النووي على مسلم، (125/1).

³ - توجيه النظر، (887/2).

⁴ - إشكالية التعامل مع السنة، ص: 354.

⁵ الجامع، للخطيب، (299/2).

⁶ - التمهيد، لابن عبد البر، (79/1).

¹ - جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (1097/2).

² - التمهيد لابن عبد البر، (81/1).

وحط الجوزجاني على أهل الكوفة لتشيعهم وميله للنصب"¹.

أما قول وكيع فقد جاء جوابا عمن سألته عن أحب الأسانيد إليه، وذكر له ثلاثة أسانيد فأجابه "لا نعدل بأهل بلدنا أحدا، سفيان عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة أحب إلي"، وهذا الكلام إنما هو في سياق المفاضلة بين الأسانيد وذكر أهمها، وهو أمر خاض فيه المحدثون، وكل ذكر ما ظهر له أنه أصح؛ ولعل وكيعا إنما ذكر ذلك لا بدافع التعصب بل لأنه أعلم بحديث أهل بلده من حديث غير بلده، قال ابن حجر: "وسبب الاختلاف في ذلك (أي في أصح الأسانيد) إنما هو من جهة أن كل من رجح إسنادا كانت أوصاف رجال ذلك الإسناد أقوى من غيره بحسب اطلاعه، فاختلفت أقوالهم لاختلاف اجتهادهم. وتوضيح هذا أن كثيرا ممن نقل عنه الكلام في ذلك إنما يرجح إسناد أهل بلده، وذلك لشدة اعتناؤه"².

وأما قول سفيان بن عيينة فإنما جاء في سياق ما امتاز به أهل كل بلد في العلم، حيث نقل ابن عساكر في تاريخه بسنده عن سفيان بن عيينة أنه قال: "إذا أردت الحديث الصحيح والإسناد الجيد فعليك بأهل المدينة وإذا أردت النسك فعليك بأهل مكة وإذا أردت المغازي فعليك بأهل الشام"³.

ثم أي شيء يدل في قول سفيان بن عيينة على التعصب للإقليمية، فسفيان بن عيينة عراقي/كوفي، إنما فضل حديث أهل المدينة وليس هو وحده من كان له هذا الرأي، فهذا عبد الرحمن بن مهدي وهو بصري يقول قد قيل له أي الحديث أصح؟ فقال: "حديث أهل الحجاز"⁴.

وأما قول الزهري في أهل مكة، فالعجب من العلواني يحيل على جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، وهو القائل بعد قول الزهري: "وهذا ابن شهاب قد أطلق على أهل مكة في زمانه أنهم ينقضون عرى الإسلام ما استثنى منهم أحدا، وفيهم من جلة العلماء من لا خفاء

¹ - إشكالية التعامل مع السنة، ص: 354.

² - النكت على ابن الصلاح، (248/1)، وانظر تدريب الراوي، (76/1).

³ - تاريخ دمشق، (329/1).

⁴ - الجامع للخطيب، (288/2).

لجلالته في الدين وأظن ذلك والله أعلم لما روي عنهم في الصرف ومتعة النساء¹. والإنصاف يفرض عدم إطلاق الكلام دون زمام.

وأما قول ابن مهدي في أهل الشام فإنما قال ذلك في سياق المقارنة بين حديث أهل كل بلد كما مر.

وقد يكون ذلك لما في حديث الشاميين من الإرسال الكثير، قال الخطيب البغدادي: "وحديث الشاميين أكثره مراسيل ومقاطيع"²، وقال الذهبي في التاريخ: "فعلى هذا رواية أبي سلام ومن بعده، عن أبي مالك مرسله منقطعة، وهذا الإرسال كثير في حديث الشاميين"³، وقال في السير: "أبو سلام ممتور الحبشي ثم الدمشقي... حدث عن: حذيفة، وثوبان، وعلي، وأبي ذر، وعمرو بن عبسة، وكثير من ذلك مراسيل، كعادة الشاميين يرسلون عن الكبار"⁴. وقال في الميزان: "يحيى بن أبي المطاع، العرياض، ومعاوية. قال دحيم: ثقة معروف. وقد استبعد دحيم لقيه للعرياض، فلعله أرسل عنه، فهذا في الشاميين كثير الوقوع، يروون عمن لم يلحقوهم"⁵.

وهذا هو الذي كان عليه أهل الشام، إلى أن نههم الزهري فقال: "يا أهل الشام: ما لي أرى أحاديثكم ليست لها أزمة ولا خطم؟! (يعني الإسناد) قال الوليد: فتمسك أصحابنا بالأسانيد من يومئذ"⁶.

وهذا موضوع واسع ألقت فيه مؤلفات وبحوث⁷؛ وأما حط الجوزجاني على أهل الكوفة، فهذا أمر متعارف عليه بين أهل الحديث لفشو التشيع في أهل الكوفة وكذلك التدليس، ولم يكن الجوزجاني وحده في هذا، نعم قد تكون عنده مبالغة لكن مع ذلك فقد احتاط المحدثون في حديث الكوفيين، قال الزهري: "في حديث أهل الكوفة دغل كثير"¹، وقال

¹ - (1093/2).

² - الجامع، (287/2).

³ - تاريخ الإسلام، (744/2).

⁴ - سير أعلام النبلاء، ط الرسالة، (355/4).

⁵ - ميزان الاعتدال، (410/4).

⁶ - تاريخ دمشق، (333/55)، سير أعلام النبلاء، (334/5)، وتاريخ الإسلام، (499/3).

⁷ - (كتاب أصح الأسانيد: رحاب رفعت فوزي عبد المطلب) و(بحث: القول المفيد في أصح الأسانيد محمد زهير عبد الله).

¹ - الكامل، (138/1).

ابن مهدي: "حديث أهل الكوفة مدخول"¹. والدغل والدخل: الفساد، قال الجوهرى: "الدغل بالتحريك الفساد مثل الدخل"².

وقد نبه بعض العلماء على ما كان في الجوزجاني من إفراط في جرح من نسب إلى التشيع، بل نهوا على ما يكون سببا موجبا للعداوة، قال ابن حجر: "ممن ينبغي أن يتوقف في قبول قوله في الجرح: من كان بينه وبين من جرحه عداوة سببها الاختلاف في الاعتقاد فإن الحاذق إذا تأمل ثلب أبي إسحاق الجوزجاني لأهل الكوفة رأى العجب وذلك لشدة انحرافه في النصب وشهرة أهلها بالتشيع"³.

إلا أن ابن حجر وافق الجوزجاني في ما ذهب إليه من الوصف بالزيف عن الحق لبدعة والأخذ على من كانت هذه حاله⁴ فقال: "وينبغي أن يقيد قولنا بقبول رواية المبتدع إذا كان صدوقا ولم يكن داعية بشرط أن لا يكون الحديث الذي يحدث به مما يعضد بدعته ويشدها... فقد نص على هذا القيد في هذه المسألة الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني شيخ النسائي فقال في مقدمة كتابه في "الجرح والتعديل": "ومنهم زائف عن الحق، صدوق اللهجة، قد جرى في الناس حديثه لكنه مخذول في بدعته مأمون في روايته فهو لا ليس فيهم حيلة إلا أن يؤخذ من حديثهم ما يعرف إلا ما يقوي به بدعته فيتهم بذلك"⁵.

بل إن المعلي اليماني لا يرى الجوزجاني متجاوزا للحد في حطه على أهل الكوفة، قال: "وقد تتبعت كثيرا من كلام الجوزجاني في المنتشيعين فلم أجده متجاوزا الحد، وإنما الرجل لما فيه من النصب يرى التشيع مذهبا سيئا وبدعة ضلالة وزيفا عن الحق وخذلانا"⁶.
والحال أن الجوزجاني أقر له العلماء بالإمامة في الحديث.

6- العاطفة:

بأسلوب تقريرى يذكر العلواني أن العاطفة تدخلت في حكم النقد على الرواة، ومن تم على الروايات ثم ذكر أمثلة لذلك، وحسم بقوله: "وهناك أمثلة عدة لإفساد العاطفة

¹ - نفسه، (242/1).

² - الصحاح، مادة: د غ ل، (1697/4)، وانظر مقاييس اللغة لابن فارس، مادة: د غ ل، (284/2).

³ - لسان الميزان، ت: أبو غدة، (212/1).

⁴ - انظر أحوال الرجال، للجوزجاني، ص: 11.

⁵ - لسان الميزان، (204/1).

⁶ - التنكيل، (246/1).

لحكم كبار الأئمة أحجمنا عنها"¹.

وأما الأمثلة التي أوردها فهي مجموعة نصوص وأقوال وهي:

- قول مالك في أيوب السختياني: إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي صلى الله عليه وسلم كتبت عنه".

- رفض مالك الرواية عن محمد بن إسحاق وكذا سعد بن إبراهيم.

- رفض النسائي الرواية عن أحمد بن صالح.

أما بالنسبة لكتابة مالك عن أيوب السختياني، فذاك عين الإنصاف إذ أنه لما خبره وعرفه كتب عنه، وهو أمر محمود ومنهج دقيق، فقد نقل الذهبي في السير عن محمد بن الحسن الشيباني أنه قال: "كنت عند مالك، فنظر إلى أصحابه، فقال: انظروا أهل المشرق، فأنزلوهم بمنزلة أهل الكتاب إذا حدثوكم، فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم.

ثم التفت، فرآني، فكأنه استحي، فقال: يا أبا عبد الله! أكره أن تكون غيبة، هكذا أدركت أصحابنا يقولون.

قلت (الذهبي): هذا القول من الإمام قاله لأنه لم يكن له اعتناء بأحوال بعض القوم، ولا خبر تراجعهم، وهذا هو الورع، ألا تراه لما خبر حال أيوب السختياني العراقي كيف احتج به، وكذلك حميد الطويل، وغير واحد ممن روى عنهم"².

ولذلك قال فيه مالك: "ما حدثتكم عن رجل إلا وأيوب أفضل منه"³.

وأما ما كان بين مالك ومحمد بن إسحاق فينظر إليه من جهتين:

الأولى: أن ذلك لا يخرج عن دائرة ما يكون بين الأقران من خصومة لأي سبب من الأسباب، ولذلك لم يقبل قول مالك في ابن إسحاق لهذا الاعتبار، وقد ذكروا أن سبب الخصومة بينهما أن ابن إسحاق كان يطعن في نسب مالك، كما أنه لما ألف مالك الموطأ قال: اعرضوا علي، فقال مالك قولته في: دجال من الدجاجة، قال ابن حبان في الثقات: "وكان (ابن إسحاق) يزعم أن مالكا من موالي ذي أصبح، وكان مالك يزعم أنه من أنفسهم، فوقع بينهما لهذا مفاوضة، فلما صنف مالك الموطأ قال بن إسحاق اتتوني به فإني بيطاره فنقل ذلك إلى

¹ - إشكالية التعامل مع السنة، ص: 355-356.

² - (68/8).

³ - مسند الموطأ، للجوهري، ص: 277.

مالك فقال هذا دجال من الدجاجة... وكان بينهم ما يكون بين الناس حتى عزم محمد ابن إسحاق على الخروج إلى العراق فتصالحا حينئذ فأعطاه مالك عند الوداع خمسين دينارا¹.

الثانية: ينظر إلى أن قول مالك لا يخرج عن جملة أقوال بعض النقاد الذين طعنوا في ابن إسحاق، ولقد ذكر ابن حبان سبب قدح مالك في ابن إسحاق فقال: "ولم يكن يقدر فيه مالك من أجل الحديث إنما كان ينكر عليه تتبعه غزوات النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة خيبر وقريظة والنضير وما أشبهها من الغزوات عن أسلافهم"².

هذا فضلا عن أن ابن إسحاق قد تكلم فيه غير مالك من النقاد، وقد ذكر ابن حبان سبب طعنهم فيه فقال: "وإنما أتى ما أتى لأنه كان يدلّس على الضعفاء فوق المناكير في روايته من قبل أولئك"³.

كما يرجع سبب وصفه من بعض النقاد بأنه كذاب لما حدث عن فاطمة بنت المنذر ولم يكن رأها، فقد روى ابن عدي في الكامل بسنده عن سليمان بن داود، قال: قال لي يحيى بن سعيد القطان أشهد أن محمد بن إسحاق كذاب، قال: قلت ما يدريك، قال: قال لي وهيب بن خالد إنه كذاب، قال: قلت لوهيب ما يدريك، قال: قال لي مالك بن أنس.

أشهد أنه كذاب قلت لمالك ما يدريك، قال: قال لي هشام بن عروة أشهد أنه كذاب قلت لهشام ما يدريك قال حدث عن امرأتي فاطمة بنت المنذر وأدخلت علي وهي بنت تسع سنين وما رأها رجل حتى لقيت الله⁴، ولعل قول مالك فيه: "دجال من الدجاجة" إنما كان بسبب ما اتهم به من القدر أو غيره من البدع، قال ابن عدي: "سمعت ابن حماد يقول: قال السعدي كان محمد بن إسحاق مرميا بغير نوع من البدع وكان مالك يقول هو دجال من الدجاجة.. وعن يزيد بن زريع قال كان محمد بن إسحاق قدريا"⁵.

وأما فيما يتعلق بعدم رواية مالك عن سعد بن إبراهيم فلا يخرج عما يقع بين الأقران من التدابر والتحاسد أحيانا، ولعل سبب ذلك كما قال أحمد: "زعموا أن سعدا كان وعظ

¹ - الثقات، لابن حبان، (382/7).

² - نفسه والصفحة نفسها.

³ - الثقات، (383/7).

⁴ - (255/7).

⁵ - الكامل، (257/7).

مالكا أي في تنسبه فتركه"¹.

ولا يلتفت إلى قول من يرى أن سبب ترك مالك لسعد أن سعدا كان يرى القدر، فقد سئل يحيى بن معين عن قول بعض الناس في سعد أنه كان يرى القدر وترك مالك الرواية عنه، فقال: "لم يكن يرى القدر وإنما ترك مالك الرواية عنه لأنه تكلم في نسب مالك فكان مالك لا يروي عنه وهو ثبت لا شك فيه"².

وأما عدم رواية النسائي عن أحمد بن صالح، فذلك لا يخرج عما ذكر مما يقع من النفور بين المتعاصرين، قال الخطيب البغدادي شارحا سبب النفرة بينهما: "ويقال: كان آفة أحمد بن صالح الكبر وشراسة الخلق، ونال النسائي منه جفاء في مجلسه، فذلك السبب الذي أفسد الحال بينهما"³.

وهو ما ذكره المزي حيث قال: "وكان سبب تضعيف النسائي له أن أحمد بن صالح رحمه الله كان لا يحدث أحدا حتى يشهد عنده رجلا من المسلمين أنه من أهل الخير والعدالة، وكان يحدثه ويبذل له علمه، وكان يذهب في ذلك مذهب زائدة بن قدامة، فأتى النسائي لسمع منه، فدخل بلا إذن، ولم يأت به برجلين يشهدان له بالعدالة، فلما رآه في مجلسه أنكره، وأمر بإخراجه، فضغفه النسائي لهذا"⁴.

مهما يكن فالقاعدة التي اعتمدها المحدثون أن الراوي إذا عرف بالعدالة والضبط، فجرحه معاصره فإنه لا يلتفت إلى جرح المعاصر؛ وبذلك هذا الذي بنى عليه العلواني مما سماه (سيطرة العاطفة) ليس له محل إلا في ذهنه.

7- التقليد:

ذكر العلواني تحت هذا العنوان ما يلي:

- تراجع يحيى القطان عن الطعن في روح بن عباد، حيث كان يقلد غيره في الطعن.
- تراجع ابن مهدي عن اعتبار رواية روح بن عباد لمسائل ابن أبي ذئب هي من الكذب حتى عرف أنه سمعها.

¹ - سؤالات أبي داود للإمام أحمد، ص: 203.

² - تهذيب التهذيب، لابن حجر، ط الهندية، (465/3).

³ - تاريخ بغداد، (348/1).

⁴ - تهذيب الكمال، (348/1).

والجواب عن المسألة أنه على فرض أن يحيى القطان وابن مهدي تكلموا في روح بن عبادة تقليدا لغيرهما كما ذكر ثم تراجعوا عن ذلك لما ظهر لهما أن روح بن عبادة ممن لا يتكلم فيه، فهذا ليس فيه أي عيب، إذ أغلب ما يذكره النقاد من الحكم على الرجال منقول عن غيرهم قلدهم في ذلك فقلد المتأخر المتقدم، إذ أخبار الرواة مبنية على المعاشرة والاطلاع على الأحوال، ومن لم يطلع نقل واعتمد على من اطلع، ولو فرض أن يكون كل ناقد مطلعاً على أحوال الرواة لكان ذلك محالاً، كما أن رجوع الناقد إلى ما ظهر له أنه صواب هو المطلوب فأى عيب في ذلك؟ ثم ما ذكره من ذم يحيى بن سعيد روح بن عبادة غير مسلم به، فقد قيل ليحيى بن معين: "زعموا أن يحيى القطان كان يتكلم فيه (روح بن عبادة)، فقال: باطل، ما تكلم يحيى القطان فيه بشيء، هو صدوق"¹.

وعن علي بن المديني أنه قال: "كانوا يقولون: إن يحيى بن سعيد كان يتكلم في روح بن عبادة، قال علي: فإني لعند يحيى بن سعيد يوماً، إذ جاء روح بن عبادة، فسأله عن شيء من حديث أشعث، فلما قام، قلت ليحيى بن سعيد: أما تعرف هذا؟ قال: لا، يعني أنه لم يعرفه يحيى باسمه، قلت: هذا روح بن عبادة، قال: هذا روح؟ ما زلت أعرفه يطلب الحديث ويكتبه"².

فلو كان يحيى يطعن في روح بن عبادة مقلدا غيره لذكر ذلك، ولذكر ما يدل على رجوعه عن الخطأ إلى الصواب، فكيف للعلواني أن فهم هذا الذي ذكره!

خاتمة:

ظهر لي بعد هذه المناقشة أن العلواني رحمه الله:
- ربما تأثر تأثراً كبيراً بالمنهج التفكيكي الذي أسسه المفكر الفرنسي جاك دريدا Jack Derrida والذي يقوم على إخضاع كل شيء للنقد.
- كان سريع الخطو في تناول النصوص وتحميلها ما لا تحتل من المعاني والآراء، ولو رجع إلى تلك النصوص في مصادرها وسياقاتها لما استنتج منها ما خالف به الجمهور.

¹ - تاريخ بغداد، (385/9)، وتهذيب الكمال، (242/9).

² - نفسه.

- للأسف اعتمد على بعض المؤلفات المشحونة بالغلط والمغالطات دون أن يعلق على آراء مؤلفيها ولا مناقشتها، خاصة أن تلك المغالطات مما يتناول قضايا مهمة متعلقة بالحديث، كما أنها (المغالطات) مما لا يفوت الباحث المبتدئ فكيف بمثله !

- حيث إنه قد تبين بالدليل مدى مجازفات العلواني في توظيف تلك النصوص في كتابه ومدى تعسفه في فهمها وتوظيفها فإن ذلك يفرض علميا عدم الالتفات إلى النتائج التي ادعى أنه توصل إليها وسعى إلى الدفاع عنها .

- لائحة المصادر والمراجع:

- أحوال الرجال، للجوزجاني، تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي، دار النشر: حديث أكاديمي - فيصل آباد، باكستان.
- الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم، دار الآفاق الجديدة-بيروت.
- الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، علق عليه، عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي دمشق-بيروت، الطبعة الثانية، 1402هـ.
- إرشاد الفحول، للشوكاني، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق - كفر بطنا، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1419هـ.
- إشكالية التعامل مع السنة النبوية، للدكتور طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ.
- البحر المحيط الثجاج، لابن آدم الإتيوبي، دار ابن الجوزي-الرياض، الطبعة الأولى، 1436هـ.
- البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي، دار الكتي، الطبعة الأولى، 1414هـ.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب.
- التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، للمعلمي اليماني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1406هـ.
- التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث بإشراف خالد الرباط، جمعة فتحي، تقديم: أحمد معبد عبد الكريم، دار النوادر، دمشق - سوريا، الطبعة الأولى، 1429هـ.
- تاريخ الإسلام، للذهبي، حققه وضبط نصه وعلق عليه: د بشار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، تحقيق: د بشار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ.
- تاريخ دمشق، لابن عساكر، تحقيق: محب الدين بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415هـ.

- تحذير الخواص، للسيوطي، تحقيق: محمد الصباغ، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، 1394هـ.
- تدريب الراوي، للسيوطي، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة.
- تهذيب التهذيب، لابن حجر، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد الدكن - الهند، الطبعة الأولى، 1325هـ.
- تهذيب الكمال، للمزي، تحقيق: د بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة-بيروت، الطبعة الأولى، 1400.
- توجيه النظر، لابن موهب، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الأولى، 1416هـ.
- الثقات، لابن حبان، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة الأولى، 1393هـ.
- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي-السعودية، الطبعة الأولى، 1414هـ.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف-الرياض.
- سؤالات أبي داود للإمام أحمد، تحقيق، زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1414هـ.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تقديم: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1405هـ.
- شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، 1392هـ.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين-بيروت، الطبعة الرابعة، 1407هـ.
- صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، 1412هـ.
- صحيح البخاري، الطبعة السلطانية.
- العلل الصغير بآخر سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي- بيروت
- فتح المنعم، لموسى شاهين لاشين، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1423هـ.
- فوائح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، للكنوي.

- القول المفيد في أصح الأسانيد، لمحمد زهير عبد الله،
- الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض،
- الكتب العلمية - بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ.
- كشف المشكل، لابن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن-الرياض.
- كوثر الجاري إلى رياض البخاري، للكوراني، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار إحياء التراث
- العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1429هـ.
- اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، للبرماوي، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين
- بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر-سوريا، الطبعة الأولى، 1433هـ.
- لسان الميزان، لابن حجر، تحقيق: أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، 2002م.
- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، مجمع
- الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة - السعودية، 1425هـ.
- المحصول، للرازي، دراسة وتحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة،
- الطبعة الثالثة، 1418هـ.
- مسند الموطأ، للجوهري، تحقيق: لطفي بن محمد الصغير، طه بن علي بُو سريح، دار الغرب
- الإسلامي-بيروت، الطبعة الأولى، 1997م.
- مصطلح التدليس بين المتقدمين والمتأخرين دراسة تأصيلية نظرية تطبيقية، المجلة العلمية
- لكلية أصول الدين والدعوة بالقازيق، المجلد 32 العدد 3،
- معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري، تحقيق: السيد معظم حسين، دار الكتب العلمية
- بيروت، الطبعة الثانية، 1397هـ.
- ميزان الاعتدال، للذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت -
- لبنان، الطبعة الأولى، 1382هـ.
- النكت على ابن الصلاح، لابن حجر، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، عمادة البحث
- العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى،
- 1404هـ.
- نزهة النظر، لابن حجر، تحقيق، نور الدين عتر، مطبعة الصباح، دمشق - سوريا، الطبعة
- الثالثة، 1421هـ.

معالم "الوحدة البنائية للنص" عند العلواني وأثرها في منهج التعامل مع السنة عند المحدثين

د. محمد أزهر

باحث في علوم الحديث، ومناهج التدريس. جامعة سيدي محمد بن عبد الله

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى بيان مقومات نظرية (الوحدة البنائية للنص)، وتطبيقاتها المنهجية في قضايا السنة من خلال (نظرية البيان) عند الدكتور العلواني؛ التي وظفها للنظر في قواعد المحدثين، ومنهجهم في التعامل مع السنة، وطرح مجموعة من الإشكالات ذات الصلة بمدى علمية بعض مباحث علوم الحديث. وقد حاول الباحث بيان الشبهات المترتبة عن إيراد هذه الإشكالات، والتوفيق بين مراد العلواني من طرحها، ومنهج المحدثين في استثمار السنن. وختم الباحث ورقته بتدقيق خصائص البيان عند المحدثين، وطريقة توظيفه لينسجم مع أطروحات العلواني.

الكلمات المفتاحية: الوحدة البنائية للنص - نظرية البيان - قضايا السنة - النظر المنهجي - منهج النقد، والاستدلال عند المحدثين.

**“Features of the 'Structural Unity of the Text' in Al-Alwani's Approach
and Its Impact on the Methodology of Dealing with the Sunnah
among Hadith Scholars”.**

Abstract:

The aim of this research is to shed light on the merits of Dr. Al-Alwani's theory of “the structural unity of the text,” and more particularly on its methodological applications in Sunnah issues through the Bayan Theory. This theory has been implemented by Al-Alwani in examining the rules of hadith scholars and their approach to dealing with the Sunnah. The researcher tried to bring to the forefront a set of problematic issues related to the scientific extent of some topics in the sciences of hadith, especially those related to the rules of textual criticism. The researcher take away the doubt cast on the presentation of these problems, and to bring together the views of Murad Al-Alwani's with the hadith scholars' approach to investing in the Sunnah. The researcher concluded his paper by checking the properties of the statement, and proposing methodological of constisting with Al-Alwani's thésés.

Keywords: The structural unit of the text - eloquence théorie - issues in the Sunnah - méthodological consideration - criticism method, and reasoning according to the hadith scholars.

Keywords: Structural Unity of the Text, Theory of Expression, Sunnah Issues, Methodological Perspective, Critique Methodology, and Argumentation among Hadith Scholars.

مقدمة:

تحظى إنتاجات الدكتور طه جابر العلواني رحمه الله بالاهتمام المتزايد في المحافل العلمية؛ لما تتميز به من الانسجام، والتكامل اللذين يعكسان طبيعة مشروعه العلمي،

والإصلاحي؛ القائم على تجديد النظر في أصول المعرفة الإسلامية، ومنهج الاستمداد منها؛ لاستشراف آفاق النهوض الفكري، والحضاري للأمة.

وفي إطار الجهود التي بذلها العلواني في منهج التعامل مع التراث الإسلامي، ولا سيما علاقة النص القرآني بالسنة النبوية، ورسم الحدود المنهجية بينهما؛ تبرز قضية (الوحدة البنائية للنص القرآني، والسنة النبوية)؛ باعتبارها محددًا منهجيا في التعامل مع سائر العلوم، والمعارف النقلية، ووسيلة من أكثر الوسائل فعالية في مراجعة ونقد التراث الإسلامي كله.

وفي سياق هذه المراجعة؛ أصل العلواني لـ "نظرية البيان" لتطوير منهجية نقد المتون عند المحدثين؛ حتى تنسجم مع مبحث "الوحدة البنائية للنص".

إن من أهم نتائج أعمال "نظرية البيان"؛ إعادة النظر في مجموعة من المباحث؛ كمفهوم السنة، وحجيتها، وموقعها من القرآن الكريم، ومنهج التعامل مع متونها، وأسانيدها، وإشكالية تضخم الرواية، والفصل بينها وبين مفهوم الدراية، ومدى علمية بعض مباحث علم الرجال، وقواعد الجرح والتعديل عند المحدثين...

وإذا كانت هذه القضايا تعكس- في تصور الدكتور العلواني- الخلل الواقع في فهم طبيعة العلاقة بين القرآن الكريم، والسنة الصحيحة؛ فإنها في الآن نفسه تضع مناهج الأصوليين، والفقهاء، والمحدثين في استثمار السنن على المحك، حيث أثار مجموعة من الأسئلة حول موضوعية بعض المباحث في أصول الفقه، والحديث، ومدى علميتها، ووظائفها. انطلاقا مما سبق؛ وارتباطا بعنوان البحث، وبالمحور الثاني للمؤتمر؛ المتعلق بدور العلواني في تطوير مبحث (الوحدة البنائية للنص)؛ تسعى هذه الورقة إلى بيان معالم هذه الوحدة، والموازنة بينها، وبين منهج المحدثين في التعامل مع السنة¹؛ وذلك من خلال الإشكال التالي:

1 - ينطلق البحث من كتابين ألفهما الدكتور العلواني، هما: كتاب (الوحدة البنائية للقرآن المجيد) مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 2006م، وفيه تأصيل لنظرية الوحدة البنائية؛ باعتبارها محددًا منهجيا في التعامل مع مختلف المعارف، والعلوم الإسلامية. أما الكتاب الثاني فهو: (إشكالية التعامل مع السنة النبوية)، المعهد العالي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى: 2014م. وهو تطبيق منهجي لنظريته البنائية في قضايا السنة، ومباحث علوم الحديث، أو ما سماه العلواني (بنظرية البيان).

إلى أي حد يمكن الموازنة بين نظرية (الوحدة البنائية للنص) عند العلواني، ومنهج المحدثين في التعامل مع السنة النبوية؟

يتفرع عن هذا الإشكال: الأسئلة التالية:

- 1- ماهي مقومات (الوحدة البنائية للنص)؟ وما أهميتها المنهجية عند العلواني؟
 - 2- كيف وظف العلواني (الوحدة البنائية للقرآن المجيد) في التأصيل لـ(نظرية البيان)؟
 - 3- ما هي أهم الشبهات التي أثارها (نظرية البيان) في نقد منهج المحدثين في التعامل مع السنة؟
 - 4- كيف يمكن التوفيق بين نظرية العلواني، وقواعد المحدثين في استثمار السنن؟
- ارتباطا بإشكال البحث؛ فإنني سأعتمد على المنهج التحليلي¹، والطريقة الوظيفية² في المنهج الحوارية؛ أوظف مستويات المنهج التحليلي في فهم، وتفسير (نظرية الوحدة البنائية للنص)، و(نظرية البيان) عند العلواني، أما مستوى التعليل؛ فأوظفه في تعليل اختيارات العلواني، وبيان مقصده من التأصيل لنظرية الوحدة البنائية، ونظرية البيان. وأما مستوى النقد فأوظفه بالموازاة مع الطريقة الوظيفية؛ لتقويم، ونقد الشبهات التي أثارها أطروحات العلواني، ثم أنتقل إلى مستوى التركيب؛ لاستنتاج الجوانب التي يمكن من خلالها أن نوازن بين هذه الأطروحات، ومنهجية النقد، والاستدلال عند المحدثين.

المحور الأول: معالم الوحدة البنائية للنص، وأهميتها في ضبط العلاقة بين القرآن والسنة

أولاً: تعريف الوحدة البنائية للنص، ومقوماتها

يعرف العلواني (الوحدة البنائية للقرآن المجيد)، بقوله: "وعلى هذا يكون المراد بهذا المركب (الوحدة البنائية) للقرآن: أن القرآن المجيد واحد لا يقبل بناؤه وإحكام آياته التعدد فيه، أو التجزئة في آياته، أو العضوية بحيث يقبل بعضه، ويرفض بعضه الآخر، كما لا يقبل التناقض، أو التعارض وغيرهما من عيوب الكلام. فهو بمثابة الكلمة الواحدة، أو الجملة

1 - ينظر تعريف المنهج التحليلي، ومستوياته في: "أبجديات البحث في العلوم الشرعية" فريد الأنصاري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات الفرقان، الطبعة الأولى: 1417هـ/1997م، ص96

2 - المرجع السابق، ص92

الواحدة أو الآية الواحدة، وإذا كانت قد تعددت آياته وسوره، وأجزاؤه، وأحزابه؛ فذلك التعدد ضرورة لا غنى عنها في التعليم، والتعلم، والتزليل لتغيير الواقع وإبداله¹.

ف(الوحدة البنائية) من خلال هذا التعريف؛ تقوم أساساً على مفهوم (الوحدة)، ومفهوم (البناء)، أو (الإحكام)؛ الذي يتأسس عليه النظر في القرآن الكريم، والتدبر فيه، والعمل به. فأيات القرآن المجيد، وسوره، وأجزائه، وأحزابه كالجملية الواحدة، المحكمة؛ قال تعالى: "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير"²؛ أما التفصيل، ونزول القرآن مفرقا فقد أملت الضرورة الإيمانية المتمثلة في تثبيت الأفئدة به، والضرورة التربوية في التعلم، والتعليم، وحسن التلقي، وتزليل آيات القرآن في الواقع. وهذا التفصيل لا ينبغي أن يؤدي إلى وجود تناقض بين الآيات، أو المضامين، أو الأحكام؛ لأنه خطاب إلهي صادر عن الله (الواحد) الذي لا يصح عنه التعدد، والتكثر، والتناقض، وهو واحد في أسمائه، وصفاته، وألوهيته، وربوبيته.

ومن الواضح؛ كما أشار إلى ذلك الدكتور طه جابر العلواني؛ أن الحديث عن (الوحدة البنائية للنص) لم يبدأ التأصيل له إلا مع جهود البلاغيين، وأصحاب البيان؛ الذين التقطوا تلك الموجهات القرآنية، والأضواء النبوية، وإشارات وأفهام بعض الصحابة ليبينوا عليها "نظرية النظم"، و"فلسفة التحدي"، و"النظر الموضوعي"، و"فقه اللغة"، و"فلسفة النحو"، و"دلائل الإعجاز"، و"خواص القرآن ومزاياه"³. وقد كان عصر الصحابة؛ الذي سماه العلواني بـ(جيل التلقي) يدرك بسليقته الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ووحدة نظمه، وفصاحته، بخلاف الأجيال التي جاءت بعده؛ والتي اهتمت بتدوين المرويات، والسنن، وإنتاج الأحكام للحوادث، والنوازل المتسارعة، بدل العناية بالقضايا الكلية في القرآن الكريم، والقضايا العملية، والتطبيقية للسنة النبوية الصحيحة. كما أن تأثير المنطق الأرسطي في العلوم، والمعارف الإسلامية أدى إلى الإغراق في النظر الجزئي في التعامل مع القرآن المجيد، والاستنباط منه.

1 - "الوحدة البنائية للقرآن المجيد" طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 2006م، ص14

2 - سورة "هود"، الآية 1

3 - ينظر "الوحدة البنائية"، مرجع سابق، ص38

ورغم الجهود التي أضافتها كتب التفسير في طريقة تفسير القرآن بالقرآن، وجهود الفقهاء في "التفسير الموضوعي"؛ من خلال تحديدهم لآيات الأحكام، إلا أن تلك الجهود لم تؤد إلى الكشف عن "الوحدة البنائية"، وصار الحديث فيها يضاف إلى فضائل القرآن لا أنه من محدثاته المنهاجية؛ المتمثلة في ذلك التناسق، والنظام، الرابط للآيات الكريمة؛ الذي يعكس فصاحة الكلمات، وبلاغة الآيات، ودقة المناسبات، ووحدة الموضوع، أو وحدة السورة، وما إليها؛ بحيث تشكل نظريات علمية في فهم القرآن، وحسن إدراك مقاصده، ومغازيه¹.

هكذا؛ بنى الدكتور العلواني نظريته على طبيعة لغة القرآن المجيد، وخصائصها. فلغة القرآن لغة عربية، لكنها لغة تخص القرآن وحده؛ من حيث ما تتميز به من التحدي، والإعجاز، تتجاوز في بلاغتها وفصاحتها لغة العرب؛ لأن الذي أودع فيها المعاني والمفاهيم، هو الله العليم الخبير. وهذا يعني أن الذي يبحث في لغة القرآن لا يكفيه أن يتقن لغة العرب فقط، بل لا بد أن يفهم لغة القرآن بالقرآن، ونظمه، وأساليبه. كما أن القرآن المجيد يتميز بمجموعة من الخصائص التي تؤهله لأن يكون مصدرا لدراسة كل ما نحن بحاجة إليه، والاهتداء به في سائر شؤوننا ومعارفنا، وعدم قصر مصدريته على الأحكام الفقهية، أو الشرعية. وأهم هذه الخصائص²: خاصية التصديق؛ باعتبارها عملية معرفية تقوم على استرجاع تراث النبوات كلها، ومحاولة مراجعة ذلك التراث ونقده، وغربلته، وتصفيته من كل ما علق به، وإعادة تقديمه بشكل سليم، وخاصية إطلاقية القرآن الكريم، أي؛ عصمته من النسبية، والحدوث، والمحدودية؛ لأنه كتاب الله غير المخلوق، ولم يسبق بعدم، وبقا مستمر لن يزول حتى يأذن الله، (جل شأنه)، ثم خاصية الاستيعاب؛ التي تجعل القرآن المجيد خطابا عالميا إلى الناس كافة، وخاصية حاكمية القرآن الكريم: أي أن المرجع والحكم في كل ما نحن فيه هو هذا الكتاب.

فالمطلوب من كل قراءة؛ أن تفعل هذه الخصائص للوقوف على وحدة القرآن، وبنائه المحكم، من غير تعضية، أو تفرقة، أو تجزئ.

1 - المرجع السابق، ص 44، بتصرف

2 - ينظر تفصيل هذه الخصائص في كتاب "أزمة الإنسانية، ودور القرآن الكريم في الخلاص منها"، طه جابر العلواني، سلسلة دراسات قرآنية، العدد الأول، دار الشروق، طبعة 2005م، ص 34

إن هذه الخصائص التي تعد من أهم منطلقات، ومقومات نظرية (الوحدة البنائية للقرآن المجيد)، تتكامل مع الرؤية الكلية للقرآن؛ أي الجمع بين القراءتين؛ قراءة الوحي، وقراءة الكون في إطار ما سماه الدكتور العلواني بـ(الوحدة البنائية للقرآن والاستيعاب الكوني)¹؛ وهما من أهم وسائل المشروع الإصلاحي عند العلواني؛ القائم على مجموعة من التحقيقات، والمراجعات في "جدلية النص والواقع"، وفي منظومة العلوم، والمعارف الإسلامية، وبنيتها المعرفية.

وفي هذا السياق؛ فرق العلواني بين (النص الموحى)، والمعنى الآخر لـ(النص) المتمثل في "حرفية المدونات المنطوقة، والقابلة للقراءة مما تركه الآباء والأجداد، فالأول: هو آيات الفرقان والبيان والذكر، والهدى، والنور التي لا يمكن أن تختزل أو تجمد في "صياغة نصية"، فهو المكنون المجيد والمحفوظ من آيات التنزيل التي تظل بيانا وفرقانا، وهدى، وشفاء، وبرهاننا، وبشرى، ونذرا، ونورا مبينا للعالمين. وأما المعنى الثاني للنص؛ فرغم القداسة التي اكتسبها بفعل تدوين العلوم، إلا أن هذه القداسة تستند مرجعيتها إلى الانتساب للقرآن المجيد، ولا فرق عند الدكتور العلواني - في إطار المعنى الثاني للنص - بين مدونات الأصول، أو الفقه، أو السنة².

إن تفعيل العلاقة الجدلية القائمة بين النص، والواقع لن يحقق ثماره المرجوة في الإصلاح ما لم يتم تفعيل مفهوم (الوحدة البنائية) باعتبارها؛ نظرا منهجيا هدفه مراجعة ونقد التراث الإسلامي كله؛ وفي مقدمتها ما يعرف بـ(علوم المقاصد)، وهي: التوحيد - أو الكلام، والتفسير، وأصول الفقه، وعلوم الحديث، و الفقه³. وتعني الرؤية المنهجية للعلوم عند العلواني: عدم الاكتفاء بفهم أصول العلوم، ومبادئها، بل لا بد من الوعي بالنظم، والعلاقات، والنظريات التي تقوم عليها هذه العلوم⁴.

1 - "معالم في المنهج القرآني"؛ دراسات قرآنية، طه جابر العلواني، دار السلام للطباعة والنشر، والتوزيع، والترجمة، الطبعة الأولى: 2010م/ 1431هـ، القاهرة، مصر، ص72

2 - ينظر كتاب: "نحو إعادة بناء علوم الأمة؛ الاجتماعية، والشرعية. مراجعات منهجية، وتاريخية"، أ.د. منى أبو الفضل، وأ.د. طه جابر العلواني، دار السلام للطباعة والنشر، والتوزيع، والترجمة، الطبعة الأولى: 1430هـ، 2009م، ص 65

3 - "الوحدة البنائية للقرآن المجيد"، مرجع سابق، ص64

4 - المرجع السابق، ص246

ثانيا: تفعيل المنهاج للوحدة البنائية في قضايا السنة

من نتائج تفعيل المحدد المنهاج في قضايا السنة النبوية؛ إعادة النظر في مفهومها، وحجيتها، وعلاقتها بالقرآن المجيد، وذلك من خلال (نظرية البيان)؛ التي يشرحها العلواني بقوله: "إن النظرية التي يمكن أن يؤسس مفهوم السنة عليها، ويقام بناؤه على أساس منها، وتحدد بدقة طبيعة العلاقة بين القرآن والسنة؛ هي النظرية التي وضع القرآن الكريم السنة النبوية فيها، ألا وهي نظرية البيان، بمعناها القرآني، وليس بالمعنى الاصطلاحي الذي حمله بعض الأصوليين، والكلاميين معاني مزيدة على مفهوم البيان كما هو في القرآن المجيد.

فالسنة النبوية بيان تأويلي وتفعيلي للقرآن المجيد، لا تخرج عن محوره، ولا تدور خارج مداره، ولا تستقل عنه، بل هي ملازمة له ملازمة تامة، تدور معه حيث دار"¹.

من خلال هذا التأسيس ل(نظرية البيان)؛ يعيد الدكتور العلواني تعريف السنة بقوله: "ويبنى على ذلك أن هذه السنن التي نحن مطالبون بالأخذ بها، والتي تعد وحيا، هي ذاتها السنن التي لها أصول تشريعية في القرآن الكريم، وما ليس له أصل في الكتاب يمكن تجنبه على أساس الإفادة منه في مجالات أخرى كالحكمة أو توجيه قابل للتطبيق، أو اعتبارات أخرى، لكن ليس له الصفة التشريعية الموحاة"². ثم يعيد النظر في مفهوم (البيان) بقوله: "إن البيان ليس إنشاء للحكم على سبيل الاستقلال، لأن الحكم وارد في القرآن الكريم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بينه بالقول، وبالفعل، والتطبيق"³.

فالسنة إذن: وحي في مجموعها، وفي مفهومها العملي. أما آحاد السنة، وأخبار الرواة فليست سنة، ما لم يشهد لها أصل في القرآن المجيد؛ ولذلك فهي حجة من حيث تبعيتها للقرآن، وهي ليست مساوية له في المنزلة، ولا منشئة للأحكام. كما أن تبعية السنة للقرآن إنما هي من حيث كونها بيانا له؛ البيان القرآني، أي بيانا عمليا تطبيقيا، وليس بمعنى البيان عند الأصوليين.

فهل يرد العلواني (حجية السنة)؟ أم أن له اعتبار آخر في طريقة الاحتجاج بها؟

1 - "إشكالية التعامل مع السنة النبوية"، مرجع سابق، ص157

2 - المرجع السابق، ص155

3 - "إشكالية التعامل مع السنة"، مرجع سابق ص191

لا يقتصر الإشكال عند العلواني على المفهوم العام للسنة باعتبارها الطريقة العملية التي جسد من خلالها النبي صلى الله عليه وسلم أحكام القرآن الكريم، وتوجهاته، و"لكن الجدل الذي دار بعد ذلك، ولا يزال دائراً هو في (حجية الإخبار بالسنة)؛ أيكون الإخبار بسنة حجة يأخذ مثل حكم السنة ذاتها في الواقع وفي نفس الأمر أم لا؟ أي هل يكون الإخبار بالسنة دليلاً على حكم الله، يفيدنا العلم به، أو الظن الغالب به، ويظهره ويكشفه لنا؟! وذلك لأن الأمة مجمعة على أن الله هو الحاكم وحده، لا معقب لحكمه، وأن لا إله إلا هو، وأن إنشاء الأحكام لعباده مظهر من مظاهر ألوهيته سبحانه وتعالى"¹.

وهكذا؛ فحجية السنة لا تثبت إلا بمجموعة من الشروط؛ يترتب بعضها على بعض، وهي أن صحة الأخبار تعد بداية الاحتجاج من حيث الثبوت، ثم لا بد من إعمال منهج الأصوليين في العمل بالسنن، ومنهج الفقهاء في استنباط الأحكام منها. وهذه المناهج الشرعية لا بد أن تتكامل في إطار هيمنة القرآن وكمالاته، ومقاصده الشرعية؛ حتى يكون الاحتجاج بالسنة تابعا للقرآن المجيد.

يريد الدكتور العلواني بهذا التأسيس أن يخرج من دائرة التعريفات الاصطلاحية لمفهوم السنة، والتي تؤدي إلى تجزئ المفهوم؛ فالمحدثون ينظرون في السنة باعتبارها حديثاً، أي من حيث نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ يؤكد ذلك نوع العبارات التي يستعملونها؛ كقولهم (الخبر)، وقولهم (الأثر)؛ وهو مأخوذ من أثرت الحديث أي رويته. بخلاف الأصوليين الذين يعتبرون السنة دليلاً كلياً في التشريع، بينما اعتبر الفقهاء (السنة) دليلاً جزئياً؛ أي ما يثاب فاعله، ولا يعاقب تارك².

إن هذه التعريفات الاصطلاحية بقدر ما تؤدي دورها الوظيفي في كل حقل من حقول المعرفة الشرعية إلا أنها؛ في تقدير العلواني عبارة عن قراءات تجزئية تأثرت بالتطور الذي عرفه منهج التلقي والاستمداد من القرآن المجيد، وتأثيره على مفهوم السنة، وموقعها من

1 - المرجع السابق، ص 282

2- عرف الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (السنة) بقوله: "السنة في اصطلاح المالكية هي: ما واطب عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأمر به من غير إيجاب وأظهره في جماعة". ينظر "شرح مراقي السعود المسعى (نثر الورد)"، تحقيق علي بن محمد العمران، إشراف: بكر بن عبد الله أبي زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي جدة، السعودية، (خلو من تاريخ الطبع)، ص 28.

القرآن. فقد كانت الصورة التكاملية واضحة في أذهان جيل التلقي (الصحابة): "تجعل إشكالية العلاقة بين الكتاب والسنة مستبعدة الإثارة، غير متصورة الورود"¹؛ لأنهم عايشوا النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يرفع سؤال الواقع إلى الوحي يستنزل الجواب، فالحكم كله لله العلي الكبير، والحكمة تنزل عليه؛ فيتلوها، ولا يجيب السائلين عن الحكم إلا بتفويض من الوحي القرآني²، ثم جاء جيل (الرواية) بعد الصحابة رضوان الله عليهم؛ الذي انشغل بجمع الروايات، ووقع المحذور الذي كان في أذهان جيل التلقي، والذي من أجله جمع عمر رضي الله عنه السنن، ثم محاها، ومن قبله تردد أبو بكر الصديق رضي الله عنه في جمعها؛ وهو الانشغال بالروايات الجزئية للسنة عن القرآن الكريم، وعن السنة بمفهومها العملي. ثم تلا هذا الجيل جيل (الفقه)، حيث: "بدأ الناس يعتمدون على السنن لا بوصفها فقها نبويا في الكتاب، وبنانا له وتطبيقا لأحكامه، واتباعا لتلاوته، بل بوصف السنن مصدرا موازيا للقرآن الكريم، وربما بدأ بعضهم يقدمها على القرآن ذاته"³. ومع تباعد الزمن عن جيل التلقي؛ تكاثرت الروايات، وظهرت منهجية الإسناد باعتبارها منهجا علميا لإزالة الشك عن المرويات، وإثبات حجية السنة، على حساب منهجية نقد المتن؛ التي لم يتوسع المحدثون في أعمالها، لتشمل عرض السنة على القرآن المجيد بدل الاقتصار على ما له علاقة بجوانب الرواية في منهج المعارضة، ومفهوم العلة، والشذوذ. ولما جاء عصر التقليد: "انشغل كثيرون بالسنن عن القرآن المجيد بحجة اشتغالها عليه، وارتباطها به، ثم جعلوا من السنن شواهد لأقول أئمة الفقه، وانتهوا للانشغال بفقه الأئمة عن السنن"⁴.

ارتباطا بهذا التطور؛ ظهرت مجموعة من المقولات التي تتعارض مع المفهوم القرآني للسنة؛ كالقول بأن السنة وحي مثل القرآن، وأنها دليل شرعي كالقرآن الكريم تستنبط منه الأحكام، وأن (السنة قاضية على الكتاب، ولا يقضي الكتاب على القرآن)، وأن (السنة تنسخ القرآن) حتى ولو كانت خبر آحاد، والقرآن ينسخ السنة؛ وكأن بين القرآن والسنة تناقض، وأن (القرآن حمال أوجه)، وأن هذه الأوجه لأبد لها من دليل يحدد المراد، وأن (النصوص القرآنية متناهية)، و(الوقائع غير متناهية)؛ لذلك لأبد من زيادة أدلة أخرى إلى جانب القرآن المجيد،

1 - "إشكالية التعامل مع السنة" مرجع سابق، ص 188

2 - المرجع السابق، ص 188

3 - المرجع السابق، ص 201

4 - المرجع السابق، ص 214

وأن الإخبار بالسنة كالاحتجاج بها؛ لذلك يكفي أن يستوفي الحديث شروط النقد التي وضعها المحدثون؛ والتي لا تتجاوز منهجية الإسناد لجعل هذا الحديث مساويا للقرآن في الحجية...

لقد حاول العلواني أن يبين أن هذه المقولات تعكس خلا منهجيا في طريقة التعامل مع السنة النبوية؛ وهو خلل اعترى - في تقديره - مختلف العلوم التي تعنى بالسنة؛ رواية، ونقدا، واستنباطا، واستدلالات؛ خصوصا بعد تفرق العلوم الشرعية، وتمايز مناهجها، مما أدى إلى تراجع النظر التكاملي الذي تميزت به القرون الأولى.

وفي سياق علوم الحديث؛ حاول الدكتور العلواني أن يبين مظاهر هذا الخلل في كتابه "إشكالية التعامل مع السنة النبوية"، حيث طرح مجموعة من الإشكالات التي تتعارض مع المفهوم القرآني، والعملية للسنة؛ والتي ترتب عنها مجموعة من الشبهات التي شككت في علمية مباحث علوم الحديث.

المحور الثاني: شبهات التوظيف المنهاجي لـ "الوحدة البنائية للنص" في قواعد المحدثين

رغم أننا لا نختلف في المآل الذي يريد العلواني الوصول إليه، وهو تجاوز القطاع الاستمولوجية التي أحدثها تفرق علماء الشريعة، بعد القرن الرابع الهجري، من خلال تفعيل مختلف المناهج الشرعية في الاستثمار السليم للسنة انطلاقا من هيمنة القرآن المجيد؛ إلا أن الإشكال في تقديري يتمثل في طريقة التوظيف المنهاجي لـ (نظرية الوحدة البنائية)، و(نظرية البيان)؛ خصوصا في مراجعة التراث الحديثي، ونقده، حيث اعتبر العلواني (نظرية البيان) معيارا في النقد الحديثي لا يقل أهمية عن معيار الرواية؛ متجاوزا بذلك وظيفة المحدثين، وتخصصهم في الرواية، والنقد.

لذلك؛ فإن تغيب هذا البعد الوظيفي في نقد قواعد المحدثين، ترتب عنه مجموعة من الشبهات التي تتعارض مع طبيعة منهجهم العلمي، والتي تحتاج؛ في تقديري إلى نقد، وتقييم لطريقة توظيفها في إطار تخصص المحدثين، وتكاملهم مع باقي العلوم التي تعنى بالنظر في السنن.

الشبهة الأولى: تغليب منهج الرواية على منهج الدراية في النقد عند المحدثين

أورد العلواني هذه الشبهة في معرض استدراكه على المحدثين؛ الذين غلبوا منهج الرواية على منهج الدراية في النقد، وأن ذلك يتعارض مع المنهج العلمي السليم في استثمار

السنن. وهو منهج يقوم على استحضار هيمنة القرآن الكريم، وتبعية السنة له؛ باعتبارها وحيا تطبيقيا، وعمليا للقرآن. وقد برر العلواني هذا التضخم في العناية بالرواية إلى الصراع الذي كان بين أهل الرأي، وأهل الحديث، وإلى اعتقاد المحدثين أن قطعية القرآن المجيد مرتبطة بقطعية ثبوته فقط، بينما يعد القرآن المجيد قطعيا أيضا في وحدة بنائه، وإحكام معانيه، ومقاصده، وفي نظمته، وأسلوبه¹.

إن مما ينبغي التنبيه عليه من الناحية العلمية؛ هو أن المحدثين لم يتوسعوا في الرواية بمنهج ذوقي، أو لاعتبارات تاريخية، بل إن ذلك راجع إلى خصوصيات السنة؛ التي كان ينبغي أن يقف عندها الدكتور العلواني؛ كما وقف على خصائص القرآن المجيد. فقد تفردت السنة بخاصية التوثيق، والنقد؛ نظرا لأن أغلب السنن هي أخبار الآحاد، وهي ظنية الثبوت بخلاف أي القرآن الكريم؛ لذلك استشعر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الخاصية منذ فجر الرواية، "وكان شعاره الذي أطلقه كثيرا : "ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب"² في استراتيجية تعليمية محكمة، فوصلت رسالته إلى أصحابه فمن بعدهم، وامثلوها، ووعوا استراتيجيته في التعليم، وفي الحفاظ على الدين(القرآن والسنة)، وأنه يقوم أساسا على تكثيف نشره، وبطريقة سهلة محكمة تكفل تدفق المعلومات إلى جهات متباعدة متباعدة تضمن وصول الحقيقة للجميع، وتضمن توفير وسائل نقدية كافية لإبقاء السنة، وصيانتها.

وما زالت طريقة (ليبلغ الشاهد الغائب) هي طريقة المحدثين من الصحابة فمن بعدهم رضوان الله عليهم، حتى جاء الإمام البخاري رحمه الله (ت256هـ)، فيوب من كتاب العلم من صحيحه، "باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب" (...) وهذه الطريقة هي التي تسببت مباشرة في تضخم الرواية، ونشأة الإسناد، الذي تميزت به هذه الأمة، (...)

فالعلم الذي يترتب عليه عمل وتبني عليه أحكام شرعية، بالغ المسلمون جميعا في نشره، حتى وصل بعضه إلى حدود التواتر، فنقله عامة المسلمين عن عامة المسلمين، من ذلك

1 - ينظر "إشكالية التعامل مع السنة"، ص215

2- أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم الحديث 105

الزمن إلى زماننا، لا يغيب عنهم و لا يختلفون فيه، كالصلوات الخمس، وعدد ركعاتها... أما الروايات التي لا تبني عليها أحكام ولا يقوم عليها عمل، فقلت عنايتهم بنشرها نسبياً¹.

كما أن للمحدثين منهجاً خاصاً في ضبط تضخم الرواية؛ فليست كل رواية معتبرة عندهم، فلم يجيزوا الإخبار لكل شخص؛ بل ميزوا بين "الرواية"، و"تملك حق الرواية": "وهو حق لا يناله إلا من تحمل العلم بطريقة معترف بها، وهي السماع على الشيخ، أو القراءة عليه، أو الإجازة، أو المناولة، أو الوجادة.

ومراتب التحمل هذه تتفاوت في قوتها حسب تسلسل ذكرها. ولا شك أن الضرورة هي التي اقتضت الاعتراف بـ"الوجادة"، وهي الأخذ من نسخة أو كتاب صحيح موثق بالسماعات أو مشهور بين أهل العلم، فكثرة الكتب المؤلفة، وتعدد النسخ، وصعوبة تلقيها بالسماع والقراءة أدت إلى التسامح بقبول الإجازة والمناولة، والوجادة للإفادة من المؤلفات على نطاق واسع دون تقييدها بالسماع، والقراءة (العرض). وقد اعترف الإمام ابن الصلاح (ت643هـ) بأن الوجادة هي الطريقة الغالبة على تلقي العلم في عصره لتعذر الرواية الشفهية².

ولهذا؛ فإن الرواية هي جوهر علوم الحديث، وبها عنون "الخطيب البغدادي" (ت463هـ) لكتابه الذي أصل فيه لقواعد المحدثين، وسماه "الكفاية في علم الرواية". وهذه القواعد بلا شك تتكامل مع قواعد الفقه، وأصوله، وليست انحرافاً في منهج التعامل مع السنن كما أوهم كلام العلواني بقوله: "ومن ناحية الطريقة؛ فإن السنة تحولت من التناقل العملي القائم على نقل السيرة النبوية، والحياة العملية، إلى النقل الشفهي للأقوال المجردة؛ لأنها أصبحت على أيدي هؤلاء الرواة عبارة عن تقصي الأقوال المنسوبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم"³.

1 - "المنهج النقدي عند المحدثين وعلاقته بالمنهاج النقدية التاريخية"، د. عبد الرحمن بن نويغ فالح السلمي، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى: 2014م، بيروت، لبنان، ص119

2 "المنهج النقدي عند المحدثين مقارنة بالمنهج النقدي الغربي"، الدكتور أكرم ضياء العمري، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيلية للنشر، والتوزيع، الطبعة الأولى: 1417هـ/1997م، الرياض، السعودية، ص49

3 - "إشكالية التعامل مع السنة النبوية" مرجع سابق، ص276

الشبهة الثانية: هيمنة الأخبار في منهج التدوين، بدل تدوين السنة بمفهومها القرآني والعملية

مما أثاره العلواني؛ أن من نتائج (تضخم الرواية) اتجاه عملية التدوين إلى العناية بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم باعتبارها سنته، بل وإلى تغليب الأحاديث النبوية على القرآن الكريم، لكثرة نصوصها، واعتبارها مرجعا: "فمنها تنبثق الأصول، وتستنبط أنواع الفروع، ويفتق منها في النوازل، ويمكن أن يكتفى بها عن سواها، في حين لا يستغنى عنها بسواها في أي حال من الأحوال"¹.

ولئن انتبه العلواني نفسه إلى القيمة العلمية لتدوين السنة بقوله: "ولا شك أن الباعث لمعظم من حرصوا على جمع أقوال النبي صلى الله عليه وسلم هو حفظ تراث الرسول، وتبليغ أمانة العلم، والعمل على جعل تلك المرويات بديلا عن الحضور النبوي في أداء دور المنهج الضابط طيلة حياته صلى الله عليه وسلم"²؛ إلا أن ربطه قضية تهميش أدوار القرآن الكريم بالإغراق في تدوين السنة يوهم أن المحدثين لم يستحضروا هيمنة القرآن الكريم، ولا السنة العملية للنبي صلى الله عليه وسلم في منهج التدوين، ومقاصده.

إن منهج التدوين عند المحدثين منهج متكامل يجمع بين الوسيلة (النقد الحديثي)، والمقصد (الامتثال، والعمل بالسنن)، وقد أخذ المحدثون هذا المنهج عن الصحابة رضوان الله عليهم³؛ الذين جمعوا بين النظر في الرواية، والتزام قواعد القرآن الكريم، والسنة العملية في منهج التعامل مع الأخبار؛ يؤكد ذلك تدوين الحديث على أبواب الفقه في مستهل القرن الثاني الهجري؛ انطلاقا من كتاب الموطأ الذي يمكن اعتباره أول مدونة اعتمدها أئمة الحديث، والفقه، تلتها كتب الجوامع، والصحاح، والسنن، والمصنفات، والمسانيد...

1 - المرجع السابق، ص 281

2 - المرجع السابق، ص 280

3 - من النصوص التي تشهد على هذه الضوابط؛ قصة الجدة التي جاءت أبا بكر تلتمس أن تورث، وقصة استئذان أبي موسى الأشعري على عمر رضي الله عنه، وقصة عائشة رضي الله عنها في ردها لحديث تعذيب الميت بكاء أهله. ينظر: "تذكرة الحفاظ" محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلي، دائرة المعارف العثمانية، طبعة 1374هـ، 11-9/1

وقد كان منهج أغلب المحدثين في هذه المصنفات أنهم لا يكتفون بشرائط الرواية، والأخبار، بل يتبعون الحديث إذا اشتهر العمل به¹، وكان معروفاً، ومتداولاً عند الصحابة، وهذا هو معنى التناقل العملي للسنة؛ كما سأبين في المحور الأخير.

وبالموازاة مع هذه المدونات؛ انطلقت حركة تدوين أخرى؛ توجهت إلى العناية بغريب الحديث، ومشكله، وبيان مختلفه: "لدفع الشبهات المثارة ضد السنة من طرف أصحاب القياس، وطوائف أهل البدع، والأهواء...") كان من روادها الأوائل الإمام الشافعي مؤلف (اختلاف الحديث)، وأبو عبيدة الهروي، صاحب كتاب (غريب الحديث)، وأبو جعفر الطبري مصنف (تهذيب الآثار) ...²

وهكذا؛ نجد على سبيل المثال الإمام أبا جعفر الطحاوي (ت321هـ) يسلك منهجاً متكاملًا في بيان مشكل ما روي عنه عليه السلام مما كان منه في عهد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بعد موته من صلواته عليه، وما يدل على خلاف ذلك³؛ فقد رجح رواية ابن عباس عن عمر: التي فيها عدم التصريح بأن الله نبي نبيه عن الصلاة عن أبي بن سلول: قال عمر: "يا رسول الله أتصلي على ابن أبي وقال قال يوم كذا، وكذا، كذا"⁴ على رواية ابن عمر؛ التي فيها أن عمر قال: "أليس الله قد نهاك أن تصلي على المنافقين"⁵؛ مستحضراً هيمنة القرآن الكريم في منهج الفهم، والبيان، قال أبو جعفر: "والذي في حديث ابن عباس من هذا أولى عندنا مما في حديث ابن عمر، لأن محالاً أن يكون الله تعالى ينهى نبيه عن شيء ثم يفعل ذلك الشيء، ولا نرى هذا إلا وهما من بعض رواة هذا الحديث، والله أعلم"⁶.

1- ينظر "فضل علم السلف على الخلف" عبد الرحمان بن أحمد، المعروف بابن رجب الحنبلي، تحقيق:

مروان العطية، دار الهجرة، بيروت، لبنان. طبعة 1409هـ-1989م، ص83

2 - "تاريخ علوم الحديث الشريف في المشرق والمغرب" المختار ولد باه، دار الكتب العلمية، المنظمة الإسلامية

للتربية والعلوم "ايسيسكو"، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 2012م، ص229

3 - "شرح مشكل الآثار" أبو جعفر الطحاوي، حققه، وضبط نصه، وخرج أحاديث، وعلق عليه شعيب

الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1415هـ/1994م، 73/1

4 - المرجع السابق، 70/1

5 - المرجع السابق، 71/1

6 - المرجع السابق، 73/1

ولم يكن أحد من المحدثين؛ الذين تكامل عنده المنهج النقدي، مع منهج البيان في النظر في السنن ليقول بالشبهات التي ذكرها العلواني، والمقولات¹ التي تتعارض مع المنهج السليم في التعامل مع السنة في ضوء القرآن الكريم؛ فقد أخرج الخطيب البغدادي (ت463هـ) في "الكفاية" عن الأوزاعي، عن مكحول قال: "القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن، قال: وقال يحيى بن أبي كثير: السنة قاضية على الكتاب، ليس الكتاب قاضيا على السنة"² ثم أخرج عن الفضل بن زياد قال: "سمعت أحمد حنبل وسئل عن الحديث الذي روى أن السنة قاضية على الكتاب، قال: ما أجسر على هذا أن أقوله، ولكن السنة تُفسر القرآن، وتُعرف الكتاب، وتبينه"³.

الشبهة الثالثة: توسع المحدثين المتقدمين في مفهوم الدراية (نقد المتن) بخلاف المتأخرين

في معرض تفريقه بين منهج المتقدمين، ومنهج المتأخرين في تعريف (علم الحديث رواية)، و(علم الحديث دراية)، لاحظ العلواني أن منهج المتقدمين في التعريف يسمح بنقد المتن، وتحليله، ودراسته، ليعلم تقدمه من تأخره، وما إذا كان معارضا للقرآن والسنة الثابتة، أو للمشاهدة، والحس، والتجربة، وغيرها، فذلك داخل في الدراية عند المتقدمين، أما على تعريف المتأخرين فإن هناك مزجا بين الراوي، وما رواه؛ وفي هذا تكاد تكون (الرواية، و الدراية) أن يصبحا شيئا واحدا⁴.

وعند التحقيق؛ نلاحظ أن العلواني رجع إلى التعاريف التي وضعها بعض المعاصرين لـ(علم الحديث دراية)، وليسوا من أهل الحديث⁵.

1 - انظر الصفحة 8-9

2 - "الكفاية في علم الرواية"، للحافظ أحمد بن علي؛ المعروف بالخطيب البغدادي، تحقيق: ماهر ياسين الفحل، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية: 1435هـ ص15

3 - المرجع السابق، ص15

4 - "إشكالية التعامل مع السنة النبوية"، مرجع سابق، ص314

5 - اكتفى العلواني بتعريف الدكتور عبد اللطيف عبد الوهاب؛ وهو من المعاصرين الذين اشتغلوا بعلم الحديث ولم يرجع إلى تعريف "علم الحديث دراية" عند أهل الاصطلاح؛ خصوصا من المتأخرين الذين عنوا بالتعريفات وبيان الأحكام، وشروط الرواية؛ كابن حجر، والسيوطي وغيرهم. ينظر التعريف الذي أورده

العلواني في "إشكالية التعامل مع السنة"، مرجع سابق، ص312

وهنا؛ لابد من تحرير قضيتين أساسيتين في المقارنة بين المتقدمين والمتأخرين؛ أولهما: في منهج البحث، والنظر في مسائل العلم عند المحدثين، وثانيهما؛ في مفهوم (الدراية) عندهم. أما القضية الأولى؛ فلا يختلف أهل الاختصاص في أن منهج متقدمي المحدثين يقوم على الممارسة، واستعمال علوم الحديث في الرواية والنقد، ولم يكونوا في حاجة إلى بيان القواعد، والشروط، أو ذكر التعريفات، والحدود؛ لعدم قيام الحاجة التقريبية التي عبر عنها مؤلفو كتب المصطلح في مقدمات كتبهم؛ والمتعلقة أساساً بتراجع همم الطلبة، واقتصارهم على الرواية دون توظيف علوم الحديث.

وأما القضية الثانية؛ فإن مفهوم الدراية عند المحدثين؛ متقدمهم، أو متأخريهم ليس بالمعنى الذي ذكره العلواني؛ أي اعتبار معاني المتون معياراً في النقد، بل إن الدراية بالمعنى الحديثي هي: (حقيقة الرواية) كما بين ذلك الحافظ السيوطي (ت910هـ) بقوله: "وعلم الحديث الخاص بالدراية: علم يعرف به حقيقة الرواية؛ وشروطها، وأنواعها، وأحكامها، وحال الرواة، وأحكامهم، وأصناف المرويات، وما يتعلق بها"¹، فالمحدثون ينظرون في معاني المتون بمعنى البيان، لا باعتبارها معياراً للنقد، وقد أصل المحدثون لهذا المعنى من خلال حديثهم (فقه الحديث)؛ كما بين ذلك الإمام الحاكم (ت405هـ) في "معرفه علوم الحديث" حيث اعتبره ثمرة علوم الحديث؛ المقصودة بالتبع.²

لذلك؛ فإن الطريقة التي تناول بها الدكتور العلواني تقسيم علوم الحديث لا تجري على طريقة المحدثين، ولا هي داخلة في منهجهم.

1- عزا الحافظ السيوطي هذا التقسيم إلى ابن الأکفاني المتخصص في تقاسيم العلوم، حيث ميز بين (علم الحديث الخاص بالرواية)، و(علم الحديث الخاص بالدراية). ينظر مقدمة "تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي"، تحقيق أبي قتيبة نظر الفريابي، دار طيبة (خلو من تاريخ الطبع)، 1/25-26، وكتاب: "مبادئ علم الحديث وأصوله" شبير أحمد العثماني، تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة: 1432هـ/2011م، ص25-26

2 - ذكر الإمام الحاكم (فقه الحديث) في النوع العشرين من أنواع علوم الحديث، قال: "النوع العشرون من هذا العلم معرفة ما قدمنا ذكره من صحة الحديث إتقاناً ومعرفة، لا تقليداً وظناً: معرفة فقه الحديث؛ إذ هو ثمرة هذه العلوم، وبه قوام الشريعة". ينظر (معرفة علوم الحديث وكمية أجناسه)، مرجع سابق، ص246.

الشبهة الرابعة: ضعف منهجية الإسناد؛ لاقتصارها على الجوانب الشكلية في عملية النقد

ترتب عن الشبهة السابقة شبهة أخرى؛ هي أن المتأخرين قصرُوا جهودهم على النظر في الجوانب الشكلية للرواية، وهي الأسانيد على حساب المتن. وهكذا نجد العلواني يقلل من أهمية الإسناد باستدراكه على متأخري المحدثين بقوله: ما الذي ألجأ المحدثين إلى هذا الطريق الوعر - طريق الإسناد والرجال- وأقصى ما يمكن أن نصل إليه بواسطته؛ أحكام ظنية حول الرواة، والروايات¹؟ ثم يعود لبيان وجه الإشكال بقوله: إن هذا ليس معناه رفض الإسناد مطلقاً، ولكن الإسناد كان يفترض أن يعتمد بوصفه خطوة أولى في عملية غربلة الأحاديث، يلهمها خطوة أخرى وهي عرض نتائج هذه العملية على كتاب الله، ليبقى بعد ذلك ما صدق عليه كتاب الله، ويستبعد ما لا يتفق معه، ولكن يبدو أن الخطوة الأولى كانت من الاتساع بحيث استغرقت معظم الجهود التي بذلت في جمع السنة، وتنقيتها، فأصبحت السنة رهينة علم الرجال².

لمناقشة هذه الشبهة؛ لابد من الإجابة على الأسئلة التالية: هل اختص المحدثون وحدهم بنقد الأخبار؟ وما منهجهم في النقد؟ وهل ما يدعو إليه العلواني من توسيع دائرة النقد راجع إلى وظيفة المحدثين أم يشترك معهم في ذلك غيرهم؟

نشير أولاً إلى أن الأصوليين شاركوا المحدثين في نقد الأخبار، وقد انتبه متأخرو المحدثين إلى هذه المشاركة، وكانوا كثيراً ما يميزون بين منهجهم ومنهج الأصوليين، والفقهاء؛ يؤكد ذلك قول الإمام ابن دقيق العيد (ت702هـ) في مسألة الشذوذ والعلة: "وزاد أصحاب الحديث أن لا يكون شاذاً ولا معللاً، وفي هذين الشرطين نظر على مقتضى نظر الفقهاء؛ فإن كثيراً من العلل التي يعلل بها المحدثون الحديث لا تجري على أصول الفقهاء"³، يشرح هذا النص في كتاب "شرح الإمام" بقوله: "يريد أن لكل من أئمة (الحديث)، و(الفقه) طريقاً غير

1 - "إشكالية التعامل مع السنة"، ص368

2 - المرجع السابق، ص370

3 - "الاقتراح في بيان الاصطلاح وما أضيف إلى ذلك من الأحاديث المعدودة من الصحاح" تقي الدين محمد بن علي المشهور بابن دقيق العيد، دراسة وتحقيق: قحطان عبد الرحمان الدوري، دار العلوم للنشر والتوزي، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: 1427هـ-2007م، ص216

طريق الآخر، فإن الذي تقتضيه قواعد الأصول، والفقه أن العمدة في تصحيح الحديث عدالة الراوي، وجزمه بالرواية، ونظرهم يميل إلى اعتبار التجويز؛ الذي يمكن معه صدق الراوي، وعدم غلطه، فمتى حصل ذلك، وجاز ألا يكون غلطاً، وأمكن الجمع بين روايته ورواية من خالفه بوجه من الوجوه الجائزة لم يترك حديثه.

وأما أهل الحديث؛ فإنهم قد يروون الحديث من رواية الثقات العدول ثم تقوم لهم علل تمنعهم من الحكم بصحته، كمخالفة جمع كثير له، أو من هو أحفظ منه، أو قيام قرينة تؤثر في أنفسهم غلبة الظن بغلطه، ولم يجر ذلك على قانون واحد، يستعمل في جميع الأحاديث¹.

فتحصل بذلك؛ أن المحدث، والأصولي يلتقيان في اشتراط العدالة، ويختلفان في قرائن الضبط؛ فالمحدث يهتم بالقرائن التي تُعنى أصالة بتوثيق الخبر؛ لأنه يبحث في السنة لأجل أن تكون صالحة للاحتجاج، ولا يهمله من قواعد نقد المتون إلا ما له علاقة بالرواية، فإنَّ نظر في نقد المعنى؛ فمن باب التبع. وأما الأصولي؛ فإن نظره في المقبول والمردود يكون في سياق البحث في الأدلة؛ من حيث منهج الاستنباط، والاحتجاج، والعمل بها. لذلك؛ نجده يوظف أصول الشرع، وقواعده، إلى جانب قواعد التوثيق في منهج القبول والرد. والمحدثون يستحضرون وظيفة الأصولي، ولا يعتبرون الصحة وحدها مظنة الاحتجاج، والعمل بالحديث، قال ابن الصلاح (ت643هـ) في معنى قولهم: (حديث صحيح): "ومتى قالوا: هذا (حديث صحيح)؛ فمعناه أنه اتصل سنده مع سائر الأوصاف المذكورة، وليس من شرطه أن يكون مقطوعاً به في نفس الأمر، إذ منه ما ينفرد بروايته عدل واحد، وليس من الأخبار التي أجمعت الأمة عليها بالقبول"². وقد بين الحافظ ابن حجر معنى هذا الكلام في معرض تعليقه على قول ابن الصلاح بإجماع الأمة على قبول أحاديث البخاري، ومسلم، حيث قال في نكته: "وإنما نقل ابن الصلاح أن الأمة أجمعت على تلقيهما بالقبول من حيث الصحة، وليس من حيث العمل"³.

1 - "شرح الإمام بأحاديث الأحكام"، ابن دقيق العيد، حقق أحاديثه، وعلق عليه محمد خروف العبد الله، دار النوادر سوريا، 1430هـ/2009م، 27/1

2 - "علوم الحديث" المشهور بمقدمة ابن الصلاح، عثمان بن الصلاح الشهرزوري، تحقيق وشرح: نور الدين عتر، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، طبعة 1406هـ/1986م، ص13

3 - "النكت على كتاب ابن الصلاح" أحمد بن علي، المعروف بابن حجر العسقلاني، تحقيق: ربيع بن هادي المدخلي، دار الميراث النبوي، الجزائر، الطبعة الثانية: 1438هـ/2017م، ص171

وتظهر أهمية هذا التمايز بين منهج المحدثين ومنهج الأصوليين في نقد الأخبار في بعض المسائل المشتركة بينهم؛ كالنظر في أسباب الوضع في الحديث؛ يبين ذلك منهج الحافظ ابن حجر (ت852هـ) في تعقبه للإمام ابن الصلاح (ت643هـ) عند بيانه لطريقة إثبات الوضع عند المحدثين. قال ابن الصلاح: "وقد يفهمون الوضع من قرينة حال الراوي، أو المروي، فقد وضعت أحاديث طويلة يشهد بوضعها ركافة ألفاظها ومعانيها"¹، ثم تعقب عليه ابن حجر بقوله: "أخل المصنف بذكر أشياء ذكرها غيره، مما يدل على الوضع من غير إقرار الواضع، منها جعل الأصوليين من دلائل الوضع أن يخالف العقل، ولا يقبل تأويلا..."². أي أن إثبات الوضع بقواعد العقل، أو بتأويل الحديث ليس منهجا حديثيا، وإنما يقوم المنهج الحديثي في بيان الوضع على اعتبار حال الراوي؛ يؤكد ذلك تعليق الحافظ ابن حجر (ت852هـ) على حديث "من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برئ من الله تعالى"³ بقوله: للمتن شواهد تدل على صحته، فإن قيل: إنما حكم عليه بالوضع؛ نظرا إلى لفظ المتن، وكون ظاهره مخالفا للقواعد، قلنا ليست هذه وظيفة المحدث"⁴.

فتبين إذن؛ أن منهج المحدثين يقوم أساسا على العناية بالإسناد، وهو منهج يتكامل مع منهجية نقد المتون عند الأصوليين، وليس تعطيلا لها.

الشبهة الخامسة: ضعف المنهج العلمي في قواعد الجرح والتعديل، بسبب غلبة الذوق، وظنية الأخبار

ذكر الدكتور العلواني رحمه الله مجموعة من الحقائق التي تحتاج إلى التمهيد؛ منها أن الكلام في الرجال تأخر لأكثر من (160هـ)، وأن المحدثين في قواعد الجرح والتعديل يعتمدون على المزاجية، والذاتية في كثير من أحكامهم على الرواة، وأن أكثر ما يمكن أن يصل إليه المحدثون؛ خصوصا النقاد المتقدمين هو أحكام ظنية حول الرواة، والروايات، نظرا

1 - "علوم الحديث"، مرجع سابق، ص 279

2 - "النكت على كتاب ابن الصلاح"، مرجع سابق، ص 360-361

3 - "مسند الإمام أحمد بن حنبل" أخرجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 142هـ/2001م، رقم الحديث: 4878، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، 4/437

4 - "النكت لابن حجر، ص 152

لاختلافهم في الحكم على الرواة، بل قد تختلف أحكام الناقد على الراوي بعينه في عدد من الأحاديث¹.

أولاً: بشبهة تأخر الكلام في الرجال إلى ما بعد منتصف القرن الثاني الهجري؛

إنه من المعلوم أن منهجية علم الجرح والتعديل هي أصلاً منهجية قرآنية نشأت بذورها مع توجيهات القرآن الكريم، وأكدتها السنة النبوية، ومنهج الصحابة في التعامل مع الأخبار، كما أن النظر في الرواة نشأ بتزامن مع النظر في المتون مع عصر الصحابة، واستمر بعدهم إلى أن استوى علم الجرح والتعديل ونضج التأليف فيه².

وأما اختلاف النقاد في الحكم على الرواة؛ فلشدة احتياطهم في النقد ولدقة منهجهم العلمي، وليس العكس؛ ولأن الإسناد من الدين، "وأن الأمور الدينية بأسرها محتاجة إلى بروز سندها، واتصالها إلى منبعها، أو تصريح من يعتمد به عليها، ولا يستثنى من ذلك شيء منها، غاية الأمر أن منها ما يشدد ويحتاط في طريق ثبوتها، ومنها ما يتساهل في طريقها"³، كما أن موضوع النظر في الرواة هو الظاهرة الإنسانية؛ لذلك اشتدت عناية المحدثين بمختلف العوارض التي تؤثر في صحة الرواية، سواء تلك المتعلقة باتساع الزمن بين عصر الرواية وزمن النبي صلى الله عليه وسلم، وانتشار ظواهر (الوهم)، و(النسيان)، و(الاختلاط) في صفوف كبار التابعين، أو الأسباب التي أدت إلى انتشار ظاهرتي (الوضع)، و(التدليس) زمن الفتنة⁴.

وفي هذا السياق؛ وظف المحدثون معرفتهم بخصائص البشر، وعقائدهم، وأحوالهم النفسية، والعقلية، والاجتماعية في تتبع القرائن المعتبرة في القبول والرد؛ يظهر ذلك في القواعد التي يتحقق من خلالها شرط الضبط عند الراوي؛ وهي (دقة الملاحظة)، و(الموضوعية)، و(الحضور الذهني).

1 - ينظر: "إشكالية التعامل مع السنة"، ص 367-368-369

2 - ينظر نشأة، وتطور علم الجرح والتعديل في "المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل: دراسة منهجية في علوم الحديث"، فاروق حمادة، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، الطبعة الثانية: 1409هـ/1989م.

3 - "الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة" محمد عبد الحي اللكنوي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثالثة: 1994م، ص 64-65

4 - ينظر أسباب الجرح والتعديل في "المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل" مرجع سابق، ص 85.

كما اشترط المحدثون أن يكون الراوي ضابطاً حال التحمل، وأن لا يغيب ذهنه حال تلقي (الرواية)، وإلا سقطت روايته سواء كانت سماعاً أو قراءة، بل إنهم أقاموا المفاضلة بين (السماع)، و(القراءة) بحسب توافر الحضور الذهني عند الراوي؛ ولذلك تجدهم ينهون على سلامة الحواس، وقوة الذاكرة، والانتباه والضبط أثناء السماع والرواية.

وتعتبر (مجالس التحديث)، و(مجالس الإملاء) نموذجاً حقيقياً لهذه القواعد، ومن ذلك الترتيبات الخاصة بالمجالس التي كان يعقدها الحافظ ابن الصلاح، لسماع كتاب (السنن الكبرى) للإمام البيهقي¹.

وهكذا؛ فإن المحدث، كما المؤرخ الذي ينقل الأخبار، ويمحصها للوصول إلى الحقيقة: "محتاج إلى مأخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر، وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق"². وليس ذلك إلا دليلاً على عمق المنهجية العلمية عند المحدثين وشدة حرصهم على توثيق النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الإسناد من الدين، ولأن عملهم تتركب عليهم مجموعة من الأحكام والسنن، والتشريعات.

وأما قضية ظنية الأخبار، وغلبة منهج الشك عند المحدثين؛ فقد اعتبرهما العلواني مبرراً للتشكيك في علمية القواعد والضوابط التي وضعها؛ خصوصاً المتأخرين منهم³. وفي المقابل؛ نجد الحافظ "الخطيب البغدادي" (ت463هـ) قد فصل في بيان هذه الشبهة بقوله: "باب الرد على من قال يجب القطع على خبر الواحد بأنه كذب إذا لم يقع العلم

1- ينظر "الإسناد من الدين وصفحة مشرقة من تاريخ سماع الحديث عند المحدثين" عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، قامت بطباعته وإخراجه دار القلم للطباعة، والنشر، والتوزيع، دمشق- سوريا، الطبعة الأولى: 1412هـ/1992م، من الصفحة 123 إلى الصفحة 132

2 - "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 1408هـ/1988م، 13/1.

3 - "إشكالية التعامل مع السنة"، ص 367-368-369

بصدقه من ناحية الضرورة أو الاستدلال"¹. قال: "إن حال الخبر في هذا الباب كحال الشهادة على وقوع الجائز الممكن، ولو وجب ما قلت لوجب متى عريت الشهادة المتعلق بها حكم في الدين من دلالة الصدق أن يقطع على أنها كذب وزور، وهكذا يجب متى لم يدلنا الله تعالى على إيمان الخلفاء، والقضاة، والأمراء، والسعاة، وكل نائب عن الأمة في شيء من أمر الدين، وعلى عدالتهم وطهارة سرائرهم أن يجب القطع على كفرهم، وفسقهم، ومتى لم يدلنا على صحة القياس في الحكم وأن الحق فيه دون غيره وجب القضاء على فساد، ولا جواب على شيء من ذلك"². ثم بين أن المقصود من خبر الأحاد هو العمل، لأن الله تعالى: "إنما تعبدنا بالعمل بخبره، متى ظننا كونه صادقا، فحاله في ذلك كحال الشاهد الذي أمرنا بالعمل بشهادته"³.

لذلك؛ فإن رد الأحكام؛ سواء في علوم الحديث، أو الفقه التي تستند إلى الاجتهاد، والاختلاف بين المجتهدين لظنيتهما؛ ثبوتا، أو دلالة ليس منهجا علميا؛ لأن المجتهد: "إذا أداه اجتهاده إلى حكم لزمه العمل به (...)" لأن حكم المجتهد هو حكم الله في المسألة التي اجتهد فيها بحسب ظنه الغالب، والمجتهد ينبغي عليه العمل بما غلب على ظنه أنه حكم الله تعالى"⁴.

ثانيا: خصائص البيان عند المحدثين، وآفاق تطوير النظرية البنائية عند

العلواني

تؤكد الشبهات السابقة أن الدكتور العلواني رحمه الله اعتبر التطبيقات المنهجية (لنظرية البيان) في منهج التعامل مع السنة النبوية معيارا لإعادة النظر في مباحث علوم الحديث، ومقياسا لعلميتها؛ مقللا بذلك من أهمية البعد الوظيفي عند المحدثين؛ الذي أعني به: تخصصهم في الرواية، والنقد. وهو تخصص يتكامل مع تخصص الفقهاء، والأصوليين في استثمار السنن، وضبط منهج العمل بها. فهو لا ينكر أهمية الإسناد، ومنهج النقد في توثيق السنن، لكن هذه المنهجية وحدها -في تقدير العلواني- لا تكفي، كما يصرح بذلك بقوله: "إن هذا ليس معناه رفض الإسناد مطلقا، ولكن الإسناد كان يفترض أن يعتمد بوصفه خطوة أولى

1 - "الكفاية"، ص 18

2 - المصدر السابق، ص 19

3 - المصدر السابق، ص 19

4 - "أصول الفقه الإسلامي"، مرجع سابق، ص 1055

في عملية غريزة الأحاديث، يليها خطوة أخرى، وهي عرض نتائج هذه العملية على كتاب الله، ليبقى بعد ذلك ما صدق عليه الكتاب، ويستبعد ما لا يتفق معه، ولكن يبدو أن هذه الخطوة الأولى كانت من الاتساع بحيث استغرقت معظم الجهود التي بذلت في جمع السنة، وتنقيتها، بحيث أصبحت السنة رهيبة علم الرجال¹.

يدعو الدكتور العلواني إذن؛ إلى الدمج بين المنهجيتين في عملية النقد الحديثي، وهذه الدعوى لا تستقيم؛ في تقديري إلا في بعدها التكاملي، والموسوعي بين مختلف العلوم التي تعنى بالسنة؛ لأن ذلك يتعارض مع الجانب التخصصي في كل علم، والوظائف التي نشأ لأجلها. فالتكامل لا يعني المحدثين فقط، ولم يقل أحد من أهل العلم أن نقد المتون بالمعنى الذي أصل له العلواني داخل في وظيفة المحدث بالأصالة؛ حتى نحكم به منهجه في النظر، أو نحكم عليه بالقصور، أو بضعف منهجية الإسناد. وما ذكره العلواني من الأمثلة عن المحدثين الفقهاء الذين تكاملت عندهم منهجية الإسناد مع منهجية الاستنباط في نقد المتون²؛ إنما كانت في إطارها الموسوعي عند علماء القرون الأولى؛ الذين استصحبوا طريقة الصحابة (جيل التلقي) في التعامل مع السنة.

إن هذه الجوانب التكاملية في نقد السنن، وإن كانت لا تدخل في دائرة الوظيفة النقدية³؛ المقصودة بالأصالة من علوم الحديث، إلا أن المحدثين؛ خصوصاً (المحدثين الفقهاء)؛ اهتموا بالتأصيل لها في مباحثهم، بل واعتبروها من علوم الحديث؛ لا تقل أهمية عنها؛ من حيث إنها الثمرة المترتبة عن عملية النقد؛ كما سبق أن بينت في نقد الشبهة الرابعة. ولم يكتف المحدثون بقضايا البيان، ومعاني الحديث، وفقهه، بل اهتموا بالجوانب العملية،

1 - "إشكالية التعامل مع السنة النبوية" مرجع سابق، ص 370

2 - ينظر على سبيل المثال مناقشة العلواني لمنهج الإمام مالك، ومنهج البخاري في الجمع بين الرواية والفقه في مصنفيهما "إشكالية التعامل مع السنة النبوية" مرجع سابق، من الصفحة 266 إلى الصفحة 275

3 - يعرف أبو الحسن القطان هذه الوظيفة بقوله: "وظيفة المحدث النظر في الأسانيد؛ من حيث الرواة، والاتصال، والانقطاع، فأما معارضة هذا المتن ذلك الآخر، وأشباه هذا؛ فليس من نظره" ينظر: "بيان الوهم، والإيهام في كتاب الأحكام" علي بن محمد الفاسي المشهور بابن القطان، تحقيق: الحسين آيت سعيد، دار طيبة - الرياض، الطبعة الأولى: 1418هـ

والتطبيقية للسنة النبوية؛ من خلال عنايتهم بالعلوم التي تعنى بأداب الطالب، والشيخ، والعلوم التي تضبط شروط التحمل والأداء¹.

نتحدث إذن عن وظيفتين أساسيتين اعتنى بهما المحدثون في بيان معاني الحديث، وفقهه، ومنهج الامتثال، والعمل به، هما: وظيفة البيان، والوظيفة الخلقية.

أعني بوظيفة البيان عند المحدثين: منهجهم في تفسير معاني الحديث الشريف، وبيان مشكله، ومؤلفه، ومختلفه، ودفع الشبهات عنه، وطريقتهم في الاستدلال بالحديث على أحكام الفقه. وهي وظيفة مقصودة بالتبع؛ يؤكد ذلك قول الإمام ابن الأثير (ت630هـ): "إن معرفة التواتر والآحاد، والناسخ والمنسوخ - وإن تعلقت بعلم الحديث - فإن المحدث لا يفتقر إليها؛ لأن ذلك من وظيفة الفقيه؛ لأنه يستنبط الأحكام من الأحاديث، فيحتاج إلى معرفة المتواتر، والآحاد، والناسخ، والمنسوخ. فأما المحدث؛ فوظيفته أن ينقل، ويروي ما سمعه من الأحاديث كما سمعه، فإن تصدى لما وراءه؛ فزيادة في الفضل، وكمال في الاختيار"². وفي سياق عنايتهم ببيان معاني الحديث الشريف، ومنهج الاستدلال به، واستنباط الأحكام منه؛ توسع المحدثون الفقهاء في قضايا السنة المشتركة بينهم وبين الفقهاء والأصوليين؛ خصوصاً مفهوم السنة، وقضية العمل بها، ومفهوم النقد الاستدلالي في فقه الحديث:

1- (السنة) بمفهومها الكلي، والعملي عند المحدثين الفقهاء

تميز منهج المحدثين في تدوين الحديث على أبواب الفقه بالتوسع في مفهوم السنة، ولم يكتفوا بالأبواب المعروفة عند الفقهاء، بل أضافوا أبواباً أخرى: كالزهد، و(السير)، و(المناقب)، وغيرها. قال المحدث الشاه ولي الله الدهلوي (ت1176هـ) في شرح تراجم البخاري (ت256هـ): "أول ما صنف أهل الحديث في علم الحديث جعلوه مدونا في أربعة فنون: فن السنة الذي يقال له: الفقه، مثل "موطأ مالك وجامع سفيان"، وفن التفسير مثل "كتاب ابن جريج"، وفن السير مثل "كتاب محمد بن إسحاق"، وفن الزهد والرقائق مثل "كتاب ابن المبارك"؛ فأراد البخاري أن يجمع الفنون الأربعة في كتاب (...)، وأراد أيضاً أن يفرغ جهده في الاستنباط

1 - ينظر النوع الرابع والعشرون، والنوع السابع والعشرون، والنوع الثامن والعشرون من أنواع علوم الحديث عند ابن الصلاح في مقدمته.

2- "جامع الأصول في أحاديث الرسول" المبارك بن محمد الجزري، المعروف بمجد الدين ابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: 1392هـ/1972م. 37/1-38

من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويستنبط من كل حديث مسائل كثيرة جداً، وهذا أمر لم يسبقه إليه غيره¹.

2- تكامل مفهوم (العمل) عند المحدثين الفقهاء، وتأثيره في منهج القبول والرد:

إن (العمل) بالسنة عند المحدثين له مفهوم مرتبط بالرواية أولاً؛ أي أن يكون الحديث مشهوراً ومتداولاً، وهو مقدم على خبر الآحاد، ثم له مفهوم آخر مرتبط بمنهج استنباط المعاني والأحكام من الحديث؛ يؤكد المعنى الأول قول الإمام أبي داود (ت275هـ) في رسالته إلى أهل مكة نقلاً عن يزيد بن أبي حبيب²، قوله: "إذا سمعت الحديث فأنشده كما تنشد الضالة: فإن عُرف، وإلا فدعه"³. وكذا تأكيد الإمام الترمذي (ت279هـ) في أول كتاب (العلل) أن جميع ما في كتابه الجامع من الحديث معمول به، وقد أخذ به بعض أهل العلم ما خلا حديثين⁴، وأما المعنى الثاني لمفهوم العمل؛ فقد ارتبط بظهور طائفة من (المحدثين الفقهاء) الذين جمعوا بين قواعد (النقد)، و قواعد الفقه ومنهج الاستنباط في النظر في الأحاديث؛ يؤكد ذلك ما ذكره القاضي عياض (ت544هـ) في (ترتيب المدارك) عن عبد الله بن وهب (ت197هـ) أنه قال: "لولا أن الله أنقذني بمالك، والليث لضللت. ف قيل له: كيف ذلك؟ قال: أكثر من الحديث فحيرني. فكنت أعرض ذلك على مالك، والليث فيقولان لي: خذ هذا، ودع هذا"⁵، وكذلك ما رواه الإمام القاضي عياض (ت544هـ) عن الإمام الشافعي (ت204هـ) قوله: "قيل لمالك: عند ابن عيينة أحاديث ليست عندك. فقال: إذا أحدث الناس بكل ما سمعت؛ إني إذا أحقق. وفي رواية: إني أريد أن أضلهم إذا"⁶. وكأني بالإمام مالك (ت179هـ) ينبه إلى القاعدة الذهبية التي كانت معروفة عند المحدثين، والفقهاء؛ وهي: ليس كل حديث صحيح

1- "مناسبات تراجم البخاري" ابن جماعة، تحقيق: محمد ابن إبراهيم، الطبعة الأولى: 1420هـ، دار الفكر، بيروت، ص9.

2- هو يزيد بن أبي حبيب (ت128هـ)، كان مفتي أهل مصر في أهل زمانه، وأول من أظهر العلم بها وتكلم في الحلال والحرام، أخذ عنه الليث بن سعد وغيره. ينظر "تهذيب التهذيب"، 4/408

3- "رسالة أبي داود إلى أهل مكة وغيرهم في وصف سننه"، سليمان بن الأشعث السجستاني، المعروف بأبي داود، تحقيق: محمد الصباغ، دار العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 1394هـ، ص30

4- "شرح علل الترمذي" 323/1

5- "ترتيب المدارك" القاضي عياض، 3/236

6- المصدر السابق، 1/188

الإسناد يعمل به، وليس كل حديث ضعيف الإسناد لا يعمل به¹، وقد عُرف بهذا النوع من النقد الاستدلالي كثير من (المحدثين الفقهاء)؛ خصوصا أصحاب المذاهب الفقهية.

3- الرجوع بالفقه إلى صفته الأصلية، والعناية بالنقد الاستدلالي للسنن

اهتم المحدثون الفقهاء بإحلال النصوص الحديثية محل اللائق بها في منهج (التفقه). فعوض الاقتصار على استنباط الأحكام الشرعية من خلال (السماعات) المروية عن أعلام المذهب، أو من (الشروح)، و(التفريعات) التي يوردها الفقهاء؛ فإن منهج (المحدثين الفقهاء) يقوم على (الاستدلال) بالنص الحديثي؛ من خلال استقصاء واستيعاب مختلف الروايات التي يحتاجها المحدث (الفقيه) في الباب المدروس، مما يمكنه من (التصور الكلي) لمختلف المسائل الفقهية، وتنمية القدرة على الاستشهاد، والاستدلال بالروايات المناسبة للأحكام الشرعية، وهذا المنهج واضح بجلاء في كتب الحديث وشروحه

هذا، وإن المحدثين اعتنوا أيضا بالوظيفة الخلقية في استثمار السنن، وأعني بها: تأصيل المحدثين لمسائل علوم الحديث التي تعنى بضبط منهج التعلم، والتعليم (آداب الشيخ، والطالب)، وقواعد التحمل والأداء، وما ذكرت سابقا من عناية المحدثين بآداب مجالس السماع، وكتابة الحديث... مما يدل على عنايتهم بالتطبيق العملي للسنن؛ يؤكد ذلك قول الإمام ابن الصلاح (ت643هـ): "وليستعمل [الراوي] ما سمعه من الأحاديث الواردة بالصلاة، والتسبيح، وغيرهما من الأعمال الصالحة؛ فذلك زكاة الحديث على ما روينا عن العبد الصالح بشر بن الحافي رضي الله عنه"².

كما أن (الوظيفة الخلقية) عند المحدثين تتأسس على ضابطين أساسيين، هما: الضابط التعبدية، والضابط الامتثالي. يشير الخطيب البغدادي (ت463هـ) إلى الضابط الأول بقوله: "ينبغي أن يكون قصد الطالب بالحفظ ابتغاء وجه الله تعالى، والنصيحة للمسلمين في الإيضاح، والتبيين"³. وأما الضابط الثاني فمعناه: "أن يكون طلبه الحديث أكمل الناس أدبا، وأشد الخلق تواضعا، وأعظمهم نزاهة وتدينا، وأقلهم طيشا وغضبا، لدوام قرع أسماعهم

1- للتوسع في معنى هذه القاعدة: ينظر كتاب "السنة النبوية وعلاقتها بالعمل والمذاهب الفقهية" ناجي لامين، دار الموطأ للنشر، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى: 2016م، ص 139

2- "علوم الحديث" المشهور بمقدمة ابن الصلاح، عثمان بن الصلاح الشهرزوري، تحقيق وشرح: نور الدين عتر، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، طبعة 1406هـ/1986م ص 247

3- "الجامع" الخطيب البغدادي، 257/2

بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآدابه. وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه، وطرائق المحدثين، ومآثر الماضين؛ فيأخذوا بأجملها، وأحسنها، ويصدقوا عن أرذلها، وأدونها"¹.

وهكذا؛ يمكن القول: إن إشكالية التعامل مع السنة النبوية، لا تتعلق بمعايير نقد المتون عند المحدثين؛ لأنها معاييرهم تخصصية؛ ذات بعد وظيفي مرتبط بطبيعة علوم الحديث ومجال اشتغالها، ولا بمختلف الشبهات التي أوردها الدكتور العلواني في معرض تنزيهه لنظرية الوحدة البنائية، وتطبيقاتها في نظرية البيان ومنهج التعامل مع السنة، وإنما تتعلق هذه الإشكالات بتفعيل الجوانب التكاملية في استثمار السنن بين المحدثين و الفقهاء والأصوليين، وذلك من خلال إبراز منهجهم في بيان السنن؛ القائم على توسيع مفهوم العمل، وفقه السنة، ومنهجهم في النقد الاستدلالي للسنن.

خاتمة:

كان الغرض من هذا البحث بيان منهج العلواني في إعمال نظرية (الوحدة البنائية للنص) في قواعد المحدثين؛ من خلال مفهومه لـ(نظرية البيان)، ومنهج التعامل مع السنة، وقد أفضى إلى مجموعة من النتائج، والتوصيات. وتتمثل أهم نتائج البحث في الآتي:

- تقوم نظرية الوحدة البنائية للنص على مفهوم الوحدة، والإحكام في النص القرآني؛ مبنى ومعنى، وكذا على خصائص القرآن المجيد؛
- تكمن أهمية الوحدة البنائية للنص في تطبيقها المنهجي في نقد التراث الإسلامية، وتحليل بنية العلوم الإسلامية؛
- تعد نظرية البيان من أهم التطبيقات المنهجية لنظرية الوحدة البنائية في مسائل علوم الحديث؛
- أدى تطبيق نظرية البيان إلى مجموعة من الشبهات التي تتعارض مع وظيفة المحدثين، ومنهجهم في الرواية، والنقد، والاستدلال بالسنن؛

1- "الجامع" الخطيب البغدادي، 78/1

- إن تحقيق مقصد العلواني من النظرية البنائية في علوم الحديث ينبغي أن يتوجه إلى الكشف عن خصائص البيان عند المحدثين، وطريقتهم في النقد الاستدلالي والعمل بالسنن.

إن تفعيل هذه النتائج يقتضي أن تتوجع عناية الباحثين إلى الجوانب التكاملية بين علوم الشريعة في استثمار السنن، وذلك بإبراز القضايا العلمية في المسائل المشتركة؛ خصوصاً بين علوم الحديث، والفقه، والأصول، مع استحضار خصائصها المعرفية والمنهجية؛ حتى يؤدي النظر فيها، وإعمالها إلى إحياء السنة، وفهمها في ضوء القرآن الكريم، وطبيعتها العملية، وتنسجم بذلك مع أطروحات الدكتور العلواني.

لائحة المصادر والمراجع

- أبجديات البحث في العلوم الشرعية: فريد الأنصاري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات الفرقان، الطبعة الأولى: 1417هـ/1997م،
- "إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول" محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى: 1419هـ/1999م،
- "الإسناد من الدين وصفحة مشرقة من تاريخ سماع الحديث عند المحدثين" عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، قامت بطباعته وإخراجه دار القلم للطباعة، والنشر، والتوزيع، دمشق- سوريا، الطبعة الأولى: 1412هـ/1992م،
- "الاقتراح في بيان الاصطلاح وما أضيف إلى ذلك من الأحاديث المعدودة من الصحاح" تقي الدين محمد بن علي المشهور بابن دقيق العيد، دراسة وتحقيق: قحطان عبد الرحمان الدوري، دار العلوم للنشر والتوزي، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: 1427هـ-2007م،
- "إشكالية التعامل مع السنة النبوية"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى: 2014م،
- "تذكرة الحفاظ" محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلي، دائرة المعارف العثمانية، طبعة 1374هـ،
- "ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك" القاضي عياض بن موسى السبتي، طبعة الأوقاف، والشؤون الإسلامية بالمغرب، الطبعة الثانية: 1403هـ/1983م،
- "توجيه النظر في أصول الأثر" طاهر الجزائري، تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، الطبعة الأولى: 1416هـ/1995م.
- "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه، وأيامه" المشهور بصحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد بن زيد الناصر، شرح وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى: 1422هـ،
- "الجامع لأخلاق الراوي، وآداب السامع" أحمد بن علي المشهور بالخطيب البغدادي، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية.

- "شرح مشكل الآثار" أبو جعفر الطحاوي، حققه، وضبط نصه، وخرج أحاديث، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1415هـ/1994م،
- "الكفاية في معرفة أصول علم الرواية" أحمد بن علي، المعروف بالخطيب البغدادي (ت463هـ)، تحقيق: ماهر ياسين الفحل، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية: 1435هـ،
- "مناسبات تراجم البخاري" ابن جماعة، تحقيق: محمد ابن إبراهيم، الطبعة الأولى: 1420هـ، دار الفكر، بيروت، لبنان،
- "المنهج الإسلامي في الجرح، والتعديل؛ دراسة منهجية في علوم الحديث" فاروق حمادة، الطبعة الثانية: 1409هـ/1989م، دار المعرفة للطباعة، والنشر، والتوزيع، الرباط، المغرب،
- "المنهج النقدي عند المحدثين وعلاقته بالمناهج النقدية التاريخية"، د. عبد الرحمن بن نويفع فالح السلمي، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى: 2014م، بيروت، لبنان،
- "نحو إعادة بناء علوم الأمة؛ الاجتماعية، والشرعية. مراجعات منهجية، وتاريخية" أ. د. منى أبو الفضل، وأ. د طه جابر العلواني، دار السلام للطباعة والنشر، والتوزيع، والترجمة، الطبعة الأولى: 1430هـ، 2009م،

المحور الثاني:
معالم المنهج التوحيدي والتكامل المعرفي عند
العلواني

المنهج التوحيدي للمعرفة وسؤال التكامل المعرفي عند طه جابر العلواني

ذة: منى مغنوي

باحثة في سلك الدكتوراه مختبر العلوم الدينية والإنسانية وقضايا المجتمع

ملخص:

لا يستطيع النهوض بالأمة إلا من أوتي معرفة القرآن الكريم، وحظا من العلوم والمعارف، يؤهله لاكتشاف ذلك التداخل المنهجي بين القرآن والكون والإنسان. وهو ما يجعل المنهج المعرفي التوحيدي القائم على الجمع بين القراءتين، يستوعب المنهج العلمي الحديث ويطهره، ويعالج أزمتيه، ويرقى به باتجاه "المنهجية المعرفية القرآنية"، المستندة إلى القرآن المجيد الذي يستطيع أن يصحح المسيرة الإنسانية التي أتاحها العلم الغربي المنبت عن مصدره الإلهي، فعجز عن الاستيعاب والتجاوز، وعن حماية الإنسان من الآثار السلبية، والأزمات الخطيرة التي يشكو المنهج والعلوم منها في الحضارة المعاصرة. وضمن هذا التصور العام ارتأيت أن أتناول في هذه الورقة البحثية خصائص وقواعد المنهج التوحيدي للمعرفة عند طه جابر العلواني"، وبيان علاقته بالتكامل المعرفي والبناء الحضاري.

الكلمات المفتاحية: طه جابر العلواني - المنهج المعرفي - التكامل المعرفي - الجمع بين القراءتين - البناء الحضاري.

"The Monotheistic Methodology of Knowledge and the Question of Epistemological Integration in Tahar Jaber Al-Alwani's Thought".

Abstract:

The rise of a nation can only come from those who have been endowed with the Quran, along with a share of knowledge and wisdom that qualifies them to discover the methodical interplay between the Quran, the universe, and humanity. This is what makes the monotheistic approach, based on the combination of the two readings, capable of accommodating modern scientific methodology, purifying it, addressing its crises, and elevating it towards "Quranic cognitive methodology". This approach is based on the

glorious Quran, which can rectify the human journey facilitated by Western science, stemming from its divine source. Western science has failed to comprehend, transcend, protect humans from negative effects, and address the serious crises faced by its methodology and knowledge in contemporary civilization.

Within this general conceptualization, I decided to address in this paper the properties and rules of the monotheistic approach to knowledge in Taha Jaber Al-Alwani, and its relationship to knowledge integration and civilizational construction.

Keywords: Taha Jaber Al-Alwani - the cognitive approach - Knowledge Integration - Combining the two readings - Civilizational construction.

تقديم:

تنفرد الأمة الإسلامية من بين سائر الأمم بالاحتفاظ بصورة نقية من التوحيد الخالص، كان ولا يزال جوهر تأسيس حضارتها وأمجادها، وخميرة نهوضها وشهودها.

ويروم هذا البحث الموسوم "المنهج التوحيدي للمعرفة وسؤال التكامل المعرفي عند طه جابر العلواني" بيان أهم خصائص المنهج التوحيدي للمعرفة وقواعد إرسائه، ورصد علاقته بالتكامل المعرفي، وإبراز آثاره الحضارية على الفكر والفرد والمجتمع، كما جاءت في المشروع الإصلاحي لرائد من رواد مدرسة التجديد الحضاري المعاصر.

ذلك أن التوحيد يمثل الأساس النظري لفكرة التكامل المعرفي في المتن الفكري لطه جابر العلواني، فضلا عن كونه تصورا عاما للوجود، يقدم تفسيراً منطقياً للعالم، ويوضح أبعاد الدور الإنساني في الكون والحياة، هدفه الأسى إعداد إنسان التزكية والعمران وأداء أمانة الاستخلاف. ليوسع العلواني بذلك معاني التوحيد، ويعيد اللحمة بين عالمي الغيب والشهادة، وبين جانبي الروح والمادة، وبين قراءتي الوحي والكون.

فماهي أبرز خصائص المنهج المعرفي التوحيدي عند طه جابر العلواني؟ وما هي قواعد إرسائه؟ وما هو أثر هذا المنهج في تحقيق التكامل المعرفي والبناء الحضاري الإسلامي؟

لتحليل هذا الموضوع والإجابة عن تلك الأسئلة سأقسم الدراسة بحول الله إلى

مبحثين:

المبحث الأول: خصائص المنهج المعرفي التوحيدي عند العلواني وقواعد إرسائه

يؤكد طه جابر العلواني على أنه ما من حضارة أو مدنية أو حالة عمرانية، يمكن أن تقوم بدون تصور، فالتصور أساس تقوم عليه نظرة كلية للكون والإنسان والحياة، وعلى التصور تبني أركان وتفصيل الرؤية الكلية؛ فإذا كان المنهج أي منهج يقوم على مسلمات تسبقه، فإن التصور هو منطلق الرؤية الكلية وقاعدتها. والله تعالى خصَّ التصور الإسلامي بمجموعة من الخصائص والمقومات والأسس، لم يحظ به أي تصور آخر، فهو وإن بدا في بدايته وظاهره تصورا دينيا، فإنه جمع في مقوماته مزايا أهم التصورات التي عرفتها البشرية؛ فالنظر العقلي أول واجب يواجه الإنسان ليصل إلى المعرفة، ولكن مع قائد هاد رشيد يساعده على إدراك نفسه، ومخلوقيته وعبوديته، ومعرفة خالقه المستحق للتوحيد والعبادة.¹

وقد استطاعت الحضارة الإسلامية التي بناها النظام المعرفي القرآني، أن تضع أمام الإنسانية نموذج حضارة ربانية إلهية، لا تستعبد الإنسان، وتجعل منه مجرد وسيلة إنتاج للحضارة، بل كانت حضارة تحرير الإنسان، وإطلاق قواه الكامنة، وجعله المسؤول عن العمران، والشاهد على الحضارة، والقائم على بنائها، وفق فكرة العبودية لله تعالى، التي تُعدَّ منطلق التحرير، ودعامة الحرية. فكان إنسانا عدلا سائرا على صراط مستقيم، قائما بالقسط ينفق مما رزقه الله، مختلفا عن الإنسان المستعبد الذي أقام الحضارة الوضعية على حساب إنسانيته وكرامته، وتحول إلى كَلٍّ على مولاه، وأبكم لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، ولا يقدر على ممارسة فعل التغيير.²

ويرى طه جابر العلواني أن الأزمة المعاصرة التي يتخبط فيها العالم بأسره، ناجمة عن التصور المادي للكون والإنسان والحياة، وأن لا مخرج من هذه الأزمة، إلا بمنهج توحيدي، منبثق عن القرآن الكريم، يمكن أن يبني الإطار الكوني الشامل للفكر الإنساني، ويصدق على العلم ومنهجه ومنطقه، ويوجه الجهود الإنسانية لتطوير الأرض وإعمارها.³

فالقرآن الكريم المكنون في الآيات الكريمات وما يرتبط بها، قدم في الماضي أنجح الحلول لأزمة الإنسان المعرفية في عصر التنزيل، والتي عُرفت بالجاهلية، ولا يزال وحده القادر

1- التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، دار الهادي، بيروت لبنان، 2003م، ص: 24 و 25 بتصرف.

2- نحو منهجية معرفية قرآنية، طه جابر العلواني، محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة طه جابر العلواني دار الهادي بيروت، ط1، 2004م. ص: 112 بتصرف.

- معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، دار السلام، القاهرة مصر، ط2010، 1م، ص: 81 بتصرف.

على تقديم مفاتيح الحلول المعرفية لأزمة العالم المعرفية المعاصرة، عن طريق المنهج التوحيدي للمعرفة القائم على أساسين اثنين: التوحيد والجمع بين القراءتين. لذلك سأحاول مقارنة أهم خصائص المنهج المعرفي التوحيدي عند طه جابر العلواني في المطلب الأول، بينما سأخصص المطلب الثاني لعرض القواعد التي اقترحها لإرساء هذا المنهج.

المطلب الأول: خصائص المنهج التوحيدي للمعرفة:

يبرز التوحيد في التصور الإسلامي باعتباره المقوم الأساس من مقومات ذلك التصور، ولا شك أنه المفهوم الأساس والدعامة الكبرى الذي يقوم عليه المنهج المعرفي القرآني، فهناك عالم الغيب وعالم الشهادة، وهناك مصادر التصور ووسائل نقله للإنسان، وهناك الدار الآخرة وجانب الجزاء الذي يكون فيها، وهناك المخلوقات التي تشاركنا هذا الوجود، وهناك الرسل عليهم السلام ورسالاتهم الربانية، والكتب التي أنزلت عليهم، وكل ذلك هو مدار التوحيد.¹ وبهذا يكون التوحيد أول خاصية من خصائص المنهج المعرفي القرآني.

الفرع الأول: التوحيد

التوحيد مقصد أعلى لا يتحقق في ضمير الإنسان بيقين إذا لم ينعكس على كل جزئية من جزئيات المعرفة، وعلى كل جانب من جوانب التصور والفكر والحركة، وعلى مفردات الواقع في الاقتصاد والثقافة والاجتماع والسياسة والخلق والسلوك والآداب والفنون، وسائر جوانب الحياة الأخرى. فالتوحيد يعني فيما يعنيه أن الكون كله بمن فيه وبما فيه له خالق واحد، ما خلق الكون كله إلا تحقيقاً لمشيئته، وتنفيذاً لإرادته، وأنه خلقه على الخير والحق والتراحم والتواصل وإقامة العدل، ولْيَبْلُغَ الإنسان المؤمن المستخلف بالموجودات التي أوثمن عليها إلى كمالها المطلوب فينتظم كل شيء في الوجود في عبادة واجب الوجود.²

والتوحيد يحدد مصادر المعرفة في مصدرين اثنين هما: الوحي والوجود، والعقل بينهما وسيلة وأداة معرفة واستنباط وإدراك، ويشير إلى منحنى تصنيف المعرفة؛ حيث يربط بين العلم والعمل، وبين العلم والتقوى، وبين العلم والقيم. فالموحد لن يسخر العلم إلا فيما

¹ - التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، م س ، ص: 26 و 27 بتصرف.

² - التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، م س، ص: 18-19 بتصرف،

يرضي الله، وينفع الناس، ولامجال لتسخير العلم لبناء أسلحة الدمار الشامل، أو غير الشامل، ولا مجال لتسخير العلم ومنجزاته لإفساد الحياة، وتدمير البيئة والإنسان، وخيانة واجب الاستخلاف ومهام العمران، لذلك استطاع التوحيد أن يبني للإنسان المنهج العلمي، والنظام المعرفي، اللذان منحا الحضارة الإسلامية هويتها الخاصة، التي ميزتها عن سائر الحضارات السابقة واللاحقة، وجعلا من مكونات العمران كيانا قائما يسمى: الأمة الوسط أو الأمة القطب أو خير أمة.¹

ويوضح العلواني أن العقيدة والتوحيد في موضع القلب منها، ثمرتها الأساسية معرفة وعمل، والمعرفة والعمل تمثلان ضوابط لتصرفات الإنسان ينطبع بها سلوكه العملي في شتى جوانب الحياة، الفردية والأسرية والعامة، وهو ما يؤكد أنه أيضا إسماعيل راجي الفاروقي في كتابه "التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة"؛ حيث يقيم الفاروقي عبر اللجوء المباشر للقرآن الكريم، والتحليل المقارن بين النموذج المعرفي التوحيدي الإسلامي والنماذج المعرفية الغربية، الحجة الدامغة على أن التوحيد هو النواة الوحيدة الصالحة لأن تكون ناظماً لخلافة الإنسان، ولحملة الأمانة في الأرض. ويبرهن من خلال ثلاثة عشر فصلا على أن التوحيد هو: جوهر الخبرة الدينية، و لباب الإسلام، ومبدأ كل من: الحضارة، والتاريخ، والمعرفة، والغيب، والأخلاق، والنظام الاجتماعي، والأمة: والأسرة، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام العالمي، والنظام الجمالي.²

ويعرض طه جابر العلواني بعض الحقائق الغيبية ويستدل عليها بالمنهج القرآني، وينتقد جمود بحوث العقيدة ضمن قوالب ومساحات الجدل الكلامي خاصة لدى المتأخرين منهم، حيث صادر منهجهم المنطقي وأسلوبهم الجدلي أنوار التوحيد، وأطفا إشعاعات العقيدة، وسلب الإيمان فاعليته. بعدما كان الرعيل الأول يرتبطون مباشرة بالنبع الصافي الوحيد-القرآن المجيد- فلا تشوب إيمانهم شائبة ولا يחדش توحيدهم شيء. ولوعرض علماء

¹ - نفسه. ص: 68 و69 بتصرف.

² - يراجع في ذلك: كتاب التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة، للدكتور إسماعيل راجي الفاروقي، ترجمة السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط 2014م،

العقيدة لسائر قضايا التوحيد وفقاً لهدي القرآن المجيد، وأسلوبه الحكيم، لوفروا على الأمة من الفتن والاختلافات والصراعات، وعوامل التمزق والويلات.¹

فالتصور الإسلامي تصور توحيدي نقي أرسى الله تعالى دعائمه في الكتاب المجيد، وهو رباني المنشأ، لم يخالطه الهوى لذلك يدعو طه جابر العلواني إلى إعادة قراءة القرآن، وخاصة القرآن المكي في مجال التوحيد، لتنقية إيماننا، وتصفية توحيدنا من كل مؤثرات الجاهلية القديمة والحديثة. كي نتمكن من إعادة البناء، وإعادة التكوين بمقتضى الكتاب الذي لم يختلط بما يعكرنبه الصافي، ولم تكدره الدلاء، لنستمد منه التوحيد الخالص الذي نفهم به حقيقة الوجود، وندرك به مقومات الشهود.

الفرع الثاني: الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون

يعتبر طه جابر العلواني الالتفات إلى ذلك الارتباط المنهجي بين القرآن والكون والإنسان، شرطاً مسبقاً للخروج من الأزمة الفكرية والمعرفية في مستوياتها العالمية والمحلية؛ فالقرآن ضم قواعد "الوحي الإلهي" الذي جاء به المرسلون كافة. والكون مجال "آيات الله" ومظهر إرادته ومشيئته. والإنسان مستخلف للاهتمام بالوحي في إعمار الكون، مطالب بقراءة المصدرين معاً، وتنفيذ الأمر بالقراءتين سوياً، كما جاء في الآيات الأولى في سورة العلق: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)﴾. فالقراءتان فريضتان متكاملتان؛ قراءة القرآن المسطور قراءة تحليلية متدبرة، وقراءة الكون المنشور قراءة سننية علمية، وإعمال القراءتين معاً والجمع بينهما، يجعل من هذه القراءة الكاملة الوسيلة المتجددة لتحقيق الغاية من الخلق وبناء الحياة الطيبة، وتوصيل الإنسان إلى معارف الشهود الحضاري، والقيام بمهام العمران والاستخلاف في هذا الكون.²

¹ - التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، م س، ص: 60 بتصرف.

² - الجمع بين القراءتين، الوحي والكون: طه جابر العلواني، دار السلام، القاهرة، ط1، 2014م، ص: 21 بتصرف.

ولما طال على المسلمين الأمد، وقست بعض القلوب، وبدأت القراءات المفردة، المغايرة لمنهج الجمع بين القراءتين، وصارت إما قراءة في الوحي وحده، لا تتصل بالكون، ولا بحالة التسخير، ولا بمهام الأمانة والابتلاء والاستخلاف. وإما قراءة في الكون وحده، لا ترتبط بقراءة الوحي، ظهرت بوادر ثنائية ما أنزل الله بها من سلطان، وبداية ازدواجية ما كان لها أن تقع، وإذا بالسلطان والقرآن يفترقان، وإذا بأولياء الأمور من الحكام والعلماء يصبحان فريقين كذلك، يصطرعان فيما بينهما، ويوجه كل منهما جهوده وطاقاته لإحباط ما يفعل الآخر، أو التنديد به، أو سحب المشروعية عنه. وبدأ الناس يعرفون منذ ذلك الوقت ذلك الفصام النكد بين فريقين متشاكسين: فريق أهل القوة والسياف، وفريق أهل الفكر والفقه والعلم.¹

ويشير طه جابر العلواني إلى أن ما يميز تلك الازدواجية في العصور السابقة، أنها أخذت شكل ازدواجية داخلية، تجري داخل النسق الإسلامي لآخارجة، وثنائية محلية تجري بين طرفين مسلمين لا ينفصلان، ويمكن أن يلتقيا في أي وقت. أما بعد أن بدأت شمس الحضارة الإسلامية تميل نحو الغروب، وشمس الحضارة الوضعية الغربية تؤذن بالبروز، فقد تغير الحال؛ حيث أُلقت الحضارة الغربية المعاصرة بكم هائل من علومها ومعارفها على الكرة الأرضية كلها، وصار هناك طرف خارجي في الثنائية، يمثل علما نشأ خارج بيئة الجمع بين القراءتين، وخارج النمط الحضاري الإسلامي كله. وبدأ المسلمون يعانون في نظامهم المعرفي من الصراع المفروض مع العلم الوافد والمعرفة القادمة، ليؤول الأمر إلى صراع بين ثنائية العلم والإيمان، وانحصار العلوم الإسلامية في مجال محدود يعيش في دائرة النقل، متخلياً عن سائر الدوائر والأنماط الأخرى للوافد العلمي، وإذا بتلك الثنائية المعرفية تتحول إلى ازدواجية وفصام وصراع.²

وجرت محاولات عديدة لرأب هذا الصدع وتجاوزه، دون كبير جدوى أو أثر يذكر، وانتهت إلى تسليم حملة العلوم والمعارف النقلية بأن دورهم ينحصر في المعارف القائمة على الأساس النقلي، أما العلوم الاجتماعية الغربية، فبدأت تمتد إلى ساحات النقل ذاتها، من خلال النظر إلى المنقول كله على أنه تراث، وجزء من تاريخ، وجزء من حضارة. وظن الكثيرون

¹ - نحو منهجية معرفية قرآنية، طه جابر العلواني، م س ، ص: 113 بتصرف.

² - نحو منهجية معرفية قرآنية، طه جابر العلواني، م س ، ص: 114 بتصرف.

من حملة العلوم النقلية أن إعادة إنتاج بعضها، وأن إعطاءها مصطلحات معاصرة وعناوين حاضرة، يمكن أن يعالج الأزمة أو يحل المشكلة، وكذلك الخروج بالمعارف النقلية من دائرة المسجد إلى الجامعة والكلية، وحمل أصحاب التخصصات النقلية الألقاب والدرجات المعاصرة، والأخذ بسائر الشكليات الأخرى، سوف يغير الأمر، ويفتح السبيل إلى الخروج من الازدواجية. لكن التجربة أثبتت أن لا جدوى من ذلك كله.¹

ثم قامت حركة أسلمة المعرفة، وقد وضعت نصب عينها هدف إعادة الوحدة والانسجام إلى العقل المسلم، ببعث وإحياء منهجية الجمع بين القراءتين، والقضاء على ذلك الفصام النكد بين المعارف النقلية، والمعارف الاجتماعية والإنسانية والطبيعية.

وانطلاقاً من هذه القضية، تبنى طه جابر العلواني رؤية المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي جعل من أهدافه الكبرى تطوير المعرفة الإسلامية، وإعادة تشكيل العقل المسلم بشكل سليم وفق قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة موضوع المطلب الموالي.

المطلب الثاني: قواعد إرساء المنهج التوحيدي للمعرفة:

يوضح طه جابر العلواني في كتابه الموسوم "نحو منهجية معرفية قرآنية" أن المنهج التوحيدي في النظام المعرفي الإسلامي ينبني على ستّ دعائم رئيسية:²

1- إعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفية القائمة على مقومات التصور الإسلامي السليم وخصائصه، ليتضح ما يمكن اعتباره النظام المعرفي الإسلامي القادر على الإجابة عن الأسئلة الإنسانية الكلية، وإنتاج النماذج المعرفية الضرورية، دون تجاوز شيء منها، وبناء قدرة ذاتية على النقد المعرفي، الذي يمكن من الاستيعاب والتجاوز لتراث الماضين وإنتاج المعاصرين، بشكل منهجي منضبط، وفي الوقت نفسه يعطي القدرة على التوليد المعرفي المنهجي، والتفسير المعرفي، الذي لا يقوم على الإقناع والخطابة، بل على المنهجية المعرفية التامة.

¹ نفسه، ص: 115 بتصرف.

² يعرض طه جابر العلواني هذه القواعد في كتابه نحو منهجية معرفية قرآنية: ص: 116 وما بعدها.

2- إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المنهجية الإسلامية، في ضوء المنهجية المعرفية القرآنية، وهي المنهجية التي يقدمه لنا "القرآن المجيد في شكل محددات وسنن وقوانين يمكن استنباطها من استقراء آيات الكتاب الكريم تلاوة وتدبراً وترتيلاً وتنزيلاً وتفكيراً وتعقلاً وتذكراً، ثم التعامل مع هذه المحددات تعاملًا يسمح لنا بأن نجعل منها محددات تصديق وهيمنة وضبط لسائر خطواتنا المعرفية، ومنها: تصحيح مسار المنهج العلمي، وإخراج فلسفة العلوم الطبيعية والاجتماعية من مضايق النهايات التي تتوقف عندها الآن."¹ ذلك أن أضراراً بالغة قد أصابت هذه المنهجية نتيجة القراءات المفردة والتجريدية التي قرأت القرآن عشرين، وقرأت الوجود والإنسان في معزل عنه قديماً وحديثاً.

3- بناء منهج للتعامل مع القرآن المجيد من خلال هذه الرؤية المنهجية، باعتباره مصدراً للمناهج والشرعة والمعرفة، ومقومات الشهود الحضاري والعمراني. وقد يقتضي ذلك إعادة بناء وتركيب علوم القرآن المطلوبة لهذا الغرض، وتجاوز الكثير من الموروث في هذا المجال. فالإنسان العربي قد فهم القرآن ضمن خصائص تكوين الإنسان العربي الموضوعية الماضية، التي كانت بطيئة ومحدودة اجتماعياً وفكرياً، بالقياس إلى خصائص التكوين الحضاري العالمي الراهنة. ففي تلك المرحلة التي تم فيها التدوين الرسمي للعلوم والمعارف التي دارت حول النص القرآني والحديث النبوي، كانت العقلية البلاغية واللغوية تعتمد ملاحظة المفردات أو الجمل، باعتبارها وحدات التعبير الصغرى هي السائدة، ولذلك اعتبر الفهم الذي تولد عنها مقبولاً وكافياً في تلك المرحلة، وما تزال قواعده مفيدة وهامة حين توضع في سياقها التاريخي. أما في المرحلة الراهنة، حيث تسيطر عقلية الإدراك المنهجي للأمور والبحث عن العلاقات الناعمة لها بطرق تحليلية ونقدية، توظف الأطر العلمية المختلفة، وتربطها بموضوعات حضارية متشعبة وعلاقات متنوعة، فلا بد من إعادة النظر في علوم وسائل فهم النص وخدمته وقراءته، قراءة الجمع مع قراءة الكون والتداخل المنهجي معه.

4- بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية المطهرة من خلال تلك الرؤية المنهجية، وباعتبار السنة النبوية المطهرة كذلك، مصدراً لبيان المنهج والشرعة والمعرفة، ومقومات الشهود الحضاري والعمراني. فلقد كانت مرحلة النبوة وعصر الصحابة مرحلة تعتمد على

¹ - الجمع بين القراءتين، الوحي والكون طه جابر العلواني، م س، ص: 28.

الاتصال المباشر برسول الله صلى الله عليه وسلم، ومتابعته والتأسي به فيما يقول أو يفعل. والافتداء والتأسي يعتمدان على التحرك العملي في الواقع للرسول عليه الصلاة والسلام. فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يجسد بسلوكه القرآن في الواقع العربي والإسلامي، بعقليات أهله وقدراتهم الفكرية والمعرفية، وبشروط ذلك الواقع الاجتماعية والفكرية، والسقف المعرفي السائد فيه. ولذلك كان الرواة من الصحابة رضوان الله عليهم، حريصين على ألا تفوتهم أية جزئية تتعلق بحياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولذلك اشتملت السنة على ذلك الكم الهائل من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته، وكل تلك التفاصيل التي تجعلنا قادرين على أن نتابع حركته اليومية، عليه الصلاة والسلام في غدوه، ورواحه، وسلمه وحربه وتعليمه وقضائه، وقيادته وفتاواه، وممارساته الإنسانية، بطريقة تكشف عن أسلوبه عليه الصلاة والسلام، في التعامل مع الواقع.

5- إعادة دراسة وفهم تراثنا الإسلامي، وقراءته قراءة نقدية تحليلية معرفية، تخرجنا من الدوائر الثلاث التي تحكم أساليب تعاملنا مع تراثنا - في الوقت الحاضر - دائرة الرفض المطلق، ودائرة القبول المطلق، ودائرة التلفيق الانتقائي العشوائي. فهذه الدوائر الثلاث لا يمكن أن تحقق التواصل مع ما يجب التواصل معه من هذا التراث، كما لا يمكن أن تحقق القطيعة مع ما يجب إحداث القطيعة معه.

6- بناء منهج للتعامل مع التراث الانساني المعاصر، يخرج تعامل العقل المسلم معه من أساليب التعامل الحالية، التي تخلفت عن أطر ومحاولات المقاربات مع الفكر الآخر، وتكريسه باعتباره مركزية منفصلة متميزة، ثم المقارنات به، لتنتهي بالرفض المطلق، أو القبول المطلق بروح مستلبة تماماً، أو الانتقاء العشوائي المتجاهل للمنهج.

فهذه الخطوات أو المهام هي التي أطلق عليها طه جابر العلواني: "قواعد إسلامية المعرفة" أو "المنهج التوحيدي للمعرفة" أو "توجيه العلوم وجهة إسلامية"، أو "التأصيل الإسلامي للمعرفة"، أمام وضعية عالمية تعمل على توظيف المعارف والعلوم توظيفاً يفصم العلاقة بين الخالق والكون والإنسان، ويتجاهل الغيب، ويباعد بين العلم والقيم، وذلك بطرح تصورات حول الوجود، يبدو بعضها نقيضاً لتصوراتنا الإسلامية، وقد تكون هي كذلك، وقد لا تكون، إذ ليست القضية أن ننتقي من مقولاتنا الدينية ما يتوافق مع تلك التصورات لنقول

إنها لدينا من قبل، أنورفضها وندمجها بالفكر ، وليس مطلوباً منا أن نقتدي بغيرنا، لأن تجربتهم في مواجهة العلم ومنجزاته تختلف عن تجربتنا ،فلو كان القرآن لاهوئاً كهنوتياً، لما جازت فيه إلا القراءة الأولى فقط، وقد أمرنا بخلاف ذلك، لأن الوحي في: الكون الكتابي هو الوحي في الكون الطبيعي، فإذا ظهرت انحرافات أسندت إلى العلم، فالمطلوب هو تطهير العلم منها، وإذا ظهرت تأويلات أو تفسيرات أسندت إلى النص الموحى، فلا بد من نفي وإبطال تحريفات الغالين وتأويلات الجاهلين، وانتحال المبطلين، وهذا أساس الجمع بين العلوم والمعارف، وربطها بالمنهجية المعرفية القرآنية.¹

المبحث الثاني: دور المنهج التوحيدي في تحقيق التكامل المعرفي والبناء الحضاري للأمة.

يبنى العلواني مشروعه في إصلاح الفكر على أساس التكامل المعرفي القائم على الجمع بين القراءتين، وتغطية موضوعات في العقيدة والتزكية والأخلاق والفقه والاجتماع والتاريخ والمعرفة والثقافة والعمران، جاعلاً من المنهج المعرفي التوحيدي الأساس النظري للإصلاح الفكري والبناء الحضاري.

فالتوحيد من أهم المحركات الموضوعية المؤثرة في اتجاه إفراز الدواعي والقوى المحركة للمعرفة وتحديد مضمونها. وهذه الأمة تنفرد من بين سائر الأمم بالاحتفاظ بصورة نقية من التوحيد الخالص؛ توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الصفات والأفعال، وهو التوحيد الشامل الذي جاء به الأنبياء كلهم. وهو محور العقيدة وأساسها، وركن الإيمان وعموده.²

وتتمثل أهمية التوحيد بالنسبة لطله جابر العلواني في إعادة صياغة مبادئ المعرفة في ضوء المنهج التوحيدي؛ إذ يناط بها تحويل التوحيد من مجرد علاقة تصورية لثنائية طرفي الوجود؛ الخالق والمخلوق، إلى محتوى معرفي يصل الإنسان بربه. فمبدأ الثنائية في نظام الخلق والتكوين يقتضي أن تستمد المعرفة من مصدرين مختلفين هما: الوحي الإلهي، وعالم الخلق، باعتبارها ثنائية تكامل، فالإنسان والكون كلاهما عنصر من عناصر العالم المخلوق، والسنن الإلهية الثابتة تجري عليهما معاً، وكلاهما يتحدان في صدورهما عن إرادة إله واحد،

- نحو منهجية معرفية قرآنية، طه جابر العلواني، م س، ص: 119 بتصرف. 1

² - الجمع بين القراءتين، طه جابر العلواني، م س، ص: 39 بتصرف.

ويتحدان كذلك في كونهما مدبرين بتدبير رب واحد، لكن للإنسان على الكون درجة هي درجة التكريم الإلهي التي أهلته للاستخلاف في الكون المسخر له.¹

ووفقا لهذا المنهج، فإن المعرفة كي يتم بناؤها في ضوء التحديات الفكرية، والعقدية المعاصرة، لابد لها أن تتشكل على المستويين النظري والتطبيقي في ضوء مبادئ التوحيد، حتى تظهر نتائج عملية التكامل المعرفي في بناء الحضارة والعمران، كما سنوضح في المطلبين المواليين.

المطلب الأول: دور المنهج التوحيدي في تحقيق التكامل المعرفي:

إن المطلع على الفكر الإسلامي، قديمه وحديثه، يلاحظ أنه فكر يشكو خلا معرفيا ومنهجيا، على مستوى طريقة تعامله مع المعارف الكونية، والعلوم الوافدة؛ إذ تقوم هذه الطريقة على الأغلب على الرفض والرد والنقض والإقصاء، بحجة أن الانفتاح عليها قد يضر بالدين وأهله، ويفسد العقيدة والشريعة على حد سواء. ولا شك أن هذا الأمر يتعارض مع رسالة الإسلام العالمية، ومع كون العلوم والمعارف محكومة بمنطق التكامل والتفاعل وليست قائمة على أساس التباعد والتنافر.

وتكمن أهمية الدعوة إلى التكامل المعرفي في تجاوز الأزمة الفكرية² للأمة، التي ترعرعت في ظل الازدواجية التي صاحبت التعليم منذ أن استحدثت في العالم الإسلامي، من خلال إدراج نظام تعليمي حديث مداره علوم الكون، مقابل نظام تعليم تقليدي محوره علوم الشرع. وهنا يؤكد العلواني على أهمية الجمع بين القراءتين: بارتياح آفاق العلوم الشرعية والعلوم الكونية على حد سواء، ويرجع كل اضطراب في الحياة البشرية إلى اختلال منهج القراءة، بالاقصاء على إحدى القراءتين. ويقرر أن تصحيح الأوضاع لا يتم إلا عن طريق الجمع بين القراءتين، ويستحيل قيام عمران رشيد، وحضارة سديدة بدون جمعهما وضمهما معا.

¹ - التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، م س، ص: 118 بتصرف.

³ - يعتبر طه جابر العلواني، الأزمة الفكرية أصل الأزمات كلها التي تعيشها الأمة، للتوسع ينظر كتاب خطوط في الأزمة الفكرية المأزق الحضاري للأمة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1989م. وكذلك كتابه إصلاح الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م.

وفي سعيه لتأكيد تكاملية المعارف والعلوم، يقدم لنا طه جابر العلواني أخطاء القراءة المنفردة وسلبياتها، إذ يقول: "من تجاوز القراءة الأولى (أي قراءة الوحي) واستغرق في القراءة الثانية (أي قراءة الكون) فقد الصلة بخالق الكون، وفقد الإحساس بالخلافة فيه، والشعور بأنه مؤتمن عليه ومحاسب على ما يصنعه فيه، ومثاب على العمران ومسئول ومعاقب على التخريب وتجاهل الغيب، وانطلق في بناء فلسفة وضعية عوراء قاصرة لا تمكنه من المعرفة الحقيقية، بل تجعله في أحسن الأحوال من أولئك الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. فكثيرا ما يعجز هذا الإنسان عن الحصول على إجابات سديدة عما يعرف بالأسئلة الكلية أو العقد الفلسفية، ويحول كل ما غاب عن حواسه القاصرة إلى مجرد ما ورائيات لا يكاد يفهمها، في ضلّ وبيته".¹

وهكذا يتخذ الوجود شكل القوى المتصارعة المتنازعة، ويتخذ الإنسان الغافل من نفسه وهواه شكل المتأله المسيطر بالعلم على كل شيء، فيمجد ذاته ويتخذ إلهه هواه، ويتوهم أن له أن يستمد قيمة من ذاته ومن الطبيعة، فيقع في الاستبداد والطفيان على أخيه الإنسان. وتحدث كوارث البيئة، ويختل التوازن وتظهر أمراض الانحراف والجرائم بكل أنواعها، وتسود المعيشة الضنك: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْنَى﴾ (طه: 122).

أما إهمال القراءة الثانية في الكون والطبيعة المسخرة؛ "والاقتصار على قراءة الوحي وحده منقطعاً منبثاً عن الوجود، فإنه يؤدي إلى نفور من الدنيا، واستقذارها والزهد فيها، يشكل قد يشل طاقات الإنسان العمرانية والحضارية، ويعطله عن أداء مهام الخلافة والأمانة والعمران، ويحول بينه وبين التمتع بنعمة التسخير. ويعطل فكره، وينقض من قيمة فعله، بل قد يلغي إدراكه لفعله فلا يرى الإنسان نفسه فاعلا في شيء، ولا يرى لوجوده في الحياة معنى عمرانيا، وكل هذه الأفكار منافية تماما لمنهج القرآن العظيم".²

¹ - نحو منهجية معرفية قرآنية طه جابر العلواني، م س، ص: 271 و 272 بتصرف.

² - الجمع بين القراءتين، طه جابر العلواني، م س، ص: 25.

كما أن تجاوز القراءة الثانية وعدم جمعها مع الأولى "يؤدي إلى ظهور العجز الإنساني الحضاري، وتعطل طاقات الإنسان، وإلى خلط عجيب بين قضايا عالم الغيب وعالم الشهادة. كما أن مناهج المعرفة البشرية قد تصل إلى نتيجتين خطيرتين: فالذين يتعلقون بالقراءة الأولى - وحدها - يسقطون الجانب الموضوعي الذي يرتبط بمعرفة الواقع من حسابهم. فيجعلون الدين أشبه بلاهوت يستلبد الإنسان والكون، وينفي الأسباب وقوانين الحركة وصيرورتها، ويهمل أصحاب هذا الاتجاه، دراسة السنن الاجتماعية والتاريخية والنفسية والاقتصادية التي يتفاعل معها الإنسان، فينتهي الناس إلى فكر سكوني جامد يلغي عامل الزمن من حسابه. والذين يتعلقون بالقراءة الثانية وحدها فإنهم ينفون الوجود الغيبي للخالق الفاعل في الوجود وحركته، أو يتجاوزونه فينتهون تدريجياً إلى الفكر الوضعي في المعرفة، الذي يؤثر بدوره على النسق الحضاري، ذلك التأثير السلبي الذي نشهده في الحضارة الغربية المعاصرة التي وقعت بين تجاهل الغيب أو إنكاره أو الإلحاد، فانتهدت إلى نزع القداسة عن كل شيء وبلغت الغاية في التحليل والتفكيك، وغاية العجز في الربط والتركيب، وها هي تواجه هوة الشعور عبثية الوجود، ويتعالى صراخها بالحديث عن النهايات نهاية التاريخ.... نهاية الحضارة... ونهاية خط التقدم ... ونهاية الحداثة... نهاية الإنسان.. إلى غيرها من نهايات. وهو ما تعانيه البشرية اليوم في معارفها الحديثة جزاء الفصل بين علوم الدين والعلوم الإنسانية والاجتماعية. وهذا الفصل هو الذي قاد البشرية إلى ثنائية متصارعة بين اللاهوت والوضعية، وهو يحمل خطورة أخرى بالنسبة للمسلمين، إذ يبعد بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية. حيث طورت المناهج الوضعية علاقتها بهذه العلوم الإنسانية والاجتماعية واستبعدتها من مجال العلوم النقلية أو الشرعية. وأوغلت القراءة الأولى بدورها في الربط بين النص والمعجم اللغوي، متجاهلة في كثير من الأحيان البيئة الطبيعية ومعطيات الزمان والمكان وطبائع الإنسان، وأثر ذلك كله في فهم النصوص الشرعية، نظراً لارتباط الأحكام والمصالح بموازنة دقيقة يصعب تفهم أبعادها بغير الجمع بين القراءتين.¹

وهنا يخلص طه جابر العلواني إلى أن التكامل بين القراءتين أصبح ضرورة معرفية وحضارية للخروج من المأزق المعرفي المعاصر والأزمة الفكرية العالمية الراهنة.

¹ - نحو منهجية معرفية قرآنية، طه جابر العلواني، م س ص: 276 وما بعدها، بتصرف.

المطلب الثاني: مداخل التكامل المعرفي وآثاره الحضارية:

لم يتوقف العلواني عند إبراز أهمية التكامل المعرفي وبيان دوره في الإصلاح الفكري والمنهجي، والبناء الحضاري فحسب، بل تناول أيضا سبل ومداخل تحقيق هذا التكامل وهو ما سنسبسط الحديث عنه في هذا المطلب عبر ثلاثة فروع:

الفرع الأول: مدخل الإيمان بالوحدة البنائية للقرآن المجيد

إن المدخل الأساس للتكامل المعرفي القائم على الجمع بين القراءتين، يبدأ باكتشاف العلاقة المنهجية بين الناطم المنهجي لآيات القرآن الذي أعطى القرآن "وحدته البنائية" وإعجاز "نظمه"، وبين السنن والقوانين الماثلة في الوجود، والمهيمنة على حركته. فالقرآن وحي إلهي يتعلق به هذا الوجود انطلاقا من أنه مطلق، ومحيط. وبقدر ما تتسع معرفتنا للثنتين معا بقدر ما تتكون لدينا القدرة على "الجمع بين القراءتين"، واكتشاف التداخل بين منهجي الوحي والكون، فمنهجية القرآن موازية لمنهجية الوجود، والمطلوب ليس قول ذلك نظريا، ولكن اكتشاف ذلك تطبيقيا. ولهذا يكون التحدي الأول والأهم للمسلم المعاصر هو اكتشاف مدى التداخل المنهجي، من خلال الجمع بين القراءتين، بين قراءة الوحي الإلهي في وحدته البنائية، ومنهجيته المستوعبة للكون وحركته، وقراءة العلوم الطبيعية والإنسانية القائمة على السنن الإلهية في الكون والحياة والإنسان. وبذلك تكتمل حلقات التصور الإنساني، وتبرز علاقة الغيب بالطبيعة والإنسان. ويتخلص الإنسان من مأساة الفصام بين اللاهوت والناسوت والملكوت، أوبين الدنيا والآخرة، أوبين التنزيل الإلهي والفلسفات الوضعية البشرية، وهذا التحدي كما يقرر العلواني لا يستطيع النهوض به إلا من أوتي القرآن الكريم، وحظا من العلوم والمعارف كافيا لاكتشاف ذلك التداخل المنهجي بين القرآن والكون والإنسان.¹

الفرع الثاني: مدخل القيم العليا "التوحيد والتزكية وال عمران"

يبين طه جابر العلواني أن قيم التوحيد والتزكية وال عمران، بلغت من الأهمية مستوى يُمكن من القول بأنها محاور القرآن المجيد الأساسية، التي تدور سورته وآياته وكلماته حولها، وتشترك في العمل على تكريسها وتعزيزها:

¹ - التوحيد والتزكية وال عمران، طه جابر العلواني، م س، ص: 103 و 104 بتصرف.

وأفعاله. ومعظم سور القرآن وجل آياته دارت حول التوحيد لأهميته القصوى؛ إذ عليه يتوقف كل ما عداه، وهو جوهر العقيدة، وركن الإيمان وعموده، وهو حجر الزاوية في رسالات الرسل والأنبياء كافة، وهو غاية الحق من الخلق. "ولا يستنير الفكر إذا لم تنعكس أشعة التوحيد عليه، ولا يهتدي السلوك الإنساني إلا به، ولا يرتقي إلى معارج التزكية إلا بسلامه، ولا يبلغ العمران إلا بسلوك سبيله، ولا تتحقق عدالة إلا بعد اليقين به، ولا تقوم دعائم حرية أو تحرير أو مساواة إلا على قوائمه".¹

والتزكية هي المؤهل الأساس الذي يجعل الإنسان قادرا على القيام بمهام الاستخلاف، وأداء الأمانة والوفاء بعهده تعالى وإعمار الأرض ووراثتها، قال تعالى: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: 105)، والتزكية هي التي تهيء الإنسان لوراثته الفردوس في الآخرة والفلاح فيها. قال الحق سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: 9).

والعمران ثمرة للتوحيد والتزكية، وهو المهمة التي كُلِّفَ بها الإنسان بعهد الاستخلاف. "والله تعالى أقام الابتلاء والتكليف على منطلق ودعامتين: فالمنطلق هو التوحيد الخالص، والدعامتان هما: التزكية أولا؛ إذ بها يتمكن من الوفاء بالعهد، وأداء مهام الاستخلاف، واجتياز اختبار الابتلاء. ثم العمران ثانيا: لأن العمران حق الأرض التي كانت الملائكة تخشى عليها من خلافة من يفسد فيها ويسفك الدماء فيعم الخراب بدل العمران".²

والحضارة المعاصرة على كل ما أسدته للإنسان من خدمات في عمليات الكشف والتسخير، وعلى كل ما أنتجته من علوم ومعارف وآداب وفنون، لم تستطع أن تقدم أطرا ووسائل تربية إنسانية هادفة، تساعد على تقويم وتهذيب سلوك الإنسان وتربية ذاته. بخلاف حضارة الإسلام، التي جعلت سعادة الإنسان في الدارين غايتها الأسمى.

الفرع الثالث: مداخل قراءة الكون

يبرز طه جابر العلواني في كتابه الجمع بين القراءتين، عدة مداخل للتكامل المعرفي من خلال قراءة الكون في ظل المنهج التوحيدي، وسنذكر منها مدخلين اثنين لما لهما من ارتباط وثيق بمبدأ التوحيد أساس بناء الحضارة وتشديد العمران في النظام المعرفي الإسلامي:³

- التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، م س، ص: 16 بتصرف.¹

2 - نفسه: ص: 23.

3 - يعرض طه جابر العلواني، مداخل قراءة الكون في كتابه الجمع بين القراءتين، ص: 47 وما بعدها.

1-مدخل الخلق: هذا المدخل يقتضي الإيمان التام واليقين الخالص بأن الكون - كله - مخلوق لله تعالى، وعن إرادته صدر، وبكلماته تكون، وبتقديره نشأ، فصار شيئاً مذكوراً، وأنه سبحانه ما خلقه إلا بالحق، وأن كل شيء فيه بقدر ومقدار، وتقدير محدد، وأنه سائر إلى غاية معينة، فلا مجال للقول بالمصادفة أو العبث أوالعدم.

والقيام بمهمة الاستخلاف والوفاء بالعهد الإلهي، والنجاح في اختبار الابتلاء، والخروج من عهدة التكليف كل أولئك أمور يتوقف القيام بها على الوعي بها وعيا يجعل منها آيات للحق تبارك وتعالى موصلة إليه، منبهة إلى صفات الكمال التي يتصف بها، موجهة للإيمان به، وإدراك عظمته، وفهم حسن تدبيره وحكمته وإعجاز تقديره. والقرآن المجيد عندما يدعونا للنظر في الخلق والطبيعة، لا يرشح نفسه مصدرًا للعلم الطبيعي، ولكنه يوجه الإنسان إلى السير في الأرض والنظر في الأنفس والآفاق للوصول إلى معرفة الخالق وإدراك وحدانيته وجلاله وكمال صفاته.

2-مدخل العناية: إذا كان مدخل الخلق يقودنا إلى النظر في الخلق كيف بدأ، وإدراك الغاية منه وسيرورته وما سينتهي إليه، فإن مدخل العناية يؤدي بنا إلى النظر في نظام الكون الدقيق، واكتشاف بدائع الصنع الإلهي فيه، والقوانين والسنن التي لا تبدل لها، ويوضح في الوقت نفسه الرعاية الإلهية للإنسان. وهذا النوع من النظر يدرّب الإنسان على النظر العقلي في كل ما حوله، ويعلمه كيف يدرك المقاصد والكليات والحكم والغايات من مداركها وبوسائلها، فيؤمن بربه، ويدرك أن الكون ليس مركبا من عناصر مشتتة، منفصلة، بل يراها في ترابطها الدقيق المتماسك، وذلك هو الذي يعود على الإنسان بالرؤية الكلية للكون والإنسان والحياة.

ولقد أجهد الفلاسفة والمدارس الفلسفية أنفسهم عبر التاريخ، وما يزال الكثيرون منهم يسعون إلى معرفة المنهج أو الكيفية التي يمكن بمقتضاها إرجاع سائر عناصر الكون إلى أصل واحد والوصول إلى منهج أو نظام معرفي أو نموذج يمكن من تفسير الظواهر الكونية، ولعل سبب ذلك يكمن في عدم التفات هؤلاء الماديين إلى ما وراء تلك الظواهر من نظام دقيق وعناية إلهية فائقة، لا يدركها إلا المؤمن بوجود الله المدبر الواحد وعنايته وحكمته، ومطلق قدرته.

من خلال ما توقفنا عنده في هذا المبحث يتبين لنا أن التوحيد في المتن الفكري للعلواني إضافة إلى أنه قيمة مركزية في الدين الإسلامي، وقمة الهرم في منظومة المقاصد القرآنية، فإنه كذلك تصور عام للحقيقة، يوضح حدود وأبعاد الدور الإنساني في الكون والحياة، وفي الوقت نفسه يحقق قدرة كبيرة على صياغة المفاهيم الضرورية لبناء فاعلية الإنسان، وتشكيل دافعية العمران، وإيجاد المنطلقات المعرفية والثقافية السليمة لدى الإنسان.

خاتمة:

يسعى مشروع طه جابر العلواني الفكري الإصلاحي لتطوير منظور حضاري ومنهج توحيدي، تصدر عنه كل العلوم والمعارف، وينبني على مرتكزين اثنين:

أولهما: بناء منهجية معرفية قرآنية، تتجاوز ثنائية الفصل بين علوم الوحي وعلوم الكون، ففضية الجمع بين القراءتين كما تناولها طه جابر العلواني، مسألة منهجية في المعرفة، تنبني على أساس التوحيد، وترسخ التكامل المعرفي بين علوم الشرع وعلوم الكون، وتقود إلى نتيجة حضارية، فالذي يقرأ هدايات الكتاب المسطور، وسنن الكتاب المنظور، لا يستغني عن الله ؛ لأنه يدرك دوماً افتقاره لله فلا يستبد ولا يبتغي علواً في الأرض ولا فساداً، ولا يطغى، ولا يدمر الحياة والأحياء، ولا يعيث في الأرض فساداً، بل يعمر الأرض ويصلحها، ويبني الحضارة ويشيدها.

وثانيهما: تأسيس خطاب تجديدي إسلامي، وبناء مشروع عمراني حضاري، يقوم على رؤية كلية لله والكون والإنسان تنطلق من التوحيد من أجل بلوغ التزكية والعمران، بما يتيح للأمة استئناف حالة شهودها الحضاري العمراني، ويعيدها إلى موقع الشهادة على الناس، ويؤهلها لتحقيق الحضور العالمي اللازم لخيريتها ووسطيتها وشهادتها وعالمية رسالتها، ومرونة قيمها ومقاصدها، وتمكينها من اكتشاف قدرات الاستيعاب والتجاوز في مصدر التصور والرؤية والعقيدة وغيرها.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر. طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، طبعة 1996م.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، طه جابر العلواني، دار الهادي، بيروت، طبعة 2003م.
- التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، دار الهادي، بيروت، طبعة 2003م.
- التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة، للدكتور إسماعيل راجي الفاروقي، ترجمة السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، طبعة 2014م.
- الجمع بين القراءتين الوحي والكون، طه جابر العلواني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2014م.
- خطوط في الأزمة الفكرية المأزق الحضاري للأمة الإسلامية، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طبعة 1989م.
- معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010م.
- نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة،، طه جابر العلواني دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى، 2004م.

"المنهج التوحيدي للمعرفة ودوره في البناء الحضاري

عند طه جابر العلواني"

رياض صدقي

باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الحسن الثاني - المحمدية

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى بيان المجهود الفكري الذي جاء به طه جابر العلواني رحمه الله، في سياق وضع مقارنة منهجية متكاملة تنطلق من القرآن الكريم وتنتهي إليه، مستندا في عمله الفكري هذا على مجموعة من المحددات المنهجية والآليات الفكرية، للخروج من الأزمة الفكرية المعاصرة للفكر الإسلامي.

يعيش الإسلام اليوم في ظل هيمنة العالم الغربي فكرا وصناعة وحضارة، وهو في موضع لا يحسد عليه حيث يسود التخلف الفكري قبل التخلف الحضاري والإنتاجي، ومن هنا كانت الحاجة ماسة لتشخيص حقيقة الأزمة التي يعيشها الفكر الإسلامي المعاصر، فالعلاج لا يحصل إلا بعد تشخيص المرض والوقوف عند حقيقته وكنهه.

ويهدف هذا البحث إلى الوقوف عند سؤال المنهج عند المفكر طه جابر العلواني في مشروعه الإصلاح، وذلك من خلال تحليل أهم الخصائص التي تميز المنهج المعرفي التوحيدي من جهة والوقوف على آثار هذه المنهجية المعرفية من جهة أخرى، مع إبراز العلاقة بين المنهج والإصلاح الفكري والبناء الحضاري.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح، المنهج التوحيدي للمعرفة، الحضارة، الأزمة الفكرية المعاصرة، الفكر.

"The Monotheistic Methodology of Knowledge and Its Role in Civilizational Construction according to Tahar Jaber Al- Alwani"

Abstract:

This research aims to demonstrate the intellectual effort made by Taha Jabir Al-Alwani, may Allah have mercy on him, in the context of developing an integrated methodological approach that is based on the Qur'an and relies on it as a reference in his intellectual work. This approach is built upon a set of methodological determinants and intellectual mechanisms, with the purpose of overcoming the contemporary intellectual crisis facing Islamic thought.

Islam today exists in a world dominated by Western thought, industry, and civilization. It finds itself in a challenging position, where intellectual backwardness prevails even before cultural and productive backwardness. Hence, there is an urgent need to diagnose the reality of the crisis facing contemporary Islamic thought. The cure can only be achieved after diagnosing the disease and understanding its essence.

The objective of this research is to examine the question of methodology in the thinking of Taha Jabir Al-Alwani within his reformist project. This will be done by analyzing the most important characteristics that distinguish the monotheistic cognitive methodology, on one hand, and exploring the effects of this cognitive methodology on the other hand. Furthermore, it aims to highlight the relationship between methodology, intellectual reform, and civilizational construction.

Key words: reform – unified methodology of knowledge – civilization – contemporary intellectual crisis – thought.

مقدمة:

لقد توصل طه جابر العلواني رحمه الله في خضم همه الإصلاحى إلى أن أصل الانحراف فى الفكر الإسلامى المعاصر يرجع إلى سؤال المنهج، ومن ثم كان لزاما على المشتغلين فى هذا الحقل الزاخر بالعلوم والمناهج، أن يتوصلوا إلى منهج معرفى ينطلق من عقيدة التوحيد باعتبارها خيطا ناظما للفكر الإسلامى منذ بواكيره الأولى.

وبما أن الإسلام جاء ليخرج العباد من ظلمات الجهل إلى نور العلم ومن ضيق التخلف إلى سعة التحضر؛ فإن وظيفته هذه لا يمكن أن تصل إلى مبتغاها ومرامها إلا من خلال المنهج المعرفى التوحيدي؛ الذى ينبغى . فى نظر العلوانى . اكتشافه والتوصل إليه من خلال القرآن العظيم.

ويعتبر طه جابر العلوانى أن المنهج المعرفى التوحيدي هو الحل الأنسب للخروج من الأزمة الفكرية المعاصرة التى يعيشها الفكر الإسلامى، وهذا يعنى كذلك الانعتاق من حالة التخلف الحضارى التى تتسبب المشهد فى جل بلدان العالم الإسلامى اليوم.

إشكالية البحث:

يأتى هذا البحث للإجابة عن إشكالية مركبة صبغت فى عدة أسئلة:

هل هناك أزمة فكرية يعيشها الفكر الإسلامى المعاصر؟ وماهى أهم مظاهر هذه الأزمة الفكرية المعاصرة؟ وهل يمكن معالجة جذور هذه الأزمة الفكرية؟ وما هى الحلول المنهجية الكفيلة للخروج من الأزمة الفكرية الحالية؟ وأي مقارنة منهجية اعتمدها المفكر طه جابر العلوانى فى مشروعه لتجاوز هذه الأزمة؟ وما هى أهم معالم المنهج التوحيدي للمعرفة عند العلوانى؟ وما هو دور المنهج المعرفى عند طه جابر العلوانى فى الإقلاع الحضارى للأمة الإسلامية؟

المنهج المعتمد فى البحث:

سأعتمد فى هذا البحث المنهج الوصفى التحليلى، بحيث سأقف عند أهم المعالم المميزة للمنهج المعرفى التوحيدي عند العلوانى تحليلاً وتأصيلاً، مع بيان العلاقة الرابطة بين هذا المنهج والمشكلة الحضارية للفكر الإسلامى المعاصر، مع إبراز الوظيفة

التي يلعبها المنهج المعرفي التوحيدي في تجاوز الأزمة الفكرية وصولاً إلى النهضة الحضارية.

خطة العمل في البحث:

قمت بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة على الشكل التالي:
مقدمة: وتتضمن تمهيد وإشكالية البحث ومنهج العمل فيه.
المبحث الأول: الموجبات التاريخية والحضارية والمؤثرات الفكرية المشكلة لشخصية طه جابر العلواني
المبحث الثاني: مفهوم المنهج المعرفي التوحيدي عند طه جابر العلواني.
المبحث الثالث: دور المنهج المعرفي التوحيدي في البناء الحضاري الإسلامي.
خاتمة: أبرز النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: العلواني: سياقات تاريخية ومؤثرات فكرية

أولاً: المؤثرات الفكرية:

ولد الدكتور طه جابر العلواني عام 1935م في مدينة الفلوجة، محافظة الأنبار في العراق، وتلقى تعليمه في كتاتيب الفلوجة عندما بلغ طه جابر العلواني سن الخامسة تتلمذ على يد اثنين من الفقهاء، حيث أخذه عمه إلى الفقيه محسن فرحان لكي يتعلم القرآن عنده، وقد كان والده آنذاك مشغولاً بالتجارة ولم يهتم بهذا الأمر، لهذا كان اهتمام عمه أكبر بهذه المحطة المهمة، وكان للشيخ في هذه الفترة قدرة عجيبة، فقد كان يحفظ بأسرع مما يقرأ، بحيث كان يحفظ القرآن من ترديدتين أو ثلاث.¹

وفي المدارس الملحقة بالمساجد، حصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة الفلوجة الابتدائية سنة 1949م، ويقول عن هذه المرحلة: علمني شيخي- حين بدأت دراستي الدينية في مدرسة الفلوجة- أن أي تصوير لذي روح- إنساناً أو حيواناً- حرام، وكان يعلمنا أن نحمل (مقصات) في جيوبنا لنقطع بها الصور- التي يزين الناس بها وسائدهم و أغطية فرشهم- إذا كانت صوراً لطيور أو نحوها مما له روح.

¹ برنامج للتاريخ، د. محمود خليل و د. طه جابر العلواني، على موقع اليوتيوب

(<https://www.youtube.com/watch?v=Il48cTIMiY4>) بتاريخ: 2024/02/19

وكان شيخي يعتبر مستبج حلق اللحية كافراً، وحالقها-مع الإيمان بالتحريم-فاسقا فقط، لا غير، وكان يعتبر وضع تغطية الرأس بعمامة أو قبعة أو غترة واجبا، والحاسر لذلك الغطاء فاقداً للمروءة، فإذا سئل عن رجال الشرطة والعساكر حَوْقَلْ وسكت، وكان يرى أن ختان البنات واجب، ويرى ليس البناتيل والبذل الإفرنجية تشبها بالكفار ويعتبره محرما. وكان يؤكد علينا-في مجالس الدرس- ضرورة الالتزام بذلك كله، وضرورة أن نمنع أخواتنا ونساء أسرنا من الخروج من البيوت؛ إذ ليس للمرأة إلا ثلاث خرجات: الأولى عندما تخرج من بطن أمها إلى حياتها النكدة، والثانية عند خروجها من بيت أبيها إلى بيت زوجها، والثالثة عند خروجها من بيت زوجها إلى قبرها، وقد سكتوا عن الخروج الرابع، عندما تخرج من القبر إلى المحشر!! فهي في موقف لا سلطان لهم عليه...! وكان يؤكد علينا كذلك على عدم السماح لأهلنا باقتناء الراديو، فهو مصدر إفساد للأسرة، وعلينا إخراجها من البيوت، حتى ولو بتكسيه.¹

انتقل إلى بغداد و التحق بالمدرسة الآصفية الدينية(المعهد الديني) وحصل على شهادة منه عام 1952م، حيث درس في بغداد على علمائها، فتتلمذ على أمثال الشيخ أمجد الزهاوي، ومفتي العراق حينذاك الشيخ قاسم القبسي و الشيخ الألوسي وغيرهم.. وأدى انتقاله إلى بغداد إلى مخالطة علماء أوسع علما و أكثر انفتاحا حيث يقول: " ولما انتقلت إلى بغداد استنكر شيوخ البغداديون كثيراً من فتاوى شيخي الفالوجي، وبدأت أتساءل: من هو المصيب؟ و أحدث ذلك قلقاً شديداً داخلي، فقد أحببت شيوخ البغداديين، وأعجبت بهم و باتساع آفاقهم، وتنوع اهتماماتهم، لكنني بقيت إلى أن انتميت إلى الأزهر، ينتابني بين الحين والآخر قلق و حيرة وتساؤلات.²

يقول العلواني عن مرحلة الأزهر: " هنا بدأت أتعلم من أساتذة الأزهر وشيوخه، تفسير كل ما يقلقني مما تعلمته في العراق، فتعلمت كيف تنشأ المذاهب و المقولات الفقهية باعتبارها فهما بشريا للشريعة، وليست الشريعة نفسها، وأثر البيئة الثقافية فيها، وأثر شخصية الفقيه وتكوينه العقلي والنفسي في فتواه وآرائه، والفرق بين القديم البغدادي لدى الشافعي و الجديد المصري، وكيف غيّر هذا الإمام الجليل مذهبه العراقي القديم(إلا في مسائل معدودات) واستبدله بفقهه المصري الجديد، فأفادني ذلك إلى يومي هذا، أفادني

¹ انظر: طه جابر العلواني تجليات التجديد في مشروعه الفكري، إبراهيم سليم أبو حليوة، ص 18

² المرجع السابق، ص 18

اعتدالاً ورؤية وبصيرة أحمد الله عليها، ولي تلك المرحلة التي كان فيها الأزهر مثابة للأمة الإسلامية، وآخر تجسد تعليمي مؤسسي لها، تعلمت الانتماء إلى الأمة الإسلامية كلها دون تمييز، فقررت الاستمرار في الأزهر إلى أن تخرجت فيه، ونلت منه جميع شهاداتي من الثانوية وحتى الدكتوراه.¹

والمتتبع لمسار طه جابر العلواني يظن أن الرجل شخصية متناقضة، لكن الحقيقة أن هذا التنوع الظاهر هو جزء من الروافد المختلفة التي نهل منها العلم، بين مدرسة متشددة صارمة وأخرى منفتحة مرنة، وهذا ما جعل منه مفكراً صاحب عقلية نقدية تساؤلية، قائمة على التمحيص والمقارنة بدل التقليد والاتباع.

ثانياً: سياقات تاريخية وحضارية

ويمكن القول إن هناك حدثين عاصرهما العلواني قد أثرا على مشروعه الفكري وأسهما في توجيهه إلى الوجهة التي اتخذها:

الأول: الاضطرابات السياسية التي صاحبت الانقلابات العسكرية التي شهدتها العراق منذ أواخر الخمسينات وأودت بحياة عدد من الرؤساء العراقيين، وكان العلواني قريباً منها بل وانخرط فيها حين سعى مع بعض الضباط العراقيين من ذوي الميول الإسلامية للتخطيط لانقلاب عسكري، وعلى إثر اكتشاف هذا المخطط اضطر إلى مغادرة وطنه والإقامة بالمملكة السعودية حيث عمل أستاذاً للفقهاء بجامعة الإمام وطوى بذلك صفحة الاشتغال بالعمل السياسي إلى الأبد.

والثاني: إخفاق المشروع الحركي الإسلامي كما عبر عنه عبد القادر عودة وسيد قطب، والذي دفع الأجيال الجديدة من الإسلاميين لاسيما الذين درسوا في الغرب إلى البحث عن مجال جديد يتم فيه التعبير عن الفكرة الإسلامية وهنا برز المجال المعرفي بوصفه مجالاً ملائماً وجذاباً لسببين: يثقونهم أن جوهر المشروع الغربي ليس سياسياً وإنما فكرياً وهو ما يفسر استمرار النفوذ الغربي رغم رحيل الاستعمار، ومحاولة إنتاج معرفة إسلامية بديلة مع اكتشاف الأسس الوضعية التي تتأسس عليها المعرفة الغربية والتي لا يمكن فصلها عن هذه المعرفة.²

¹ العلواني، (مصارع في حلبة التراث)، إسلام أون لاين، نت، مدارك 29\12\2009، حوار: إسلام عبد العزيز.

² معالم المشروع الفكري للدكتور طه جابر العلواني، موقع إسلام أون لاين، 26 مارس، 2018

المبحث الثاني: مفهوم المنهج المعرفي التوحيدي عند العلواني

إنه من الضروري أن نتعرف أولاً على مفهوم المنهج كما شيده العلواني في مشروعه الفكري، وذلك أنه يشغل حيزاً كبيراً في مشروع العلواني الإصلاحي، وهذا يُحتم علينا أن نطرح أسئلة من قبيل: كيف توصل طه جابر العلواني للمنهج من خلال القرآن الكريم؟ وهل يضم القرآن الكريم منهجاً قائماً بذاته؟ وما هي أبعاد هذا المنهج؟

ينطلق طه جابر العلواني من قول الله تعالى: (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً)¹ ليوضح لنا أن القرآن الكريم يحوي منهجاً معرفياً له أسسه الذاتية ومقوماته الخاصة التي ستمكننا من بلورة حلول لقضايا وإشكالات متعددة.

لهذا فهو يقول: "وردت كلمة 'منهاج' مرة واحدة في كتاب الله، بيد أنها كانت بمثابة إعلان وتنبيه للمتدبرين عن وجود هذا المفهوم في هذا الكتاب العظيم، الذي نزل تبياناً لكل شيء"²

ويعتبر العلواني هنا أن كلمة المنهاج التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، هي المفتاح لتأسيس منهج معرفي انطلاقاً من القرآن العظيم، فمادام أن الله أشار إليه فهذا يعني أننا يجب علينا كشف ملامح هذا المنهج عن طريق آلية التدبر والتفكير.

لكن المنهاج ليس هو المفهوم الوحيد المعبر عن المنهج المعرفي الذي يسعى إلى تأسيسه؛ لذلك فهو يقرر أن مفهوم المنهاج من أهم المفاهيم القرآنية بعد التوحيد، ولهذا لا ينبغي أن تكون آية سورة المائدة هي المنبع الوحيد لصياغة المفهوم قرآنيًا، بل ينبغي قراءة جميع الآيات التي أوردت شبكة من المفاهيم الفرعية و المصطلحات القرآنية كالصراط المستقيم، السبيل الأهدى، السبيل السوي، سبيل الله، الهدى، النور، الاتباع، الاقتداء، الشفاء، الأسوة الحسنة، الطريق الواضح البين الذي لا يخشى سالكه تيهًا أو ضلالاً، فهو محاط بالنور المبين ومزود بكل معالم الهداية، التي لا تسمح بالانحراف عنه لمن يسلكه.³

وهذا المنهج القرآني الكوني تتظافر آياته كلها على إبراز معالمه من خلال العقيدة والشريعة والسلوك والقصص والعبر والأمثال والوعظ والتوجيه والوعد والوعيد، فهذا المنهج

¹ سورة المائدة، الآية 48

² معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني ص 65

³ المصدر السابق، ص 68

يهدف إلى كشف السنن والقوانين الكونية والاجتماعية، وسنن الخلق وقواعد العناية ونظم الإبداع.¹

ومن الأسباب التي دعت طه جابر العلواني إلى استخلاص منهج متكامل من القرآن، هو فساد المنهج الغربي وغياب الشق الإنساني الكوني فيه؛ فهو منهج يعاني من أزمات خانقة جعلته منقطع عن القيمة والدين والأخلاق، كما أنه منهج مادي محض لا مجال فيه للتصورات الغيبية.

إن المنهج الوضعي الغربي -حسب العلواني- لا يمكن أن يحقق إصلاحاً، ولا مخرج منه إلا بتأسيس منهج مستقل ينطلق من القرآن ويؤسس على العلم الذي علمه العليم الحكيم، فيكون مورد اليقين.²

إلا أن بناء المنهج المعرفي الإسلامي عند العلواني ينطلق من الكشف المعرفي وليس من مخالفة المنهج الغربي، بل القصد منه هو تحقيق التناغم بين مكونات النسق المعرفي الإسلامي بمعزل عن فكر المقارنات والمقاربات والمقابلات والتقليد والتلفيق، وكذلك إيجاد القدرة لذلك العقل المسلم على الإبداع والاجتهاد.³

والتساؤل المطروح هنا هو: ما هي إذا الأهداف والمرامي التي يروم هذا المنهج المعرفي القرآني تحقيقها؟

يرى العلواني أن المنهجية القرآنية المعرفية بمثابة كليات، وبالتالي فهي صالحة لتحقيق عدة أمور منها:

- 1.. تطوير مناهج العلوم الاجتماعية والطبيعية.
2. تطهير العلوم من أبعادها الوضعية الضيقة التي تقصي البعد الديني.
3. تجاوز فلسفة العلوم الطبيعية بعد استيعاب قانون التفكيك والتفتيت للظواهر ثم تحليلها وإعادة تركيبها لفهم الظواهر من زوايا متعددة.
4. معالجة القضايا التاريخية والمعاصرة للأمة الإسلامية.
5. البناء الحضاري وتجاوز الأزمات الفكرية.⁴

¹ معالم في المنهج القرآني، ص 69، بتصرف

² نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية، ص 68

³ نحو منهجية معرفية قرآنية، طه جابر العلواني، ص 232

⁴ انظر: معالم في المنهج القرآني، ص 80 و نحو منهجية معرفية قرآنية، ص 231، بتصرف.

ويبدو أن المنهج المعرفي الذي سعى العلواني إلى تأسيسه يهدف إلى تحقيق أهداف حضارية وعمرانية في المقام الأول، وذلك من خلال ثلاث أبعاد أساسية تتحدد في البعد التعليمي وتطوير مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية والطبيعية ومن هنا برز مشروع أسلمة المعرفة، ثم البعد التراثي بتنقية هذا الأخير من الخرافات والانحرافات التي كبلت الأمة طوال السنين، بالإضافة إلى البعد الفكري الذي يعطي معالجات لقضايا الأمة الإسلامية المعاصرة الكبرى في ضوء التصور الإسلامي.

والمنهج المعرفي عند طه جابر العلواني يقوم على أساسين اثنين:

الأساس الأول: المفاهيم التي تعد لبنات أساسية ومؤسسة للمنهج، فما من عمل منهجي إلا ويحتاج إلى تأصيل المفاهيم ووضوحها.

الأساس الثاني: الإطار المرجعي، ويمثل التصور الإسلامي الكلي للكون والحياة والإنسان، فهو إطار مرجعي للفعل الحضاري، وهذا الإطار ينطلق من توحيد الخالق وتحقيق العبودية له، وهو إطار ناظم للمفاهيم بحيث يعمل على تشكيلها وتشغيلها بشكل يحقق المقاصد المعرفية.¹

ويذهب العلواني إلى أن البحث في المنهج يحتم علينا فهم ثلاثة مفاهيم أساسية تشكل البنية الداخلية له، وقد تحدت هذه المفاهيم في أمور وهي: فقه الواقع وفقه النص وفقه الزمن، فهذه العلاقة الجدلية بين النص والواقع والزمن هي التي تمكننا من فهم المنهج وطريقة عمله، فلا حديث عن المنهج في ظل غياب هذه الأركان الأساسية.

وهذه المفاهيم الثلاث في نظر طه جابر العلواني كفيلة بتحديد الفهم السليم للمنهج الذي يدعو إلى تحكيمه في النسق الفكري الإسلامي المعاصر.

أولاً: الواقع

إن فهم الواقع مسألة جد ضرورية لكل مشتغل في مجال الفكر والتنظير، فالفقيه يجب عليه فهم الواقع لكي يكون صائباً في حكمه، والقاضي يجب عليه أن يفهم الواقع لكي يصدر حكماً عادلاً، والمصلح يتحتم عليه إدراك الواقع جيداً لكي يشخص المرض ويصف العلاج، فكل عامل في أي مجال كان يجب عليه هذا الفهم لكي يكون عمله ذا جدوى.

¹ انظر: إصلاح الفكر الإسلامي، طه جابر العلواني، ص 114، و نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية و الشرعية، ص 70-71، بتصرف

وفي عصورنا هذه تأكد الاهتمام بالواقع وضرورة فقهِه لا في مجال الأحكام وحدها؛ بل في سائر المجالات السياسية والاجتماعية إضافة إلى الشريعة والقانون؛ بل كاد فقهِه الواقع أن يتحول إلى علم كامل يبحث في الشؤون الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.¹

ومن هذا المنطلق؛ يرى العلواني أن فقهِه الواقع ينبغي إدراجه كفرع من فروع علم أصول الفقهِه في بناءه الجديد، وعلل هذا بأن الواقع وفقهِه ضروري لأي تنظيم أو تخطيط أو تشريع أو تفعيل في الحياة.

ويوضح طه جابر العلواني معنى الواقع بقوله: "إن فقهِه الواقع عندنا يمثل فقهِه الفقهِه ونفضل أن يبقى جزءاً من المنهج متصلاً به يأخذ منه ويعطيه لكي يتكاملاً. وحينما نقول الواقع؛ فإننا نعني به ذلك المؤلف المزيج المركب من كل شيء أو شأن ذي علاقة بنا من وقائع طبيعية، وظواهر إنسانية واجتماعية ودينية ومؤثرات حضارية وبيئية وتاريخية وفلسفية تحيط بنا، فتشكل أفكارنا أو تؤثر فيها وتتأثر بها."²

نفهم من هذا أن فقهِه الواقع هو أول أداة في المنهج التي من خلالها سنتمكن من فهم ما يدور حولنا، وهذه المسألة في غاية الأهمية، فالذي يتجاهل الواقع سيعيش خارج التاريخ وسيغرد خارج السرب، ولن تكون لأفكاره منفعة ولا لأعماله جدوى مادامت متناقضة مع واقعه وبعيدة عن تحدياته ومشكلاته.

إن فقهِه الواقع ضرورة لا محيد عنها في نظر العلواني في سياق بناء منهج معرفي قائم بذاته ينطلق من الأصول الكبرى لكي يصل إلى فهم دقيق للحالة الإسلامية المعاصرة.

ثانياً: الزمن

أما المفهوم الثاني المُشكل للمنهج فهو الزمن، وهو حسب العلواني خطوة أساسية لفهم الواقع، وما من شك أن الإنسان يعيش في الدنيا داخل زمن محدد يحكمه ووفق نظام كوني مطرد لا محيد عنه.

وفي هذا الصدد، يذهب العلواني إلى أن مفهوم الزمن قد تلبس بخرافات وانحرافات كبيرة ساهمت في عدم الوقوف على حقيقته، لذلك جاء الأنبياء والرسل بغرض تصحيح هذه

¹ مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية، طه جابر العلواني ومنى أبو الفضل، ص 8

² معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، ص 96

الأخطاء والزلات، وتقديم مفهوم بديل عن الانحراف الواقع والذي نشأ من خلال عدة فلسفات وثنية قديمة كالقول بتناسخ الأرواح وبعض الإسرائيليات في التوراة.¹

وقد أعطى القرآن الكريم مفهوماً دقيقاً للزمن فهو أقسام كالدهر والأبد والأجل والوقت واليوم والسنة والشهر والساعة، وربط العبادات والوقائع بما يناسبها من تلك الأجزاء، كما ذكر الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، والنور والظلام. وبين الحكمة في كل تلك المخلوقات: فالشمس والقمر خلقا، وحركا بطريقة التي يتحركان بها لنعلم عدد السنين والحساب، وخلق النهار منيراً مشرقاً لتتمكنوا من السعي فيه، وجعل الليل مظلماً لتسكنوا فيه. وربط منظومة العبادات بتلك الأقسام الزمانية ربطاً وثيقاً محكماً حتى يجعل ذلك -كله- من المسلم المتدبر لتلك الظواهر إنساناً ذا وعي عميق بالزمن وأهميته، وكيفية توظيفه ليكون قادراً على الوعي العمراني، والتخطيط والبناء الحضاري.²

يتضح أن الزمن عامل مهم من عوامل فهم الواقع، وذلك أنه يطلعنا على سير الكون وطريقة عمله، وبالتالي يتمكن الإنسان من فهم الزمن وتقلباته وقواعده، كما أن الوعي بالزمن يمكن الأمة الإسلامية من فهم مسارها التاريخي ولحظات صعودها وأفولها. لذلك نجد أن التصور القرآني يربط الفعل التعبدية دائماً بالزمن، فالصلوات الخمس مرتبطة بمواقيت محددة وصيام رمضان مرتبط بحركة الشهور القمرية، وهذا يحيلنا إلى ضرورة فهم هذا الزمن وفهم مرتكزاته وتحولاته.

ثالثاً: النص

مفهوم النص هو أحد أعمدة المنهج في فكر طه جابر العلواني، وذلك أن الفكر الإسلامي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنص الشرعي، فلا يمكن أن نتكلم عن منهج بدون نص؛ لأنه حاكم لحياة المسلم ومؤطر لها وبالتالي لا يمكننا تجاوزه أو القفز عليه، وذلك أن النص الشرعي هو محور التشريع والاعتقاد في الإسلام.

يقصد العلواني بمفهوم النص القرآن المجيد أصالة ثم السنة النبوية من حيث هي مكملته له ومبينة له، ويعمل هذا بأن البيان في القرآن الكريم كامل لا بد من إدراك جوانبه المختلفة، التي ليس فيها غموض أو التباس.³

¹ مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية، ص 49، بتصرف

² المصدر السابق، ص 35

³ مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية، ص 31

لذلك نجده يقول عند تعريفه للوحي: "هو كتاب الله الذي أنزله على قلب عبده ورسوله ونبيه المفتتح بسورة الفاتحة و المختتم بسورة الناس، في حين أن بقية ما صدر عن رسول الله من أقوال وأفعال و تقارير يتفق الجميع بأنها صدرت عن اعتبارات مختلفة، ففي أفعاله ما هو جبلي طبيعي وما هو تطبيق للقرآن الكريم وتوجيهاته وما هو صادر وفقاً للوظائف التي كان يؤديها من إمامة وقضاء وإفتاء وتعليم و توجيه وتشريع، ولاشك أن بعض ذلك يعد من قبيل النسبي المرتبط ببيئته عليه الصلاة و السلام وبعضه يعد في دائرة الخصوصية له و لبعض الأصحاب، وبعضه تشريع مطلق دائر حول القرآن ويستمد إطلاقيته منه."¹

والنص الشرعي كمفهوم يندرج تحت مسمى الوحي؛ فهو المعبر عنه والمفصح عن حقيقته وماهيته، ومن هذا فالقرآن الكريم عند العلواني يأخذ مركزية كبيرة في مقابل السنة، وذلك لقطعيته في الثبوت والدلالة، أما السنة فيميز فيها بين ما كان وحياً فيقوم مقام النص، وما كان غير ذلك فيخرج عنه.

وبهذا فالقرآن الكريم هو الناظم والمؤطر للمنهج، وهو حسب العلواني يمثل النص الذي يشكل جزءاً مهماً من المنهج عنده، ومادام النص يضم حمولات معرفية وأحكام عملية فهو مؤثر في الواقع وفاعل في الزمن.

فالنص في فلسفة العلواني يستمد شرعيته أساساً من القرآن الكريم باعتباره مصدراً منشأً للأحكام، لهذا سعى بحثه في المنهج ب "المعري القرآني" أي أنه منهج مستمد من النص القرآني ومعتمد عليه في الفكر والممارسة، وهذا لا يعني إنكار السنة بل هي في نظره تدرس في ضوء القرآن باعتباره مهيمناً ومؤسساً للفكر الإسلامي.

وفي هذا السياق يؤكد العلواني في خضم حديثه عن النص على ضرورة التمييز بين النص الموحى والنص البشري؛ الذي تجلى في مدونات ومخطوطات ومؤلفات ومحفوظات تهيمن عليها صفة النسبية البشرية.²

¹ إشكالية التعامل مع السنة النبوية، طه جابر فياض العلواني، ص 137، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط1، 1435هـ/2014م

² نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية و الشرعية، طه جابر العلواني و منى أبو الفضل، ص 42 . 43.

وهذا الكلام يبين لنا آلية منهجية مهمة وهي التفريق بين المقدس الذي يعبر عن الوحي ويكتسي صفة المطلق، وبين الزماني أو التاريخي الذي يتصف بالنسبية وقابل للخطأ والتخطيء، فالخلط بينهما قد يحدث غبش في التصور وخللا في الفهم.

المنهج المعرفي التوحيدي عند العلواني:

إن المنهج التوحيدي في المشروع الفكري للعلواني، ينطلق من مركزية الخالق، ومن تصور عام للحقيقة، بما فيها الدنيا والحياة والتاريخ، والتوحيد يوضح حدود وأبعاد الدور الإنساني في الكون والحياة، وفي الوقت نفسه يحقق قدرة كبيرة على صياغة المفاهيم الضرورية لبناء فاعلية الإنسان، وتشكيل دافعية العمران والتسامي فيه، وإيجاد المنطلقات المعرفية والثقافية السليمة لدى الإنسان.¹

وتتمثل أهمية التوحيد بالنسبة للمعرفة عند العلواني في أن المعرفة سيعاد صياغة مبادئها في ضوء المبادئ التالية:

المبدأ الأول: يتعلق بوحدة المعرفة والصورة التي تظهر عليها المعرفة، فالمعرفة في جوهرها واحدة، لأن الحقيقة واحدة، ولكنها غالبا ما تظهر في مجالات وحقول معرفية وفروع، فهناك مثلا: علم السياسة، وعلم الاجتماع، وعلم التربية، وعلم الفيزياء، وكل هذه حقول، وهذه المجالات المعرفية تكونت بسبب أن المعرفة تتعلق بظاهرة أو حقيقة، وهذه الظاهرة أو الحقيقة الواحدة لها جوانب مختلفة؛ طبيعية واجتماعية ونفسية، وأن دراسة هذه الجوانب تقتضي مثل هذه التقسيمات الإجرائية.

فما قد نراه من العلوم والمعارف المستقلة في الظاهر بعضها عن بعض، ليس في الواقع إلا أجزاء وأعضاء مترابطة... فهي في الحقيقة ليست... مستقلة عن بعض، حتى إنه بوسع كل من أراد أن يتجه إلى واحد منها بالدراسة والاختصاص دون أن يعبأ بالعلوم الأخرى. بل إن بينها من التمازج والتداخل ما يجعل الباحث لا يحيط علما بأي منها إلا بمقدار ما يبصره المجموع الكلي للهيكل الكوني الشامل.

والمبدأ الثاني، يقول إن وحدة المعرفة تعني بترجمة مبادئ التوحيد في المجال المعرفي، إذ يناط بها تحويل التوحيد من مجرد علاقة تصورية لثنائية عالي الخالق والمخلوق، إلى محتوى معرفي يصل الإنسان بربه. فمبدأ الثنائية في نظام الخلق والتكوين (كمثل: عالي

¹ التوحيد، التزكية والعمران، طه جابر العلواني، ص 65 بيروت: دار الهادي، ط1، 2003م

الغيب والشهادة، والروح والجسم والعقل والقلب)، اقتضى أن تستمد المعرفة من مصدرين مختلفين هما: الوحي الإلهي، وعالم الخلق.

غير أن هذه الثنائية في مصادر المعرفة ليست ثنائية تضاد، وبمقدور الإنسان تصور الوحدة الكلية التي تعكسها وإحداث تكامل بين طرفيها، وذلك عن طريق تعقله للوحي واكتشافه لسنن الخلق بشرط انقياده لأمر الله سبحانه. فبدون هذا الانقياد ستظل الأهواء النفسية متحكمة في النظر العقلي على نحو يقضي الحقيقة إذ لم تأت وفقا لتمنيات تلك الأهواء.

أما المبدأ الثالث، فيتعلق بالغاية من اكتساب المعرفة، التي تفسح مجالا واسعا لربط المعرفة بالأخلاق، في إطار التفاضل القائم، بين القيم الأخلاقية والقيم النفعية. والمبدأ الرابع، يتعلق بتطبيقات المعرفة وانعكاسات العلم على السلوك الإنساني، بحيث لا ينظر للمعرفة فقط من زوايا الإدراك الحرفي المهمي البحث الذي يحصر المعرفة في حدود التخصص الضيقة، فيتم استيعاب المعرفة الإنسانية ضمن مهام الاستخلاف والأمانة¹ ويتضح مما سبق أن المنهج المعرفي التوحيدي يجعل من المعرفة الإنسانية علوما أخلاقية غائية قيمة متكاملة مع بعضها البعض من جهة، ومتجاوزة للنظرة المادية والنفعية من جهة أخرى، وذلك باعتبار أن الحقيقة واحدة التي تتجلى في عمارة الأرض واستخلاف الإنسان.

المبحث الثالث: دور المنهج المعرفي التوحيدي في البناء الحضاري

كان للمنهج في لحظته التأسيسية الكبرى دور كبير في إحداث قفزة نوعية على المستوى العلمي والمعرفي، فقد رأينا تطوره في الفكر الإسلامي خلال عصره الذهبي؛ حيث ساهم في تطوير السقف المعرفي وانفتاح المسلمين على علوم أخرى مكنتهم من تشييد حضارة لها مكانتها تاريخيا.

خلال هذا المبحث سنسلط الضوء على العلاقة بين المنهج المعرفي التوحيدي وبين الحضارة في فكر العلواني، ومن هنا يتحتم طرح مجموعة من الأسئلة: هل نحتاج إلى المنهج للقيام بهضة حضارية في العصر الحاضر؟ وأي منهج يخول لنا ذلك؟ هل هي مناهج الفكر

¹ الجمع بين القراءتين والمنهج التوحيدي للمعرفة. قراءة في المتن الفكري لطفه جابر العلواني، محمد الناصري، موقع الرابطة المحمدية للعلماء

الإسلامي القديم أم نحتاج إلى تجديد منهجي؟ وما هو التصور الذي يطرحه طه جابر العلواني للخروج من الأزمة الحضارية؟

في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي برز في العالم الإسلامي الوعي بقضية التخلف الحضاري وتفوق الغرب علمياً وفكرياً وصناعياً، مما كرس هيمنة غربية شاملة على مستوى الفكر والمنهج والمعرفة والثقافة بل وحتى أسلوب العيش، وعلى إثر هذه الصدمة ظهرت مجموعة من الحركات الإصلاحية التي تسعى إلى الإجابة على سؤال: لماذا تقدم الفكر الغربي وتخلف الفكر الإسلامي؟

يعتبر طه جابر العلواني امتداداً للإصلاحيين في العالم الإسلامي، وقد خصص جزءاً كبيراً من مشروعه الفكري لتسليط الضوء على فكر النهضة والتقدم، ويعتبر المنهج والمنهجية النقطة المركزية التي انطلق منها في بلورة فكر قادر على مسابقة العصر والإجابة على إشكالاته الكبرى في المجالات المختلفة.

إن أهمية المنهج ظهرت تاريخياً في محطات مختلفة سواء في الفكر الإسلامي أو في الفكر الغربي، فهذا الأخير لم يتمكن من تشييد حضارته إلا بعد مراجعة المنهج وتطوير المناهج، كما أن الفكر الإسلامي لم يكن ليبنى حضارته في القرون السالفة بدون منهج، ومن هنا يتضح أهمية المنهج وضرورة تطويره ومراجعته.

لقد طرح هذا الاحتكاك الحضاري العنيف بين الإسلام والغرب في القرنين الأخيرين - على العقل المسلم ضرورة "النهضة" كطوق نجاة من المأزق الحضاري الذي يمثل (الجمود والتقليد و التخلف الموروث) عن عصور التراجع الحضاري أحد جناحيه، بينما تمثل (التبعية والتقليد للنموذج الغربي) جناحه الآخر، ومن هنا أصبحت قضية النهضة المنشودة، ومعالم مشروعه الحضاري، هي محور الاتفاق وبؤرة الاختلاف ومجال التخالف وميدان الصراع بين كل تيارات الفكر في وطن العروبة والإسلام.¹

والذي يظهر أن سؤال التقدم والنهضة أخذ مركزية كبيرة في الفكر الإسلامي خلال مطلع القرن التاسع عشر والعشرين، وبهذا اختلفت المقاربات التي بلورها المفكرون والمصلحون بغرض الإجابة عن هذا السؤال الجوهرى وإعطاء حلول تساعد على تغيير واقع المسلمين والعروج بهم في سلم الارتقاء العمراني.

¹ فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي، أحمد محمد جاد عبد الرزاق، ص 16، ط 1، 1416هـ/1995م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

ويرى طه جابر العلواني أن الأمة الإسلامية في تعاملها مع الفكر الغربي والمعرفة الغربية قد مرت بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة الصدمة والانهار المباشر، وهي مرحلة الزلزال وفقدان الثقة في فكرهم الإسلامي وثقافتهم الموروثة، وتصوروا أن بناء الحضارة من خلال الإسلام أمر متعذر، فوضع الإسلام كله في قفص الإتهام، وأصبح الفرد المسلم منهزماً نفسياً مهيناً تماماً لإستقبال البديل الغربي في الفكر والثقافة والعلم والمعرفة والأدب دون تحفظ.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة ما بعد الانهار، حيث استقرت النفوس، فشاعت هنا أفكار الموازنة والمقاربة والبحث عن وجوه الالتقاء بين الإسلام والثقافة الغربية، فبدأنا نقرأ في تلك الفترة عن ديمقراطية الإسلام، واشتراكية الإسلام، وحقوق المرأة في الإسلام، وحقوق الإنسان في الإسلام مما يدل على اجتياز مرحلة الانهار والدخول لمرحلة المواجهة.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الصحوة الإسلامية أو الوعي بالذات، وشهدت التأكيد على مزايا الإسلام وخصائصه وتفوقه فكراً وثقافة وعقيدة ومنهجاً ونظماً، بل بدأ في هذه المرحلة اكتشاف ثغرات كبرى في ثقافة الغرب نفسه، وبدأ يدرك كثيرون أن النظم و المناهج الغربية لم تعد صالحة لنا لبناء نهضتنا وحضارتنا، وأصبح التحدي قائماً على إيجاد بديل إسلامي صالح.¹

يتضح أن الفكر الإسلامي في مقابلته للفكر الغربي قد مر بثلاث مراحل رئيسية تتمثل في الصدمة والانهار، ثم مرحلة الموازنة والتوفيق، ثم مرحلة الصحوة، ومن هنا يرى العلواني أن المرحلة التي نعيش فيها الآن هي مرحلة إيجاد البديل بعد الفشل في التقليد واستيراد النموذج الغربي، وفشل منهج التوفيق والمقاربة، والبديل هو الذي يتخذ من التصور الإسلامي منطلقاً مع وجود فعالية على مستوى الواقع.

ومن هنا يذهب العلواني إلى ضرورة تقديم بديل إسلامي لكل ما قدمه الغرب سواء في السياسة أم في الاقتصاد أم في الفكر أم في التربية، فنحن تجاوزنا مرحلة القول بصلاحيّة الإسلام لكل زمان ومكان كما تجاوزنا مرحلة الموازنات بين الإسلام وغيره.²

¹ الأزمة الفكرية المعاصرة، طه جابر العلواني، ص 19

² المصدر السابق، ص 23

ويأتي طرح البدائل في سياق يمكن من مجانبة نوعين من الأزمات هما: التغريب والماضوية، بحيث أن طرح البديل يأتي بمشروع يساير منطق العصر وغير منقطع عن جذوره الأصيلة.

أسباب التخلف الحضاري من منظور طه جابر العلواني:

يذهب طه جابر العلواني إلى أن سبب الانحطاط الحضاري الذي تعيش فيه الأمة يرجع بالأساس إلى الأزمة الفكرية واختلال المنهج المعرفي لديها، وهذه الأزمة الفكرية ضاربة في جذور الفكر الإسلامي منذ نشأته، فهناك قضايا قديمة أترث بشكل بالغ على فعالية الأمة وأجهضت تطورها.

يقول العلواني موضحاً ذلك: "لقد ضمرت الشخصية الإسلامية منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي، فأضحى العالم الإسلامي كله مقتلع النوافذ والأبواب في وجه الفكر الغربي، والمنهج الغربي، والثقافة الغربية، والعلم الغربي، ومن هنا تعرض العالم الإسلامي لاستلاب فكري وثقافي هائل انتهى بأن أصبحت كل معارفنا النظرية غريبة مائة بالمائة أو موضوعة في قالب غربي، شمل ذلك الفكر والمنهج والمصدر والفلسفة المعرفية".¹

ويرى العلواني أن الأمة كانت ولا زالت تعاني من معضلات فكرية تاريخية تركت أسوأ الآثار على كيان الأمة، ويتجلى ذلك في أمور منها:

1. / قضية العقل والنقل : وهي من المعضلات الكبرى التي فرقت الأمة وشتت شملها، فبرز فريق تمسك بالنص وحارب العقل، وفريق أشاد بالعقل في مواجهة النص، وهذه من القضايا التي تحتاج إلى مراجعة وعلاج فعال.

2. / قضية التأويل : وخاصة فيما يتعلق بصفات البارئ عزوجل وتأويل المتشابهات بالنصوص وماجره من مشاكل عقدية وجدالات عقيمة.

3. / قضية الجبر و الاختيار : وهي قضية لا بد من معالجتها بمنهجية محكمة، لأن آثارها وخيمة على فعالية الأمة.

4. / قضية التقليد والاجتهاد: وهي من القضايا التي تحتاج إلى معالجة؛ لأنها تركت آثاراً تربوية خطيرة في حياة الأمة.²

¹ الأزمة الفكرية المعاصرة، طه جابر العلواني، ص 13

² المصدر السابق، ص 33-38، بتصرف

ويتضح من خلال هذه الأمور التي ذكرها العلواني أنها تشتت في كونها مباحث عقدية صرفة، ومن هنا فالأزمة كانت فكرية منذ القدم؛ حيث ساهمت هذه القضايا في خلق صراعات بين الفرق الإسلامية مما كرس التفرقة وتشتت الكلمة، وهذا الأمر حسب العلواني أثر تأثيراً بليغاً في الأمة إلى يومنا هذا، حيث لازالت هذه الأمور محل نقاش لم يحسم بعد.

وحسب ما طرحه العلواني فإن أزمة الفكر الإسلامي من الناحية الحضارية راجعة بالأساس إلى أزمة الفكر وأزمة المنهج، وغياب هذين الأمرين جعل النظر اتجاه التراث يتسم بطابع العشوائية، مما أدى إلى تكرار هذه المعضلات الفكرية واجترار النكسات التاريخية.

وفي هذا الصدد يقول العلواني: "أزمة الفكر التي نعيشها أزمة حقيقية موجودة في جانب المصادر والمنهج، جانب القضايا الأساسية التاريخية التي أحدثت أسوأ الآثار السلبية في عقولنا ونفسياتنا وفي طريقة تفكيرنا، والتي أحبطت محاولات الإصلاح في تاريخ هذه الأمة"¹

فالتخلف الحضاري من منظور طه جابر العلواني يرجع إلى عاملين أساسيين هما:
-الفكر: الذي انحرف عن مساره وانشغل بقضايا كلامية وجدلية عمقت من جراح الأمة وأشغلت بال العلماء والمفكرين بمسائل لا أثر لها في الواقع.

-المنهج: الذي اكتسب ضبابية فلم يتم تحديد منهج واضح المعالم يُلم شتات المسلمين ويجمعهم على الكتاب المنزل وهو القرآن الكريم.

إلى جانب هذا يرفض العلواني الفكر الماضوي؛ فيقول: (أما التوجهات الماضوية فهي توجهات سلبية تستلب الإنسان من حاضره، وتلقيه في أحضان ماض لا يستطيع العيش فيه إلا بخياله، تمثل هروباً إلى الماضي وتقدماً إلى الوراء للاستمتاع بمشاعر الفصام عن الواقع الفاسد فقط، ولا تشكل لدى متبنيها دوافع تمكن من تحقيق أي فعل حضاري.²

وفي هذا دعوة مبطنة إلى التجديد والاجتهاد، وهما أمران مشروعان لمسيرة العصر وإيجاد الحلول للمشاكل التي تعترض الفكر الإسلامي المعاصر، وهذا الانتقاد الذي وجهه العلواني إلى الماضوية يبين أزمة هذا التوجه في العجز عن مجابهة الواقع وتحدياته وتعطيله لحركة الفعالية لدى الأمة الإسلامية.

يحدد العلواني أسباب التخلف الحضاري في مصطلح مهم وهو "الأزمة الفكرية" وقد كتب في هذا دراسات مستقلة حاول من خلالها استجلاء مكامن الخلل في العقل المسلم، وهذه

¹ المصدر السابق، ص 42

² الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، طه جابر العلواني، ص 201

الأزمة في الفكر حسب العلواني لها مظاهر موروثية من السلف، والتي ساهمت في تكريس هذه الأزمة وتضخيمها.

ويعتبر طه جابر العلواني أن علم الكلام يعد جزءاً من الأزمة الفكرية، فقد وضع في أول الأمر ليكون حلاً من عملية الإصلاح الفكري والعقدي، ولتمكين الخطاب الإسلامي من أدوات الدفاع والإقناع، ولكن تعامل عقلية الأزمة حوله عن قصده وغايته، وجعله جزءاً من الأزمة لا من الحل.¹

ويضيف قائلاً: "علم الكلام خرج عن مقصده الأساس إلى أداة للاقتتال بين المسلمين، وتحول لخطاب معاكس ومناقض لغايات الخطاب الإسلامي ومقاصده، فصار وسيلة للفرقة وعامل من عوامل تغذية الفتن داخل الصف الإسلامي بتكريس الفرقة والتعصب للمذاهب الكلامية."²

يتبين هنا أن العلواني يرفض الاتجاه الكلامي الذي يخوض في جدالات عقيمة لا تقدم أي حلول لأزمات الفكر الإسلامي المعاصر، فقد كانت بداية هذا العلم محمودودة وجيدة في دحض شبهات المخالفين والمناوئين، لكنه مع الزمن تحول إلى اتجاه صراعي خصوصاً مع ظهور صراعات تاريخية كمشكلة "خلق القرآن" التي دارت بين المعتزلة والحنابلة وتركت آثار سلبية في جسد الأمة.

ومن هذا المنطلق اعتبر العلواني علم الكلام بصيغته هاته خارجاً عن مقصده ومستنفذاً لأغراضه، فهو جزء من الأزمة الفكرية التي يجب أن نجد لها حلاً لا أن نراكم لها مشاكل فوقها، وهذا في نظر العلواني هو الذي دفع بالعلماء المتقدمين إلى نقده ورفضه.

ومن علامات الأزمة الفكرية عند العلواني تحويل أقوال الفقهاء إلى شريعة بجانب الشريعة، فيصبح الفقه البشري هو الشريعة، ويكون هذا انطلاقاً من الكم الهائل من الأقوال والفتاوي والشروح والتعليقات والحواشي والآراء الشخصية سواء أعلقت بوقائع خاصة أم عامة، فيتحوّل الإنتاج البشري إلى شرع لازم في كل مكان وزمان، يُتبع أصحابه ويُقلد قائلوه على الرغم من تنوع الحوادث وتجدها الدائم المستمر.³

¹ إصلاح الفكر الإسلامي، طه جابر العلواني، ص 68

² المصدر نفسه، ص 69، بتصرف.

³ المصدر السابق، ص 70

يُنْبَه طه جابر العلواني هنا على مسألة جوهرية؛ تكمن في عدم التفريق بين المقدس الذي يتمثل في الوحي الرباني قرآنًا وسنةً وبين التاريخي أو الاجتهادات البشرية التي تتمثل في إنتاجات العلماء عبر العصور، فهذا التداخل الحاصل بين الأمرين جعل الفكر الإسلامي يعيش أزمة كبيرة وجمود عند أقوال السابقين وتقديس لها، مما أدى إلى بزوغ التقليد والتبعية وخمود الإبداع والاجتهاد.

وملامح الأزمة الفكرية عند العلواني ظهرت من خلال ثلاثة أبعاد، البعد العقدي الذي تجلى في علم الكلام وخروجه عن مقصده وتكريسه لأزمة الجدل بدل العمل والإنتاج، والبعد المنهجي الذي ظهر في الخلط بين الفكر البشري والفكر الإلهي وتعطيل آلية الاجتهاد، ثم البعد العملي الذي كان مدخلاً لمجموعة من الانحرافات السلوكية والفكرية.

سبل النهوض من منظور طه جابر العلواني:

بعد أن تعرضنا لأهم الأسباب التي كانت وراء التخلف الحضاري للفكر الإسلامي، والتي تتحدد في الأزمة الفكرية وإشكالية المنهج، سننتقل للحديث عن الحلول التي يقترحها طه جابر العلواني كمنهج لهذه الأزمة الحضارية التي لازالت تلقي بظلالها على الأمة الإسلامية إلى اليوم.

ينطلق العلواني من فكرة مهمة جداً، وهي أن الاستقراء التاريخي والواقع يؤكدان على أن أية محاولة للنهوض والتجديد من الخارج الإسلامي بالنسبة لأممتنا مصيرها الإخفاق والفشل.¹

وبهذا يرفض العلواني أي تجديد ينطلق من مرجعيات مناقضة للتصور الإسلامي في المعرفة والوجود، فهذه التوجهات العلمانية والماركسية والحدائية لن تحقق أية نهضة لكونها لا تنطلق من تطلعات الأمة الإسلامية، كما أنها تحاول الإصلاح عن طريق التخلص من الدين الذي يشكل مركزية كبيرة في الفكر الإسلامي.

وهذا الكلام تعضده شواهد تاريخية منها أن الفكر الإسلامي تمكن من بناء حضارة دامت لقرون بوجود الدين، وهذا المعطى يكاد ينعدم في التجربة النهضوية الغربية مع الدين المسيحي، فهذه الأخيرة قامت على هدم الدين لكونه عائقاً للنهضة والتقدم لا مساعداً على التطور والازدهار.

¹ إصلاح الفكر الإسلامي، ص 52

ويرى العلواني أن التخلص من الأزمة الحضارية يكون بالتخلي عن مجموعة من السلبيات، والأخذ بأسباب التغيير الإيجابية، وهنا يطرح العقلانية الإسلامية سبباً للخروج، فهذه الأخيرة استطاع بها الرعيل الأول القفز بهذه الأمة إلى مواقع القيادة البشرية.¹

يرى العلواني أن الخطاب الإسلامي يحتاج للخروج من أزمتة الحضارية من خلال تجاوز جملة من العوائق التي تكبل انطلاقه، أهمها مايلي:

1./الخلط بين العقيدة والفكر: العقيدة وهي إلهي محدد الأركان، ثابت الحدود و المعالم، والفكر اجتهاد بشري محض، يحتمل الخطأ والصواب، له حقيقته ومنطقاته وأدواته ووسائله، والفكر البشري ثمرة لتعامل العقل مع الوحي.

2./الاعتقاد بأن المعرفة لا دين لها: وهي الإيمان بأن المعرفة تتدين بدين حاملها ولو لم ينتجها، فتتبعه في دينه ومذهبه بقطع النظر عن فلسفتها ومنطقاتها وغاياتها، فهذه مقولة خاطئة، فالمعرفة ثمرة لفلسفة وتصور وعقيدة ورؤية كلية.

3./حصر العلاج في إضافة حصص المواد الإسلامية: يعتقد البعض أن البناء المعرفي والثقافي، إنما يتحقق بزيادة حصص تلاوة القرآن وتدريس الفقه، وحفظ بعض الأناشيد الإسلامية في المراحل الابتدائية و الإعدادية دون ترجمتها إلى أوعية فكرية تسع حياة الأمة وحركتها.

4./الاعتقاد بعالمية الثقافة الغربية المعاصرة: القول بعالمية الثقافة الغربية والاقتران بها، من أخطر نتائج الاستلاب الثقافي، وهذا الاستلاب الفكري من مظاهر الأزمة الفكرية.²

وهذه العوائق في نظر العلواني تعيق أي محاولة للتقدم، لأنها تحتاج إلى المراجعة والوقوف عندها، ويبدو أن هذه العوائق متنوعة فمنها ما أصاب الفكر، ومنها ما أصاب المعرفة، ومنها ما أحدث عطباً في نفسية المسلم؛ حيث جعله خاضعاً للفكر الغربي واعتبره فكراً كونياً، بينما هناك عائق آخر يرى أصحابه أن الكم بدل الكيف هو الذي سيخرج الأمة من أزمتها.

¹ خواطر في الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية، طه جابر العلواني، ص 16

² إصلاح الفكر الإسلامي، طه جابر العلواني، ص 44-50

منطلق التغيير:

ينطلق العلواني من مبدأ أساس هو التغيير الذي يبدأ من النفس مصداقاً لقول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)¹ فالتغيير الاجتماعي شأن جماعي بالدرجة الأولى، فمهما يكن دور الفرد فيه، فإنه مرتبط بقوم أي بمجموع أو بأمة.²

وفي هذا الإطار يذهب العلواني إلى أن منهجية القرآن في التغيير الاجتماعي تقوم على مفهوم التزكية؛ التي من شأنها أن تقوم بتحسين الإنسان من الداخل ضد سائر استعدادات الشر والانحراف فيه، وسائر المؤثرات الخارجية عليه.³

ومفهوم التزكية له قواعد أساسية تشكل بنيانه؛ وهي:

- التوحيد: فهو أهم قاعدة تساعد الإنسان على الاستعلاء بخالقه عما سواه.

- الوحدة البشرية: الإيمان بوحدة البشر في الأصل والمنشأ والمصير والمآل، والمهمة العمرانية، والحقيقة الإنسانية، وتمايزهم إنما هو في أعمالهم الاختيارية فحسب.

- وحدة الحق وثباته : تفرد الباري عزوجل بالإحاطة التامة الكاملة بامتلاك الحق والحقيقة؛ أما الإنسان فعليه أن يطلب الحق ويسعى إليه بالوسائل والمناهج المتاحة لديه وفي مقدمتها المنهجية المعرفية القرآنية، والاستمداد من الكون.

- خلافة الإنسان: تتجلى في علاقة الإنسان مع الكون وتسخيره له، فهو مؤتمن على الوجود كله، وليس من حقه أن يفرط في شيء أو أن يفسد فيه.⁴

يتضح أن هذه الركائز الأربعة تمثل مفهوم التزكية، والذي يعني النماء والتطور، لذلك فهي تنطلق من عقيدة التوحيد باعتبارها حقيقة وجودية خالدة، ثم تسعى إلى بناء الوحدة الإنسانية أو المشترك الإنساني الذي يعمل مع الآخر باعتباره إنساناً ذو نشأة وأصل واحد، بالإضافة إلى وحدة الحق الذي مصدره الإله المطلق لا الإنسان النسبي، وفي هذا تأكيد على وجود الحقيقة التي يجب السعي إليها، كما أن المهمة العمرانية المتمثلة في خلافة الإنسان للأرض هي من أهم ركائز التزكية، فلا يمكن أن يتحقق التمكين للبديل الإسلامي بدون قوة حضارية.

¹ سورة الرعد: الآية 11

² الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، ص 7

³ المصدر نفسه، ص 11

⁴ الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، ص 12

فمفهوم التغيير في فكر العلواني يقتضي الانطلاق من التزكية كمصطلح قرآني أصيل، ومن خلال قواعد التزكية يمكن للفكر الإسلامي أن يحقق ارتقاءً في مسيرته نحو الحضارة والعمران.

العالمية الإسلامية:

إن الخطاب المنهجي الإصلاحي لطله جابر العلواني ينطلق من مفهوم أساسي آخر وهو "العالمية"، حيث يرى أنها خصيصة من خصائص الخطاب الإسلامي؛ فهو خطاب عالمي متجاوز للزمان والمكان، وهذا ما يؤكد كتاب الله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (سورة سبأ: الآية 28)

وصفة العالمية تعني القدرة على استيعاب العالم كله، فيجد الآسيوي حاجته لينتمي إليها كما يجد الإفريقي فيها حاجته، وكذلك الأوروبي والأمريكي، ومن هم في سائر أنحاء العالم.¹

ومن هذا المنطلق، يقرر العلواني حقيقة أساسية وهي: أن كمال الدين وخروجه من جزيرة العرب إلى حوض الحضارات لم يكن ذاتياً أو في إطار استعلاء قومي، بل خرجوا في إطار دفع إلهي، حيث كانت علاقتهم بالرسالة علاقة تكليف وتبن وإيمان لا علاقة إنشاء وتوليد من ذواتهم.²

وهنا يتبين أن العالمية لا تقتضي إخضاع الدين لعرق معين، بل كل الأعراق فيه متساوية، ومن هنا لا يحق لأي كان أن يصبغ الإسلام بصبغته القومية، فهذا يخرجها عن عالميته ويؤدي به إلى خصوصية إقليمية وعرقية تجعله منحصرًا على نفسه.

لذا، فهذا الفعل سينعكس سلباً على هذه الخصيصة، فهي تظهره بأنه دين لا يصلح إلا لمجتمعات قروية ورعوية بسيطة أو لمجتمعات بادية، وهنا مكنم الخطر، فالإسلام دين عالمي منذ انطلاسته الأولى للناس والبدء في تأسيس الدعوة الإسلامية العالمية التي ربطت بين المحيطين الأطلسي والهادي، وبين قارات العالم الثلاث (آسيا، أفريقيا، أوروبا) فدمجت بهذا تلك العالمية الإسلامية بين الحضارات والثقافات والأعراق في إطار إنساني واحد.³

¹ الأئمة الفكرية ومناهج التغيير، ص 33

² الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، طه جابر العلواني، ص 66

³ المصدر نفسه، ص 72، بتصرف

ولتحقيق مفهوم عالمية الرسالة -حسب العلواني-لابد من منهج واضح تكمن أبعاده فيمايلي:

1. /ختم النبوة لابد منها لعالمية الخطاب، وذلك لتوحيد المرجعية، فلا تتعدد النبوات التالية، ويحدث النسخ والتعارض والاختلاف.

2. /لابد من تحرير القرآن من خصوصية بيئة النزول، ولهذا أعيد ترتيب مواقع آيات القرآن، توقيفاً على ידי رسول الله عليه الصلاة والسلام.

3. /لابد من نسخ الشرائع ذات الخصوصيات الحصرية لشعوب وقبائل محددة، وهي شرائع إصر وأغلال، لتبدل بشرائع القرآن التي تتفق مع حاجات المجتمعات العالمية كافة، بحيث تحمل قابلية الشمول والعموم، ولتكون مشتركة وقابلة للتطبيق في كل أنحاء العالم.

4. /لابد من أن تتضمن النصوص اللغوية المحدودة، معاني إطلاقية تُكتشف عبر اكتشاف منهجية القرآن المعرفية، وضمن وحدته العضوية.

وعند الانطلاق من هذه المسلمات العقيدية بوصفها فرضيات علمية موضوعية، تؤكد في ترابطها على عالمية الخطاب الإسلامي، سنكتشف أن قدراً منها من البديهيات، مثل ختم النبوة، وشرعة التخفيف والرحمة، وحاكمة الكتاب المطلق¹.

وطبيعة العالمية الإسلامية أنها عالمية الرحمة لعموم البشر دون تمييز، ويتضح ذلك من:

- إنها عالمية يرى لها الله العليم الخبير على علم منه، لتشمل العالم كله، لأن العالم يفتقر إليها لتجاوز أزماته التي تراكمت نتيجة لفشل النسق الحضاري الغربي.

- إنها القادرة على القضاء على القلق الغربي، وتعديل المسار، والأمة الإسلامية لن تستطيع أن تجد سبيلاً لخلاصها إلا في حمل هذه العالمية وتبنيها.

- إنها عالمية منتظرة وحتمية الوقوع، قد ينهض بها المسلمون، وقد ينهض بها غيرهم إذا تقاعسوا، وعندما نبدأ العمل لها منذ الآن فإننا نكون قد التزمنا بمسؤوليتنا الاستخلافية، ومسؤولية الشهادة على الناس.²

ويرى العلواني هنا أن العالمية الإسلامية تميزت عن عالمية الغرب في نسخته الثلاث (اليونانية-الرومانية-الغربية المعاصرة)، هذه الأخيرة قامت على الغزو واستعباد الآخر في ظل

¹ الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، ص 64 وما بعدها

² نقلا عن: طه جابر العلواني: تجليات التجديد في مشروع الفكر، إبراهيم سليم أبوحليوة، ص 45

مركزية شاملة ترى أفضلية الذات وتهين الآخر، بل وتسعى إلى فرض منظومتها الفكرية بدعوى هاته الأفضلية، بينما جاءت العالمية الإسلامية بخطاب إنساني احتوى الشعوب والأمم تحت ظل الإسلام دون قهرهم أو سلبهم موروثهم الثقافي، وهذا دفع العلواني إلى القول بأن العالمية الإسلامية مدخل من مداخل الإصلاح الحضاري للفكر الإسلامي المعاصر.

لذلك يصف العلواني العالمية الغربية بكونها مركزية شاملة، لم تعد أوروبية أو أمريكية فحسب، كما أنها مركزية وضعية لم تعد القيم الدينية من مبررات عالميتها الحضارية، ثم إن نسقها الحضاري يستند إلى الصراع والاستحواذ بالقوة القاهرة.¹

وخلاصة القول هنا أن الأزمة المعاصرة العالمية ذات بُعدين: البعد الأول يتجلى في أزمة الفكر الإسلامي وتقهره عن الإنتاج والفاعلية داخل عالم اليوم والعيش في الماضي دون إيجاد حلول ناجعة لتحديات العصر، أما البعد الثاني فهو فساد الفكر الغربي بماديته وفصله للدين عن الحياة، مما أفقد العالم المعاصر قيمته ومعناه، ومن هنا طرح طه جابر العلواني مفهوم "العالمية الإسلامية" كأحد الخطوات الأساسية في مشروعه الحضاري البديل.

القيمة الفكرية والحضارية للرؤية التوحيدية لطه جابر العلواني:

يعد مشروع طه جابر العلواني إصلاحا فكريا ومنهجيا في غاية الأهمية داخل حقل الدراسات الإسلامية المعاصرة، فقد ساهم في وضع تصور منضبط ينطلق من القرآن المجيد باعتباره الكتاب المؤسس والمهيمن من جهة، ومن جهة أخرى يعتبر قيمة التوحيد مبدأ مركزيا في حياة المسلم والتي يجب أن تظهر في العلوم الإنسانية والطبيعية فضلا عن العلوم الشرعية.

لقد أعطت الرؤية التوحيدية للمعرفة تصورا واضحا عن مكنم الخلل في الفكر الإسلامي المعاصر، بحيث ساهمت في بروز ما يعرف بإسلامية المعرفة بداية ثم التكامل المعرفي بين العلوم ثانيا مما أعطى تلاقحا بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية والطبيعية. وقد كان تأثير هذا المنهج المعرفي التوحيدي جليا في المدرسة الإسلامية الإصلاحية؛ بحيث أسس لفقه المراجعات الذي لفت الأنظار إلى التدقيق في مجموعة من القضايا التراثية المكرسة للأزمة الفكرية في عقل الإنسان المسلم.

لقد كان طه جابر العلواني سباقا إلى وضع الأصبع على مكنم الداء في الفكر الإسلامي بعد استقرار تام لتاريخه ومحطاته الكبرى، فتوصل إلى المنهج المعرفي التوحيدي

¹ الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، ص 77-78.

واعتبره القاطرة التي ستخرج هذا الفكر من أزماته المتكررة. وقد أسهم هذا المنهج المعرفي التوحيدي في ظهور آلية "الجمع بين القراءتين" التي تؤمن بأن للكون خالقا واحدا ومديرا أوحدًا، ومن هذا المنطلق لا تغفل قراءة الكتاب المسطور إلى جانب الانكباب على قراءة الكون المنظور. وبهذا أسهم المنهج المعرفي التوحيدي في وضع تصور إسلامي واضح للتعامل مع الثورة العلمية الحديثة التي تتجاوز الغيبيات وتغرق في الماديات.

خاتمة:

يعتبر المنهج المعرفي التوحيدي الذي أبدعه طه جابر العلواني بمثابة إضاءة مهمة جدا في معالجة قضايا التخلف الحضاري، وهو إذ لخص المشكلة الكبرى للفكر الإسلامي اليوم في مناهج التفكير يجعل المنهج على رأس أولويات مشروعه، فلا نهضة لأمة من الأمم دون منهج واضح يستمد مشروعيته من التراث ويتجدد مع مرور الزمن. والمنهج الذي دعا إليه العلواني متكامل في أصوله ومنطلقاته وواضح في أهدافه وغاياته، فهو يسعى إلى إرجاع الأمة الإسلامية إلى سكة الحضارة والتقدم من خلال الوقوف على مكمّن أزمتها ومصدر أسقامها.

- وفي ختام هذا البحث لا يفوتني أن أعطي بعض التوصيات في هذا الباب:
- أولا: على المشتغلين في حقل الفكر الإسلامي والعلوم الشرعية إعطاء أهمية بالغة للمشروع المنهجي الذي أبدعه العلواني، فهو بمثابة خطة واضحة المعالم للخروج من ضيق التخلف إلى سعة التقدم الحضاري.
 - ثانيا: إدراك أن المنهج المعرفي التوحيدي هو الإطار المرجعي للفكر الإسلامي، فالغرب لم يصنع حضارته الحالية إلا من خلال مراجعة مناهجه وطرق تفكيره القديمة.
 - ثالثا: العمل على برامج عمل واقعية ملموسة تنطلق من الرؤى المنهجية التي قدمها العلواني في مشروعه الفكري.
 - رابعا: إدماج وحدات خاصة بالمنهج في البرامج الجامعية كفيل بتجاوز مشاكل جمة في طرق التفكير والنظر.
 - خامسا: استثمار مشروع طه جابر العلواني رحمه الله في استكمال رؤية منهجية متكاملة يمكن أن تجابه التحديات المعاصرة.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
1. الأزمة الفكرية المعاصرة، طه جابر العلواني، الطبعة الرابعة، 1414هـ/1994م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
 2. الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، طه جابر العلواني، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
 3. إشكالية التعامل مع السنة النبوية، طه جابر فياض العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1435هـ/2014م
 4. إصلاح الفكر الإسلامي، طه جابر العلواني، ط1 1421هـ/2001م، دار الهادي.
 5. برنامج للتاريخ، د.محمود خليل و د.طه جابر العلواني، على موقع اليوتيوب.
 6. التوحيد، التزكية والعمران، طه جابر العلواني، بيروت: دار الهادي، ط1، 2003م
 7. الجمع بين القراءتين والمنهج التوحيدي للمعرفة. قراءة في المتن الفكري لطف جابر العلواني، محمد الناصري، موقع الرابطة المحمدية للعلماء.
 8. الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، طه جابر العلواني، الطبعة الأولى 1424هـ/2003م
 9. خواطر في الأزمة الفكرية والمآزق الحضاري للأمة الإسلامية، طه جابر العلواني 1409هـ/1989م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
 10. طه جابر العلواني: تجليات التجديد في مشروعه الفكري، سليم أبوحليوة، الطبعة الأولى، بيروت 2011م، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.
 11. العلواني، (مصارع في حلبة التراث)، إسلام أون لاين.نت، مدارك 29\12\2009، حوار:إسلام عبد العزيز.
 12. فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي، أحمد محمد جاد عبد الرزاق، الطبعة الأولى، 1416هـ/1995م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
 13. معالم المشروع الفكري للدكتور طه جابر العلواني، موقع إسلام أون لاين، 26 مارس، 2018م
 14. معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، الطبعة الأولى 1427هـ/2006م،
 15. مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية، طه جابر العلواني ومضى أبو الفضل، نسخة إلكترونية.
 16. نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية، أبو الفضل وطه جابر العلواني، الطبعة الأولى 1430هـ/2009م.
 17. نحو منهجية معرفية قرآنية، طه جابر العلواني، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م

“التكامل المعرفي عند طه جابر العلواني:

مرتكزاته النظرية وتمثلاته الموضوعية وأبعاده الحضارية”

د. عبد النبي الدرداري

أكاديمية فاس مكناس/ المغرب

ملخص:

*يروم البحث الكشف عن الأسس النظرية والشروط الموضوعية لفكرة التكامل المعرفي عند جابر العلواني، وقد ألفتها – بحق - نظرية متكاملة في مفهومها وأركانها وشروطها من شأنها أن تقود العالم الإسلامي وكذا العالم الغربي من الأزمة الفكرية والمعرفية، نحو تحقيق النهضة العلمية والحضارية التي يمكن أن تسهم في فهم الواقع وفك شفراته والإجابة عن كثير من الإشكالات الراهنة محليا وكونيا، إلا أنها مهمة عالمية تحتاج في تنزيلها إلى جهود جماعية مؤسسية كبيرة.

الكلمات المفتاح: - التكامل – المعرفة – الوحي – الكون – العلواني.

“Epistemological Integration in the Thought of Tahar Jaber Al-Alwani:

Theoretical Foundations, Objective Representations, and

Civilizational Dimensions”.

Abstract:

This research aims at exploring the theoretical background and objective conditions of cognitive complementarity as envisaged by Jaber El Alouani. This research considers that this theory, as holistic in its concept, pillars and conditions, can lead both the Western and Islamic world to achieve an intellectual renaissance which helps avoid intellectual crisis, create meaning and answer the current problematic questions locally and globally. But, the implementation of cognitive complementarity requires huge collective and institutionalized efforts

Keywords: complementarity- Knowledge- Revelations- Universe - Jaber El Alouan.

مقدمة:

إن قضية التكامل المعرفي بين الوحي بشقيه قرآنا وسنة، وعلوم الكون وما فيه من عوالم مختلفة - والتي لفت انتباهنا إليها القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾⁽¹⁾ - أضحت من القضايا المطروقة في الساحة العلمية والمحافل الدولية محليا وعالميا، وقد تنادى لها إصلاحيون، مثل محمد عبده، ومحمد إقبال، ومحمد الغزالي، باعتبارها الطريق المعبد لحل كثير من الإشكالات الراهنة في مجالات معرفية متنوعة، سواء في العلوم الطبيعية، أو العلوم الإنسانية، أو الاجتماعية، وكذا العلوم الشرعية التي انحسرت وظائفها المنوطة بها، فأصبحت في منأى كلي أو جزئي عن هموم ومشكلات الواقع والإنسان.

ومن المفكرين المعاصرين الذين كان لهم أثر كبير في تداول هاته الفكرة ومحاولة إنضاجها: الدكتور جابر العلواني رحمه الله، قاصدا بذلك تجديد وإحياء علوم الوحي حتى تتفاعل مع مستجدات العصر، في ضوء مقاصد وفلسفات العلوم كما يقرها القرآن الكريم في أبعادها الإنسانية والكونية والتواصلية دون نزوع نحو هيمنة أو استبداد معين حتى تستعيد الأمة المسلمة عافيتها وكرامتها ودورها في الإصلاح والإعمار، وتتهيأ للنهوض الحضاري حتى تصبح شاهدة على غيرها، وتتمكن من حمل المسؤولية في توجيه البشرية كلها نحو بر الأمان.

وهذه الورقة جاءت تحت المحور الثالث: معالم المنهج التوحيدي للمعرفة والتكامل المعرفي عند العلواني، وانطلقت من إشكالية مفادها: ما معالم فكرة التكامل المعرفي عند جابر العلواني، وما أبعادها الحضارية؟

ويتفرع عن هذا الإشكال عدة أسئلة جزئية وهي: ما المراد بفكرة التكامل المعرفي عند جابر العلواني؟ وما أسسها النظرية وشروطها الموضوعية؟ وما أبعادها الحضارية؟ من خلال هذا الإشكال يمكنني تحقيق الأهداف التالية:

- إدراك أهمية فكرة التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون عند العلواني.
- بيان الأسس النظرية والشروط الموضوعية لفكرة التكامل المعرفي عند العلواني.
- إبراز أبعادها الحضارية محليا وكونيا.

1- سورة العلق، الآيات: 1-5.

وقد عالجت هذا الموضوع وفق منهج الاستقراء لاستنباط الأسس النظرية، والشروط الموضوعية لتحقيق الهدف من هذا المشروع الإصلاحي الكبير، وكذا منهج التحليل والمقارنة لاستخلاص النتائج التي تسهم في الإجابة عن تساؤلات البحث وتحقيق أهدافه.

حاولت الإجابة عن إشكالات هاته الورقة في مبحثين:

المبحث الأول: التكامل المعرفي عند العلواني: مفهومه وأهميته وأسس النظرية:

إن المتتبع لتنظيرات العلواني وتأسيساته المعرفية في التأصيل الإسلامي للمعرفة والتكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون يجد أن الأمر عنده لم يكن مجرد استطرادات، ولا مجرد أفكار متناثرة جاءت نتيجة تداعي المعاني، بل إنه نظرية متكاملة الأركان والشروط يمكن أن تسهم في حل كثير من الإشكالات الراهنة محليا وكونيا، وتسهم في العمران البشري، وفي هذا المبحث سيتم الحديث عن مفهوم التكامل المعرفي وإبراز أسسه عند جابر العلواني من خلال مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم التكامل المعرفي وأهميته عند العلواني: أولاً: مفهوم التكامل المعرفي:

التكامل لغة: قال ابن فارس: الكاف والميم واللام أصل صحيح يدل على تمام الشيء. يقال: كَمَلَ الشيء وكُمُلَ فهو كامل، أي تام⁽¹⁾. وفي لسان العرب: الكمال: التمام، وقيل: التمام الذي تجزأ منه أجزاءه، وتكامل الشيء وأكملته أنا وأكملت الشيء أي أجملته وأتممته، وأكمّله هو واستكملته وكَمَلَه: أتمّه وجَمَلَه⁽²⁾.

فأصل هاته الكلمة يدور حول التمام والجمال، لأن الشيء المكتمل بعد تفرقة يصير حسنا. المعرفة لغة: إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره، وهو أخص من العلم، ويضاده الإنكار⁽³⁾. واصطلاحاً: عرفها الجرجاني بقوله: "إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبقة بجهل بخلاف العلم"⁽¹⁾.

1- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط سنة 1399هـ - 1979م، مادة (كمل).

2- لسان العرب لمحمد ابن منظور، دار صادر - بيروت، ط 3، 1414هـ، مادة (كمل).

3- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط 1، 1412هـ، 1/560.

1- كتاب التعريفات للجرجاني، ط 1، 1403هـ - 1983م، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، 1/221.

وهذا التعريف لم يحدد فيه وسائل الإدراك.

وعرفت منظمة (اليونسكو) باعتبار وسائلها بأنها: "كل معلوم خضع للحس والتجربة"، وقد انتقد العلواني هذا التعريف، لأنه يقوم على مصدر واحد للمعرفة وهو الوجود، لكن المعرفة عند المسلمين تقوم على مصدرين هما: الوحي والوجود، لذا عرفها بقوله: "كل معلوم دل عليه الوحي والحس والتجربة"⁽¹⁾.

والمراد بالتكامل المعرفي: الإلمام بعدة علوم واستخدامها في خدمة بعضها بعضاً قصد الإدراك التام للحقائق، وهذا الإلمام قد يكون من شخص واحد، أو أكثر. ويقصد به العلواني: الجمع بين قراءتين: الوحي والكون قراءة دامجة بحيث لا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر قصد فهم كوني للوجود⁽²⁾.

ثانياً: أهمية التكامل المعرفي:

تتجلى أهمية التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون في ثلاثة أبعاد رئيسية هي: التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية: يراد بالعلوم الشرعية كل ما يحتاجه الشخص في نفسه ومعاملته، من فقه وحديث وتفسير وعقائد، وما تتوقف عليه من أصول الفقه وعلوم اللغة من نحو وصرف وبيان ومعان⁽³⁾.

والعلوم الشرعية بضربيها: الأصلية (علوم الغاية) أو الخادمة لها (علوم الآلة) هي وحدة متكاملة لا تتجزأ ولا تتبع بعض، وإنما يخدم بعضها بعضاً لتحقيق غاية واحدة وهي: الفهم السليم لنصوص الوحي وتنزيلها تنزيلاً صحيحاً في واقع الناس، والعلوم الخادمة لا تقل أهمية عن العلوم الأصلية، لأنه لا يمكن الإفادة من القرآن والسنة إلا بواسطتها.

أما بالنسبة للقرآن والسنة فهما وحدة متكاملة المعنى فلا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر، لأن السنة هي المفسرة للقرآن والمبينة لأحكامه، والتوصل إلى مراد الله لا يتم إلا بالنظر الكلي فيهما.

1- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، دار الهادي، بيروت - لبنان، ط 1، 1424هـ- 2003م، ص: 72.

2- هذا التعريف اقتبسته من خلال كتابه: الجمع بين القراءتين.

3- ينظر: منح الجليل لمحمد عليش، دار الفكر، بيروت، ط 1409هـ- 1989م، 3/ 137.

وأما علوم اللغة بفروعها المختلفة فلها تعلق بالقرآن والسنة تعلق الوسيلة بالغاية، لأن القرآن الكريم نزل بلغة عربية، ومن ثم فلا يمكن فهمه حق فهمه إلا بواسطة هاته اللغة، فهي مفتاح أسرار ومكنوناته⁽¹⁾.

وعلوم القرآن كالعلم بالمكي والمدني وأسباب النزول، تساعد على فهم القرآن وتفسيره تفسيراً صحيحاً، والعلم بالناسخ والمنسوخ يتوصل به إلى معرفة الآيات المنسوخات من الآيات المحكمات حتى لا تختلط الأحكام.

وأما علم أصول الفقه ومقاصد الشريعة فهما السلم الذي نرقى من خلاله إلى استنباط النص الشرعي واستنباط ما فيه من أحكام وحكم، كما يساعدان على إيجاد الأحكام للنوازل والمستجدات التي لم يرد فيها نص بواسطة القياس أو التقدير المصلي.

وإذا تأكدت هاته القضية فلا بد من الإمام بهاته العلوم كلها أصولاً وفروعاً، حتى نخرج من محاضن العلوم الشرعية علماء يمتازون بجودة الفهم وحسن الاستنباط أثناء معالجتهم للقضايا المستجدة داخل هذا المجتمع المتغير.

التكامل المعرفي بين العلوم الكونية: يراد بالعلوم الكونية المعارف التي تعنى بدراسة الظواهر الكونية بما فيها الإنسان وغيره من المخلوقات وواقعه المعيش في بعده النفسي والتربوي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والتاريخي قصد تقديم تفسير معقول لساير الظواهر المؤثرة في توجيه الإنسان وفي تطلعاته، ومعتمداً كل الوسائل والسبل المعنية على إدراك حسن وتقويم الواقع⁽²⁾.

والعلوم الإنسانية محورها الإنسان فرداً ومجتمعاً ودولة، وثقافة الإنسان ونفسيته وعقليته، وكل منها يخدم جانباً من هاته الجوانب قصد توفير الأمن والاستقرار الشامل له في كافة المجالات⁽³⁾، ويندرج تحتها مجموعة من العلوم، أبرزها: علم النفس الذي يعالج الإنسان فرداً، وعلم التاريخ والاجتماع اللذان يعالجان في إطار الجماعة، وعلوم الاقتصاد الذي تضبط نشاطه المعاشي، وعلوم الإدارة التي تستهدف دراسة وتنظيم مؤسساته العامة، وعلوم

1- ينظر: الموافقات للشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط7، 1426هـ-2005م، 2/ 49-50.

2- ينظر: أدوات النظر الاجتهادي المنشود في ضوء الواقع المعاصر، مصطفى سانو، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1421هـ-2000م، ص: 130.

3- ينظر: الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، ص: 84.

السياسة التي تنسق علاقاته العامة والخاصة، وعلوم القانون التي تحمي حقوقه وتنظم واجباته، والآداب والفنون التي تتابع رؤيته الجمالية ونشاطه التعبيري.

فهاته العلوم تتكامل فيما بينها لخدمة الإنسان وتوفير سبل الراحة له على المدى القريب والبعيد، قصد تحقيق الخلافة المنوطة به على أتم وأكمل وجه، ولا يتم ذلك إلا إذا كان الاشتغال بهاته العلوم موجها ومرشدا بآيات وبصائر القرآن، وهذا ما نروم كشفه من خلال هاته الدراسة.

التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون: إذا كان المصدر المعرفي للعلوم الشرعية هو الوحي بشقيه قرآنا وسنة، فإن مجال تطبيقها هو الواقع والكون والإنسان، وهو مجال بحث العلوم الكونية، وهذا التلاحم القائم بين العلمين يؤكد على وحدة العلوم والمعارف مصدرا وغاية، فمصدر العلوم كلها واحد وهو الله سبحانه وتعالى، سواء أكانت وحيا أوحى الله به للإنسان بأساليب الوحي المعروفة، أم يسر للإنسان اكتشافها واكتسابها وتطويرها بأساليب البحث والفكر والنظر، وغايتها واحدة وهي خدمة الإنسان فردا كان أو جماعة من أجل تحقيق مصلحته وتطوير حياته نحو الأفضل.

وقد أسس القرآن الكريم لحقيقة التكامل المعرفي بين هاته العلوم حيث شاءت حكمته أن تكون أول آية نزلت على قلب رسول الله تأمرنا بالقراءة المزدوجة قراءة الوحي وقراءة الكون. قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁽¹⁾، يقول جابر العلواني: وبما أن القرآن ليس فيه تكرار ولا ترادف، ولا تحتاج آياته الكريمة إلى استعمال المؤكدات، فإن كل كلمة من كلماته – وإن بدت مرادفة أو مماثلة لأختها- فإنها تشتمل على معنى آخر إن لم تدل عليه بلفظها وبلاستعمال القرآني لها فإنها تدل عليه في سياقها وسباقها وموقعها. وذلك من دلائل إعجاز القرآن. ولذلك فإن صيغة الأمر بالقراءة الذي جاء مرتين في هاته الآيات لا تعني التوكيد أو الترادف أو التكرار كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين. بل تدل على أمرين بقراءتين، لكل منهما معناها المراد بها، ولكل منهما خصائصها، ومجالها ومتعلقها، ومناهجها وكيفيةها وميادنها⁽²⁾.

1- سورة العلق، الآيات: 1-5.

2- ينظر: الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، مكتبة الشروق الدولية- القاهرة، ط1، 1427هـ- 2006م، ص: 14-15.

ف (اقرأ) الأولى: تنبيهه إلى وجوب قراءة الخلق قراءة تبدأ بقراءة الذات الإنسانية من بداية الخلق إلى نهاية الحياة بأطوارها كلها. فمنهج القراءة السليمة في الخلق ينطلق من قراءة النفس باتجاه الكون والآفاق قصد معرفة ما دُونته البشرية من فهم له، وتجارب فيه بأقلامها، فهذه القراءة هي التي صاغ القرآن المجيد بحسبها "دليل الخلق ودليل الإبداع، والتكليف بالنظر العقلي في الوجود، والنظر في آثار الأمم السابقة، ومعرفة ما حدث لها".

و(اقرأ) الثانية: إشارة إلى وجوب قراءة الوحي المنزل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، المترابط والمحكم في آياته، قصد تعليم الحكمة والهداية والرشد منه كي تزكو نفوس البشرية، وتطهر حياتهم، ويهتدوا به في أداء مهمة الاستخلاف، والقيام بواجب الانتماء، وحق العمران⁽¹⁾. ولا بد من الجمع بينهما، كي يفهم القرآن العظيم ومدلولاته بالخلق والوجود، ويفهم الوجود، ويهتدي به في أداء مهام الخلافة فيه والقيام بمقتضيات الأمانة بالقرآن المجيد وتوجيهاته، وأحكامه وتعاليمه⁽²⁾.

ثم قال رحمه الله: فبالقراءتين ندرك الفروق بين الأمم التي استفادت بالوحي واتبعت، واستنارت به، وبين الأمم التي تجاهلته، وتعاملت مع الطبيعة أو الكون -وحده- دون استنارة بهداية الوحي. أو أهملت الكون والتجارب البشرية وعبر التاريخ ودروسه، بحجة الاكتفاء بالوحي والاستغراق فيه، فمن أراد أن يقرأ الوحي بدقة وتدبر فإنه لا غنى له عن قراءة الكون وما فيه بالنظر في خبرات الأمم السابقة وتجاربها، ومعرفة الحضارات الغابرة وكيف سادت ثم بادت أو اندثرت⁽³⁾.

فهيأتين القراءتين المتلازمتين يتحقق التكامل المعرفي الذي يسهم في تجاوز الأزمات المعرفية التي يعاني منها الإنسان، وخروج الأمة من إसार الأمية بكل أشكالها ومعانها لترنو نحو التقدم والرفق الحضاريين.

ونظراً لذلك فقد أكد كثير من العلماء على ضرورة هذا التكامل في تحصيل العلوم، يقول الغزالي: على المتعلم أن لا يدع فناً من العلوم المحموددة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبخر فيه، وإلا اشتغل بالأهم

1- ينظر: المرجع نفسه، ص: 16-18.

2- ينظر: التوحيد والتزكية والعمران لجابر العلواني، دار الهادي، بيروت- لبنان، ط1، 1424هـ- 2003م، ص: 96.

3- ينظر: الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، ص: 19.

فالأهم، فإن العلوم كلها متعاونة ومرتبطة ببعضها ببعض، ويستفيد منه في الحال حتى لا يكون معاديا لذلك العلم بسبب الجهل به⁽¹⁾. بل إن السعدي رحمه الله أدرج العلوم الكونية في علوم الدين حيث قال: "وأن العلوم الكونية والفنون العصرية الصحيحة النافعة داخلة ضمن علوم الدين وأعماله ليست منافية لها"⁽²⁾.

والدعوة إلى هذا التكامل بين العلمين لم تكن نظرية فقط، بل كانت عملية أيضا حيث نجد علماء مسلمين موسوعيين حققوا هذا التكامل المعرفي في أعلى صورته وأرقى مظاهره، سواء داخل العلوم الإسلامية نفسها رغم تشعبها وتنوع فروعها، أو بينها وبين العلوم الكونية، كالطب، والهندسة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، منهم ابن رشد الحفيد الذي جمع بين الفقه والفلسفة والطب، والرازي الذي جمع بين الشريعة والطب، وابن خلدون الذي جمع بين علوم الشريعة وعلم الاجتماع.

فهذا التكامل المعرفي والمنهجي الذي أسس له القرآن الكريم وحث عليه العلماء أصبح في العصر الراهن واجبا شرعيا وضرورة واقعية لتجاوز الأزمات التي تعاني منها العلوم الشرعية، مما جعلها تنأى كليا أو جزئيا عن هموم المجتمع ومشكلاته التي يزخر بها الواقع.

المطلب الثاني: الأسس النظرية للتكامل المعرفي عند جابر العلواني

قامت فكرة التكامل المعرفي عند العلواني على أسين، أحدهما: معرفي، والآخر منهجي.

الأول: أساس عقدي، ويتمثل في النظرة التوحيدية للمعرفة.

انطلق العلواني من فكرة محورية هي أن هذه الأمة تنفرد من بين سائر الأمم بالاحتفاظ بصورة نقية من التوحيد الخالص الذي جاء به الأنبياء كلهم، فهو جوهر العقيدة وركن الإيمان، وهو غاية الحق من الخلق⁽³⁾، والنظام التوحيدي للمعرفة قائم عنده على هذا الأساس، وذلك بتفعيل قواعد العقيدة وتحويلها إلى طاعة معرفية مبدعة تقدم إجابة شافية عما يطلق عليه "الأسئلة الكلية، أو النهائية" وذلك من خلال الفهم المعرفي لقواعد الإيمان والتركيز على الأبعاد المنهجية لها، واعتبار أن العلوم جميعها لا بد أن تقوم على نظرة معينة

1- ينظر: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، 1/ 51.

2- الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي، ضمن مجموع أعمال العلامة السعدي، التفسير وعلوم القرآن، وزارة الأوقاف- قطر، ط1، 1432هـ- 2011م، 3/ 470.

3- ينظر: الجمع بين القراءتين، ص: 37. التوحيد والتزكية والعمران، ص: 16.

للكون وأصل مصدره وغايته وكيفية معرفته ومكوناته الأساسية: المرئي منها والماورائي⁽¹⁾. وبقدر سلامة التوحيد تتأسس سلامة الأسس والمنطلقات التي تقوم عليها علوم الأمة، ومعارفها، وفنونها⁽²⁾.

فالتوحيد عند العلواني يعتبر من أهم المحركات الموضوعية المؤثرة في اتجاه وإفراز الدواعي والقوى المحركة للمعرفة وتحديد مضمونها وتفسير الغامض والمهم منها، فهو يمثل تصورا كلياً للحقيقة، بما فيها الكون والحياة والإنسان، وهو يوضح حدود وأبعاد الدور الإنساني في الكون والحياة، وفي الوقت نفسه يحقق قدرة كبيرة على صياغة المفاهيم الضرورية لبناء فاعلية الإنسان، وتشكيل دافعية العمران والتسامي فيه، وإيجاد المنطلقات المعرفية والثقافية السليمة لدى الإنسان⁽³⁾.

وقد قرر أن العلوم الطبيعية وفلسفتها والمنهج العلمي والتجريبي كل ذلك لا يستطيع أن يقدم تصورا كلياً للوجود أو تفسيراً شاملاً للكون والحياة والإنسان، وعالي الغيب والشهادة، لأن هاته العلوم والمناهج بدأ تعاملها مع الكون بعد وجوده، ولم تشهد كيفية وجوده، ولم تسهم بذلك الوجود، وعليه فهي تتعامل مع ظواهر الوجود، لا مع ماهية الوجود، ولا مع حقيقته، فضلاً عما وراء تلك الماهية والحقيقة⁽⁴⁾.

ومن ثم فلا يمكن لهاته العلوم والمناهج - مهما تقدمت وتطورت - أن تسهم في بناء معارف سليمة، أو تقوم بتشديد حضارة مكيئة، بخلاف التوحيد فإنه قام بهاتين الوظيفتين أحسن قيام.

وهذا الأساس العقدي الذي اعتمد عليه العلواني في نظريته التكاملية للمعرفة سيسهم في إعادة صياغة المعرفة وفق المبادئ الآتية:

المبدأ الأول: حصر مصادر المعرفة في مصدرين اثنين لا ثالث لهما، وهما:

الوحي: كتاب الله المنزل المعجز المتعبد بتلاوته، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وتمثل ترجمة عملية له.

1- ينظر: إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم للعلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- القاهرة، ط1، 1417 هـ- 1996 م، ص: 19.

2- ينظر: التوحيد والتزكية والعمران، ص: 83-84.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص: 65.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص: 77.

الكون: وما فيه من كائنات وعوالم، وهو كتاب مخلوق مفتوح ميسر قراءته لكل الناس.

والعقل بينهما وسيلة وأداة معرفة واستنباط وحس وإدراك، بل وتوليد لأبعاد أخرى في الوقت ذاته⁽¹⁾.

المبدأ الثاني: يتعلق بوحدة المعرفة، فالمعرفة في جوهرها واحدة، لأن الحقيقة واحدة، ولكنها غالبا ما تظهر في مجالات وحقول معرفية متنوعة، فهناك مثلا: علم السياسة، وعلم الاجتماع، وعلم التربية، وعلم الفيزياء، وكل هاته المجالات المعرفية تكونت بسبب أن المعرفة تتعلق بظاهرة أو حقيقة، وهذه الظاهرة أو الحقيقة الواحدة لها جوانب مختلفة: طبيعية واجتماعية ونفسية، وأن دراسة هذه الجوانب تقتضي مثل هذه التقسيمات الإجرائية.

فما قد نراه من العلوم والمعارف المستقلة في الظاهر بعضها عن بعض، ليس في الواقع إلا أجزاء وأعضاء مترابطة، وهذا ما يحتم على الباحث الإحاطة بمجموعها حتى يدرك هاته الحقيقة إدراكا شموليا⁽²⁾.

المبدأ الثالث: يرى أن وحدة المعرفة تقتضي ترجمة مبادئ التوحيد في كل جزئية من جزئيات المعرفة، وبذلك يكون العبد متصلا بربه على الدوام، محققا لتقواه في السر والعلن، "فالتوحيد مقصد أعلى لا يتحقق في ضمير الإنسان ووجدانه بقيتين إذا لم ينعكس على كل جزئية من جزئيات المعرفة، وعلى كل جانب من جوانب التصور والفكر والحركة، وعلى مفردات الواقع في الاقتصاد، والثقافة، والاجتماع، والسياسة، والخلق، والسلوك، والآداب، والفنون، وسائر جوانب الحياة الأخرى"⁽³⁾.

المبدأ الرابع: وهو مرتبط بسابقه، ويتمثل في تطبيق المعرفة وانعكاسات العلم على سلوك الإنسان، فالعلم عند الموحّد يقتضي العمل الصالح، لذا تجد الموحّد دوما يتعوّذ بالله من علم لا ينفع، وهذا ما يجعله منهمكا في تقديم خدمات ونفع للبشرية، وتسخير علمه فيما يرضيه تعالى، دون تسخيرهِ فيما يهدد البشرية، والحياة، والبيئة، وخيانة واجب الاستخلاف

1- ينظر: المرجع نفسه، ص: 66.

2- ينظر: الجمع بين القراءتين والمنهج التوحيدي للمعرفة قراءة في المتن الفكري لطفه جابر العلواني، مقال للدكتور محمد الناصري <https://www.arrabita.ma/blog>

3- التوحيد والتركية والعمران، ص: 18.

ومهام العمران، وبذلك استطاع علم الموحد أن يمنح العمران والتمدن الإسلامي هوية خاصة ميزتها عن سائر الحضارات الإنسانية السابقة واللاحقة، وجعلت من مكونات العمران والتمدن كيانا قائما يسمى الأمة الوسط، أو القطب، أو خير أمة⁽¹⁾.

الثاني: أساس منهجي، ويقصد به الكشف عن التداخل المنهجي بين مفردات الوحي والكون استقلالا واجتماعا.

فإذا كان الكون تحكمه سنن وقواعد ثابتة تجعل منه وحدة متماسكة لا يختل نظامها إلى حين يرث الله الأرض ومن عليها، فإن القرآن المجيد تجمع بين آياته وحدة بنائية تمنع وقوع أي تناقض أو تعارض بين آياته، وإذا لم يتم الكشف عن الناظم المنهجي بين مفردات الوحي استقلالا، وبين وحدات الكون استقلالا، فإنه يتعذر حتما الكشف عن التداخل المنهجي بينهما اجتماعا، لذلك اعتبر العلواني هذا الأساس مدخلا منهجيا مهما لتحقيق التكامل حيث قال: إن المدخل الأساس للجمع بين القراءتين يبدأ باكتشاف العلاقة المنهجية بين الناظم المنهجي لآيات القرآن الذي أعطى القرآن "وحدته البنائية" وإعجاز "نظمه"، وبين السنن والقوانين الماثلة في الوجود، والمهيمنة على حركته للكشف عن الناظم المنهجي الذي يربط بينهما.

فالقرآن وحي إلهي نتعقل به ونتفهم به هذا الوجود انطلاقا من أن القرآن مطلق ومحيط وشامل، وبقدر ما تتسع معرفتنا للإثنين معا بقدر ما تتكون لدينا القدرة على الجمع بين القراءتين، واكتشاف التداخل المنهجي بين منهجي الوحي والكون، فمنهجية القرآن موازية لمنهجية الوجود، ومن هنا فإن التحدي الحقيقي أمام المسلم المعاصر هو الكشف عن هذا التداخل المنهجي بالجمع بين قراءتي الوحي الإلهي، والعلوم الطبيعية والإنسانية القائمة على السنن الإلهية في الكون والحياة والإنسان⁽²⁾.

وقد أكد على قصور كل الكتابات المتعلقة بالحديث عن فضائل القرآن وإعجازه، لأنها لم تستطع أن تكشف عن التداخل المنهجي بين قراءة القرآن في وحدته البنائية، وقراءة الكون في وحدته القائمة على سننه وقوانينه، وبالأحرى لم تستطع أن تكشف للناس عن

1- ينظر: المرجع نفسه، ص: 68 - 69.

2- ينظر: الجمع بين القراءتين، ص: 45 - 55.

منهجية القرآن المستوعبة للكون وحركته، والمتجاوزة لها، والقادرة على إقامته على قواعد الهدى ودين الحق⁽¹⁾.

ودلّل على ذلك بأنه بقيت آيات قرآنية كثيرة، لا سيما آيات صفات الباري سبحانه، مثل قول الحق سبحانه: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾⁽²⁾، ومقولات دينية كثيرة، مثل: (مسألة الجبر والاختيار، وقضية السببية)، عرضة لتأويلات شتى، في حين بقيت في المعارف الإنسانية والاجتماعية والطبيعية الحديثة أبعاد غائبة، وأسئلة كثيرة لم تستطع العلوم الكونية الإجابة الشافية عنها، لأنها لم تكتشف ذلك التداخل المنهجي بين القراءتين إلا في حدود يسيرة لم تف بالغرض.

المبحث الثاني: فقه تنزيل الرؤية التكاملية عند العلواني

رأينا في المبحث السابق الدعامات الأساسية النظرية التي قامت عليها نظرية العلواني، وهذا وحده غير كاف، فلا بد من إجراءات عملية لتنزيل الرؤية، إذ بذلك يكتمل البنيان ويستوي على سوقه، وتظهر آثاره في حياة الفرد والجماعة، وقد كان العلواني واعيا بهذا الأمر حيث اقترح لتنزيل هذا المشروع الضخم ضوابط وخطوات عملية لتنفيذه، وهذا ما سنخرج عليه من خلال هذا المبحث، مع ما يترتب عنه من آثار.

المطلب الأول: فقه تنزيل الرؤية التكاملية للمعرفة عند جابر العلواني:

إن المتتبع لكتابات العلواني رحمه الله - وخصوصا كتبه (الجمع بين القراءتين - قراءة الوحي وقراءة الكون، وإسلامية المعرفة، والتوحيد والتزكية والعمران) - يستخلص مجموعة من الضوابط العملية لتنزيل مشروعه المعرفي، ويمكن تلخيص ذلك في الآتي:

الضابط الأول: التوازن بين القراءتين

فالتكامل المعرفي المنشود عند العلواني لا يتحقق إلا في إطار الوسطية والاعتدال بين القراءتين، وعند طغيان إحدى القراءتين أو بالأحرى إهمال أحدهما يحصل الخلل والاضطراب، وقد أشار إلى أخطاء وسلبات ناجمة عن ذلك حيث قال: "فمن تجاوز القراءة الأولى في الوحي النازل إلى النبيئين، واستغرق استغراقا كلياً في القراءة الثانية التي تمثل علم الكون أو معارف الطبيعة، منقطعة عن الله تعالى، فقد العلاقة بالله، وتجاهل الغيب، وانطلق

1- ينظر: المرجع نفسه، ص: 55.

2- سورة طه، الآية: 4.

بفلسفة إنسانية مستقلة وضعية منبثة عن الله، عوراء قاصرة في مصادرها، تحاول أن توحيد بين الإنسان والطبيعة بإطلاق. وتعد الخالق والغيب كله مجرد ما وراثيات أو ميتافيزيقا يمكن تجاهلها أو تجاوزها.

فيتخذ الوجود - بهذا التصور الخاطئ - شكل القوى المتصارعة المتنازعة، ويتخذ الإنسان الغافل - من نفسه وهواه - شكل المتأله المسيطر بالعلم على كل شيء، فيمجد ذاته ويتخذ إلهه هواه، ويتوهم أن له أن يستمد قيمه من ذاته ومن الطبيعة. والدين والإيمان - نفسه - قد يتحول في إطار هذه القراءة المنفردة العوراء إلى شيء يوظفه من شاء ساعة لتلبية رغبة، أو لأداء خدمة. وهنا يحق عليه القول، فيقع في الاستبداد والطغيان على أخيه الإنسان. وتحدث كوارث البيئة، ويختل التوازن، وتظهر أمراض الانحراف والشذوذ في المعمورة، فقرارات يعمها الجوع، وأخرى تعمها الأمراض بكل أشكالها، والجرائم بكل أنواعها، وتسود المعيشة الضنكة: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۚ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۚ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۖ ﴾⁽¹⁾.

أما إهمال القراءة الثانية في الكون والطبيعة المسخرة، أي إهمال قراءة الوجود والكون، والاقتصار على قراءة الوحي وحده منقطعا منبثا عن الوجود، فإنه يؤدي إلى نفور من الدنيا، واستقذار لها ولما فيها، يشل طاقات الإنسان العمرانية والحضارية، ويعطله عن أداء مهام الخلافة والأمانة والعمران، ويحول بينه وبين التمتع بنعمة التسخير. ويعطل فكره، وينقص من قيمة فعله، بل قد يلغي إدراكه لفعله فلا يرى الإنسان نفسه فاعلا في شيء، ولا يرى لوجوده في الحياة معنى عمرانيا، وكل هذه الأفكار منافية تماما لمنهج القرآن العظيم.

إذن، لابد من الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي، وقراءة الوجود، وبناء العقل الإنساني بهما معا، لئلا يقع الإنسان في أي من ذينك الطرفين الذميين⁽²⁾.

الضابط الثاني: بناء مناهج للتعامل مع القرآن الكريم والسنة النبوية.

يعتبر القرآن الكريم مصدرا منشئا للمنهج، والعقيدة، والشرعة، والمعرفة، ومحددًا لمقومات الشهود الحضاري والعمراني، لذا تفاعل الناس معه عبر كل العصور، إلا أن التفاعل

1- سورة طه، الآية: 123.

2- ينظر: الجمع بين القراءتين، ص: 22-27.

السائد معه خلال القرون الأولى - في نظر العلواني- كان يطغى عليه العقلية البلاغية اللغوية وما توجي به من اتجاه نحو تجزئة النص، وملاحظة مفرداته وجمله وتراكيبه، وإذا كان هذا الفهم كافياً في تلك المرحلة والتي بعدها، فإنه في عصرنا هذا غير كاف، لأن العقلية السائدة اليوم هي عقلية الإدراك المنهجي للأمور، والبحث عن علاقاتها الناظمة للقضايا بطرق تحليلية ونقدية توظف فيها الأطر والقواعد العلمية المختلفة، وتربطها بموضوعات حضارية متشعبة وعلاقات متنوعة، وهذا يحتم علينا إعادة النظر في علوم وسائل فهم النص القرآني، لخدمته، وقراءته قراءة الجمع مع الكون، واكتشاف التداخل المنهجي بينهما، وتخليص القرآن من كثير من أنواع التفسير والتأويل التي لم تلاحظ فيه أبعاد عالميته وهيمنته لما سبقه، قصد إبعاده عن الإسقاطات الإسرائيلية والربط الشديد بأسباب النزول والمناسبات، مع ضرورة إضافة البعد الاجتماعي والمنهجي في دراسة القرآن الكريم ليتحقق التحدي به عبر الزمان والمكان⁽¹⁾.

والسنة النبوية هي منهج تطبيقي عملي للقرآن الكريم، وبدونها لا يمكن فهم وفقه تنزيل أحكام وقيم النص القرآني على الواقع، لذا تحتاج هي الأخرى -في نظر العلواني- إلى إعادة النظر فيها انطلاقاً من التتبع الدقيق للتحرك العملي والتطبيقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيرته في الواقع، قصد استخلاص خصائص الواقع الذي كان يعيشه صلى الله عليه وسلم، ومنهجه في التعامل مع هذا الواقع، وهو بلا شك واقع مخالف للواقع الذي نعيشه في تركيبته وعقليته، وهذا يدفعنا إلى استنباط منهج كلي في الفهم وفقه التنزيل على الواقع الذي نحياه، من خلال ربط الجزئيات بكلياتها، إذ بذلك تفهم السنة النبوية فهماً شمولياً، وتفهم مقاصد القرآن الكريم، ونكون في منأى عن التأسي بسنن مجزأة وبعيدة عن سياقها ومنفصلة عن القرآن الكريم⁽²⁾.

الضابط الثالث: قراءة التراث الإسلامي قراءة سليمة.

يشكل التراث المعرفي الإسلامي جزءاً من هوية الحضارة الإسلامية، ومما يميزه عن غيره أنه ينطلق من نصوص الوحي المطلقة والمتجاوزة للزمان والمكان، مما يجعل نسبة الحقيقة فيه أكثر من ذلك الفكر المنفصل عن الوحي، لذا لا يمكن الاستغناء عنه البتة، إلا أن بعض الباحثين أكدوا على ضرورة مراجعة هذا التراث -لأنه فكر نسبي مقيد بحدود الزمان

1- ينظر: المرجع نفسه، ص: 60-61. إسلامية المعرفة، ص: 21-22.

2- ينظر: الجمع بين القراءتين، ص: 61-65.

والمكان الذي وجد فيه - ومنهم جابر العلواني الذي اعتبر مراجعته خطوة أساسية لتطوير مناهج المعرفة وتكاملها، وذلك بإعادة قراءته قراءة نقدية تحليلية معرفية تخرجنا من دائرة الرفض المطلق، والقبول المطلق، ودائرة التلفيق والانتقاء العشوائي، فهذه الدوائر الثلاث لا يمكن أن تحقق التواصل مع ما يجب التواصل معه من هذا التراث، كما لا يمكن أن تحقق القطيعة المعرفية مع ما يجب إحداث القطيعة معه من ذلك. وكل هاته الأساليب تجعل من التراث معيقا ومعرقلا في الحاضر ومصادرا للمستقبل.

لكن إعادة قراءته انطلاقا من مدخل "عالمية الإسلام" وفق منهجية معرفية سليمة كفيلة باكتشاف نماذجه وإعادة تصنيفه ومحاكمته إلى القرآن الكريم ومنهجيته، والسنة النبوية ومنهجيتها في التنزيل على الواقع، آنذاك سنجد تراثا كثيرا في مختلف علومنا ومعارفنا لا بد من استبداله، وتراثا كثيرا لا بد من تصحيحه، وآخر لا بد من تجديده، وتراثا يمكن البناء عليه وتقويمه، ولا يتحقق ذلك إلا بتظافر جهود العلماء ضمن مؤسسات حاضنة لها المشروع الضخم⁽¹⁾.

الضابط الرابع: ضرورة بناء منهج للتعامل مع التراث الغربي.

العلم لا يعرف التوقف، بل ينضج عبر الزمان ويتطور يوما بعد يوم، وهذا يحتم الاستفادة من معارف وخبرات وتجارب السابقين - وإن كانوا غير مسلمين إيماننا منا بوحدة البشرية - والبناء عليها، قال رحمه الله: التكامل المعرفي لا يقوم على التلقي والتلقين وحدهما، بل على الأخذ عن الغير - أيضا - من سابقين وللاحقين، بالمراجعة والمطالعة، وقراءة الكتب وكتابتها، وتناقل الخبرات والمعارف من البشر، وعدم الزهد في المعرفة من أي وعاء خرجت، والتعامل المنهجي معها⁽²⁾. وهذا ما أكد عليه الحق سبحانه حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁽³⁾، فالغاية من جعل الناس شعوبا وقبائل إنما هي التعارف والوئام، وليس التنافر والخصام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطبائع والأخلاق، واختلاف

1- ينظر: إسلامية المعرفة، ص: 26. الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، ص: 150.

2- ينظر: الجمع بين القراءتين، ص: 21.

3- سور الحجرات، من الآية: 13.

المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون والتناصر للهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات⁽¹⁾. وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم⁽²⁾.

ويقصد بالتعامل المنهجي: غربة المعارف المأخوذة من التراث الغربي وعرضها على مقاييس القرآن الكريم وموازين السنة النبوية، فما اعترفا به سلمناه واعتمدناه، وما لم يعترفا به تجاهلناه، وبحثنا عن بدائل له تتناسب والمرجعية الإسلامية، "وبناء هذا المنهج للتعامل مع التراث الغربي يخرج تعامل العقل المسلم معه من أساليب التعامل الحالية التي تخلفت عن أطر ومحاولات المقاربات، ثم المقارنات، ثم المقابلات والمعارضات لتنتهي بالرفض المطلق بروح مستعلية متجاهلة، أو القبول المطلق بروح مستلبة تماما أو الانتقاء العشوائي المتحيز له أو عليه"⁽³⁾.

الضابط الخامس: ضرورة الربط بين العلم والمعرفة والقيم.

العلم والأخلاق أسان لا بد منهما لتحقيق نهضة الأمم والشعوب وتحسين الفرد والمجتمع، فلا أثر للعلم بدون أخلاق، ولا أخلاق صحيحة من غير علم يبصر ويرشد، لأنه العين المبصرة للأخلاق، وبقدر ما يحصل بينهما من انقسام تحصل الانتكاسة المعرفية المؤدية إلى الانحراف والطغيان، وهذا الانقسام النكد هو الذي يعيشه الغرب حاليا حيث إنه غيب استحضار القيم في صياغة العلوم مما أدى إلى وجود الليبرالية وحدوث صراعات متنوعة، وقد قرر العلواني ذلك قائلا: إن السنن الثقافي الغربي المهيمن عالميا، استطاع أن يصوغ العلوم الإنسانية والاجتماعية صياغة وضعية بعيدة عن قيم الوحي، وقاد البشرية إلى ثنائية متصارعة بين اللاهوت والوضعية، هذه الثنائية المتطرفة التي ضخمت الذاتية البشرية على حساب سائر القيم الدينية، والعقلية، والأخلاقية، فأفرزت الليبرالية، وكرست الصراعات القومية والاجتماعية عوضا عن السلام الذي تعطيه القيم⁽⁴⁾.

1- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق- بيروت- القاهرة، ط 17، 1412هـ، 6/3348.

2- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر- تونس، سنة النشر 1984هـ، 26/260.

3- الجمع بين القراءتين، ص: 66.

4- ينظر: إسلامية المعرفة، ص: 18.

وقد أكد رحمه الله أن سبب تخلف المسلمين اليوم عن تحقيق التقدم والشهود الحضاري يرجع إلى انسلاخ الأمة عن قيم الإسلام، "وبعد ما ضرب التخلف قيم الإسلام، وشاع التراجع عن تلك القيم في بلاد المسلمين، أصابها القصور المادي والعجز عن الأخذ بسبب التمدن والشهود الحضاري⁽¹⁾.

وأمام هاته الأزمة الأخلاقية العالمية التي عرقلت مسيرة التقدم والتطور دعا إلى ضرورة استرجاع العلم والمعرفة إلى دائرة القيم⁽²⁾، كي يؤتي أكله، إذ العلم المؤسس على قيم الإيمان والتوحيد يكون معمرا، وإذا انفصل عن القيم كان مدمرا، والواقع شاهد على ذلك.

الضابط السادس: مهمة عالمية ذات بعد كوني ينطلق من الوحي.

بما أن أزومات العالم أصبحت تتداخل، ومع تداخلها وتحولها إلى أزومات عالمية تصبح الحلول المطلوبة حلولاً عالمية، تهتم العالم كله، ويحتاج إليها العالم كله، وعليه فلا بد من الاجتهاد والعمل الجماعي والانخراط العالمي في تحقيق هذا التكامل المعرفي، كل من موقعه، قصد التوصل إلى حل لهاته الأزومات التي يموج فيها العالم الإسلامي والغربي على حد سواء، ولا يمكن التوصل إلى ذلك إلا عبر منهجية القرآن المعرفية، يقرر العلواني ذلك قائلا: إن مهمة إسلامية المعرفة، أو التكامل المعرفي، التي ندعو لها كعلماء اجتماعيات مسلمين مهمة عالمية، وإن تصورها البعض في إطار الخصوصية الجغرافية والبشرية الإسلامية، قصد توجيه العلوم الطبيعية وإعادة بناء العلوم الاجتماعية والإنسانية برؤية قرآنية كونية جامعة.

وهي - أيضا - مهمة قرآنية محضة⁽³⁾، إذ القرآن الكريم - باعتباره نصا قرآنيا إلهيا مطلقا -، هو القادر على استيعاب وتصويب وتقويم جميع مختلف مناهج العلوم النقلية، والعقلية، والطبيعية، والاجتماعية، والإنسانية وغيرها، وهو وحده بحكم عالمية رسالته القادر على استيعاب مختلف الأنساق الحضارية وتصويبها وتقويمها⁽⁴⁾.

مؤكد أن الحضارة الغربية تعيش أزمة حادة نتيجة التفكيك التحليلي والعجز عن التركيب، لاستبعادهم الخالق سبحانه والوحي والغيب، والمسلمون وحدهم يملكون القدرة

1- التوحيد والتركيبية والعمران، ص: 92.

2- ينظر: إسلامية المعرفة، ص: 31.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص: 28.

4- ينظر: الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، ص: 161-162.

على التركيب من خلال منهجية القرآن المعرفية، ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم في تطبيقها⁽¹⁾، وهذا يتطلب فهما شموليا للوحي والواقع معا.

المطلب الثاني: الأبعاد الحضارية للرؤية التكاملية للمعرفة عند العلواني

لا شك أن هاته الرؤية العلوانية بأركانها وضوابطها إذا فعلت على أرض الواقع تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، لأنها تساعد على تأسيس قواعد للتعارف والحوار بين الشعوب، وبناء عقلية نقدية قادرة على التفاعل مع كل مصادر المعرفة بميزان الوحي، كما أنها تسهم في فهم الواقع وحل شفراته، لتنزيل مراد الله تعالى تنزيلا صحيحا، وستقود العالم الإسلامي، وكذا العالم الغربي من الأزمة الفكرية والمعرفية، نحو تحقيق النهضة العلمية والحضارية التي تسهم في معالجة جل مشكلات العصر، اقتصاديا، وسياسيا، واجتماعيا، وبيئيا، سواء على المستوى المحلي أو العالمي، وتمكن الإنسان من الوفاء بالعهد، والقيام بمهام الاستخلاف والتمكين، وأداء حق الأمانة، والقيام بتعمير الكون ماديا بالبناء والعمران، ومعنويا بالإيمان والعمل الصالح، وبذلك يتحقق الشهود الحضاري لهذا الأمة.

قال رحمه الله - في خاتمة كتابه: الجمع بين القراءتين - "إن العالم ليخرج من أزمتة الفكرية والحضارية يحتاج إلى إدراك البعد الكوني بمعناه الغيبي في تركيب الوجود ومصيره، وتلك هي مهمة قراءة الوحي الذي استبعده من الدائرة العلمية، وعلينا أن نرد الإنسانية مردا جميلا.

والمهمة كبيرة، والتحدي ضخيم، وبدايتها "الجمع بين القراءتين"، وغايتها إنقاذ البشرية ليعم الخير، ويسود الحق وينتشر الهدى، ويدخل الناس في السلم كافة، سالكين طريق القرآن. وتشرق الأرض بنور الإيمان والقرآن. مع الاستمرار في الحوارات العلمية الهادفة والتطبيقات المنهجية لإزالة هذه العقبة وغيرها من طريق القرآن. وتعامل أصحاب التخصصات المختلفة مع "منهجية القرآن المعرفية" سوف يؤدي إلى الكشف عن جوانبها الكثيرة، وإقناع العلماء الباحثين بدقتها وسلامتها، وضرورة تفعيلها، والبناء عليها⁽²⁾.

وهذه المشروع الحضاري - بالإضافة إلى ما سبق - يحتاج إلى دعائم لخصها العلواني نفسه، وهي:

1- ينظر: المرجع نفسه، ص: 137-138.

2- ينظر: الجمع بين القراءتين، ص: 73.

- 1) إنسان التغيير الرسالي المكون في إطار التلاوة والتزكية ومعرفة العلم والحكمة الواعي بذاته وبمهمته.
- 2) الأمة القطب، الخيرة، الوسط، القدرة على استقطاب الناس والوقوف موقف الشهادة منهم.
- 3) العالمية المستوعبة للبشرية المتجاوزة لكل أنواع الخطاب الحصري قومياً أو جغرافياً أو طائفياً أو لاهوتياً.
- 4) الحاكمية المهتدية بكتاب الله الحاكم.
- 5) شرعة تخفيف ورحمة، ووضع للحرَج والإصر والأغلال، منطلق التكليف منها هو التشريف والتخفيف لا التشديد والانتقام⁽¹⁾.
- وإدراك هذه الأبعاد يتطلب وعياً وإرادة جماعية، وعليه فمهمة التكامل لا يتأتى النهوض بها إلا من خلال تضافر جهد جماعي مؤسساتي على الصعيد الوطني والدولي، مع مراعاة مجموعة من المقومات يمكن إجمالها فيما يأتي:
- 1) توضيح مقاصد المؤسسات وأهدافها قبل بدء العمل، ورصد الإمكانيات والموارد، وتخطيط البرامج.
- 2) المضمون المستجيب للمقاصد، وتتمحور حول كل هذا، مجموعة من المعارف والعلوم، والقدرات التي وجب أن تكتسب من أجل بلورة المضامين الأنسب.
- 3) البشر المكوّن والمكوّن قصد الاضطلاع بما سبق.
- 4) دراسة الجدوى في كل حين بطريقة جزئية ثم بطريقة كلية.
- 5) الهياكل القانونية والإدارية الممكنة، واستيفاء الجوانب المادية.
- 6) التقويم حتى يقبل الجيد ويدراً غيره⁽²⁾.
- والإِذا أُوكل أمر القراءة التكاملية إلى الأفراد، أو إلى مؤسسات لم تهتم بالمقومات السالفة الذكر، فإنها ستبقى حبراً على ورق.

1- ينظر: الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، ص: 42-43.

2- ينظر: الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهجي مع الوحي، د. أحمد العبادي، دار النيل- مصر، ط1.

1434هـ- 2013م، ص: 79.

خاتمة:

وصلت من خلال هذا البحث إلى مجموعة من الخلاصات والنتائج أهمها:

- أن العلوم كلها متحدة مصدراً وغاية، فمصدر العلوم واحد وهو الله تعالى، سواء كانت وحياً من الله، أم يسّر للإنسان اكتشافها وتطويرها عن طريق الفكر والنظر، وغايتها واحدة وهي خدمة الإنسان وتوفير سبل الراحة له قصد تحقيق الخلافة المنوطة به على أتم وأكمل وجه والمتمثلة في تعمير هذا الكون مادياً بالبناء والعمران، ومعنواً بالإيمان والعمل الصالح.

- تشكل فكرة التكامل المعرفي عند العلواني نظرية متكاملة الأركان والشروط يمكن أن تسهم في فهم الواقع وفك شفراته والإجابة عن كثير من الإشكالات الراهنة محلياً وكونياً، وهي مهمة كبيرة تحتاج إلى جهود جماعية مؤسسية، وإلا إذا وكل أمرها إلى الأفراد فإنها ستبقى حبرا على ورق.

- النظرة التوحيدية للمعرفة عند العلواني تسهم في إعادة صياغة المعرفة وجعلها وحدة متكاملة لا تتجزأ، وربط العلم بالعمل والقيم، وترجمة مبادئ التوحيد في كل جزئية من جزئيات المعرفة حتى يكون العبد متصلاً بربه على الدوام، محققاً لتقواه في السر والعلن، يبذل قصارى جهده العلمي في خدمة البشرية وإسعادها دون تسخيرها فيما يهدد الحياة والأحياء.

- إن المتتبع لكتابات العلواني - وهو يؤسس نظريته - يجده في تفكيره مفارقاً للسائد عند العلماء في عدة قضايا قد لا يتابع عليها، من ذلك: إنكار النسخ في القرآن الكريم والسنة النبوية، وعدم استقلال السنة بتشريع الأحكام، فضلاً عن أن تكون مقيدة أو مخصصة لما جاء في القرآن، وأن العلوم الشرعية كالتفسير والفقه هي بمثابة حجب تمتع من التفاعل مع الوحي...

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش.

- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
- أدوات النظر الاجتهادي المنشود في ضوء الواقع المعاصر، مصطفى سانو، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1421هـ-2000م.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير لجابر العلواني، دار الهادي، بيروت لبنان، ط1، 1424هـ-2003م.
- إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم لجابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- القاهرة، ط1، 1417 هـ-1996م.
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر- تونس، سنة النشر 1984هـ.
- التوحيد والتزكية والعمران لجابر العلواني، دار الهادي، بيروت- لبنان، ط1، 1424هـ-2003م.
- الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون لجابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية- القاهرة، ط1، 1427هـ-2006م.
- الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلية في الدين الإسلامي، ضمن مجموع أعمال العلامة السعدي، التفسير وعلوم القرآن، وزارة الأوقاف- قطر، ط1، 1432هـ-2011م.
- في ظلال القرآن للسيد قطب، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط17، 1412هـ.
- كتاب التعريفات لعلي بن محمد الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط1، 1403هـ-1983م.
- لسان العرب لمحمد ابن منظور، دار صادر - بيروت، ط3، 1414هـ.
- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط سنة 1399هـ - 1979م.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق- بيروت، ط1، 1412هـ.
- منح الجليل شرح مختصر خليل لمحمد عlish، دار الفكر، بيروت، ط 1409هـ-1989م.
- الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط7، 1426هـ-2005م.
- الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهجي مع الوحي، د. أحمد العبادي، دار النيل- مصر، ط1، 1434هـ-2013م.

مرتكزات التكامل المعرفي وتمثلاته

تنظيرا وتطبيقا عند العلواني

مصطفى حسنيوي

باحث بسلك الدكتوراه بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس

ملخص:

يهدف البحث في مرتكزات التكامل المعرفي عند العلواني _رحمه الله_ إلى الكشف عن تلك المرتكزات التي اعتبرها منطلقات لنجاح مشروعه الإصلاحية في ميدان الفكر والمعرفة، هذا المشروع القائم على قراءة المصدرين الرئيسيين للمعرفة: الوحي والكون، والجمع بينهما بواسطة المنهجية الكلية للقرآن الكريم، قد وضع له العلواني عدة تمثيلات كفيّة لتحقيق الهيمنة الحضارية للمسلمين على مختلف مناهج العلوم الإنسانية، وضرب له أمثلة تطبيقية تبرهن على أنه ليس مجرد ترف نظري، بل هو بديل حضاري عالمي يهدف لإنقاذ العالم كله من أزماته الفكرية والمعرفية، كما أن المتتبع للموضوع يجد أن الباحث قد اعتمد المنهج الاستقرائي: في تتبع مضامين المرتكزات والتمثيلات والتطبيقات لمشروع التكامل المعرفي، والمنهج الوصفي: عند تصوير معالمه وتوزيع محتواها على محاور الدراسة، من ذلك كله جاء البحث مقسما إلى ثلاثة مباحث: أولها خصص للحديث عن مرتكزات التكامل المعرفي عند العلواني، وثانيها اشتمل على تمثلاته للمشروع الإصلاحي، وثالثها تضمن بعض التطبيقات التي بثها في مصنفاته، ثم خاتمة تضمنت النتائج المتوصل إليها.

الكلمات المفتاحية: المرتكزات، التكامل المعرفي، التمثيلات، التنظير، التطبيقات.

"AL-ALWANI'S PILLARS OF COGNITIVE COMPLEMENTARITY AND THEIR THEORETICAL AND PRACTICAL MANIFESTATIONS."

Abstract:

This research aims at uncovering the cognitive pillars Al-Alwani considered necessary for the success of his reforming project in the field of intellect and epistemology. The project relies on interpreting two major sources of knowledge: the revelation (Qur'an and Sunna) and universe and mixing them following the wholistic method of the holy Qur'an. For his project, Al-Alwani stated many manifestations capable of realising the civilizational superiority of

Muslims over different methodologies of human sciences. He also presented some practical examples that prove its credibility and that it is a real global and civilized alternative to get the world out of its intellectual and cognitive crisis. A scrutiny of the subject shows this research used the inductive reasoning in following the components of the pillars, manifestations and applications of the project, and it used the descriptive method when stating the milestones of the project and distributing their content on the parts of the study. Hence the research contained three parts, the first of which speaks about the pillars of Al-Alwani's cognitive complementarity, the second sheds light on the manifestations of this reforming project, whereas the third deals with some application examples this thinker mentioned in his books. The conclusion contained the results of the study.

Key words: pillars – cognitive complementarity – manifestations – theory – applications.

مقدمة:

إنه مما لا يخفى على كل ذي عقل وبصيرة ما تعيشه الأمة الإسلامية من أزمت تمزق وحدتها، وتفكك حلقاتها المعرفية، وتشوه مفاهيمها العلوية، وهو ما جعل بعض الغيورين من أبنائها يُنظِّرون لمشروع إصلاحي، وسموه بالتكامل المعرفي، واعتبروه خطوة أولية مهمة في طريق النهوض الحضاري المنشود، ومن أبرز هؤلاء في عصرنا الحديث: الدكتور طه جابر العلواني رحمه الله، الذي جعل من التوحيد أساساً لنظريته في التكامل المعرفي، وعمل طول حياته على رسم معالم هذا المشروع الإصلاحي، والتركيز على إعادة صياغة علاقة الأمة الإسلامية بالقرآن الكريم لتحقيق لها – بحسبه – حاكميته لحركة الإنسان في الكون بجميع جوانبها ومستوياتها، مستوعباً الزمان والمكان ومتجاوزاً لهما.

وانخرطاً مني في هذه المبادرة الطيبة التي أقدم عليها مختبر العلوم الدينية والعلوم الإنسانية وقضايا المجتمع بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس من أجل إبراز العطاء العلمي والمشروع الإصلاحي للدكتور طه جابر العلواني رحمه الله، اخترت البحث في المحور الثالث منه، والموسوم بمعالم المنهج التوحيدي للمعرفة والتكامل المعرفي عند العلواني.

موضوع البحث:

يتحدد موضوع هذه الدراسة في الحاجة إلى تناول العلاقة التأصيلية العلمية التي تؤكد مبدأ التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون، مع التركيز على القواسم المشتركة بينهما، وتوضيح أوجه الاستفادة من مرتكزاته، وتوظيفها فيما يحقق شمولية النظام المعرفي الإسلامي ومواكبته لمتغيرات الزمان والمكان، وتفردته بالقدرة على إخراج البشرية من وحل الأزمت الفكرية والمعرفية والمنهجية، إلى بر الأمان المنهجي التوحيدي للرسالة المحمدية الخاتمة، وتأتي هذه الدراسة -أيضا- في إطار التنصيص على أن قضية التكامل المعرفي ثابتة في نصوص الوحي -قرأنا وسنة- وأنها تحتاج إلى مزيد من البحوث والدراسات وتكاثف جهود مختلف شرائح المجتمع لإبرازها وبيان أوجه الاستفادة من هداها.

إشكالية البحث:

تتمثل الإشكالية التي تنأسس عليها هذه الدراسة في إبراز تلك المرتكزات والتمثلات التي خطها العلواني للتكامل المعرفي، وبيان أهميتها ودورها في ترشيد الفهم لدى أبناء الأمة الإسلامية، ويتفرع عن هذه الإشكالية التساؤلات التالية:

- ماهي مقتضيات المرتكزات التي بنى عليها العلواني مشروعه الإصلاحي في التكامل المعرفي؟
- ما الخطوط العريضة التي ترسم تمثلات العلواني للمشروع التوحيدي في الحقل المعرفي؟
- هل اقتصرَت نظرية التكامل المعرفي عند العلواني على مجال التنظير؟ أم لها حظ في المجال التطبيقي؟

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث في مرتكزات التكامل المعرفي عند العلواني من خلال النقاط التالية:

أولا: بيان مركزية النظام المعرفي الإسلامي القائم على عقيدة التوحيد في إصلاح الفكر وبناء الحضارة الإنسانية.

ثانيا: التأكيد على الارتباط الوثيق بين الوحي والكون، وضرورة الجمع بينهما لبناء نظام معرفي شامل مؤطر بالمنهجية القرآنية والتطبيقات النبوية المعصومة.

ثالثا: التنصيص على أن إيجاد الإنسان المسلم الصالح -الذي رسم القرآن المجيد بوضوح شديد معالم شخصيته- يتحقق من خلال الدمج التام بين الوحيين.

رابعاً: الوقوف على أسباب فشل التجربة الثقافية الغربية في توجيه الحضارة الإنسانية.

خامساً: توضيح أسس ومنطلقات الحضارة الإسلامية في عصر النبوة وما بعدها، وبيان كيفية الاستفادة من منهجيتها في فهم الوحي وتنزيله على الواقع المعاصر، بغرض تقديم البدائل الإسلامية على مستوى المناهج والمعارف والعلوم المتداولة.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى: الكشف عن حقيقة مشروع "التكامل المعرفي" عند العلواني، والوقوف على المرتكزات التي اعتبرها كفيلاً بتحقيق النظرة التوحيدية للمعرفية، وتوجيه الحضارة الإنسانية المعاصرة نحو الأصلاح، وكذا معرفة تمثالاته للمشروع الإصلاحي، والوقوف على بعض تطبيقاته التي بثها في مقالاته المتعلقة بالموضوع.

منهجية البحث:

اتبعت في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي: وذلك عند تتبع معالم المرتكزات والتمثالات والتطبيقات لمشروع التكامل المعرفي في مؤلفات العلواني، والمنهج الوصفي: أثناء تصوير معالم المشروع الإصلاحي، وتوزيع محتواها على محاور الدراسة.

خطة البحث:

الإطار العام لهذه الدراسة يتكون من مقدمة بعناصرها المعهودة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

المبحث الأول خُصَّصَ لإبراز تلك المرتكزات التي جعلها العلواني للتكامل المعرفي، أما المبحث الثاني فقد ذكرت فيه تمثالات المشروع الإصلاحي عنده، وجعلت المبحث الثالث يتضمن بعض تطبيقات المشروع التي بثها العلواني في مؤلفاته، ثم ختمت البحث بالنتائج والتوصيات.

المبحث الأول: مرتكزات التكامل المعرفي عند العلواني

إن المعرفة في نظر العلواني لا تنحصر فيما هو محسوس ومجرب كما يُعرّفها علماء التربية وغيرهم، بل تتجاوز ذلك إلى ميدان العقائد والغيبيات، فهي: "كل معلوم دل عليه الوحي والحس والتجربة"⁽¹⁾، أي أن لها مصدرين مهمين هما: الوحي والوجود، وبالجمع بين العلوم المنبثقة عنهما يتحقق التكامل المعرفي، ذلك التكامل الذي خط له العلواني ست مرتكزات، وهي المسطرة في عناوين المطالب التالية:

المطلب الأول: إعادة بناء معرفة إسلامية معاصرة:

بالرجوع إلى المشروع الإصلاحي للعلواني نجد أن أول مرتكز للتكامل المعرفي عنده هو: بناء وكشف النظام الإسلامي التوحيدي للمعرفة، لأن الإسلام هو الدين الوحيد صاحب الرسالة الخاتمة الموجهة للبشرية جمعاء، ونظامه المعرفي هو وحده القادر على إخراجهم من أزمتهم المعاصرة في جميع ميادين الحياة، هذا البناء المعرفي يتم بـ"إعادة قراءة الكتاب والسنة للمعرفة والحضارة والثقافة والفكر، والانطلاق من السيرة الصحيحة كفترة مصونة بتسديد الوحي"⁽²⁾، لذلك أصبح لزاما على أبناء الصحوة الإسلامية اليوم بناء واكتشاف ذلك النظام المعرفي انطلاقا من الجمع بين القراءتين، "ولن يتأتى للإنسان الباحث رؤية فكرية متزنة دون اتباع القراءتين"⁽³⁾، إنه بناء يقوم في نظر العلواني على جناحين أساسيين هما:

أولا: تفعيل المعرفة المنبثقة عن قواعد العقيدة والإيمان

وذلك بإخراج أركان الإيمان من حيز المعتقد الصّرف إلى ميدان الطاعات والمعارف المبدعة، لأن المعارف المنبثقة عن العقيدة الإسلامية تختلف وتتميز عن غيرها من المعارف الإنسانية المنبثقة عن عقائدهم المناقضة للتوحيد؛ إذ "لكل عقيدة معرفتها ولكل معرفة

(1) الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، د. طه جابر العلواني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الرابعة: 1414هـ/1994م، ص 33.

(2) مشروع أسلمة المعرفة وإصلاح الفكر الإسلامي المعاصر (المبررات والأهداف) عند المفكر "طه جابر العلواني"، د. تامر زروقي، المركز الجامعي آفلو (الجزائر) تاريخ النشر: 2020/02/08م، ص 123.

(3) رحلة في فكر ومنهجية طه جابر العلواني، التيجاني عبد القادر حامد، مركز الإسلام في العالم المعاصر بجامعة شناندوا - فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى: أبريل 2022م، ص 102.

منطلقاتها وأهدافها"⁽¹⁾، من هنا فإن الواجب على المسلمين اليوم إعادة بناء رؤية إسلامية للمعرفة قائمة على "أركان العقيدة المحددة المحصورة كما جاء بها القرآن ومقومات وخصائص التصور الإسلامي السليم المنبثق عنها"⁽²⁾، لأنه بتلك المعرفة يبني النظام المعرفي الإسلامي المنشود؛ إذ ما من حضارة إلا وتبنى على أساس معرفي ومنهجي، وما حققت الحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها كان مبنيا على المنظومة العقدية الإيمانية والرؤية الناتجة عنها للغيب والكون والإنسان والحياة، من هذا المنطلق يرى العلواني ضرورة الرجوع إلى تلك العصور لاستلهاهم الأسس المعرفية الكفيلة بإعادة تشكيل وبناء نظام معرفي إسلامي قائم على مقتضيات عقيدة التوحيد، لأنه هو النظام المعرفي الوحيد المؤهل لإنقاذ البشرية ولتقديم "إجابات شافية عما يطلق عليه "الأسئلة الكلية أو النهاية" وذلك من خلال الفهم المعرفي لقواعد الإيمان والتركيز على الأبعاد المنهجية لها"⁽³⁾، ولأن "ما تقدمه العقيدة من إجابات لتلك الأسئلة والرؤية التي تنبثق عن ذلك هو ما يطلق عليه "الرؤية الكلية"⁽⁴⁾.

ثانيا: استخلاص النماذج المعرفية

وذلك باستقراء تاريخ الإسلام ومدارسه الفكرية، وقراءة التراث المعرفي الإسلامي قراءة نقدية، تهدف إلى الكشف عن الأنساق المعرفية التي سادت عصوره المختلفة، والربط بينها وبين إنتاجاتها الفكرية، وتحديد مدى تأثير الأنساق المعرفية على تطور الفكر وتدهوره، وبيان كيفية استمداد النماذج المعرفية من النظام الإسلامي التوحيدي، كل "ذلك تمهيدا وتوطئة لإمكانية تشكيل نماذج معرفية في مختلف العلوم الاجتماعية والتطبيقية قائمة على عقيدة التوحيد والجمع بين القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الواقع مع الاستفادة من النماذج المعرفية التي سادت التراث والنماذج المعرفية التي طورها الفكر الغربي أو الإنساني المعاصر"⁽⁵⁾؛ إذ أنه

(¹) إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ورقة عمل، طه جابر العلواني، الدار العالمية للكتاب

الإسلامي، الرياض، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية: 1414هـ-1994م، ص 17

(²) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى 1427هـ/يناير 2006م، ص 59.

(³) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم. أ.د. طه جابر العلواني، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1417هـ/1996م، ص 19.

(⁴) معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى: 1431هـ/2010م، ص 67

(⁵) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 20.

بتشكيل تلك الأنساق المعرفية تتمكن من بناء القدرة الذاتية على النقد المعرفي عند أبناء المسلمين، نقدا "يمكن من الاستيعاب والتجاوز بشكل منهجي منضبط، في الوقت نفسه يعطي القدرة على التوليد المعرفي والمنهجي وبه يتحقق الإبداع، والتفسير المعرفي الذي لا يقوم على الإقناع والخطابة بل على المعرفة المنهجية التامة"⁽¹⁾.

المطلب الثاني: إعادة بناء منهجية القرآن المعرفية

بعد بناء النظام المعرفي الإسلامي القائم على عقيدة التوحيد والنماذج المعرفية المنبثقة عنها، يأتي بناء المنهجية الإسلامية المستمدة من القراءة الكلية للقرآن الكريم ومنهجه الكوني، "لأن القرآن كما أكدنا ولا نمل نؤكد يضم "منهجية كونية" وأنه بذلك يتميز "بوحدة بنائية" في كل آياته وفي سورة كافة"⁽²⁾، وعليه "يمكن القول بقدر واف من الاطمئنان إن خلاصة الإسهام الفكري للدكتور العلواني يتمركز حول "منهجية القرآن المعرفية"، حين استفرغ جهده في تحديد عناصرها، وتحويل تلك العناصر إلى نسق محكم، ثم اتخاذها أداة نقدية لعلوم التراث"⁽³⁾، إن هذا المنهج القرآني وحده القادر على الهيمنة على سائر المناهج الإنسانية، لذلك يرى العلواني ضرورة بناء منهج للمعرفة الإسلامية مستمد من القراءة الكلية للقرآن الكريم، وهذا لا يتحقق في نظره إلا عن طريق: "إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المناهج الإسلامية في مجالاتها المختلفة"⁽⁴⁾، لأنه بهذه القواعد المنهجية _ المستمدة طبعا من منهجية القرآن الكريم الكلية _ يتم ضبط حركة الفكر الإسلامي وتوجيه "العقل المسلم نحو إنتاج الفكر المحقق لغايات الإسلام ومقاصده والمنسجم مع كلياته وغاياته"⁽⁵⁾.

كما يؤكد العلواني أن بناء المنهج المعرفي الإسلامي لا يتم إلا ببناء فلسفته وأدواته؛ وأن فلسفته تبنى على أسس ثقافية ولغوية ومعرفية مستمدة من نظامه التوحيدي، أما أدواته فتبنى عن طريق اكتشاف أدوات المنهج التي وظفها العلماء المسلمون من قبل، ومقارنتها بأدوات المنهج المعاصرة، وذلك "سعيًا لإنشاء أو تعديل أو تكييف أدوات منهجية يقوم بها العلماء المعاصرون بعد تحقيق المواءمة والتكييف بينها وبين فلسفة المنهج التي تم بناؤها

(1) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، طه جابر العلواني، ص 59.

(2) معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، ص 70.

(3) رحلة في فكر ومنهجية طه جابر العلواني، التيجاني عبد القادر حامد، ص 78.

(4) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 59.

(5) إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ورقة عمل، طه جابر العلواني، ص 49.

وتحديد معالمها الأساسية انطلاقاً من النظام المعرفي الإسلامي الكلي المعتمد على العقيدة والإطار الثقافي والحضاري الإسلامي كذلك⁽¹⁾، إن هذا التشكيل والبناء لقواعد المناهج الإسلامية ينضبط كذلك "بعرضها على "المنهجية المعرفية القرآنية" وتعديلها بنورها وعلى هدى منها"⁽²⁾، أي أنه لابد من "إعادة قراءة الكتاب والسنة كمصدرين للمعرفة، والحضارة، والثقافة، والفكر.. والانطلاق من السيرة الصحيحة كفترة مصونة بتسديد الوحي للاهتمام بها في منهجية تنزيل النصوص على الواقع"⁽³⁾.

أما عن الهدف من وراء بناء المنهجية الإسلامية في نظر العلواني فيتجلى في: "تحقيق الاتساق والتناغم بين مكونات النسق المعرفي الإسلامي بمعزل عن فكر المقارنات والمقاربات والمقابلات والتقليد والتلفيق، وإيجاد القدرة لدى العقل المسلم على الاجتهاد والابداع في سائر الممارسات المعرفية انطلاقاً من منهجيته المتكاملة"⁽⁴⁾.

المطلب الثالث: بناء منهج التعامل مع القرآن العظيم

إن بناء منهج للتعامل مع القرآن الكريم يندرج ضمن بناء المنهج الإسلامي السابق، ذلك أن القرآن الكريم هو المصدر للثقافة والمنهج والفكر والمعرفة ومقومات الشهود الحضاري والعمراني، وهو أيضاً "مهيمن على ما سبق بخاتمته، ومهيمن على ما لحق بإطلاقه وحاكميته، ومصدق على كل ما عداه بشموله وإحاطته"⁽⁵⁾، لهذا وجب بناء منهج للتعامل مع نصوص الوحي مستمد من القرآن ذاته، هذا البناء لا يتم عند العلواني إلا عبر الالتزام بالخطوات التالية:

1_ إعادة بناء وتركيب علوم القرآن مع تجاوز كثير من العلوم الموروثة التي أدت دورها في خدمة النص القرآني، لأن العقلية السائدة في عصرنا الحالي هي: "عقلية الإدراك الإنساني المنهجي للأمور، والبحث عن العلاقات النازمة لها بطرق تحليلية ونقدية توظف الأطر والقواعد العلمية المختلفة، وتربطها بموضوعات حضارية متشعبة، وعلاقات متنوعة"⁽⁶⁾.

(1) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 21.

(2) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 59.

(3) إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ورقة عمل، طه جابر العلواني، ص 48.

(4) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 21.

(5) نحو منهجية معرفية قرآنية محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، د. طه جابر العلواني، دار

الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى: 1425هـ- 2004م، ص 11

(6) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 61

وهي عقلية تخالف عقلية الإنسان العربي في عصر التدوين وغيره من العصور، وهذا ما يجعل إعادة النظر في علوم ووسائل فهم النص القرآني في عصرنا الحاضر أمراً ضروريا وملحاً؛ وذلك لخدمته خدمة جديدة منضبطة بقراءته وفهمه في إطار كليته ووحدته البنائية، وأيضا لقراءته قراءة الجمع مع الكون واكتشاف التداخل المنهجي بينهما.

2_ تخلص القرآن من كثير من التفسيرات والتأويلات التي لم تلاحظ فيها أبعاد إطلاقيته وهيمنته على ما سبقه، كتلك التفسيرات التي بنيت على الإسرائيليات، أو تلك التي ربطت الفهم القرآني بإطار زمني أو مكاني أو إنساني معين، وهي تفسيرات وتأويلات تعارض عالمية الرسالة الإسلامية، وخاتمية النبوة المحمدية، وصلاحية الشريعة الربانية لكل زمان ومكان.

3_ مراعاة البعد الاجتماعي والمنهجي في تفسير القرآن الكريم وتنزيل أحكامه على الواقع، وذلك لتتضح وجوه إعجازه في العصر الحاضر، وتتحقق للمسلمين أوجه "التحدي الدائم به، ويبرز إعجازه الذي يعد الدليل المنهجي الأول على إطلاقيته، وعدم نسيته، وبطبيعة الحال فإننا نتجاوز "الإعجاز العلمي"، لأنه لا يعدو أن يكون اسقاطا لثقافة العصر على القرآن، وذلك ليس من مقصودنا"⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة أن العلواني عندما وضع خطوات بناء منهج التعامل مع القرآن الكريم ذكر أن ذلك المنهج سيعود على كل العلوم الإنسانية بفوائد "تجعلها قادرة على إمداد الحياة الإنسانية بما يخرجها من أزمتها، وسيعيد العلاقة بين هذه العلوم والقيم إلى سابق عهدها ويربطها بمقاصد الحق وغائية الخلق، وذلك بما سيمنحها من سعة في إدراك المحددات المعرفية والأبعاد المنهجية ويخرجها من دائرة البحث الجزئي عن أخبار أو ظواهر أو مصادر اكتشاف علمي جزئي في آيات الكتاب العزيز الذي هو شرعة ومنهاج هداية للبشر جميعا ومعادل معرفي للكون في نظمه وبيانه وقواعد منهجيته"⁽²⁾.

المطلب الرابع: بناء منهج التعامل مع السنة النبوية المطهرة:

في إطار دعوة العلواني لتحقيق التكامل المعرفي بين الوحي والكون وتنزيل المنهج القرآني على الواقع، يرى ضرورة بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية الشريفة، واستنباط منهج التأسسي من خلالها، باعتبارها التطبيق النبوي المعصوم لذلك المنهج الرباني، كما أن بناء

(¹) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 61

(²) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 23.

هذا المنهج عنده _رحمه الله_ يتطلب الوعي بحقيقة السنة النبوية وحقيقة دورها، أي أنه منهج يروم قراءة السنة النبوية في وحدتها البنائية الداخلية وفي وحدتها البنائية مع القرآن الكريم، وذلك بواسطة الكشف عن منهج تعامله عليه الصلاة والسلام مع القرآن والواقع، ثم استنباط منهج فقه التنزيل على الواقع من خلال تطبيقاته عليه الصلاة والسلام؛ إذ الرسول _صلى الله عليه وسلم_ في عصر الصحابة كان نموذجاً حياً لتطبيق أحكام القرآن الكريم على الواقع، ولذلك لم تكن إشكالات تطبيق المنهج القرآني على الواقع مطروحة زمنهم _رضي الله عنهم_، لكن الأمر مختلف في عصرنا، لأن واقع الصحابة "واقع مغاير للواقع الذي نعيشه في تركيبته وعقليته فيدفعنا ذلك إلى استنباط منهج فقه التنزيل على الواقع من خلال تطبيقات النبي المعصوم _صلى الله عليه وسلم_ لا من خلال النزوع إلى التقليد والمحاكاة في الجزئيات والتفاصيل"⁽¹⁾، فالحاجة ماسة إذن للكشف "عن المنهج القرآني للتعامل مع ما قاله أو فعله أو أقره الرسول _صلى الله عليه وسلم_"⁽²⁾، لأنه "من الصعب تطبيق السنة وتحقيق واجب الاتباع والتأسي والافتداء به _صلى الله عليه وسلم_ في إطار تتبع الجزئيات وحدها دون استنباط منهج للتأسي باعتباره ناظماً موضوعياً للسنن يضم جزئياتها في إطار منهجي"⁽³⁾.

المطلب الخامس: إعادة دراسة وفهم التراث الإسلامي وقراءته قراءة سليمة

من الخطوات المركزية لتحقيق التكامل المعرفي عند العلواني: القراءة المنهجية للتراث الإسلامي، وذلك عن طريق "بذل الجهود المعرفية لتنقية التراث"⁽⁴⁾، لأن التراث الإسلامي مليء بالمعارف التي لا تناسب العصر الحاضر، ولا تتماشى مع المنهجية الكلية القرآنية، كتلك المعارف التي أنتجت لنا "المعضلات التاريخية الكثيرة التي كان لها أسوأ الآثار في بناء الفرد المسلم عقلياً وثقافياً ونفسياً وتربوياً"⁽⁵⁾، لذا وجب على المسلمين اليوم إعادة "قراءة الميراث الثقافي والحضاري الإسلامي وإخضاعه لمعايير الغايات والمقاصد الإسلامية"⁽⁶⁾، تلك القراءة

(1) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 24.

(2) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 65

(3) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 24-25

(4) نحو منهجية معرفية قرآنية (محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة)، د. طه جابر العلواني، ص 14

(5) الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، طه جابر العلواني، ص 33.

(6) إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ورقة عمل، طه جابر العلواني، ص 48

التي ينبغي أن تكون "قراءة نقدية تحليلية معرفية"⁽¹⁾، تُحكّم النظام المعرفي الإسلامي ومنهجيته المعرفية، وتحتكم إلى القرآن والسنة في الحكم على قضايا التراث وغربلتها، بقصد استخلاص الأنساق المعرفية التي سادت التراث الإسلامي في مختلف العصور، والاستفادة من الصالح منها لعصرنا الحاضر، أي تتبع حركة الفكر الإسلامي "تتبعا تحليليا دقيقا يمكننا من معرفة سيرورة هذا الفكر، ومكوناته، والعوامل المتنوعة التي أثرت فيه، ورصد إيجابياته، وسلبياته، وطرائق تكونه وتشكيله، ونقده نقد الصيرافة"⁽²⁾، فهي إذن قراءة للتراث الإسلامي "وفق منهجية معرفية سليمة كفيلة بمساعدتنا على الخروج من إطار الدوائر الثلاث وتحكيم النظام المعرفي الإسلامي والمنهجية المعرفية الإسلامية مع الاحتكام إلى مصدري الهدى والنور، الكتاب والسنة، في الحكم على قضايا التراث التي قد لا تكون مقصودة في ذاتها ولكنها ملاحظة في بيان منهجية تعامل العقل المسلم مع ظواهر الإنسان والكون على مختلف العصور، وما يمكن الاستفادة به من هذه المنهجية في فهم ظواهرنا المعاصرة"⁽³⁾.

المطلب السادس: بناء منهج للتعامل مع التراث الإنساني المعاصر:

يرى العلواني ضرورة التعامل المنهجي مع التراث الغربي، أي "قراءة الكسب البشري في المجال الثقافي والحضاري والتبادل المعرفي كله مع التنبه لخلفياته وأطره المرجعية"⁽⁴⁾، فهي قراءة منهجية للتراث الإنساني، تقتضي تعاملًا معه يختلف عن التعاملات الحالية، تلك التعاملات "التي تَخَلَّفَتْ عن أطر ومحاولات المقاربات ثم المقارنات والمقابلات لتنتهي بالرفض المطلق، أو القبول المطلق بروح مستلبة تماما أو بروح الانتقاء العشوائي الذي لا تقوده منهجية منضبطة ولا قراءة معرفية"⁽⁵⁾، إنها قراءات ثلاث للتراث الغربي لا تحقق أهداف التكامل المعرفي، ولا تبني المنهج التوحيدي للمعرفة، لأن علاقتها بالتراث الإنساني المعاصر "تنتهي بالرفض المطلق بروح مستعلية متجاهلة، أو القبول المطلق بروح مستلبة تماما، أو الانتقاء العشوائي المتحيز له أو عليه"⁽⁶⁾، أما القراءة المنهجية التي يدعو إليها العلواني فهي

(1) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 65

(2) إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ورقة عمل، طه جابر العلواني، ص 43

(3) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 26.

(4) إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ورقة عمل، طه جابر العلواني، ص 48

(5) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 27.

(6) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 66

قراءة "تبحث عن الحكمة ولا تقع في إطار التقليد والنقل وتدرّك الفوارق الحضارية والثقافية على المعرفة الإنسانية"⁽¹⁾.

المبحث الثاني: تمثلات مشروع التكامل المعرفي عند العلواني

من خلال استقراء مقالات العلواني التي تشرح معالم مشروعه الإصلاحي، الذي اعتبره البديل الحضاري الإسلامي المعاصر، ظهرت لي تمثلاته فصغتها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: تمثله لتحقيق المشروع وأهميته

يرى العلواني أن النظرية المعرفية التوحيدية تمثل الجانب الفكري والمعرفي من الإسلام، ذلك الجانب القائم على قراءة الكتابين: الكتاب المسطور، والكتاب المنظور، قراءة تعتمد الجمع بينهما، واستخراج المعرفة الحضارية الشاملة منهما، على اعتبار أن كلتا القراءتين مصدرٌ إنشائيٌّ للمعرفة، وبالجمع بينهما يتحقق بناء الحضارة وقيام العمران، "فكل من القراءتين ركن معرفي ومصدر إنشائي لا يمكن تجاوزه أو التساهل في قراءته، ويستحيل قيام عمران رشيد، وحضارة سديدة بدون جمعهما وضمهما معا_ إلى درجة الدمج التام"⁽²⁾، وبهذا الدمج والجمع بين القراءتين تحصل البشرية على "المعرفة العمرانية الكاملة، التي تمكن الإنسان من الوفاء بالعهد، والقيام بمهام الاستخلاف، وأداء حق الأمانة، والقيام بمقتضيات العمران"⁽³⁾، فمشروع التكامل المعرفي إذن ضرورة حتمية لأمة الإسلام، وخاصة بعد أن تداعت عليها الأمم وتكالبت عليها الأعداء، فصارت "أحوج ما تكون اليوم إلى القراءتين لتستأنف مسيرتها، وليصلح آخرها بما صلح به أولها"⁽⁴⁾.

أما تمثل العلواني لأهمية النظام المعرفي التوحيدي فتبرز في كونه "ضرورة معرفية وضرورة حضارية للخروج من المأزق المعرفي المعاصر والأزمة الفكرية العالمية المعاصرة"⁽⁵⁾، ذلك النظام المعرفي الذي يمكن من البرهنة على تفوق الإسلام في جميع ميادين الحياة، ويجعل المسلمين في الوقت الحاضر "قادرين على إقناع الأمة بأننا البديل الحضاري المناسب، وأننا

(1) إسلامية المعرفة بين الأُمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 27.

(2) إسلامية المعرفة بين الأُمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 13_14.

(3) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 20_21.

(4) نحو منهجية معرفية قرآنية: طه جابر العلواني، ص 38.

(5) إسلامية المعرفة بين الأُمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 16.

الأقدر على تقديم الفكر السليم والثقافة الصحيحة والحضارة القويمة والعمران الأكيد"⁽¹⁾، فهو مشروع حضاري وعمراني ينطلق من: "الإيمان بكونية الرسالة الإسلامية باعتبارها الخطاب الإسلامي الخالد للإنسان في كل زمان ومكان"⁽²⁾.

المطلب الثاني: تمثله لمنهجية النظام المعرفي التوحدي

ينظر العلواني إلى أن المشروع الإصلاحي الذي يقدمه ينطلق من رؤية منهجية "تقوم على اكتشاف العلاقة المنهجية بين الوحي والكون وهي علاقة تداخل وتكامل منهجي"⁽³⁾، وهي منهجية مستمدة من القرآن الكريم، لذلك سماها "منهجية القرآن المعرفية"، واعتبرها "دعامة أساسية للجمع بين القراءتين، وضرورة معرفية وحضارية لا على المستوى الإسلامي وحده، بل على المستوى العالمي _ كله _ للخروج من المأزق المعرفي المعاصر والأزمة الفكرية العالمية المعاصرة"⁽⁴⁾، كما يؤكد _ رحمه الله _ أن هناك منهجا متبعاً لفهم النص القرآني وبيان مراده وهو "منهج الأصول أو منهج الأصوليين"⁽⁵⁾، فإذاً هناك علاقة منهجية بين المعرفة القرآنية والمعرفة الكونية، ولا يتم الجمع بينهما إلا باكتشافها، "وبقدر ما تتسع معرفتنا للثنتين معا بقدر ما تكون لنا القدرة على "الجمع بين القراءتين"، واكتشاف التداخل المنهجي بين منهجي الوحي والكون، فمنهجية القرآن موازية لمنهجية الوجود"⁽⁶⁾، والملاحظ هنا أن العلواني يركز على المنهجية في قراءة كل من الوحي والكون، لأن الأزمة العالمية المعاصرة في نظره أزمة منهج، والمخرج منها كامن في قراءة الوحي بالمنهجية الأصولية، وقراءة الكون بمنهج: "الحس والتجربة والعقل في كل ما يتعلق باكتشاف العلاقات وتنظيمها، وتنظيم وسائل الاستفادة منها، ثم إخضاعها لحاكمية الله سبحانه وتعالى وهي الحاكمية المطلقة"⁽⁷⁾، وقراءة التراث الإسلامي بالمنهج النقدي، وقراءة الكسب الإنساني بمنهج الانتقاء العلمي، كل تلك القراءات المنهجية غرضها تكوين "نوع من الملكة والوعي بالفروق بين المناهج وما ينبني على المناهج في

(1) الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، د. طه جابر العلواني، ص 23

(2) إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ورقة عمل، طه جابر العلواني، ص 48

(3) إسلامية المعرفة بين الأمل واليوم، طه جابر العلواني، ص 19

(4) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 27

(5) الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، د. طه جابر العلواني، ص 30.

(6) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 54

(7) الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، د. طه جابر العلواني، ص 31

تراثنا وفي تراث البشرية المعاصر، وفي سائر المحاولات التي سبقت جهودنا هذه لضرورة ذلك كله - للقيام بهذه المهمة الجليلة" ⁽¹⁾.

المطلب الثالث: تمثله لمهمة المشروع الإصلاحي

يرى العلواني أن مهمة التكامل المعرفي وبناء نظام توحيد للمعرفة مهمة "يتوقف عليها مصير نهضة أمتنا وتقدمها في محاولتها لردم فجوة التخلف، واستئناف حياتها الإسلامية، بل تتجاوز ذلك إلى إنقاذ الإنسانية المعذبة المهددة بالفناء، واتخاذ الأمة موقع "الشهود الحضاري" الذي هو جوهر رسالتها" ⁽²⁾، وهي مهمة "لا يستطيع القيام بها إلا من أوتي القرآن وحظا وافرا من العلوم والمعارف الاجتماعية والإنسانية المعاصرة والمتوارثة بشكل كاف لاكتشاف ذلك التداخل المنهجي بين القرآن والكون والإنسان" ⁽³⁾، ولإنجاز تلك المهمة لابد من الانطلاق من المرتكزات الستة التي مرت معنا في المبحث الأول، "فهذه الخطوات أو المحاور أو المهام الست هي التي يمكن أن نطلق عليها خطوات أولية باتجاه بناء "المنهج التوحيدي للمعرفة" ⁽⁴⁾. كما نبه العلواني على أن هذه المهمة التي يدعو إليها هي "مهمة عالمية وإن تصورها البعض في إطار الخصوصية الجغرافية والبشرية الإسلامية" ⁽⁵⁾، وهي كذلك مهمة "قرآنية محضة، فأمام التدافع الديني، وإفلاس الأنساق الحضارية العالمية، وختم النبوة وبرز الأزمات الفكرية والمعرفية عالميا ومحليا، يتصدى القرآن وحده لخوض معركة شاملة بحسبانه كتاب وحي مطلق، ليستمر في عطائه وكرمه بعد أن لم يعد لدى الآخرين ما يقدمونه" ⁽⁶⁾، تلك المهمة العالمية والقرآنية "تتطلب العديد من الدراسات والبحوث المميزة بداية ببحوث ودراسات في القرآن العظيم نفسه تجري ضمن فهم جديد ومن منظور علمي وعالمي" ⁽⁷⁾، أما عن الغرض من كل تلك الدراسات والبحوث فيتمثل في "فهم القرآن فهما منهجيا في إطار وحدته وبنائيتها الكاملة فهما يتصل وينعكس على فهمنا المنهجي المعاصر

⁽¹⁾ معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، ص 13

⁽²⁾ إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ورقة عمل، طه جابر العلواني، ص 22

⁽³⁾ إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 19

⁽⁴⁾ الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 66

⁽⁵⁾ إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 28

⁽⁶⁾ الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 68-69

⁽⁷⁾ إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 29

للمظاهر الكونية، وسنن حركتها في "وحدتها البنائية" أيضا⁽¹⁾، فهي إذن مهمة ستمكن الأمة الإسلامية من استيعاب "أزمة المنهج العلمي ونتجاوز بها تلك الأزمة، والتهديدات التي تنذر بها لو استمرت "أزمة المنهج" بدون علاج"⁽²⁾.

المطلب الرابع: تمثله لأهداف المشروع الإصلاحية:

لقد حدد العلواني أهدافا ثلاثة لنظريته المعرفية وهي:

1) الربط بين المعرفة والعلم والقيم:

هذا الربط جاء انطلاقا من نظرة الإسلام للعلم، تلك النظرة المبنية على "أسس راسخة لا تفصل بين القيم والعلم ولا ترى إمكانية ذلك، ومن ثم فإن مدرسة "إسلامية المعرفة" تهدف إلى جعل هذه القاعدة أطروحة عالمية تقدم لها الأطر الفلسفية والاستراتيجية والوسائل اللازمة للتحقيق، مع وضع الضوابط الضرورية لربط العلم بالحقيقة لا بالأهواء"⁽³⁾، وعندما تحدث العلواني عن المقومات النفسية الأساسية للشخصية الإسلامية والمتمثلة في الفنون والآداب وما يتصل بها، أكد أن "مصدر سائر القيم عندنا نحن المسلمين أمران مترابطان، يسيران جنبا إلى جنب دون فاصل بينهما، هما: الوحي والوجود"⁽⁴⁾، فالمشروع إذن ينطلق من "الاعتقاد بأن أزمة الأمة هي أزمة فكرية، وليست أزمة قيم، فالقيم محفوظة بحفظ الله تعالى في الكتاب والسنة"⁽⁵⁾.

2) التفاعل والجدل بين القراءتين:

هذا التفاعل يعني الربط بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، لكنه ربط يراعي خصوصيات كل حقل من حقول المعرفة، فبالنسبة لحقول العلوم الطبيعية والتطبيقية وغيرها من العلوم المرتبطة بالكون والمادة؛ المطلوب فيها هو التوجيه الإسلامي في أهدافها ومقاصدها، بخلاف العلوم الإنسانية والاجتماعية وغيرها ممن تنطلق من دراسة العنصر البشري، فهذه "يجب أن تكون من قبيل الصناعات المحلية"⁽⁶⁾، فهو إذن ربط "ينطلق من

(1) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص 70

(2) معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، ص 14

(3) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص 31

(4) الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، د. طه جابر العلواني، ص 14

(5) إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ورقة عمل، طه جابر العلواني، ص 48

(6) الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، د. طه جابر العلواني، ص 45

إرجاع كليهما _ العلوم الطبيعية والاجتماعية _ إلى فلسفة واحدة تندمج وتتفاعل مع قراءة الوحي"⁽¹⁾.

3) حل إشكالات النهايات الفلسفية الجامدة:

تلك الإشكالات التي تنتج عن إهمال القراءة الأولى _قراءة الوحي: قرآنا وسنة_ والاستغراق "استغراقا كلياً في القراءة الثانية التي تمثل علم الكون ومعارف الطبيعة، منقطعة عن الله _تعالى_"⁽²⁾، وهو ما أسقط المعرفة الغربية في عدم وجود حل لتلك الإشكالات الفلسفية المتعلقة بالنهايات، والإجابة عن سؤال: ما غاية الكون وأين تقع نهايته؟، "ومن هنا فإن أطروحات "إسلامية المعرفة"، ونظامها المعرفي لا يضع نهاية مسرحية أو سيناريو تصويريا للوجود البشري أو الحضارة، بل يطلق ذلك النظام الفعاليات ويفتح الآفاق ويلغي تماماً التفكير في النهاية كإشكال معرفي، إذ إنها نهاية مفتوحة معرفياً لا حدود لها في هذه الدنيا"⁽³⁾.

المبحث الثالث: تطبيقات التكامل المعرفي عند العلواني.

لم يتوقف المشروع الإصلاحي عند العلواني على حد التنظير، بل امتد إلى الجانب التطبيقي، الذي يوضح الفكرة ويبرز إمكانية تنزيلها على الواقع، لذا نجده قد سطر مجموعة من الأمثلة للمشروع، وبثها في بعض مؤلفاته، وسأقتصر في هذا المبحث على ثلاثة منها، كما يأتي:

المطلب الأول: المؤسسة البرلمانية:

يرى العلواني أن هذه المؤسسة المهمة في تشكيل الدولة، وتحقيق النظام والأمن الداخلي لها، إذا أردنا فيها تحقيق النظام الإسلامي وتطبيق الشريعة الإسلامية، فلا بد من تفعيل مبدأ الشورى في قانونها الداخلي، باعتبار أن الشورى: هي عملية حوار وتعاون بين المعارضة والأغلبية من أجل الوصول إلى الحق والصواب، وتفعيل مبدأ الشورى في المؤسسة البرلمانية يتحقق عن طريق الالتزام بالتوجيه القرآني في فلسفة النظام الداخلي لها؛ أي أن الحزب الحاكم وغيره من الأحزاب سواء الموالية أو المعارضة كلهم يلتزمون بالشورى عند تطبيق الشريعة وتنزيل أحكامها على الواقع، كما أن الشورى تخالف نظام الديمقراطية المبني على الصراع بين الأغلبية والأقلية، واتباع رأي الأغلبية، بغض النظر عن صوابه أو خطئه، هذا فيما يخص القانون الداخلي المنظم لمؤسسة البرلمان، أما عن عملية الترشح لولوج هذه

(1) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص32

(2) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، ص22

(3) إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص32

المؤسسة في نظر العلواني فهي عملية تخضع للتجارب الإنسانية تتم دراستها والاستفادة من الصالح منها؛ وعليه فإن: "الفلسفة التي وراء المؤسسة، طريقة استخدام المؤسسة لدي فيه توجيه قرآني، لكن المؤسسة نفسها وطريقة الوصول إليها بالانتخاب المباشر أو غير المباشر تجارب إنسانية يمكن أن أدرسها وأحللها وأستفيد منها، دون أن أعتبر مقلدا أو تابعا"⁽¹⁾.

المطلب الثاني: النحت والتصوير:

عند حديث العلواني عن استنباط منهج للتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في تنزيل أحكام الشريعة على الواقع، وبعد أن وضع معالم ذلك المنهج البياني النبوي، ساق مثالا على تطبيقه في الوقت الحاضر، وهو: نهيه عليه الصلاة والسلام عن النحت والتصوير، وهل يفهم منه تحريم التصوير بكل أنواعه؟ الفقهاء يرون الحرمة انطلاقا من الأحاديث الواردة في المسألة كما قال سيد سابق: "جاءت الأحاديث الصحيحة الصريحة بالنهي عن صناعة التماثيل وعن تصوير ما فيه روح سواء أكان إنسانا أم حيوانا أم طيرا"، أما العلواني فيرى أن الإجابة عن هذا الإشكال بطريقة علمية، وفقا لمنهجية القرآن المعرفية التي اجتهد في استنباطها، تستوجب اتباع عدة خطوات منهجية تبدأ من الفهم الدقيق لمقاصد النبي النبوي عن التصوير، فقد "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل على قطع دابر صناعة الأوثان والترويج لها بين قوم حديثي عهد بالجاهلية ويريد رفع درجة يقينهم التوحيدي المجرد إلى أعلى المستويات"⁽²⁾، ثم فهم للفرق بين واقعنا وواقع نزول الوحي، مع اتباع المنهج النبوي باعتباره المنهج الناظم بين نصوص الوحي والواقع، من أجل "الوصول إلى المنهج الناظم الضابط لمثل هذه القضايا وقراءتها قراءة معرفية تخرج الأحاديث والسنن إلى دائرة المنهج بدلا من دائرة الجزئيات المتصارعة التي كثيرا ما يحولها المختلفون إلى أقوال جزئية تدل على الشيء ونقيضه وكأنها أقوال أئمة المذاهب المختلفة"⁽³⁾.

المطلب الثالث: المرأة وحقوقها في الإسلام

أثناء حديث العلواني عن الآفة الثالثة من آفات القراءة المتفردة للقرآن الكريم؛ وهي القراءة المؤدلجة؛ والتي ينساق فيها المسلمون أثناء صياغة أفكارهم ومعالجة قضاياهم وراء بعض الأيديولوجيات، ثم يلتمسوا لها الشواهد والأدلة من آيات القرآن الكريم، ضرب مثالا متعلقا بحقوق المرأة، ويؤيد كيف أثرت الليبرالية على أصحاب "فكر المقاربات" من المسلمين، حتى حاولوا منع ما شرعه الله من التعدد أو الميراث أو الشهادة _دفاعا عن إنسانية المرأة

⁽¹⁾ الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، د. طه جابر العلواني، 42_43

⁽²⁾ فقه السنة، سيد سابق (المتوفى: 1420هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت - ط3، 1397هـ - 1977م، ج3/ص498.

⁽³⁾ إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، ص25.

زعموا_ والذي أسقطهم في ذلك هو تعاملهم مع نصوص الوحي بشكل لا منهجي، وهنا أكد العلواني على أن مثل هذه القضايا تعالج بسلوك "المنهج القرآني الشمولي"، لأنه "حين نتجه إلى القرآن بشكل منهجي نستحضر خلاله الرؤية القرآنية الشاملة التي تبدأ مع بدء الخلق وتمر بالأسرة والشعوب والقبائل والمجتمع، ونستحضر القيم العليا لتقدم لنا التصور البديل المتفوق في تقدير إنسانية المرأة، واحترام تكوين الأسرة الصغرى مع الوحدات الكبرى فتحل وتعالج قضية التعدد أو الميراث أو الشهادة في ذلك الإطار الكوني"⁽¹⁾، فقد أشار العلواني إلى بعض الحكم من التشريع الإسلامي للتعدد، وهو ما نبه عليه سيد سابق بقوله: "وهذا التعدد ليس واجبا ولا مندوبا، وإنما هو أمر أباحه الاسلام، لأن ثمة مقتضيات عمرانية وضرورات إصلاحية لا يجمع بمشترع إغفالها، ولا ينبغي له التغاضي عنها"⁽²⁾.

الخاتمة:

الحمد لله الذي يسر لي ختام هذه الدراسة المتواضعة لمرتكزات وتمثلات وتطبيقات التكامل المعرفي عند الدكتور طه جابر العلواني _رحمه الله_، وسأتوجهها بزيادة ما تمخض عنها من النتائج، وهي:

1. يعتبر مشروع التكامل المعرفي الحصن الفكري والحضاري لأبناء المسلمين، والذي يحميمهم من الذوبان في الثقافة الغربية، أو الوقوع في الجمود المعرفي والتبعية للموروثات الثقافية دون تمحيص ولا نقد ولا تمييز.
2. يُمكن تأسيس النظام المعرفي القائم على عقيدة التوحيد والمنهجية القرآنية الجامعة بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية والإنسانية من مواكبة الواقع ومجرباته المتجددة.
3. ينبغي اتباع المنهج النبوي التطبيقي في فهم نصوص الوحي وتنزيلها على الواقع المعاصر، واستلهاهم الهدى المنهجي من سيرته _صلى الله عليه وسلم_، وفهم سنته فهما شموليا مجردا عن إسقاطات الزمان والمكان والأشخاص.
4. يقدم مشروع التكامل المعرفي للبشرية بديلا حضاريا قرآنيا وعالميا، ذي رؤية منهجية ومعرفية تنطلق من الجمع بين القراءتين: قراءة الكتاب المسطور، وقراءة الكون المنظور؛ بالمنهجية القرآنية الشاملة لكليهما.

(¹) معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، ص 61.

(²) فقه السنة، سيد سابق، ج 2/ص 114.

5. تتمحور مرتكزات التكامل المعرفي عند العلواني حول الرؤية المنهجية، والتي تتلخص معالمها في: الجمع بين قراءة الوحي والكون بمنهجية قرآنية، وفهم القرآن ضمن المنهج الأصولي، وتنزيل أحكامه على الواقع المعاصر بالمنهج النبوي في إطاره الشمولي، والاستفادة من التراث الإسلامي بالمنهج النقدي، والانتقاء من التراث الغربي بما لا يتنافى مع القيم والأسس المنهجية للدين الإسلامي.

التوصيات:

_ إن الأنظمة التعليمية لدى الدول العربية والإسلامية اليوم أحوج ما تكون لنظام معرفي مستمد من القرآن الكريم، يبين لأبنائها معالم الحياة، ويرسم لهم طريق الريادة والتقدم الحضاري والعمراني، وهذا ما يجعل الموضوع بحاجة إلى دراسة وتعميق البحث.

_ ضرورة تضافر جهود الباحثين على اختلاف مشاربهم من أجل توضيح معالم المنهج الإسلامي الذي يعيد تأسيس علوم الأمة على التوحيد والتزكية والعمران، ويعيد الارتباط بين القرآن والأمة وعلومها، ومقومات كيائها لتهض من كبوتها كلها وتخرج من أزمتها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

لائحة المصادر والمراجع:

- الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، د. طه جابر العلواني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الرابعة: 1414هـ/1994م.
- إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم. أ.د. طه جابر العلواني، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1417هـ/1996م.
- إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ورقة عمل، طه جابر العلواني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية: 1414هـ-1994م.
- الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. د. طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى 1427هـ/يناير 2006م.
- رحلة في فكر ومنهجية طه جابر العلواني، التيجاني عبد القادر حامد، مركز الإسلام في العالم المعاصر بجامعة شناندوا_فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى: أبريل 2022م.
- فقه السنة، سيد سابق (المتوفى: 1420هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، 1397هـ - 1977م.
- مشروع أسلمة المعرفة وإصلاح الفكر الإسلامي المعاصر (المبررات والأهداف) عند المفكر "طه جابر العلواني"، د. ثامر زروقي، المركز الجامعي آفلو (الجزائر) تاريخ النشر: 2020/02/08م.
- معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى: 1431هـ/2010م.
- نحو منهجية معرفية قرآنية محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، د. طه جابر العلواني، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى: 1425هـ-2004م.

المحور الثالث:
إسهامات العلواني
في تطوير الدرس المقاصدي

المحددات المنهجية القرآنية لاستئناف تجديد علم أصول الفقه:

قراءة في مشروع الدكتور طه جابر العلواني

حميد حقي

باحث بسلك الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم والإنسانية ببني ملال – المغرب

ملخص:

على الرغم من تعدد المشاريع الفكرية التي اشتغلت على تجديد علم أصول الفقه، إلا أن طرح التجديد الأصولي انطلاقاً من المحددات المنهجية القرآنية ارتبط أساساً بمشروع الدكتور طه جابر العلواني؛ مشروع الانطلاق من القرآن، في مسألة مختلف حقول المعرفة الإسلامية. ويهدف هذا البحث إلى إبراز معالم هذا المشروع، من خلال التحديد الدلالي لكل من التجديد الأصولي والمحددات المنهجية القرآنية، ثم أسس ومركزات هذا الطرح، وأهم القضايا ذات الأولوية فيه.

الكلمات المفتاحية: التجديد الأصولي، الفقه، المحددات المنهجية، التاريخ، الوحي.

“Quranic Methodological Foundations: A Key to Innovation in the Field of Islamic Jurisprudence Principles

An Examination of Dr. Taha Jabir Al-Alwani's project”.

Abstract

In spite of the existing literature aiming to renew the fundamentals of Islamic jurisprudence, the initiative of foundational renewal rooted in Quranic methodological frameworks was primarily associated with Dr. Taha Jabir Al-Alwani's inquiry. His research, starting from the Quran, aimed to engage diverse fields of Islamic knowledge. This paper seeks to highlight the features of this initiative by semantically defining both foundational renewal and Quranic methodological frameworks. It further explores the principles, pillars, and critical issues prioritized within this approach.

Keywords: Foundational Renewal, Jurisprudence, Quranic Methodological Frameworks, History, Revelation

مقدمة:

إن موضوع استئناف التجديد في علم أصول الفقه وإن كان يبدو أنه مما "قُبل بحثاً" كما يقال فإنه يظل مجالاً مفتوحاً لأي نظر تجديدي يمكن أن يشكل إضافة نوعية تنضاف إلى الجهود التجديدية السابقة، أو أن يسهم -على الأقل- في خلق نوع من التراكم المهيّج الذي يستفيد منه الباحثون إن على مستوى المضمون أو المنهج؛ وذلك لأن سؤال التجديد يرتبط بأسئلة شائكة يتجدد طرحها من حين لآخر، وأيضاً لأنه يرتبط بأهم علم من علوم الصناعة الفقهية التي ينتظر منها أن تتفاعل مع مستجدات الواقع ونوازلها.

غير أنه وإن كانت كثير من الكتابات الجادة المخلصة لرسالة الوحي قد قطعت أشواطاً كبيرة في تجديد هذا العلم قديماً وحديثاً إلا أن البعض ما يزال متحفظاً من مصطلح التجديد؛ إن على مستوى هذا العلم أو علوم إسلامية أخرى، أو التراث الإسلامي عموماً، ومن هؤلاء من يظن إلى اليوم أن تجديد التراث الإسلامي ضرب في ثوابت المعرفة الإسلامية، وتناول على الوحي، وتكرار لجهود علماء الأمة الأوائل... والحقيقة أن الأمر عكس ذلك؛ إذ التجديد في المعرفة الإسلامية لا يعني أكثر من الانتصار للوحي ومنهجيته المعرفية، وتفعيل مبدأ كون رسالته رسالة صالحة لكل زمان ومكان، ولا يعني أكثر من تطبيق مبدأ كون المعرفة البشرية محكومة بالنسبية، عكس الوحي الذي يكتسي خاصية الإطلاق؛ وما الجهود السابقة لعلماء الأمة إلا حلقات في بناء صرح العلوم وفق منهجية الوحي.

ومن هنا فإن الأسئلة المركزية التي ستثيرها هذه الورقة محاولة الإجابة عنها هي: ما مفهوم استئناف التجديد في علم أصول الفقه؟ وما الداعي إليه؟ ثم ما هي دلالة المحددات المنهجية القرآنية عند طه جابر العلواني؟ وهل بإمكانها أن تشكل مدخلاً لاستئناف التجديد الأصولي؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب فما السبيل إلى ذلك؟ وما هي بعض الجوانب التي ينبغي أن يشملها هذا التجديد؟

وعليه؛ فإن الهدف الذي تسعى هذه الورقة إلى بلوغه يمكن اختزاله في أربعة عناصر أساسية:

- تحديد مفهوم استئناف التجديد في علم أصول الفقه انطلاقاً من الرؤية المعرفية القرآنية
- التأكيد على الحاجة الماسة إلى استئناف التجديد في هذا العلم

- تحديد دلالة المحددات المنهاجية القرآنية عند طه جابر العلواني وأثرها في استئناف هذا التجديد

- الكشف عن بعض الجوانب المنهجية والمضمونية التي ينبغي أن يشملها هذا التجديد وبلوغ هذه الأهداف تنظم هذه الورقة في هذه المقدمة وأربعة مباحث وخاتمة.

أولاً: مفهوم استئناف التجديد في علم أصول الفقه

مفهوم "استئناف التجديد في علم أصول الفقه" هو مفهوم مركب ومستوعب؛ فأما كونه مركباً فلكونه يتركب من خمس مفردات أساسية هي: الاستئناف والتجديد والعلم والأصول والفقه، ولكل منها دلالة خاصة تسهم من جهتها في بناء هذا المفهوم، وأما كونه مستوعباً فلكونه يستوعب مختلف دلالات هذه المفردات بشكل ينسجم مع الرؤية المعرفية القرآنية، باعتبارها المؤسسة والموجهة للمفاهيم الشرعية والكونية. ولتحديد دلالة هذا المفهوم وطبيعته وتمييزه عن غيره، لابد من الوقوف قليلاً مع جملة من المفاهيم الأخرى والتفريق بين سياقات إطلاقها، ومن ذلك:

التفريق بين الوحي والتراث

فالوحي هو النص الديني المقدس المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، بينما التراث هو الجهود العلمية البشرية التي أسست من خلال استثمار الوحي أو تلك التي أنتجت خارجه؛ وهي كلها تظل عملاً بشرياً محكوماً بالنسبية، ومحمولاً للخطأ والنقص والخلل، وقابل للنقد والتجديد؛ فحينما نتحدث عن التجديد في علم أصول الفقه فإنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن القصد هو النيل من وحي الله المقدس، بل العكس تماماً؛ إذ الدعوة إلى جعل المحددات المنهاجية القرآنية مدخلاً لهذا التجديد هو تقديس للوحي المطلق على حساب المعرفة البشرية المحكومة بالنسبية؛ "فالقرآن نص معصوم محفوظ، ورسول الله ﷺ معصوم كذلك، ولكن البشر حين يتعاملون مع النص ليسوا بمعصومين، سواء أكانوا من أبناء القرون الثلاثة الأولى أم من غيرها، وتتحكم عوامل عديدة في فهمهم للنص، ولذلك فإن عصمة النص أو الخطاب لا تنسحب على فهم واجتهادات وآراء المتعاملين معه تفسيراً أو تأويلاً أو استنباطاً أو فقهاً، بل يبقى فهمهم فهماً بشرياً محدوداً، تعثره عوامل النقص البشري"¹.

¹ - نحو التجديد والاجتهاد، العلواني، طه جابر، دار تنوير للنشر والتوزيع، ط 1، 2008، ص 37

فإذن كل تراثنا الإسلامي يندرج ضمن دائرة النسبي "الذي من حقنا، بل من واجبنا مراجعته ونقده على الدوام، والتصديق على قضاياها بكتاب الله تعالى الذي اتصف بالتصديق على تراث النبوات كلها، فأى فهم بشري للقرآن الكريم عدا فهم رسول الله ﷺ، وعدا قواعد الاتباع ومنهجية التأسي برسول الله ﷺ في الربط بين الوحي والواقع، فهو موضع للمراجعة والنقد"¹.

التفريق بين تجديد أصول الفقه وتجديد علم أصول الفقه

فأصول الفقه هي الأدلة التي يستند إليها في الصناعة الفقهية، أو هي أصول الأحكام وأصول الشريعة؛ ومنها القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والقياس، "وهذه لها من الرسوخ والثبات والعموم والدوام، ما لا نزاع فيه، ولا غبار عليه"². بينما علم أصول الفقه هو مجموع القواعد المنهجية المستخلصة من الوحي؛ وهي إما قواعد للفهم والتفسير والتأويل، أو قواعد للتنزيل والاجتهاد والإفتاء... وعلى هذا الأساس فالمعنى بالتجديد ليس أصول الفقه التي يعتبر الوحي جزءا منها، وإنما تلك القواعد المنهجية التي أنتجها العقل المسلم في تفاعله مع الوحي.

التفريق بين تجديد أصول الفقه والتجديد في أصول الفقه

فالأول يحيل فيما يحيل إليه إلى أن المطلوب هو تجديد العلم كاملا؛ وهذه الصيغة قد يفهم منها أن هذا العلم لم يعد فيه شيء صالح، وأننا في حاجة إلى نسفه كاملا وإعادة بنائه من جديد، بينما الصيغة الثانية تحيل على أن المطلوب إنما هو تجديد بعض الجوانب داخل العلم؛ وأن العلم بما هو علم قائم الذات سيبقى ثابتا، وأن التجديد سيشمل فقط بعض جوانبه.

التفريق بين تجديد العلم واستئناف التجديد فيه

فإذا كان تجديد أصول الفقه كما تقدم يحيل إلى ضرورة نسف العلم كاملا وإعادة بنائه من جديد، كأن لم يكن من قبل، فإن استئناف التجديد يفيد أن ثمة جهودا سابقة في مسيرة تجديد ذلك العلم، وأن أي دعوة اليوم إلى التجديد الأصولي إنما هي دعوة لاستئناف

¹ - المرجع نفسه، ص 56

² - التجديد الأصولي: نحو صياغة تجديدية لعلم أصول الفقه، كتاب جماعي، إشراف أحمد الريسوني،

المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 1، 2014، ص 13

هذه المسيرة التي انطلقت بشكل علمي مع الشافعي. ثم من جاء بعده، وهي عملية مطلوبة بشكل دائم ومستمر؛ بما يضمن لرسالة الختم أن تكون حاضرة في حياة الناس، تجيب عن إشكالاتهم، وتواكب تطورات حياتهم؛ فالتجديد في العلوم عموما هو سنة شرعية مطلوبة؛ فنحن "حين نقدم على خطوة تتعلق بالتجديد عموما، وبـتجديد علم أصول الفقه خصوصا، فنحن نقوم بشيء هو من صميم سنن الحياة، بل هو من ضروراتها ومظاهرها، وهل هناك علم حي لم يتطور ولم يتجدد، أو تطور وتجدد، ثم توقف وأغلقت أبوابه"¹.

من خلال ما تقدم فإن المقصود باستئناف التجديد في علم أصول الفقه في هذه الورقة هو استئناف النظر التجديدي في قواعد وقضايا علم أصول الفقه في إطار المحددات المنهجية القرآنية باعتبارها الإطار المرجعي المهيمن على جميع العلوم والإنتاجات المعرفية البشرية؛ وتنزيل مقتضيات ذلك على الواقع بما يعيد الفاعلية لهذا العلم، ويجعله أداة لحل مشكلات الإنسان.

ثانيا: في الحاجة إلى استئناف التجديد في علم أصول الفقه

إن القول بضرورة استئناف التجديد في علم أصول الفقه ليس ضربا من الترف الفكري؛ وإنما هو ضرورة مجتمعية ضامنة لاستمرارية أثر الخطاب الشرعي في الواقع، كما أنه ليس استجابة لضغط خارجي، أو تبعية للغير، وإنما هو حاجة ذاتية تقتضيها طبيعة الشريعة الإسلامية التي كتب لها أن تتجاوز الزمان والمكان، وأن تجيب عن أسئلة الناس وتعالج قضاياهم.

بل إن نصوص الوحي في حد ذاتها هي نصوص تجديدية بطبيعتها؛ يقول الدكتور عبد الرحمان العضراوي: "إن النص الشرعي رؤية تجديدية للعقل الإنساني، فالتدبر لنقلاته التي جاء ليحدثها في السير التاريخي البشري، والمتمثلة في نقلة البناء التصوري للوجود، ونقطة القيم الضرورية للعيش الاجتماعي، ونقطة المعرفة والاستدلال العلمي النظري والتجريبي، يدرك فلسفة التجدد في بناء النص، وأنها تصورات وتصديقات ترسم معالم للمنهج الاجتهادي الذي لا ينقطع ولا يغلق في مواجهة الجهل والهوى والتقليد والجمود بكل أنواعه"¹. فإذا كان

¹ - المرجع نفسه، ص 13

¹ - أسئلة مقاصدية في قضايا معرفية العضراوي، عبد الرحمان، دار الأمان - الرباط، ط 1، 2023.

من خصائص الشريعة ونصوصها التجدد من أجل مواكبة تطورات الحياة البشرية، فإن من المفروض أن يكون علم أصول الفقه كذلك، وهو كذلك؛ باعتباره علم الصناعة الفقهية. ومن ثم فإن التجديد ملازم له منذ ولادته.

وما الخدمة التي قدمها الشافعي للأمة في رسالته إلا تجديدا لهذا العلم وإحياء له، فبعدما أدرك حاجة الناس إلى ذلك سعى إلى "أن يجمع أصول الاستنباط الفقهي وقواعده علما ممتازا، وأن يجعل الفقه تطبيقا لقواعد هذا العلم"¹. فهو عندما ألف الرسالة "إنما كان يرسم منهج الاستنباط وقواعده، لتجاوز ما ظهر في زمنه من اضطراب وفوضى في التعامل مع أدلة الشرع والاستنباط منها"². وقد عمد بذلك إلى "جمع أصول الاستنباط الفقهي، ولم قواعدها، وتحويل هذه القواعد إلى منهج بحث يستخلص الفقه به من أدلته، ويكون الفقه تطبيقا عمليا لقواعده"³. وهو بذلك لم يبتكر شيئا جديدا غير مسبوق، ولكنه جدد النظر في كيفية التعامل مع كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصحابة فاهتدى بذلك إلى ما اهتدى إليه، استجابة لمقتضى الواقع.

كما أن ما قام به الشاطبي بعده متمثلا في الموافقات ليس إلا استئنفا لمسيرة التجديد في هذا العلم، فهذا أحمد الريسوني يؤكد أن "تجديد الشاطبي في أصول الفقه ومقاصد الشريعة، أمر لا ينازع فيه أحد. وأننا لا نجد إلا من يشهد به أو يشير إليه"⁴. ويضيف أن "الشاطبي نفسه هو أول متنبه، وأول منبه على ما وفق إليه في موافقاته، من وجوه التجديد والإبداع"⁵. ونظرا لكون الشاطبي قصد التجديد، وعادة البعض في كل زمان أن يرفضوا كل تجديد غير مسبوق فقد همس في أذن كل قارئ لموافقاته قائلا: "فإن عارضك دون هذا الكتاب عارض الإنكار، وعي عنك وجه الاختراع فيه والابتكار وعر الظان أنه شيء ما

¹ - تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية مصطفى عبد الرازق، دار الكتاب المصري - القاهرة، ص 337

² - التجديد الأصولي، مرجع سابق، 2014، ص 68

³ - أصول الفقه الإسلامي منهج بحث ومعرفة: العلواني، طه جابر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 2، 1995، ص 46

⁴ - نظرية المقاصد عند الشاطبي الريسوني، أحمد، دار العالمية للكتاب الإسلامي، ط 2، 1412 هـ - 1992 م، ص 310

⁵ - المرجع نفسه، ص 10، مشيرا إلى قول الشاطبي: "ولما بدا من مكنون السر ما بدا، ووفق الله لما شاء منه وهدي" الموافقات 23/1

سمع بمثله ولا ألف في العلوم الشرعية الأصلية أو الفرعية ما نسج على منواله أو شكل بشكله، وحسبك من شر سماعه، ومن كل بدع في الشريعة ابتداعه؛ فلا تلتفت إلى الإشكال دون اعتبار، ولا ترم بمظنة الفائدة على غير اعتبار؛ فإنه بحمد الله أمر قررته الآيات والأخبار، وشد معاقده السلف الأخيار، ورسم معاملة العلماء الأخبار، وشيد أركانه أنظار النظر، وإذا وضع السبيل لم يجب الإنكار، ووجب قبول ما حواه والاعتبار بصحة ما أبداه والإقرار، حاشا ما يطرأ على البشر من الخطأ والزلل ويترك صحة أفكارهم من العلل؛ فالسعيد من عدت سقطاته، والعالم من قلت غلطاته..."¹.

وبناء عليه؛ فقد أصبح لزاماً أن تتطافر الأقلام الجادة التي تجعل الوحي منطلقها من أجل تدشين مراجعة جدية لهذا العلم؛ مراجعة تهتدي بمشروع بحجم مشروع الدكتور طه جابر العلواني، ويكون شعارها "بالوحي وفي سبيل خدمة الوحي"، والأهم في ذلك أن تكون المبادرة ذاتية خالصة؛ ذلك أن "من لا يراجع تراثه بنفسه ومن منطلق الالتزام به، فسوف يراجع له خصومه وأعداؤه بعين سخط، وقد تنال منه فتزيف قضاياه، وتشوه موضوعاته، وتغير طبيعته"².

ثم إن هذا الأمر لا يتطلب منا اليوم بالضرورة أن نبحث له عن مسوغات ومقتضيات؛ فهو أصل من أصول بنية هذا العلم المنهجية، التي قام عليها منذ بداياته الأولى إلى اليوم "إذ لم تخل مرحلة من مراحل صياغة أفكاره، ونظم إشكالاته عبر تاريخه من رؤى تسعى لإكساب مفاهيمه معنى تجديدياً، به يتم نضد أنساقه لتنسجم مع وظيفته المنهجية"³. غير أن الذي حدث في تاريخ الأمة أنه تم إغلاق باب التجديد في بعض الفترات التاريخية في مسار هذا العلم، وقد رصد الدكتور العلواني الأسباب التي كانت وراء تردد العلماء المسلمين في الدعوة إلى التجديد وممارسته في هذه الفترات بالتحديد في الآتي:

¹ - المواقفات الشاطبي، أبو إسحاق، ، تحقيق عبد الله دراز، دار الحديث - القاهرة - 1427 هـ / 2006 م.

ج1، ص12

² - نحو التجديد والاجتهاد، العلواني، مرجع سابق، ص19

³ - تجديد أصول الفقه: رؤية نقدية: الوافي، حميد، ، دراسة رقمية نشرها مركز نهوض للدراسات والنشر،

2018، ص4

- عدم القدرة على إدراك العلاقة الوثيقة بين تردّي أوضاع الحاضر وثقافة وأفكار الماضي، واللجوء إلى "تبرئة الماضي وتكريس صلاحيته وسلامته، وحجب الأنظار عن ملاحظة فيه، إلا إذا كان إيجابيا أو مما يمكن تأويله وتفسيره"¹.
- الفهم السيء للنقد؛ بحيث نجد خلطا كبيرا بين الآراء التي تعتبر اجتهادات شخصية وبين نقد شخصيات ورموز لها مكانتها في النفوس، ولذلك "فأي نقد يوجه لرأي قال به أو تبناه أحد قيادات الرأي أو المذهب يعد بمثابة نقد لصاحب الرأي أو المذهب"².
- اعتبار التجديد وإبداء الرأي المخالف للإجماع -بما في ذلك الإجماع السكوتي- شكلا من أشكال الاختلاف والانشقاق، وتهديد الإجماع والوحدة وتفريق كلمة الأمة.
- كون فترات الصراع مع غير المسلمين جعل من وحدة الرأي مطلبا لأصحاب القرار والمسؤولين عن تعبئة الأمة، وبالتالي اعتبار الرأي المغاير تفريقا لوحدة الأمة وتهديدا لهويتها.
- شيوع بعض الأفكار والعبارات التي تركز لتقديس التراث؛ من قبيل "ما ترك السالف للخالف شيئا" وأيضا "ليس في الإمكان أبدع مما كان".
- أثر مبالغة كتب الطبقات والتراجم في بيان مناقب الماضين من أهل العلم؛ مما أدى إلى تعظيم إنتاجاتهم وتقديسها وتجاوز سلبياتها، وما يمكن أن يعترها من نقص.
- ضريبة الجراءة على الدعوة إلى مراجعة التراث التي أداها كثير من العلماء الذين لحقهم الأذى من معاصريهم علماء وحكاما وجماهير؛ حيث "اتهم بعضهم بالردة، وتعرض بعضهم للأذى والسجن، وحرق الكتب، فكم من عالم في تاريخنا ذهب شهيد رأي أو مراجعة أو استدراك لتراث، وكم من إمام جليل شيع من سجنه إلى قبره"³.
- ومما يمكن استنتاجه من هذا الرصد الكاشف لواقع فترات مهمة من تاريخ المسلمين أن هذا الجمود الذي عرفه علم أصول الفقه في هذه الفترات ارتبط بالتاريخ وبالتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية، وليست له أي علاقة بمنطق الوعي، فهو إشكال تاريخي بامتياز. وقد تجلّى ذلك بصورة واضحة في هيمنة المنهج الحرفي والانشغال بالألفاظ على حساب المقاصد. حيث نجد "المنهج الحرفي والظاهري هيمن على المنهج الغائي والمقاصدي في

¹ - مقاصد الشريعة: العلواني، طه جابر، دار الهادي، ط1، 2001، ص14

² - المرجع نفسه، ص14

³ - المرجع نفسه، ص16

المعرفة الإسلامية هيمنة حكمت تطور التعامل العقلي مع الشريعة الإسلامية، وكانت مانعا من تطور النظرية المقاصدية"¹.

وقد ظل ذلك الجمود حاضرا بشكل قوي في صفوف العلماء إلى حدود القرن الثامن الهجري الذي اقترن باسم الشاطبي وموافقاته أشد الاقتران، بل حتى في هذه المرحلة نجد الشاطبي نفسه يتحفظ من الاجتهاد في أي شيء؛ وقد بلغ به التخوف من أن يساء فهم جهده التجديدي أو يقابل بالرفض حد التخلي عن بعض ما كان يريد ذكره من اجتهاداته، والاكتفاء ببعض الرموز والإشارات، وقد أشار إلى ذلك في خاتمة موافقاته قائلا: "وقد تم -والحمد لله- الغرض المقصود، وحصل -بفضل الله- إنجاز ذلك الموعود، على أنه قد بقيت أشياء لم يسع إيرادها، وقل -على كثرة التعطش إليها- ورادها. فخشيت أن لا يردوا مواردنا، وأن لا ينظموا في سلك التحقيق شواردها، فثنيت من جماع بيانها العنان، وأرحت من رسمها القلم والبنان، على أن في أثناء الكتاب رموزا مشيرة، وأشعة توضح من شمسها المنيرة، فمن تهدي إليها رجا بحول الله الوصول، ومن لا؛ فلا عليه إذا اقتصر التحصيل على المحصول"².

ثالثا: مفهوم المحددات المنهاجية القرآنية

المحددات المنهاجية القرآنية هي تعبير مرادف للمنهجية المعرفية القرآنية؛ وهي نظر مستأنف في خدمة القرآن الكريم؛ تشترك مع ما كتب عن خصائص القرآن الكريم الإعجازية، السنن الإلهية في القرآن، الخصائص العامة للإسلام من خلال القرآن، محاور القرآن الأساسية، التفسير الموضوعي للقرآن، الهدى المنهاجي... تشترك معها في "البحث عن أصول وكميات منهجية ترشد وتصوب النظر تفكرا وتدبرا في كتاب الله العزيز"³، لكنها تختلف عنها في كونها وظيفية إجرائية أكثر منها وصفية تقريرية"⁴. ومعنى ذلك أن هذه المحددات لا يتوقف دورها عند حدود وصف القرآن وتقرير مزاياه وبيان أوجه عظمته وقديسيته، وإنما تتجاوز ذلك كله إلى ما هو عملي؛ بحيث تعتبر إطارا مرجعيا للعمل؛ سواء في صناعة الفقه أو في معالجة مشكلات الناس أو في تقديم الحلول البديلة للعالم.

¹ - مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي: العضراوي عبد الرحمان، مركز نماء للبحوث والدراسات - بيروت، ط1، 2015، ص153

² - الموافقات: الشاطبي، مرجع سابق، ج5، ص423

³ - المحددات المنهاجية في القرآن الكريم: أصول تفسيرية ذات أولوية: شبار سعيد، دار المقاصد، ص9

⁴ - المرجع نفسه، ص9

إن الحديث عن هذه المحددات هو حديث عن نظر جديد لم يفرد بالتأليف إلا قلة قليلة من الباحثين المعاصرين الذين انتبهوا إلى ضرورة بناء محددات منهجية قرآنية تشكل إطاراً منهجياً ومرجعياً لمساءلة العلوم الإسلامية؛ باعتبارها جهداً بشرياً يكتسي طابع النسبية التي تطبع أي عمل بشري، وهي بذلك في حاجة ماسة إلى أن تهتدي بمنهجية القرآن ذات الطابع الإلهي المطلق... وفي مقدمة هؤلاء الباحثين الذين ألفوا في هذا الجانب أذكر أبا القاسم حاج حمد وطه جابر العلواني.

فأما حاج حمد فقد خصص لها كتاباً حمل اسم "منهجية القرآن المعرفية"؛ جعل الفصل الأول منه للحديث عن كون الوحي معادلاً للوجود، وإعادة الترتيب الوقفي للقرآن، ثم بنائية القرآن وضبط دلالاته اللغوية، بينما جعل الفصل الثاني لبسط القول في تطبيقات هذه المنهجية لأسلمة مناهج العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، وأما الفصل الثالث فقد خصصه للتفصيل في محدد من أهم لمحددات المنهجية في القرآن الكريم؛ وهو محدد الجمع بين القراءتين.

ويوضح حاج حمد في كتابه هذا أن المنهجية القرآنية التي يتحدث عنها هي تقنين للفكر، وأنه "دون هذا التقنين يتحول الفكر إلى تأملات وخطرات انتقالية قد تكون عبقرية ومشرفة جداً وذات جدوى في كثير من الأحيان، وتصلح للمواعظ والمجادلة الحسنة، ولكنها لا تكون منهجية"¹. كما أن هذه المنهجية – حسب الحاج حمد- "لا تقبل التوفيق ولا التوسط، فهي قانون محدد لإنتاج الأفكار"². فهي "كناظم مقنن لإنتاج الأفكار ذات النسق الواحد؛ فكل فكر تتعدد مقولاته وتتضارب إنما هو فكر غير منهجي، ولو التزم في إنتاجه الذهني بإطار مرجعي أرقى منه"³. كما يؤكد في السياق ذاته أن المنهجية القرآنية هي "خروج العقل من حالة التوليد الذاتي للمفاهيم إلى اكتشاف النسق المرجعي الذي يحاكم هذه المفاهيم نفسها، ويؤطر لإنتاجها؛ بحيث يحكم التطبيقات في مختلف الحقول الأخرى"⁴.

¹ - حاج حمد، أبو القاسم، منهجية القرآن المعرفية، دار الهادي، ط2، 2008، ص34

² - المرجع نفسه، ص34

³ - المرجع نفسه، ص35

⁴ - نفسه

والحق أن هذه المنهجية التي يقدمها حاج حمد من شأنها أن تضمن استئناف النظر التجديدي في العلوم الإسلامية عامة وفي علم أصول الفقه على وجه التحديد؛ باعتبار قيمته المنهجية ومركزيته في المنظومة المعرفية الإسلامية. فالقرآن الكريم الذي استمدت منه هذه المنهجية "وحده يملك التصور المنهجي والمعرفي البديل على مستوى كوني"¹. وهو بمقدوره أن يجاوز بالعلوم الإسلامية أزمته المنهجية والمعرفية، كما أنه بمقدوره أن يجاوز بالأمة الإسلامية المآزق الذي تعاني منه على مختلف المستويات والأصعدة، "فالقرآن العظيم المتضمن للمنهجية الكونية البديلة، والقابلة للاستكشاف المعرفي، الذي بمقدوره وحده إعادة الصياغة الفلسفية للحضارة العالمية الجديدة يحمله من لا يعاني أزمة المآزق الحضاري العالمي"². أي من لم يستشعر حداثتها بعد.

وأما طه جابر العلواني فهو الآخر كرس جهداً غير يسير في سبيل استخلاص المحددات المنهجية القرآنية وجعلها في خدمة المعرفة الإسلامية والمعرفة الكونية؛ وقد تجسد ذلك في أغلب كتاباته، لكنه تجلّى بشكل كبير في نوعين منها:

أولاهما: كتاباته العامة التي تتناول هذه المحددات بشكل عام دون التركيز على أحادها؛ ومن ذلك كتاب "نحو منهجية معرفية قرآنية"، كتاب "نحو التجديد والاجتهاد"، كتاب "معالم في المنهج القرآني".

ثانيها: كتاباته التي أفردتها بالتفصيل في محددات بعينها؛ ومن ذلك كتاب "الجمع بين القراءتين"، كتاب "الوحدة البنائية للقرآن المجيد". كتاب "حاكمية القرآن"، كتاب "التوحيد والتزكية والعمران".

ففي كتابه "نحو منهجية معرفية قرآنية" وبعد أن يؤكد أن الخطر الداهم للمسلمين الآن هو الارتداد إلى الموروث الديني الذي صاغه الأسلاف بطرائق إدراك ومعرفة خاصة عائدة إلى المكونات التاريخية لذلك الموروث... يأتي ليوضح أن "القرآن بخصائصه -ولا مصدر سواه- يستطيع أن يقوم بالتصديق والمراجعة ثم الهيمنة على سائر المناهج المطروحة، وإعادة صياغتها ضمن منهجه الكوني، والقرآن وحده وبتصديقه وهيمنته قادر على استيعاب تلك

¹ - المرجع نفسه، ص 38

² - المرجع نفسه، ص 40

المناهج وإصلاحها وتنقيتها وترقيتها ثم تجاوزها إيجاباً¹. ويؤكد ذلك في سياق آخر حينما يصرح قائلاً: "إن هذه المنهجية التي نتبناها منهجية قرآنية، جاء القرآن المجيد بجل خطواتها وتبناها علماءنا في وقت مبكر، والقرآن هو الذي علمنا أن الحاضر والمستقبل يؤسسان على الماضي، وأن آثار الماضي في الحاضر والمستقبل مما لا يمكن تجاهله، فالقرآن نفسه استرجع تراث النبوات كلها من آدم إلى خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام، وقام بنقده وتنقيته، وبيان ما شابه من شوائب وانحرافات، ثم بنى عليه الرسالة الخاتمة"².

ومن المحددات المنهجية التي يعول عليها العلواني لتكون مدخلا لهذا التجديد:

المحدد الأول: التوحيد محور الرؤية الكلية القرآنية

فالتوحيد باعتباره جوهر جميع رسالات الوحي، من شأنه أن يؤطر عملية التجديد في علم أصول الفقه، بل التجديد في جميع العلوم، كما أن "من شأنه تحرير الإنسان عقلا ونفسا وقلبا ووجدانا من الخرافة والأوهام، والمشاعر السلبية وسائر الضغوط والتحييزات التي من شأنها أن تقلل الطاقات المعرفية الواعية لدى الإنسان"³. ويوضح الدكتور طه قائلاً: "والتوحيد مدخل تفسيري ذو قابليات هائلة، وقدرات متنوعة لتفسير آلاف الظواهر النفسية والسلوكية والنظمية والمعرفية في مختلف المستويات"⁴. فهو بهذا الاعتبار بإمكانه أن يؤطر عملية التجديد في علم أصول الفقه؛ بل التجديد في العلوم الإسلامية كلها. وفي السياق ذاته، ومن هذا المنظور نفسه، يقول الدكتور عبد الرحمان العضراوي: "شكل مبدأ التوحيد في الهندسة القرآنية آلية نقدية وتركيبية لتكامل المعارف الشرعية والبشرية حول الله والإنسان والواقع. إنها آلية منهجية في بنائية التكامل المعرفي على مستوى المنهج النقدي القرآني في تصحيح المعارف ومراجعتها، وعلى مستوى محورية تفاعلية الصور المعرفية مهما تعددت عناوينها ومقاصدها"⁵.

¹ - نحو منهجية معرفية قرآنية العلواني، طه جابر، دار الهادي، ط 1، 2004، ص 22

² - العلواني، مقاصد الشريعة، مرجع سابق، ص 152

³ - المرجع نفسه، ص 72

⁴ - المرجع نفسه، ص 72

⁵ - آليات التداخل المعرفي القرآني وتجديد النموذج الإرشادي في العلوم الإسلامية، العضراوي، النشر

الجامعي الجديد - الجزائر، ط 1، 2018، ص 30

المحدد الثاني: المقاصد الشرعية العليا الحاكمة

هذه المقاصد هي التوحيد والتزكية والعمران وهي - بحسبه - كليات مطلقة قطعية جاءت بها جميع رسالات الأنبياء السابقين؛ ذلك لأنها "تعبير عن وحدة الدين ووحدة العقيدة ووحدة المقاصد والغايات في جميع الرسالات، وإن تعددت بعض جوانب الشرائع وتنوعت؛ فليس كل ما لاحت فيه حكمة أو علة أو ظهرت له مناسبة أو مصلحة عد مقصدا من المقاصد الشرعية العليا الحاكمة؛ إذ إن المقاصد الحاكمة تستوعب المقاصد الشرعية بالمفهوم الذي ساد لدى الأصوليين، والذي قصروا دوره تقريبا على بيان العلة أو الحكمة أو الوصف المناسب الكامن في الحكم الشرعي"¹. وهذه المقاصد بهذا المعنى "لن تكون مجرد دليل من الأدلة أو أصلا من أصول الفقه المختلف فيها أو المتفق عليها؛ بل ستكون المنطلق الأساس لإعادة بناء قواعد أصول الفقه وتجديدها ولبناء الفقه الأكبر عليها بعد ذلك إن شاء الله، ولغلبة تراثنا الفقهي وتصحيحه وتنقيته مما لحق به من شوائب عبر العصور، وإخضاعه لتصديق القرآن عليه، وهيمنته على جوانبه المختلفة، وتحريره من الأبعاد الإقليمية والقومية ليكون متاحا على مستوى عالمي"².

المحدد الثالث: الجمع بين القراءتين³

ويقصد العلواني بالقراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون؛ على أساس أن الله عز وجل يدعونا إليهما معا. يقول: "فالوحي ينبه إلى ما في الكون من عناصر ومؤثرات، وإلى ترابط الأسباب بالمسببات، وبين فعل الغيب في الواقع، وكيف يمكن رصد آثار هذا الفعل، وأين يبدأ الدور الإنساني وأين ينتهي أو يتوقف، والكون يساعد على فهم الوحي والوعي عليه وعلى قضاياه، وحسن قراءته، وكيفية استدعائه للحضور الدائم والشهود المستمر لترشيد المسيرة الكونية، وتحقيق أهداف وغايات الحق من الخلق"⁴. ويرى أن كلمة "اقرأ" التي وردت مرتين في مطلع سورة العلق "تدل على أمرين بقراءتين؛ لكل منهما معناها المراد بها، ولكل منهما

¹ - مقاصد الشريعة، العلواني، مرجع سابق، ص 138

² - المرجع نفسه، ص 140

³ - من الباحثين من يقول بالجمع بين القراءات، وليس القراءتين فقط، فالدكتور عبد الرحمان العضرأوي يرى أن هذا الجمع ينبغي أن يشمل قراءة الوحي وقراءة الكون وقراءة الإنسان.

⁴ - مقاصد الشريعة، العلواني، مرجع سابق، ص 73

خصائصها، ومجالها ومتعلقها، ومناهجها، وكيفياتها وميادنها". فهما قراءتنا، وليس قراءة واحدة¹.

المحدد الرابع: عالمية الخطاب القرآني

لقد أراد الله للخطاب القرآني أن يكون خطاباً للعالمين، وألا يكون خاضعاً لمنطق الحصر الزماني والمكاني الذي طبع رسالات الوحي السابقة. ثم إنه خطاب عالٍ من جميع جوانبه؛ بحيث "تشيع فكرة العالمية في جوانبه كلها؛ سواء منها جوانبه العقدية أو الشرعية أو رؤيته الكلية للكون والإنسان والحياة"². ثم إن من آثار هذه العالمية على الواقع أنها "عملت وتعمل على استيعاب التعدد بعد الإقرار به، ودفعه باتجاه (العالمية) ليتحول إلى عامل دفع في إطار تنوع بشري إيجابي، تهيمن عليه أنوار الهدى ودين الحق، التي لا تسمح ببروز أية أسباب أو عوامل للانقسام الديني والطائفي. فالإسلام قد جعل من نفسه محور جذب لا محور تناذب وطرده كالمركزية الغربية المعاصرة، وجعل من الأمة المخرجة قطب تأليف واستيعاب"³.

المحدد الخامس: حاكمية القرآن الكريم وهيمته

حاكمية القرآن عند العلواني هي "حاكمية كتاب أنزله الله جل شأنه ينفذ الإنسان المستخلف أياً كان نسقه الحضاري أو نمطه الثقافي أو مجاله المعرفي ما يأتي به من توجيهات، لتحقيق الهدى، وإظهار الحق، والفصل بين الناس"⁴. ويؤصل لها بما ورد في القرآن الكريم نفسه من نصوص صريحة في أن الحكم والحاكمية لله وحده، منها قوله تعالى: ((إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفْضُلُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ)) [الأنعام: 58]، وقوله: ((وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ)) [الشورى: 8]، وقوله: ((وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)) [المائدة: 49]، وقوله: ((وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)) [المائدة: 46]. وهذه الحاكمية من شأنها أن تحرر البشرية وتخرجها من تسلط أي

¹ - الجمع بين القراءتين (قراءة الوحي وقراءة الكون العلواني) طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية - القاهرة، ط1، 2006، ص15

² - الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر: العلواني، طه جابر، دار الهادي - بيروت، ط1، 2003، ص55

³ - نحو منهجية معرفية قرآنية، العلواني، مرجع سابق، ص462

⁴ - حاكمية القرآن، العلواني، طه جابر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - واشنطن، 1996، ص22

أحد باسم الحق الإلهي [...].، وتعطي للإنسان قدرة مستمرة على تجديد الأحكام، من خلال تعامل الأجيال القارئة مع القرآن الكريم، وتنظيم الحياة بشكل مرن واسع، في إطار تلك القيم القرآنية المطلقة القادرة على استيعاب أي واقع إنساني، مهما كان، وبفهم إنساني متجدد، من حقه أن يكون مختلفا من بيئة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر، مستفيدا في كل الأحوال من الخبرات والتجارب¹.

المحدد السادس: الوحدة البنائية للقرآن الكريم والاستيعاب الكوني

فهو يرى أن القرآن لا يقبل التجزئة ولا الاختلاف ولا التصنيف، فهو كما يقول: "يضم منهجية كونية، وأنه بذلك يتميز بوحدة بنائية في كل آياته وفي سوره كافة، وهذه الوحدة تجعل من المحال أن يقع في القرآن تضارب أو اختلاف أو نسخ أو تعارض، وأن كلماته، بل وحروفه لا يمكن أن تكون ميدانا للتأويلات الشاذة المتضاربة إذا تلي حق تلاوته، فمفرداته منضبطة في دلالتها انضباط النجوم في مواقعها من السماء"².

المحدد السابع: الرسالة الخاتمة وحاملها رحمة للبشرية

كثيرا ما يستحضر العلواني وهو يتحدث عن رسالة الختم تلك الآيات التي تؤكد أن النبي ﷺ إنما بعث رحمة للعالمين، وقد قال ربنا سبحانه مخاطبا نبيه: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)) [الأنبياء: 107]، وهكذا هي طبيعة رسالة الختم "فكونها رحمة يضع جملة من القواعد الأصولية يستغرب غياب بعضها عن كثير من الأذهان؛ فكون الرسالة والرسول رحمة يغير كثيرا من القضايا: فلا تكليف بما لا يطاق، ولا تبعية لشرائع الإصر والأغلال قبلنا، ولا حرج في هذه الرسالة وشريعتهما بأي معنى من معاني الحرج..."³.

ولكي تتمكن من تنزيل هذه المنهجية على علومنا الإسلامية فيكون لذلك الأثر الإيجابي المنشود يشترط العلواني تحقيق عدة أمور تمهيدية قبل الولوج إلى رحاب القرآن⁴:

¹ - نفسه، ص 23

² - مقاصد الشريعة، العلواني، مرجع سابق، ص 75

³ - نفسه، ص 157

⁴ - نحو منهجية معرفية قرآنية، العلواني، مرجع سابق، ص 23

الأول: تجريد وتنقية الوعي من سائر آثار النسبية البشرية التي أحاطت بمطلقه، وحجبت أنواره، وأخضعته لوعيمها الذاتي، وحكمت عليه بتاريخانيته، وحكمت بمحكمه أيديولوجياتها وثقافتها وأعرافها وتقاليدها...

الثاني: التزام بالأمانة مع القرآن فكريا ونفسيا؛ فلا ندخل إلى عالم القرآن بحثا عن شواهد لأفكار بنيانها ومبادئ وضعناها خارجه؛ لأن المطلوب أن تبدأ حركة التغيير بالقرآن من داخل النفس، فإذا تهيأت النفس وانفعلت به انعكس استعدادها وتهيؤاتها وانفعالها بالإصلاح على ما حولها...

الثالث: الدخول إليه بعد فهم الأزمة وإدراك أبعادها، والإلمام بتعقيداتها، والإيمان بقدرة القرآن المجيد على إيجاد حل مناسب لها، وأن لا مصدر غير القرآن يستطيع أن يقدم العلاج الشافي فيها.

الرابع: إدراك الخصائص الذاتية للأمة القطب أو للأمة المنطلق الذي يراد لها أن تكون ميدان الإصلاح والتغيير الأول، وقاعدة الانطلاق باتجاه العالم والعالمية.

رابعا: قضايا أصولية ذات أولوية بالتجديد في مشروع العلواني

باستحضار مقتضيات المحددات المنهجية القرآنية، وبالرجوع إلى جملة من المشاريع التجديدية التي اشتغلت على علم أصول الفقه يمكننا أن نخلص إلى أن القواسم المشتركة بينها أن كلا منها ينطلق من القرآن الكريم في طرحه التجديدي؛ غير أن هذا البعد لم يظهر بشكل واضح وجلي إلا مع الدكتور طه جابر العلواني الذي تفوق بشكل لافت للنظر في ثقته الكبيرة بالمنهجية القرآنية، وقدرتها على حل أزمت العلوم الإسلامية، بل والمناهج الوضعية الغربية.

فقد كان العلواني سباقا لإثارة كثير من القضايا الشائكة في علم أصول الفقه، والتي صرح غير ما مرة أنه لا يطرحها بالضرورة ليقدم إجابات كافية عنها، وإنما -على الأقل- لإثارة النقاش حولها، ويؤكد أن التجديد في هذه القضايا يتطلب تجنيد مئات الباحثين في مختلف التخصصات وعقد ندوات ومؤتمرات وورشات... من أجل الخروج بمشاريع تجديدية عملية وواقعية. ومن هذه القضايا:

1. تخلص علم أصول الفقه من المباحث الدخيلة أو التي لا يحتاج إليها الفقيه

ومن ذلك مبحث (شرع من قبلنا شرع لنا) ومبحث (حكم الأشياء قبل ورود الشرع) والنزاع في مسألة (شكر المنعم) وقضية (التحسين والتقبيح العقليين)، والعناية الزائدة بالحدود والتعاريف والانشغال بمناقشتها، وكذا المباحث المتعلقة بالنزاع حول القراءات الشاذة، وعربية جميع القرآن... فهي - في نظر العلواني - إما مباحث دخيلة على أصول الفقه، أو أنها لا تستحق حجم الاهتمام الذي حظيت به، أو أنه لا ينبغي عليها عمل. ويؤكد أن مناقشة مثل هذه المسائل في علم أصول الفقه "دليل على أن وراءها أسئلة مثارة، وإلا لما طرحت ودار حولها حوار، ودخلت أبواب هذا العلم، وذلك بقطع النظر عن عدد أو حجم القائلين بها، أو ما يترتب عليها من مسائل فقهية"¹. وقريب من هذا القول ما ضمنه الشاطبي المقدمة الرابعة من موافقاته؛ يقول: "كل مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبغي عليها فروع فقهية، أو آداب شرعية، أو لا تكون عوناً في ذلك؛ فوضعها في أصول الفقه عارية. والذي يوضح ذلك أن هذا العلم لم يختص بإضافته إلى الفقه إلا لكونه مفيداً له، ومحققاً للاجتهاد فيه، فإذا لم يفد ذلك؛ فليس بأصل له"².

فإذا أخذنا على سبيل المثال قضية (شرع من قبلنا شرع لنا أم لا؟) نجده يربطها بمحدد كون الرسالة خاتمة وحاملها رحمة للبشرية. ليؤكد على أن مثل هذا السؤال "لا يتوقع طرحه في وسط أمة من المعلوم لديها بالضرورة أن شريعتها تحمل خصائص العموم والشمول والكمال والنسخ الكلي للشرائع السابقة"³. وكثيراً ما يستشهد على هذه القضية بما ورد في القرآن الكريم من نصوص صريحة في كون رسالة الإسلام جاءت لترفع عن الناس الإصر والأغلال التي عليهم، ومن ذلك قوله تعالى في وصف نبيه محمد ﷺ: ((وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)) [الأعراف: 157]. وعلى الرغم من ذلك - يقول - يصر بعض الأصوليين على أن يجعلوا ذلك أصلاً من أصول التشريع. "فكأنهم بذلك أرادوا توريث أمة محمد ﷺ شرائع الإصر والأغلال التي نسختها رسالته وأبطلتها شرعته ورفعت عنها بالرحمة المهداة والنعمة المسداة"⁴.

¹ - مقاصد الشريعة، العلواني، مرجع سابق، ص 30

² - الموافقات، الشاطبي، مرجع سابق، ج 1، ص 37

³ - نفسه، ص 30

⁴ - العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية، مرجع سابق، ص 142

2. إعادة دراسة وترتيب الأدلة أو الأصول الاجتهادية

فهو ينطلق من محدد حاكمية القرآن وهيمنته ليدعو إلى ضرورة إعادة دراسة وترتيب الأدلة الشرعية التي تضمنتها جميع مؤلفات أصول الفقه، كالمقاييس والاستحسان والمصلحة وغيرها؛ ويرى أن من المهم جدا أن تتم دراستها دراسة تاريخية تجلي الظروف التي أملت على الأصوليين القول بها، وهذا الأمر سيأتي بلا شك نوعا من الحس الفقهي بها لدى الباحثين في مجالات الفقه والأصول. ومن الإشكالات التي يطرحها موضوع أدلة الفقه هو الاختلاف الواسع فيها؛ بحيث "بلغ عدد الأدلة المختلف فيها عند بعض متأخري الأصوليين سبعة وأربعين دليلا؛ بعضها لم تبين عليه إلا مسألة واحدة من مسائل الفقه"¹.

ومن أبرز الإشكالات المقلقة التي شغلت الدكتور طه في باب الأدلة إشكالية السنة النبوية في علاقتها بالقرآن الكريم، وإشكالية حجية قول الصحابي، وعمل أهل المدينة؛ فنجدته يرفض رفضا قاطعا اعتبار السنة النبوية دليلا مستقلا بتشريع الأحكام؛ مؤكدا أن جميع ما جاءت به السنة من التشريعات الجزئية يدخل تحت كليات القرآن ومقاصده. وهي الإشكالية التي أفردتها بمؤلف خاص، جعله في أزيد من أربعمئة صفحة؛ يؤكد من خلاله "أن القرآن الكريم يشتمل على الدين كله عقيدة وشريعة ونظم حياة؛ ما فرط الله فيه من شيء، فهو تبيان لكل شيء، والسنة والسيرورة تطبيق عملي، واتباع وبيان شامل لكل ما جاء القرآن به"². وذلك لأن القرآن الكريم يمتاز عن غيره من الأدلة بخاصية الحاكمية والهيمنة على ما سواه، بما في ذلك السنة النبوية. ويعتبر العلواني سبب هذا الارتباك الحاصل في ترتيب الأدلة الشرعية إلى تصور "تناهي النصوص وعدم تناهي الوقائع"، باعتباره التصور الذي فرض على العقل المسلم السعي إلى تكثير أدلة التشريع.

3. اعتبار المقاصد العليا الحاكمة منطلقا أساسيا لإعادة بناء قواعد علم أصول

الفقه

لقد لاحظ العلواني غياب اهتمام الأصوليين بالمقاصد العليا الحاكمة توحيدا وتزكية وعمرانا - باعتبارها محددات من المحددات المنهجية القرآنية - رغم كونها كليات مطلقة

¹ - المرجع نفسه، ص 34

² - العلواني، طه جابر، إشكالية التعامل مع السنة النبوية. المعهد العالمي للفكر الإسلامي - الولايات

المتحدة الأمريكية، ط 1، 2014، ص 16

قطعية، مصدرها الوحيد هو القرآن الكريم، ورغم كونها قادرة على ضبط الجزئيات والقضايا والنوازل التي تعترض حياة الإنسان كلما تطور المجتمع، يقول: "فمن وفقه الله لضبط قواعد الفقه وکلياتها وأصوله وفروعه معا بالمقاصد العليا فقد حاز الخير كله، وأطلق الأمة من عقالها"¹. ذلك أن "تشغيل منظومة المقاصد العليا القرآنية سوف يؤدي إلى غرس قابلية التجدد الذاتي في أصولنا وفقهنا، وسوف تقيمها وتحفظها من عوامل الفتور والظرفية التي تصيب الشرائع"². ومن شأن هذه المنظومة المقاصدية كذلك أن "تؤدي إلى غربة الفقه الإسلامي، وتمكين القادرين من إمعان النظر في أصوله وفصوله، والميز بين كلياته وجزئياته، وتمكين الفقهاء المعاصرين من منهج يمكنهم من معالجة مستجدات العصور، وحل الإشكالات الحادثة والوقائع المتجددة حلا إسلاميا ينسجم وخصائص هذه الشريعة"³. ومن الآثار المترتبة عن غياب الاهتمام بهذا المحدد على المستوى الفقهي بحسب الدكتور طه:

- بقاء الفقه الإسلامي حبيس الدائرة التقنية الضيقة
- تكريس مفهوم التعبد بمعنى التحنث المحض
- الإغراق في الفقه الجزئي والانشغال عن الفقه الكلي الحضاري
- الخلط بين الثابت والمتغير، وبين المقصد والوسيلة
- المبالغة في الاهتمام بالألفاظ وفق المنطق الأرسطي، على حساب المضامين والأحكام والمقاصد

- الهروب من الواقع البئيس إلى الماضي الغابر، أو المستقبل المجهول

4. الاهتمام بفقه الصحابة والتابعين ورصد القواعد المعتمدة لديهم في الاستنباط ومنطلق هذه الدعوة -بحسب العلواني- أن هؤلاء الصحابة والتابعين كانوا يستحضرون روح المحددات المنهاجية القرآنية في اجتهاداتهم، وإن لم يصرحوا بها أو يصطلحوا عليها بما سميت به الآن. فإذا أخذنا نموذج عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه كان في اجتهاداته "كصيدلاني حكيم؛ يحاول أن يركب الدواء الذي يشفي من الداء من غير أية أعراض جانبية. ولذلك فقد ترك لنا فقها متميزا، وثروة فقهية هائلة [...] لقد كان رضي الله عنه ذا عقلية

¹ - نحو التجديد والاجتهاد: العلواني، مرجع سابق، ص 51

² - مقاصد الشريعة، العلواني، مرجع سابق، ص 140

³ - المرجع نفسه، ص 167

كلية، وحس عام، سرعان ما يربط الجزئيات بالكليات، يرد الفروع إلى الأصول والضوابط العامة. كان هذا شأنه في عهد رسول الله ﷺ، ثم في عهد خليفته من بعده، ولم يخرج عن ذلك حين آل الأمر إليه¹. ويؤكد العلواني على ضرورة الاهتمام بدراسات تأصيلية تطبيقية في هذا المجال؛ لكون المجتهدين المعاصرين في حاجة ماسة إلى الاهتداء بمناهج الاستنباط لدى الصدر الأول؛ وخاصة الخلفاء الراشدين ومعاصريهم من أهل الفتوى من الصحابة والتابعين، "لتكون هذه الدراسات بين أيدي أولئك الذين يراد منهم الاستجابة التشريعية لمتطلبات مجتمع إسلامي معاصر"².

5. اعتماد الاجتهاد المؤسساتي بدلا من المجتهد المطلق

انطلاقاً من محدد كون الرسالة الخاتمة وحاملها رحمة للبشرية ومحدد المقاصد العليا الحاكمة يدعو العلواني إلى تجاوز الاجتهاد الفردي وإحلال الاجتهاد المؤسساتي محله في كثير من القضايا؛ وذلك لسببين:

الأول: أنه أصبح من المتعذر في زماننا وجود المجتهد المطلق.

الثاني: أن أحوال الناس تغيرت، فهناك قضايا لا يمكن أن يعول في الإفتاء فيها على فرد واحد، حتى ولو كان مجتهداً مطلقاً بالمعنى الذي كان يتحدث عنه علماء الأصول سابقاً.

ولذلك أصبح لزاماً إنشاء مؤسسات للاجتهاد الجماعي في كل بلد؛ ولكي تتمكن هذه المؤسسات من تلبية احتياجات الأمة في قضايا التشريع لا بد أن تتألف من خبراء تتنوع اختصاصاتهم وتغطي جميع مناحي الحياة، وبذلك يستطيعون أن يتبنوا أي قضية تعرض عليهم من جوانب مختلفة؛ شريطة أن تكون لدى كل منهم "معرفة تامة بالقواعد والأصول العامة للشريعة الإسلامية، ويكون من بينهم فقهاء على أعلى مستوى ممكن في العلوم الشرعية والأدلة التفصيلية"³. وتعتبر قضية فقه الأقليات واحدة من القضايا الاجتهادية التي يتعذر أن يعول فيها على الاجتهاد الفردي، وقد خصص لها الدكتور العلواني جزءاً مهماً من كتابه (مقاصد الشريعة). مؤكداً فيه أن بعض من تصدروا لصناعة الفتوى حاولوا مقارنة الموضوع بمنطق الضرورات والنوازل "ناسيناً أنه منطق هش، لا يتسع لأمر ذات بال، وربما واجه

¹ - أصول الفقه منهج بحث ومعرفة، العلواني، مرجع سابق، ص 25-26

² - نحو منهجية قرآنية معرفية، العلواني، مرجع سابق، ص 457

³ - المرجع نفسه، ص 457

المسلم فوضى في الإفتاء؛ فهذا الفقيه يحل، وذاك يحرم، وثالث يستند إلى أنه يجوز في دار الحرب ما لا يجوز في دار الإسلام، ورابع يقيس الواقع الحاضر على الماضي الغابر، قياساً لا يأبه بالفوارق النوعية الهائلة بين مجتمع وآخر، وبين حقبة تاريخية وأخرى¹. والحقيقة أن قضية كهذه "لا يمكن أن تواجه إلا باجتهاد جديد؛ ينطلق من كليات القرآن الكريم وغاياته وقيمه العليا، ومقاصد شريعته، ومنهاجه القويم، ويستنير بما صح من سنة وسيرة الرسول ﷺ في تطبيقاته للقرآن وقيمه وكلياته"².

6. استحضار عالمية القرآن وعدم قصر الحكم الشرعي على المكلفين

ارتباطاً بمحدد كون الرسالة الخاتمة وصاحبها رحمة للبشرية ومحدد الجمع بين القرآن وطرح العلواني قضية أخرى لا تقل خطورة عن سابقتها؛ وهي قضية قصر الأصوليين للحكم الشرعي على المسلمين، وتعريفهم له بأنه خطاب الله المتعلق بأحكام المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع؛ في حين أن "الخطاب الإلهي القرآني خطاب عام شامل يتناول الجنس البشري كله إلى يوم القيامة، وقد أكدوا هذا العموم وفصلوا قضاياها، ولكنهم حين تناولوا القضايا الفقهية الجزئية اختلفوا في تناول الخطاب القرآني الإلهي بفروع الشريعة لغير المسلمين، فألقى ذلك النزاع ظلالاً على عموم الخطاب القرآني وشموله للناس كافة انعكست آثاره الفكرية على عالمية الخطاب القرآني، وأفترزت كثيراً من القضايا التي كان على العقل المسلم أن يكون في منأى عنها"³. كما أن اهتمامهم بالمكلف من جهة تعلق الحكم به "جعل الاهتمام ينصب على قضايا أهلية التكليف وخوارم هذه الأهلية وشروطها وعوارضها، بشكل أدى إلى قراءة الخطاب الإلهي قراءة واحدة من ناحية، وجزئية من ناحية أخرى"⁴. وهو ما نتجت عنه آثار سلبية كثيرة على التراث الفقهي الإسلامي.

7. استحضار فقه العمران والشهود الحضاري في تفسير الفرض الكفائي

يؤكد الدكتور طه أن من آثار الخروج عن منهجية القرآن المعرفية، وعدم تفعيل محدد الجمع بين القراءتين في حقل أصول الفقه، تفسير الأصوليين لمفهوم فروض الكفاية تفسيراً قاصراً؛ ينطلق من مفهوم التكليف الفقهي وحده، ويغيب منطلق العمران والشهود

¹ - مقاصد الشريعة العلواني، مرجع سابق، ص 99

² - المرجع نفسه، ص 100

³ - نحو منهجية معرفية قرآنية، العلواني، مرجع سابق، ص 139

⁴ - المرجع نفسه، ص 139

الحضاري، وقد أدى تعريف فرض الكفاية بكونه الفرض الذي إذا قام به البعض سقط عن الآخرين إلى "إهمال تلك الفروض التي تعتبرها منهجية القرآن جزءاً لا ينفصل عن المفهوم الشامل للعبادة"¹. حيث "أدرجت كل متطلبات العمران والشهود الحضاري تحت مفهوم فروض الكفايات"². وهو ما أدى بحسبه إلى أمرين:

الأول: إهمال الفروض المتعلقة بالعمران والشهود الحضاري؛ بالرغم من كونها جزءاً لا يتجزأ من المفهوم الشامل للعبادة، وفق الرؤية القرآنية الكونية.

الثاني: تعطيل قراءة الكون، من خلال التركيز على الفقه الجزئي بدل الفقه الكلي؛ الذي يستوعب آيات النص وآيات الآفاق والأنفس.

وهنا تظهر أهمية محدد الجمع بين القراءتين في كونه يوجه كلا من الأصولي والفقيه إلى الاهتمام بالقراءتين معاً، وعدم إهمال إحدهما على حساب الأخرى؛ على اعتبار أن جميع العلوم – نصية كانت أو كونية – ينبغي الاهتمام بها فيما يفيد المكلف في أداء واجب العبادة والاستخلاف والعمارة؛ "فالفلك ينبغي أن يتعلم منه ما يساعد على ضبط مواقيت الصلاة؛ فتعلمه من قبيل ما لا يتم الواجب المطلق إلا به، وما كان مقدوراً للمكلفين فهو واجب، وإلا فلا قيمة له. والهندسة يجب تعلم ما يستدل به منها على تحديد اتجاهات القبلة. وكثير من العلوم والمعارف التي جعلها الفقه تدور في فلكه حيث دار، وتقتصر على تلبية حاجات الفقيه فقط"³.

8. اعتبار قواعد أصول الفقه إطاراً مرجعياً كلياً، لا مجرد شواهد للفقه والفتوى

يقرر العلواني أن محدد المقاصد العليا الحاكمة يقتضي أن يكون إطاراً معيارياً لقواعد أصول الفقه، وأن أصول الفقه ذاتها -باعتبارها وسائل منهجية لتحقيق المقاصد- ينبغي أن تؤطر صناعة الفقه والفتوى؛ وقد انتبه إلى أن كثيراً من الفتاوى والاجتهادات الفقهية تتم صناعتها بعيداً عن قواعد المنهج الأصولي، حتى إذا ما صارت جاهزة للتجاء أصحابها إلى هذه القواعد، بحثاً لها عن شواهد تعضدها؛ ذلك "أن الناس قد خاضوا في الفقه، وقالوا فيه قبل أن يتكلموا في أصوله - إلا ما كان من الشافعي في فقهه الجديد-

¹ - المرجع نفسه، ص 140

² - المرجع نفسه، ص 140

³ - المرجع نفسه، ص 140

ولذلك كان أصول الفقه قد أخذ عند غيره دور المبرر للفتاوى، لا دور القانون الكلي، ومنهج البحث الذي يحكمها¹. وقد ضرب مثالا بأبي حنيفة الذي أفتى -بحسبه- فيما يقرب من نصف مليون مسألة من المسائل الفقهية التي تناقلها أصحابه، بينما لم تنقل عنه قواعد الأصول التي فرع عنها تلك المسائل بسند متصل إليه؛ باستثناء بعض العبارات القليلة. ومما يمكن أن يستخلص من ذلك ثلاثة أمور:

- أن صناعة تلك الأحكام الفقهية كان سابقا عن قواعدها الأصولية
- أن من قعد أصوليا لتلك الأحكام ليس هو الإمام أبو حنيفة، وإنما تلاميذه
- أن هاجس تلاميذ أبي حنيفة هو الانتصار لمذهب شيخهم، والسعي إلى تبرير ما توصل إليه

من خلال هذا العرض الموجز لأهم القضايا الأصولية التي يعتبرها العلواني ذات أولوية في عملية التجديد، انطلاقا من مدخل المحددات المنهاجية القرآنية، يمكن التأكيد على النتائج الآتية:

الأولى: أن قواعد علم أصول الفقه مهما بلغت من النضج المعرفي والمنهجي، ومهما حصل من الإجماع حولها، ليست قواعد نهائية أو مطلقة؛ فهي محكومة بالنسبية؛ شأنها شأن أي صناعة بشرية.

الثانية: أن هذه القواعد تظل في حاجة دائمة إلى التجديد والمراجعة بشكل يجعلها متناغمة مع ما تقتضيه المحددات المنهاجية القرآنية من جهة، وما يجعلها قادرة على التفاعل مع مستجدات ونوازل كل عصر من جهة ثانية.

الثالثة: أن المحددات المنهاجية القرآنية قادرة على تأطير عملية تجديد جميع العلوم بما في ذلك علم أصول الفقه؛ ذلك أن هذه المحددات هي محددات قرآنية؛ تأخذ قوتها من قوة القرآن، باعتباره الإطار المرجعي المهيمن على جميع الإنتاجات المعرفية البشرية.

¹ - المرجع نفسه، ص 452

خاتمة:

وبعد هذا الذي تقدم يمكن تحديد أهم الخلاصات التي توصلت إليها البحث في الآتي:

- أن موضوع استئناف التجديد في علم أصول الفقه وإن كان يبدو أنه مما استنفذ أغراضه البحثية إلا أنه ما يزال بابا مفتوحا أمام الباحثين الذين يدركون حجم الأمانة وجسامتها؛ سيما وأن ما كتب في الموضوع -إذا استثنينا بعض المحاولات النادرة- ما يزال في دائرة التنظير أو مجرد الدعوة، ولم يجد بعد سبيله ليخرج إلى أرض الواقع على شكل مشاريع عملية ملموسة.

- أن الحاجة إلى استئناف التجديد في علم أصول الفقه ليست وليدة اليوم، أو أنها خضوع لتأثير خارجي أو تبعية للغير؛ وإنما هي أصل من أصول هذا العلم الذي أريد له أن يتجدد دائما ليحقق عالمية الرسالة الخالدة، وصلاحياتها لكل زمان ومكان.

- أن ما قام به الشافعي تمثلا في الرسالة وما قام به الشاطبي تمثلا في الموافقات لا يختلف عن طرح المعاصرين أمثال الترابي والعلواني في كون ذلك كله محطات استئنافية في مسيرة تجديد علم أصول الفقه؛ فلكل عصر مجددوه، ولكل فترة أولوياتها في التجديد... وأنه لا شيء من ذلك يكتسي طابع الإطلاقية والعصمة؛ فهي إنتاجات بشرية نسبية يعتريها ما يعتري أي عمل بشري.

- أن المحددات المنهجية القرآنية باعتبارها إطارا مرجعيا ناظما ومهيما وضابطا للعلوم المستمدة من الوحي هي المدخل الآمن لاستئناف التجديد في علم أصول الفقه؛ وهي الإطار الضامن لتقويم هذا العلم ومساءلته وتنقيته مما علق به مما لا ينسجم مع طبيعة الوحي وخصائصه ومقاصده.

- أن من أولويات هذه المرحلة ليس هو حصر القضايا المنهجية والمضمونية التي يمكن أن يشملها التجديد؛ وإنما ضبط المنهجية التي ينبغي أن تحكم عملية التجديد؛ وتلك هي مهمة المحددات المنهجية القرآنية.

ومن التوصيات التي يمكن تقديمها في ختام هذا البحث:

- ضرورة إيلاء مزيد من الاهتمام للمتن الفكري للدكتور طه جابر العلواني، وخاصة ما يتعلق منه بمشروع المراجعات الذي دشنته وأرسى معالمه الكبرى.
- تجنيد فرق ومؤسسات بحثية للقيام بهذه المراجعات في ضوء المحددات المنهجية القرآنية.
- السعي إلى تطوير البحث في علم أصول الفقه انطلاقاً من الوحي قرآناً وسنة.
- تنظيم مزيد من المؤتمرات والندوات والأيام الدراسية لتفكيك مشروع طه جابر العلواني وتنزيله على أرض الواقع.
- طباعة أعمال مثل هذه لمؤتمرات حتى تصل إلى أكبر عدد ممكن من الباحثين والمهتمين.

لائحة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- أسئلة مقاصدية في قضايا معرفية، العضراوي، عبد الرحمان، دار الأمان - الرباط، ط1، 2023
- إشكالية التعامل مع السنة النبوية، العلواني، طه جابر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2014
- أصول الفقه الإسلامي منهج بحث ومعرفة، العلواني، طه جابر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1995
- آليات التداخل المعرفي القرآني وتجديد النموذج الإرشادي في العلوم الإسلامية، العضراوي، عبد الرحمان، النشر الجامعي الجديد - الجزائر، ط1، 2018
- تجديد أصول الفقه: رؤية نقدية، الوافي، حميد، دراسة رقمية نشرها مركز نهوض للدراسات والنشر، 2018
- التجديد الأصولي: نحو صياغة تجديدية لعلم أصول الفقه، كتاب جماعي، إشراف أحمد الريسوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2014
- تجديد الفكر الإسلامي، التراي، حسن، دار القرافي للنشر والتوزيع، المغرب - الرباط، ط1
- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، مصطفى عبد الرازق، دار الكتاب المصري - القاهرة
- الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، العلواني، طه جابر، مكتبة الشروق الدولية - القاهرة، ط1، 2006
- حاكمية القرآن، العلواني، طه جابر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - الولايات المتحدة الأمريكية، 1996
- الرسالة، الشافعي، محمد بن إدريس، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي - مصر، ط1، 1358هـ/1940م
- العلواني، طه جابر، الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، دار الهادي - بيروت، ط1، 2003

- العلوم الإسلامية أزمة منهج أم أزمة تنزيل، أعمال الندوة الدولية التي نظمتها الرابطة
المحمدية للعلماء في موضوع: العلوم الإسلامية أزمة منهج أم أزمة تنزيل، 2010
- قضايا التجديد: نحو منهج أصولي، التراشي، حسن، معهد البحوث والدراسات
الاجتماعية
- المحددات المنهجية في القرآن الكريم: أصول تفسيرية ذات أولوية، شبار، سعيد، دار
المقاصد
- مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي، العضاوي، عبد الرحمان، مركز نماء للبحوث
والدراسات - بيروت، ط1، 2015
- مقاصد الشريعة، العلواني، طه جابر، دار الهادي، ط1، 2001
- مناقب الشافعي، الرازي، فخر الدين، تحقيق أحمد حجازي، مكتبة الكليات
الأزهرية - القاهرة، ط1، 2008
- منهجية القرآن المعرفية، حاج حمد، أبو القاسم، دار الهادي، ط2، 2008
- الموافقات، الشاطبي، أبو إسحاق، تحقيق عبد الله دراز، دار الحديث - القاهرة،
2006
- نحو التجديد والاجتهاد: مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، من التعليل
القرآني إلى المقاصد القرآنية العليا الحاكمة، العلواني، طه جابر، دار تنوير للنشر والتوزيع،
ط1، 2008
- نحو منهجية معرفية قرآنية، العلواني، طه جابر، دار الهادي، ط1، 2004
- نظرية المقاصد عند الشاطبي، الريسوني، أحمد، الدار العالمية للكتاب الإسلامي،
ط2، 1992.

المنهج المقاصدي عند طه جابر العلواني رؤية تحليلية

د. محمد فتحي العتري

كلية الشريعة والقانون جامعة الإسلام في أنتربانغسا - تايلاند

ملخص:

يعتمد الفكر المقاصدي على محاور ثلاثة هي: التعليل والمصلحة ومآلات الأفعال. وهذا ما يراه المستقري لفكر ومنهج طه جابر العلواني باعتباره باعثا حيويا للدرس الأصولي المعاصر، ومحاولة جادة للخروج من أزمة الدليل الشرعي- كما يرى العلواني - الذي أعى الفقهاء والمفتين في مجامعنا ومؤسساتنا الدينية والفقهية، وحيث شاع في الوسط العلمي أن من ضيع الأصول حرم الوصول، ومن فقد الدليل ضل السبيل؛ أصبح عوز النص إشكالا أمام المستجدات التي لا تنتهي! وعلى كل متصدر للفتوى أو الاجتهاد أن يذهب إلى الفقه المذهبي ليبحث عن الدليل الجاهز لمشكلاتنا الآنية ولو بالتمحل! إن إدراك العلواني لتلك الأزمة دفعه لبناء المنهج المقاصدي الذي تتغى الدراسة الكشف عنه باعتباره نتاجا علميا وجهدا تجديديا للعلامة العلواني من هنا كانت أهمية الورقة ودوافعها.

“The Maqāṣid approach according to Taha Jaber Al-Alwani...An analytical vision”.

Abstract:

Research Summary: Maqāṣid thought depends on three axes: justification, interest, and consequences of actions. This is what the extrapolator of the thought and approach of Taha Jaber Al-Alwani sees as a vital source of the contemporary fundamentalist lesson and a serious attempt to get out of the crisis of legal evidence - as Al-Alwani sees it - which has exhausted jurists and muftis in our academies and religious and jurisprudential institutions, and where it has become widespread. In the scientific community, whoever neglects the principles is denied access, and whoever loses the evidence is lost. The lack of text has become a problem in the face of endless developments! Every person issuing a fatwa or ijtihad must go to sectarian jurisprudence to search for ready evidence for our immediate problems, even if it is with caution! Al-Alwani's awareness of this crisis prompted him to build

the Maqāṣid approach, which the study aims to reveal as a scientific product and a renewal effort by Al-Alwani. Hence the importance of the paper and its motivations. The research problem: identifying the determinants of Al-Alwani's Maqāṣid approach and the way he deals with developments away from complications or bias of all kinds. Research questions: What is the nature of Al-Alwani's objective approach? What are the determinants of that approach? What is the role of the higher objectives within the framework of revealing the objectives of jurisprudence?

Research method: The inductive, analytical, and descriptive approach, by looking into Alwani's scientific production, analyzing his legacy, and describing and deducing his objective approach. Research plan: The research comes in an introduction, a preface, two sections, and a conclusion as follows:

Introduction: The importance of the topic, the reason for choosing it, the research problem, its questions, the research methodology and its plan.

Introduction: Research terms and the importance of the Maqasid approach according to Al-Alwani. The first topic: The nature of the Maqasid approach according to Al-Alwani and its vocabulary. The first requirement: The highest goals according to Al-Alwani. (Tawhid - Purification – Imran).The second requirement: The purposeful structure according to Al-Alouni (general - specific - partial purposes).The second section: The scientific and practical effects of Al-Alwani's purposeful approach. (Cognitive structure - applied structure - human energies).The third section: Applications of objectives according to the scholar Al-Alwani.The first requirement: applications of overall objectives.

The second requirement: Examples of applications of specific and partial objectives.

Conclusion and research results. Sources and references.

Keywords: Method - Objectives - Al-Alwani - Monotheism - Purification .

إشكالية البحث: الوقوف على محددات المنهج المقاصدي عند العلواني وطريقة معالجته للمستجدات بعيدا عن التأزيم أو التحيز بكل أنواعه.

أسئلة البحث: ما طبيعة المنهج المقاصدي عند العلواني؟ ما محددات ذلك المنهج؟
ما دور المقاصد العليا في إطار تنزيل المقاصد الفقهي؟

منهج البحث: المنهج الاستقرائي التحليلي الوصفي وذلك بالنظر في الإنتاج العلمي
للعلواني وتحليل تراثه وتوصيف واستنباط منهجه المقاصدي.

خطة البحث: يأتي البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة على النحو التالي:

مقدمة:

يقوم فقه المقاصد على أساس اعتماد الكليات التشريعية، واعتبارها إطارا للنصوص
الجزئية فهما وتنزيلا؛ بما يعني أن الفقيه لا يقف عند حدود التعليل اللفظي والقياس الجزئي
بل ينطلق من منهج استقرائي شامل -على نحو ما طبق الإمام الشاطبي في موافقاته- يحاول
الرباط بين الأحكام الجزئية وكلياتها وقواعدها التشريعية والتنزيلية مشكلا إطارا قانونيا مؤطرا
للواقع حاكما عليه مدلا إحاطة الشريعة وهيمنتها على أسقف الناس الفكرية والتنزيلية.

هذا هدف البحث ما أود التدليل عليه من خلال بيان طبيعة المنهج المقاصدي
ومحدداته عند العلامة طه جابر العلواني رحمة الله عليه ووالديه وطيب ثراه. لكن قبل ذلك
يفرض البحث الأكاديمي عدة إشارات تالية.

أهمية الموضوع: ترجع أهمية الورقة لعدة أمور أبرزها:

- تناول شخصية علم من أعلام الفكر والإصلاح المعاصر بما تعطيه حقه ويحيي تراثه .
- أن فقه المقاصد من أصعب المجالات الفكرية فهو صعب المورد محمود الغب جار
على مقصود الحق من الخلق .
- محاولة توصيف المنهج المقاصدي عند العلامة العلواني ووضع محدداته المنهجية
التي تضمن سلامة الفهم والتنزيل .
- أن العلاقة وثيقة بين الفكر المقاصدي والدور الإصلاحي في ضوء الشريعة ومقرراتها
وهو ما انتهجه العلواني في دراساته وأعماله وبتنفي البحث بيانه وإسقاط الضوء عليه.
- أن النهج الذي انتهجه العلواني جمع بين الأصالة والمعاصرة فهو أزهرى النشأة
إسلامي الهوية استشرافي الرؤية يتطلع أمة الوسط بمنهجها ورؤيتها وثروتها وراثتها.

سبب الاختيار: يرجع اختياري لهذا الموضوع رغم صعوبته ومتطلباته إلى عدة أسباب

هي:

- ما أحسسته في الفترة التي رأيت فيها العلواني -رحمة الله عليه -لعدة سنوات إبان دراسة الدكتوراه بالقاهرة والتردد على مجلسه بمركز الدراسات المعرفية الجزيرة الوسطى الزمالك - من الهم العلمي والشغل الأممي ومسابقة الزمن لقيام الأمة بدورها والهوض من كبوتها؛ الأمر الذي خلف - حتى الآن - إرثا ثقيلا يدركه كل طلاب العلم ممن قارب الشيخ ولازمه عن كثب.

- أن الدرس المقاصدي لم يستنفذ أغراضه بعد رغم اتساع ساحاته المعرفية وكثرة مؤلفيه ومؤلفاته⁽¹⁾؛ خاصة فيما يتعلق بالعلامة العلواني وطرحه المقاصدي.

- أن الجهود الإصلاحية عند العلامة العلواني بحاجة إلى بيان منطلقاتها الفكرية ومآلاتها التنزيلية المرتبطة بمقاصد وغايات الشريعة.

- الرؤية المؤسسية التي انطلق منها مشروع العلواني الإصلاحي عبر المعهد العالمي للفكر الإسلامي الأمر الذي يفرض بيان أهمية تلك الرؤية ومفرداتها وأثرها في أعمال العلواني المقاصدية. والتي تؤكد أن المؤسسة كانت مقصدا ووسيلة في حياة العلواني رحمه الله تعالى.

إشكالية البحث: الوقوف على محددات المنهج المقاصدي عند العلواني وطريقة معالجته للمستجدات بعيدا عن التأزيم أو التحيز بكل أنواعه.

يقدم البحث إجابة عن مجموعة من الأسئلة وهي:

ما طبيعة المنهج المقاصدي عند العلواني ؟ ما محددات ذلك المنهج؟

منهج البحث : اتخذت المنهج الاستقرائي التحليلي الوصفي ؛حيث استقرأ ما كتب العلامة العلواني في مؤلفاته خاصة ما تناول مقاصد الشريعة تأطيرا وتنزيلا من وجهة نظره مع تحليل تلك الكتابات بعد توصيفها للوصول للغاية المبتغاه من وضع حدود المنهج المقاصدي للعلامة العلواني ومقدار ما توصل إليه من توفيق من وجهة نظر الباحث.

⁽¹⁾ أقصد بداية من الإمام الجويني وتلميذه الإمام الغزالي وهم أول من تحدثوا عن الضروريات الخمس باعتبارها كليات ومقاصد حتى د.حسن جابر في دعوته إلى الرؤية المنظومية في كتابه: المقاصد الكلية في ضوء القراءة المنظومية ..

الدراسات السابقة:

كثيرة هي الدراسات التي تناولت جهود العلواني الإصلاحية وأبرزها المتعلق بورقتنا⁽¹⁾:

● التجديد في مقاصد الشريعة عند الدكتور طه جابر العلواني ، مجلة دراسات إسلامية :، 06-2010ASJP /Volume 5, Numéro 2, Pages 09-22. 15. للباحث محمد عبد الحليم بيثي، وفيها يذكر الباحث أن الإسهام التجديدي للدكتور طه جابر العلواني في مقاصد الشريعة لا ينفك عن الرؤية والرسالة العامة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ويعتبره رائدا في مجاله، بالنظر إلى الصيرورة العلمية التي انتهت إليها الدراسات المقاصدية للخروج من الأزمة التي يعانيها الفكر الإسلامي في قضايا الاجتهاد الفقهي المعاصر، ويرى أنه لا يمكن الولوج إلى فهم الجديد عند العلواني دون التعرّيج على المحددات العامة لمشروع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وتأتي هذه الدراسة لتبين ملامح التجديد في المقاصد وفق رؤية الدكتور. وتتميز دراستي عنه بالتركيز على عناصر الفكر المقاصدي وأقسام المقاصد ومركزاتها التي انطلق منها وأسسها العلواني.

● أشكال التمجد وسؤال التجديد في مقاربات التقصيد القرآني المعاصر - مقارنة طه جابر العلواني، عرض وتقييم -مجلة المنهل- . Volume 8, Numéro 2, Pages 273-290. 13-01-2023.. للباحث عيساوي عبد الغاني. جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي. وتعد دراسة العيساوي قراءة لمقاربات العلواني الحديثة للتقصيد القرآني المعاصر، والتي يرى فيها أن الدكتور طه جابر العلواني -رحمه الله- فرّق بين مقاصد الشريعة ومقاصد القرآن العليا، وخرج عن تأصيل الشاطبي للمقاصد الضرورية الخمس: الدين والنفس والمال والعقل والنسل، بأن جعلها: التوحيد، والتزكية، والعمران، والأمة، والدعوة، بعد أن قعّد العلواني- لضرورة جعل القرآن الكريم محورا لجميع العلوم بعمومها ومستمدا خالصا للمقاصد خصوصا، وأظهر أشكال التمجد الحاصل طارحا جوابا لكل متسائلا عن سؤال التجديد في المقاصد، وتتميز دراستي عن دراسة العيساوي بعدم الاكتفاء بالتقصيد القرآني القائم على استقراء القرآن المجيد فقط كما ركزت دراسة العيساوي -بل قامت دراستي باستقراء كتب العلواني الأخرى التي بث فيها مشروعه الفكري وهمه العملي الأممي.

⁽¹⁾ راجع هذه الدراسات في مصادرها المدونة بالترتيب.

• طه جابر العلواني ومشروعه التجديدي لعلم أصول الفقه ،مجلة المعيار (74).
2022-03-15:474 - 457-Volume 26, Numéro 2, Pages
الباحث من دراسته عرض ظاهرة تجديد علم أصول الفقه الإسلامي من خلال دراسة نموذج
الدكتور طه جابر العلواني التجديدي، الذي قام على ثنائية الشكل والمضمون؛ وتقديم المادة
الأصولية بشكل معاصر ذات مقترحات تقويمية وبدائل تعويضية للخروج بعلم الأصول من
أزمته وإشكالاته ،مع إبراز خصائصه التصورية والمنهجية، ومساهماته في إغناء البحث العلمي
في هذه القضية الهامة والخطيرة في الوقت ذاته.وتتميز دراستي عنه بالتركيز على الفكر
المقاصدي لدى العلواني رحمه الله باعتباره ضرورة عصرية تعين على تجاوز أزمة الشكل
التناولي للعلم وتؤكد تبعية المنهج المقاصدي للحقل الأصولي وليست بديلا عنه .

خطة البحث: يأتي البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة على النحو التالي:

التمهيد: مصطلحات البحث وأهمية المنهج المقاصدي عند العلواني.

المبحث الأول : ماهية المنهج المقاصدي عند العلواني ومفرداته.

المطلب الأول: المقاصد العليا عند العلواني .(التوحيد –التزكية –ال عمران).

المطلب الثاني : البناء المقاصدي عند العلواني (المقاصد العامة –الخاصة –الجزئية).

المبحث الثاني: الآثار العلمية والعملية للمنهج المقاصدي عند العلواني .(البنية
المعرفية –البنية التطبيقية-الطاقات البشرية).

الخاتمة ونتائج البحث.

تمهيد: مصطلحات المنهج المقاصدي عند العلواني.

المنهج :لغة اسم من الفعل نهج وهو بمعن سلك أى الطريق المتبعة ومنه النهج
والمناهج ،وفي التنزيل العزيز : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (سورة المائدة آية:48) ⁽¹⁾.

(1)مختار الصحاح: للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي – ترتيب محمود خاطر – طبعة دار
المعارف – 1990 – ص 681.

واصطلاحاً: المنهج هو الطريق المؤدية إلى الكشف عن حقيقة معينة. ويكون ذلك عن طريق مجموعة من القواعد والوسائل التي يتبعها الباحث للوصول إلى هذه الحقيقة. وعرفه صاحب المعجم الفلسفي: "أنه الترتيب الصائب للعمليات العقلية التي نقوم بها بصدد الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها"⁽¹⁾.

الاستقراء⁽²⁾: لغة التتبع، اصطلاحاً: النظر في الجزئيات وصولاً للقواعد والكلية. وله نوعان: الاستقراء التام هو: تتبع الأفراد والجزئيات فيوجد الحكم في كلّ صورة منها ماعدا الصورة التي وقع فيها النزاع، فيعلم أنّ الصورة المتنازع فيها لا تخرج في حكمها عن بقية الصور الأخرى التي ليست محلّ النزاع فيستدلّ بإثبات الحكم الجزئي بواسطة ثبوته في الكلي، بينما الاستقراء الناقص أو غير التام فهو: إلحاق الفرد أو الجزء بالأغلب، ومن هذا يظهر معيار الفرق: أنّ الاستقراء التام توجد وحدة حكم فيه على جميع أفراد وجزئيات الكلّي ماعدا الصورة المتنازع فيها بخلاف الناقص فإنّ وحدة الحكم تقع على غالب جزئياته الخالي عن صورة النزاع ولهذا كانت حجية الاستقراء الناقص ظنية عند الجمهور على خلاف الاستقراء التام فهو حجة بلا خلاف وهو عند أكثرهم دليل قطعي. ولا ريب أن العلواني -رحمه الله- قد اتخذ الاستقراء سبيلاً لبيان المقاصد بأنواعها.

(1) مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، مادة: منهج، ص، 195.

(2) انظر: لسان العرب ابن منظور: 171/12 وما بعدها طبعة دار المعارف القاهرة (د ت) ، والقاموس الفقهى لأبي جيب: 29، معجم لغة الفقهاء السابق: 14. معنى الاستقراء: الاستقراء لغة من قرأ الأمر أي تتبعه. ونظري حاله، وهناك من يرى أنه من قرأت الشيء بمعنى جمعته وضممت بعضه إلى بعض ليرى توافقه واختلافه، وكلا الأمرين يعني التتبع لمعرفة أحوال شيء ما. واصطلاحاً: الاستقراء عند المنطقيين هو الحكم على كلي بما يوجد في جزئياته الكثيرة. ويعرفه الإمام الغزالي بقوله «هو أنه تتصفح جزئيات كثيرة داخلية تحت معنى كلي، حتى إذا وجدت حكماً في تلك الجزئيات حكم على ذلك الكلي به»، ويعرفه الدكتور عبد الرحمن بدوي بقوله: «تعميم من حالات جزئية تتصف بصفة مشتركة». وينقسم الاستقراء إلى ناقص وتام: أما الأول فهو انتقال الذهن من الحكم على الجزئيات إلى الحكم على الكلي. وهو استدلال معرض للاختلال لاحتمال سقوطه بعدم استقراء جزئية واحدة. وأما التام فهو انتقال الذهن من الحكم على جميع الجزئيات إلى الحكم على كليها.

المقاصد لغة: تطلق مادة (ق-ص-د) ويراد بها المعاني: الاستقامة والاعتدال، ومنه قوله تعالى: (واقصد في مشيك) سورة لقمان: 19. و-التوجه نحو الشيء، و-الاكتناز والامتلاء، تقول العرب: ناقة قصيد، أي مكتنزة ممتلئة من اللحم، والقصيد من الشعر ما تم سبعة أبيات.⁽¹⁾

وجاء في لسان العرب لابن منظور: أصل "ق-ص-د" ومواقعها في كلام العرب: الاعتزام التوجه، والنهوض نحو الشيء، على اعتدال كان أو جور، هذا أصله في الحقيقة وإن كان يخص في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل⁽²⁾. وملخص كلام اللغويين أن مادة (قصد) في الاستعمال العربي تدل على معان مشتركة ومتعددة، إلا أن الغالب عند إطلاقها انصرافها إلى العزم على الشيء والتوجه نحوه.

المقاصد اصطلاحاً: عرفها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بقوله: (مقاصد التشريع العامة هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغايتها العامة والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضاً معاني من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها)⁽³⁾. وإذا كان ابن عاشور قد قصر تعريفه هنا على المقاصد العامة للشريعة فإنه في قسم آخر من كتابه "مقاصد الشريعة الإسلامية" ذكر المقاصد الشرعية الخاصة وبين أنها: (الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة، أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة)⁽⁴⁾. أما العلامة علال الفاسي فقد قال في تعريف المقاصد عموماً: (المراد بمقاصد

⁽¹⁾ تتبع الدكتور نور الدين بن مختار الخادمي أغلب التعبيرات والاستعمالات لكلمة المقاصد التي استخدمها العلماء قديماً وحديثاً ليعنوا بها مراد الشارع، ومقصود الوحي ومصالح الخلق، فوجد أنه يعبر عن المقاصد عندهم بالحكمة المقصودة بالشريعة، ويعبر عنها أيضاً بمطلق المصلحة، ويعبر عنها كذلك بنفي الضرر ورفعها وقطعها، كما يعبر عنها بدفع المشقة ورفعها، ويعبر عنها كذلك بالكليات الشرعية الخمس الشهيرة، ويعبر عنها أيضاً بمعقولية الشريعة وتعليقاتها وأسرارها، كما يعبر عنها بلفظ المعاني... انظر الاجتهاد المقاصدي: حجيته، ضوابطه، مجالاته، د. نور الدين الخادمي كتاب الأمة قطر، رقم 60 ص: 48-52.

⁽²⁾ ابن منظور لسان العرب: 3/353..

⁽³⁾ ابن عاشور: مقاصد الشريعة ص: 306-307.

⁽⁴⁾ ابن عاشور السابق نفسه.

الشريعة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها⁽¹⁾. وقد صرح الدكتور أحمد الريسوني بأن تعريفه للمقاصد مبني على التعريفين السابقين، إذ قال: (وبناء على هذه التعريفات والتوضيحات لمقاصد الشريعة لكل من ابن عاشور وعلال الفاسي وبناء على مختلف الاستعمالات والبيانات الواردة عند العلماء الذين تحدثوا عن موضوع المقاصد، يمكن القول: إن مقاصد الشريعة هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد)⁽²⁾. وقد تعرض الدكتور نور الدين بن مختار الخادمي لتعريف المقاصد في كتابه: "الاجتهاد المقاصدي"، بعد أن أورد التعريفات السابقة اختار تعريفاً له لم يخرج فيه عما أورده باستثناء زيادات يسيرة، إذ قال: (المقاصد: هي المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية والمترتبة عليها سواء أكانت تلك المعاني حكماً جزئية أم مصالح كلية أم سمات إجمالية، وهي تتجمع ضمن هدف واحد هو تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين)^{(3) (4)}.

المآلات⁽⁵⁾: مفردا المآل: المرجع، آل يؤول أولاً ومآلاً إليه: رجع إليه وصار، يقال: آل إلى الشيء: رجع إليه وآل: الذمة والعهد وأهل الرجل وأتباعه وأولياؤه، والمآلات من حيث توقعها واعتبارها وكيفية معرفتها هي محور التطبيق المقاصدي في دائرة الوسائل. النظر في المآل صعب المورد محمود الغب جار على مقاصد الشريعة كما قرر الشاطبي. وإعتبار المآلات: يقصد به

(1) الفاسي ، الشيخ علال الفاسي .مقاصد الشريعة ومكارمها :ص7.

(2) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي الريسوني ، (الدكتور) أحمد ، ص6-7. انظر كذلك للمؤلف نفسه "كتاب الفكر المقاصدي : قواعده وفوائده ص 13. .

(3) قالوا :القاف والصاد والذال أصول ثلاثة أولها يدل على التوجه إلى الشيء وإتيانه، والثاني كسر الشيء ومنه القصيدة: وهي القطعة من الشيء إذا تكسر، والثالث الإكثار منه كقولهم: ناقة قصيد إذا امتلأت لحماً. وما يعنيها هو المعنى الأول الذي يفيد التوجه والإتيان. ومنه قوله تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) سورة لقمان 19، يقال قصدته وقصدت له وقصدت إليه، والقاصد القريب، ومنه قوله تعالى: (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَأَتَّبِعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَنْهُمْ الشُّقَّةُ) (سورة التوبة 42، ومنه قولهم: بيننا وبين الماء ليلة قاصدة، أي هينة لا تعب فيها. والمقصد بهذا المعنى يقرب من لفظ "المورد" من "ورد" الشيء إذا أتاه وتوجه إليه. ومنه المصطلح المستحدث في الفقه الإسلامي "مقاصد الشريعة"، أي قصد الشارع من وضع الشريعة ابتداء، ومن وضعها للإفهام، ووضعها للتكليف بها، ووضعها لدخول المكلف تحت حكمها.

(4) الاجتهاد المقاصدي : حجيته ، ضوابطه ، مجالاته للدكتور نور الدين بن المختار الخادمي .ص52-53.

(5) . انظر: لسان العرب ابن منظور 171/12 وما بعدها طبعة دار المعارف القاهرة (د ت) ، والقاموس

الفقه لأبي جيب: 29، معجم لغة الفقهاء السابق: 14.

اعتبار المآلات أي: الحكم على مقدمات التصرفات بالنظر إلى نتائجها⁽¹⁾، وهو ما راعاه العلواني رحمه الله في تطبيقاته المقاصدية وتكييفاته الفقهية خاصة ما يتعلق بفقه الأقليات، ومعنى ذلك أن الفقيه أو المجتهد لا يقوم بالحكم على التصرف قولاً كان ذلك التصرف أو فعلاً إلا بعد أن ينظر في مآله ونتائجه ويقدر ما سيتمخص عنه تطبيق ذلك التصرف، ثم بعد ذلك يوظف تلك النتائج المتوقعة في تكوين مناط الحكم وتكييفه، وبعد ذلك يصدر الحكم بالمشروعية أو عدم المشروعية، إلى بالإقدام عليه أو الإحجام عنه بناء على المآل الذي اعتمده، والضابط في ذلك هو مدى اقتراب ذلك المآل من تحقيق مقاصد الشرعية، فإن وجد المآل يخدم المقاصد أو يحالفها حكم على أسبابه بعدم المشروعية والعكس إن وجده محققاً مؤيداً لها.

المبحث الأول : ماهية المنهج المقاصدي عند العلواني ومفرداته.

توطئة:

نستطيع القول بأن العلامة العلواني رحمه الله كان له منهج مقاصدي مستمد من رؤيته الكلية القرآنية ومحدداته المنهجية الجامعة بين القراءتين قراءة الكون المنظور والكتاب المسطور وعبر النسق المعرفي التجديدي الذي يري أن أهمية المقاصد لا تكمن في تعريفها أو الكشف عنها بل باعتبارها منهجا قويميا يجمع صاحبه بين الفهم الرشيد للنص والتنزيل السديد في الواقع ولا يكون ذلك إلا بتصور مقاصدي من منظور اجتماعي يراعي التطور التاريخي والواقعي وأبعاد التنزيل ومآلاته ، كما يرنو مجاوزة حالة التقليد المهزوزة في الأوساط العلمية في عالمنا العربي والإسلامي. ومجاوزة حالات التجزئ والتعضية للنص القرآني الكلي؛ من هنا نقف في السطور القادمة مع بيان هذا المنهج ومفرداته وصولاً إلى محدّداته⁽²⁾.

(1) . اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات د/عبد الرحمن معمر السنوسي ط (1) دارين الجوزي الدمام

سنة 1424 هـ ص: 20.

(2) . العلواني ، د. زينب ، مراجعات في تطوير المنهج المقاصدي عند المعاصرين السابق : 5.

المطلب الأول: المقاصد العليا عند العلواني .(التوحيد -التزكية -العمران) (1).

التوحيد والتزكية والعمران؛ هذه المقاصد الثلاثة المحورية التي يراها العلواني- في إطار محددات قرآنية منهجية-كليات قطعية حاکمة مطلقة تنحصر مصدريتها في المصدر الأوحد المنشئ للأحكام وهو القرآن المجيد في انطلاقته للتشابه مع الكون جمعا بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. يقول العلواني : (من هنا كان لا بد من الرجوع إلى كتاب الله فهو المحجة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ، وهو المخرج من الفتن كلها، وهو كتاب كوني يستوعب الكون وحركته لا يتوقف عند مكان معين، أو في زمان محدد وهو كتاب مطلق. يستطيع الاستجابة لحركة الكون ولحركة الإنسان، وهو المصدق الذي يستطيع أن يعيد كل ما حُرِف من رسالات الأنبياء إلى حالة الصدق، ثم يقوم بالهيمنة عليها، وهو المستوعب والمتجاوز، وهو الكتاب الذي وصفه الله وهو المتكلم به "بأنه تبيان لكل شيء"، قال تعالى : ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة النحل: 89) ما فرط الله فيه من شيء، قال تعالى: ﴿..مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (سورة النعام: 38)،

يبين للناس كل الذي يختلفون فيه قال تعالى :﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة النحل: 64) ،وهو الحق كله قال تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (سورة الإسراء آية 105) لا يأتي الناس بمثل إلا جاء القرآن بالحق وأحسن تفسيراً قال تعالى:﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (سورة الفرقان: 33) (2) .

هذا بالتساوي مع دائرة بيان السنة الثابتة الصحيحة للقرآن المجيد في إطار العلاقة الوثيقة بينهما وهي علاقة البيان بالمبين؛ فالسنة والسيرة العطرة تبدوان تطبيقا عمليا للقرآن

(1). انظر: التوحيد -التزكية -العمران. مقاصد الشريعة الإسلامية ،د. طه جابر العلواني (عليه من الله سبحانه والرحمة) طبعة (1) دار الهادي بيروت، ص135- 138،- نحو تفعيل مقاصد الشريعة د. جمال عطية طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفكر دمشق 2001م ص: 111-122،- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية د. عبد الرحمن العضراوي ط1 الكويت وزارة الأوقاف 2010م ص: 366- 374 (بتصرف).

(2). العلواني ،د. زينب ،مراجعات في تطوير المنهج المقاصدي عند المعاصرين السابق 5: تم إضافة الآيات البيئات في المتن لزيادة البيان رغم كونها ليست في أصل النقل عند العلواني رحمه الله تعالى.

في مقاصده العليا الحاكمة..ذلك أن من شأن المقاصد العليا الحاكمة -على حد تعبير العلواني- أن تكون قادرة على ضبط الأحكام الجزئية وتوليدها-عند الحاجة- في سائر أنواع الفعل الإنساني؛القلبي مننا والعقلي،الوجداني والبدني ليتحقق ربط الجزئيات بالكليات ولتتهدي الكينونة الإنسانية بكليتها بهداية الله.ويكمل العلواني توصيفه للمقاصد العليا معتبرا إياها كالمبادئ الدستورية فيما يتعلق بالجانب التشريعي من حيث قدرتها على توليد المواد القانونية وقواعدها التأسيسية.وهي بذلك لن تكون دليلا من الأدلة أو أصلا من أصول الفقه يختلف عليه أو يتفق عليه ؛بل ستكون المنطلق الأساس لإعادة بناء قواعد أصول الفقه وتجديدها وبناء الفقه الأكبر ووسيلة لغربلة التراث الفقهي وتنقيته..وإخضاعه لتصديق الكتاب وهيمنته..إلخ مايراه العلواني من ثمار وآثار وخصائص تشغيل المقاصد العليا⁽¹⁾.وفي الإطار التطبيقي يبين العلواني أن منظومة المقاصد العليا تحقق التوحيد الخالص وهو يختص به تعالى،باعتباره حقا له على عباده،والتزكية ويختص بها الإنسان،والعمران وهو نصيب الكون في هذه المنظومة التي وإن بدا عليها التعدد فإنها واحدة.

لذا تعد دراسة العلواني عن المقاصد من أهم الأطروحات المنهجية في مجال التقصيد والعمل بالمقاصد، والتي قدمها وطورها كنموذج في مجال تطوير المناهج التي تتعامل مع النصوص.فخلص العلواني بعد أن استوعب ما جاء قبله من الأطروحات محاولاً تجاوزها بأن استنبط بعد استقراء تام للقرآن الكريم أن المقاصد المحورية التي تدور حولها سور القرآن وآياته وما اتفقت عليه النبوات السابقة يمكن حصرها في ثلاث: وهي (التوحيد والتزكية والعمران) وهي تقوم على قاعدة أن الله خالق الكون واستخلف الإنسان في الأرض لعمارتها فما يجري في الأرض هو حاصل هذه العلاقة بين الله والإنسان المستخلف والكون المسخر الذي هو ميدان الخلق الإلهي والتسخير والإرادة والعمران،وميدان الفعل الإنساني لتحقيق ذلك العمران.فالتوحيد يمثل حق الله على العباد وبدونه لا يتحقق شئ من المنظومة ولذلك جاء به جميع الأنبياء، والتزكية تمثل أهم مؤهلات الإنسان المستخلف وبدونها يفقد أهليته للقيام بدور الخليفة، كما يفقد مؤهلاته للعمران، والكون خلق ليعمر، ودارت سور القرآن حول هذه المقاصد التي إن ادمجت ساوت العبادة وإذا فكك المفهوم سيصل إلى هذه الثلاثة.

(1) .انظر: مقاصد الشريعة،العلواني ،السابق نفسه ص:139-151..الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية د.عبد الرحمن العضراوي ط1 الكويت وزارة الأوقاف 2010م.ص:366-374 (بتصرف).

وقد وجدنا من تأثر بمنهج العلواني كالدكتور العضراوي في دراسته التطبيقية للمقاصد في السياسة الشرعية فيبين الترابط الوظيفي بين المحددات المقاصدية كقوالب مؤسساتية تصوغ المبادئ الحاكمة لتنزيل المقاصد في الواقع؛ ومتى تحققت تلك المحددات الوظيفية اكتملت الخطوة المنهجية اللازمة للكشف عن دور المقاصد وإخراجها إلى حيز الفعلية والممارسة. ويمثل للتطبيق بالتنشئة السياسية لتحقيق مقصد الاستخلاف وتنظيم الاجتماع وربطه بال عمران البشري؛ فقوم التنشئة السياسية؛ العقيدة السمحة والإدراك المعرفي العميق القائم على الشرعية والمشاركة والمحافظة على شخصية الأمة وهويتها. فالتنشئة السياسية في إطارها التطبيقي عمل تربوي محض له اتصاله الوثيق بالنظر المقاصدي القائم على العلم بالمقاصد⁽¹⁾. إن وحدة الأمة في أدق صورها مظهر من مظاهر التوحيد؛ تلك الوحدة ليست مقصدا عظيما فحسب بل ركيزة أساسية من ركائز النمو والعمران ومن ثم الشهود الحضاري الغائب منذ أن انتقضت عروة الحكم الراشد بواسطة الملك العاض المبيني على التوريث والاستبداد⁽²⁾.

والجديد في منهج العلواني أنه اعتبر أن "المقاصد القرآنية العليا الحاكمة" تنحصر في مقاصد ثلاث بناء على استقراءكم القرآن الكريم من سورة الفاتحة حتى سورة الناس والتي حددتموها بثلاثية "التوحيد والتزكية والعمران"، وأن ما قدمه الشاطبي وغيره من علماء المقاصد تعتبر ضمن مستويات المقاصد العائدة إلى المكلفين وهي "الضروريات" - و"الحاجيات" - و"التحسينيات" والتي يجب أن تربط بالمقاصد العليا الثلاث: التوحيد والتزكية والعمران. وبذا تصبح المنظومة كلها قادرة على بناء قواعد أصولية، تمد المجتهد المعاصر والمفتي والمستفتي بالقدرة على الوصول إلى فقه قرآني نبوي قائم على القرآن إنشاءً، وعلى السنن التي هي في حقيقتها ذات أصول وجذور قرآنية، وتعد تأويلا لآيات الكتاب وتفعيلا لها وتطبيقاً عملياً، يقترن بالقول أحياناً، أو يكون فعلاً مجرداً على القول، أو فعلاً حدث بين يدي رسول الله ﷺ وأقره، أو يكون قولاً يستدعي أو يقتضي فعلاً. فتكون مصادر أو أصول أصول

(1) انظر: مقاصد الشريعة، العلواني، السابق نفسه ص: 148. الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية د. عبد الرحمن العضراوي السابق نفسه ص: 326-365. ص: 366-374 (بتصرف).

(2) انظر: مقاصد الشريعة، العلواني، السابق نفسه ص: 148. الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية د. عبد الرحمن العضراوي السابق نفسه ص: 326-365. ص: 366-374 (بتصرف). النظر المقاصدي رؤية تنزيلية د/محمد بن محمد رفيع ط1 دار السلام القاهرة 2010 م ص: 48-52. (بتصرف).

الفقه أصولاً قرآنية ينشأها القرآن ويفعلها رسول الله ﷺ في واقع يعيشه الناس، ويتمكنون بالتأسي به ﷺ، باتباع الكتاب وحسن تأويله وتفعيله⁽¹⁾.

أقول: والعلواني بذلك يمد جذور الإمام الشافعي المنهجية القائمة على الاتباع دون الابتداع من حيث البيان والتبيين والفهم والتنزيل؛ فيخرج المكلف من داعية هواه ويقبل على طاعة مولاه بالامتثال والتسليم التام.

المطلب الثاني : البناء المقاصدي عند العلواني (المقاصد العامة - الخاصة - الجزئية)⁽²⁾.

يقوم البناء المقاصدي عند العلامة العلواني على أساس قرآني كلي يتخذ من القراءة والتدبر منطلقاً فاعلاً مثيراً للنص القرآني المنشئ للأحكام بإطلاقاته وشموليته المستوعبة (ما فرطنا في الكتاب من شيء ..) ومترجماً للتطبيق النبوي الحيوي الجزئي المرن. لذا نجد العلواني على رأس المعاصرين المهتمين بالكشف المقاصدي الاجتماعي الذي يخرج من دوائر التأزيم أو التقزيم ويعطى تصوراً للعديد من إشكاليات الواقع المعاصر تأسياً بما نعى الإمام ابن عاشور في تطبيقاته للمقاصد في مجال الأسرة والعائلة فوظف معطيات ابن خلدون المنهجية وطورها، واستكمل ما فات الإمام الشاطبي ومهد لمن جاء بعده خاصة في محاولته لإخراج المقاصد من الإطار النظري إلى القيام بتطبيقات ناجحة للمقاصد في دوائر المعاملات والسلوكيات فركز على العائلة ومقاصد أحكامها، ووضع اللبنات التأسيسية لفقه العلاقات من خلال تنظيمه لمنظومة مقاصد العائلة في علاقات الصهر والقربة والنكاح فتعامل معها كموضوع متكامل. وخرج بها من إطار التركيز على مقصد التناسل إلى تقديم الأسرة كمؤسسة اجتماعية مهمة تُخلَق فيها منظومة العلاقات الإنسانية بمختلف أواصرها⁽³⁾.

(1). انظر: العلواني، د. زينب السابق نفسه ص: 8.

(2). العتري، محمد فتحي، التجديد في علم أصول الفقه في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق، ط 11439 هـ - 2018م المعهد العالمي للفكر الإسلامي الأردن ص: 300 وفيه دعوات غير واحد من العلماء إلى أهمية القياس الكلي أو القياس الموسع القائم على المقاصد والمصلحة والاستحسان والقواعد الكلية كأساس للإلحاق والاجتهاد المعاصر. وانظر: المدخل إلى المذاهب الفقهية د. علي جمعة ط 4 دار السلام القاهرة 2012م. ص 387-390. وحديثه عن نظرية الإلحاق بمعناها الواسع التي عمل بها الفقهاء حتى الظاهرية.

(3). العلواني، د. زينب، مراجعات في تطوير المنهج المقاصدي عند المعاصرين السابق: 5.

وحول البناء المقاصدي المنطلق من مستويات المقاصد الكلية أو العامة مروراً بالمقاصد الخاصة والجزئية نجد العلواني قد بين تلك المستويات فأشار إلى ما اسماء بالمستوى الثاني من المقاصد وهو ومستوى القيم (كالعدل والحرية والمساواة) وهو ضروري لتحقيق القيم العليا. وجعل المستوى الثالث هو ماجرى تركيز الأصوليين والفقهاء عليه وصنفوها إلى الضروريات والحاجيات والتحسينيات، والتي عدوها مقاصد الشريعة -وفي رأيه- أنها تشكل فقط مقاصد المكلفين والتي بمفردها لم تستطع أن تولد أو تقدم منظومة الأحكام التي نحتاجها لتغطية ومعالجة كل مستجدات الحياة الجزئية التي تتعلق بها الفعل الإنساني حتى يوم الدين، لأنها كانت بمقام الحكم والمقاصد لدعم القياس وتوسيع آفاقه، وتعزيز لدليل المصلحة وبناء الثقة برعاية الأحكام الشرعية لمصالح العباد. وبقيت بذلك الأحكام التكميلية منها والوضعية تدور حول محاور الأوامر والنواهي والمنطقات اللغوية التي أدت إلى بناء وتدعيم الاتجاه الجزئي في النظر الفقهي. وهو ما خلق مجالاً متأزماً في واقع الأمة أوقعها في المخارج والحيل عند فقدان الدليل الجزئي!

المبحث الثاني: الآثار العلمية والعملية للمنهج المقاصدي عند العلواني.

البنية المعرفية للمنهج المقاصدي عند العلواني تقوم على أسس هي:

الأول: القرآن الكريم: يقول العلواني في أهمية التأسيس القرآني: (من هنا كان لا بد من الرجوع إلى كتاب الله فهو المحجة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ، وهو المخرج من الفتن كلها، وهو كتاب كوني يستوعب الكون وحركته لا يتوقف عند مكان معين، أو في زمان محدد وهو كتاب مطلق يستطيع الاستجابة لحركة الكون ولحركة الإنسان، وهو المصدق الذي يستطيع أن يعيد كل ما حُرف من رسالات الأنبياء إلى حالة الصدق، ثم يقوم بالهيمنة عليها، وهو المستوعب والمتجاوز، وهو الكتاب الذي وصفه الله وهو المتكلم به "تبياناً لكل شئ"، ما فرط الله فيه من شئ، يبين للناس كل الذي يختلفون فيه، وهو الحق كله لا يأتي الناس بمثل إلا جاء القرآن بالحق وأحسن تفسيراً)⁽¹⁾

الثاني: السنة النبوية: يرى العلواني اعتبار السنة النبوية مصدراً بيانياً ملزماً يتكامل مع بيان القرآن لنفسه ويفصله ويتبعه ويطبّقه في الواقع، لتقديم الأسوة والنموذج في

(1) العلواني، د. زينب، مراجعات في تطوير المنهج المقاصدي عند المعاصرين السابق: 5.

إطار الرؤية الكلية للسنة النبوية وفهم أدوارها العملية المؤكدة بأن الدين يسر في أحكامه مناسب للبشر في أركانه⁽¹⁾.

الثالث: الفعل الإنساني وتجاريه: يري العلواني الفعل الإنساني نتيجة التفاعل مع المقاصد العليا التوحيد والتزكية وال عمران فيقول : (الفعل الإنساني هو ثمرة تفاعل بين هذه المقاصد المحورية الثلاثة. ولابد من ملاحظتها كلها فيه، وأن يقوم تقييمه في جانب الإيجاب أو السلب بناءً على ملاحظة تفاعله وتأثره بشكل إيجابي مع تلك المقاصد المحورية الثلاثة. فالحسن منه والمقبول والمشروع هو الفعل الذي ينطلق من التوحيد، ويدل على قوته ومتانته في ضمير الإنسان ويكون في الوقت نفسه منبثقاً من نفس إنسانية مزكاة وتكون غايته ونتيجته تتصل وتصب في دائرة العمران لا دائرة الإفساد في الأرض). ويؤكد مقالة الشاطبي:(المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف من داعية هواه حتي يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبد لله اضطرارا)⁽²⁾.

البنية التطبيقية للمنهج المقاصدي عند العلواني :

تنطلق البنية التطبيقية للمنهج المقاصدي عند العلواني من الرؤية القرآنية الكلية للفطرة الإنسانية الجامعة بين خطاب التكليف العام وخطاب الوضع التشريعي الذي يراعي التباين بين المكلفين باعتبارات عدة لذا وُصف مشروعه العلمي، بأنه مشروع مقاصدي إنساني يستهدف أنسنة المقاصد الشرعية⁽³⁾؛ وذلك باعتبار النظر إلى البعد الإنساني والحضاري في المقاصد الشرعية العليا الحاكمة، في السياق العالمي، الذي تمر به الأمة الإسلامية برمتها، وبما تقتضيه مهمات الاستخلاف، ورسالة الشهود الحضاري، ومقاصد العمران. وأقول : لم يكن مشروع العلواني المقاصدي بأقل شأنًا من المشاريع المقاصدية السابقة عليه من جهة الدكتور حسن حنفي وقبله العلامة طه عبد الرحمن ، و إذا كان طه عبد الرحمن قد انطلق من الرؤية الأخلاقية لتقديم الحلول المقترحة، متصورًا بأن الأزمات الحضارية المعاصرة قد

(1). العلواني ، نحو منهجية معرفية قرآنية ، محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة دارالهادي بيروت ومركز فلسفة الدين العراق ط1 142502004 م السابق :5.

(28). العلواني ، طه جابر ، نحو الاجتهاد والتجديد ط1 دارتنوير بالقاهرة 2008 م :197-198.

(2). قد وصفه الأستاذ الحسان شهيد في كتابه "النقد الأصولي، من تطبيقات الشاطبي إلى التجديد المعاصر، بأن مشروعه هو مشروع أنسنة المقاصد. ولعل المقصود من ذلك هو تركيزه على الفعل والبعد الإنساني في مجال الحكم الشرعي .

توالدت من أزمة الأخلاق، وانطلق حسن حنفي من منطلق عالمي حدّثي بدعوى أن الحل الأوحّد لكل الأزمات الحضارية، بالنسبة للعالم العربي والإسلامي المعاصر، سياسيا، واقتصاديا، واجتماعيا، ودينيا، هو تبني المذهب العالماني الذي يراه المذهب الديني الأصل؛ فإن طه جابر العلواني قد انطلق من منهج "الجمع بين القراءتين" ⁽¹⁾، أو مذهب "إسلامية المعرفة"، ...، مفارقا تلك العلوم التي-في نظر العلواني- لا تعرف إلا ما يقع عليه الحس، ولا تعترف بوجود الغيبيات ولا الضمير، والروح، والقيم الأخلاقية الفاضلة.

وبالنظر إلى تكوين العلواني العلمي المتنوع المنفتح على الآخر؛ تيسر له أن ينجز مشروعا تجديديا في مجال علم أصول الفقه، وتحديدًا في مبحث المقاصد الشرعية، وهو الذي تم عرضه في مقال له مُعْتَوّن بالمقاصد العليا الحاكمة: التوحيد، التزكية، العمران، ثم طوّره فيما بعد في كتابه "مقاصد الشريعة" ⁽²⁾، الكتاب الذي استهدف في وضعه تأصيلَ مرتكزات علمية لنظرية المقاصد، تتجاوز المرتكزات المعرفية، التي أصّلها الإمام الشاطبي وقعد قواعدها في موافقاته، وبنى عليها من اقتفى أثره من العلماء المعاصرين من أصحاب الأطروحات المقاصدية الكبرى، في الفكر العربي المعاصر، بدايةً من الشيخ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ علّال الفاسي. وأطروحته المقاصدية محاولة لفتح باب الاجتهاد العام لإنقاذ الوضع الراهن، بواسطة تفعيل مباحث المقاصد، والامتداد بها في فضاء حضاري فسيح، يجمع فيه بين مقاصد العقيدة و مقاصد الشريعة، بهذا يرى العلواني مقاصد الشريعة الإسلامية

⁽¹⁾ الجمع بين القراءتين مصطلح يستعمله العلواني، ويعني به: (قراءة الوحي وقراءة الوجود معا) قراءة مقاصدية وفهم الإنسان القارئ كلا منهما بالآخر، باعتبار القرآن العظيم معادلا موضوعيا للوجود الكوني يحمل ضمن وحدته الكلية. منهجية متكاملة يمكن فهمها واكتشافها في إطار التنظير لتلك الوحدة الكلية كما أن الكون يحمل ضمن وحدته الكلية قوانينه وسننه، والإنسان وإن كان جزءا من الكون لكن عند النظر يعد أنموذجا مصغرا للوجود الأكبر، ومستخلفا فيه. «طه جابر، نحو الاجتهاد والتجديد، ص: 158.

⁽²⁾ انظر: العلواني، مقاصد الشريعة، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط 1:، س: 2001م، ص: 135. ونحو التجديد والاجتهاد، مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، د: س، ط، بلد، ص: 158.

لا تتجمد ولا ينبغي أن تنحصر في أفق رؤية الشاطبي ومقلّديه، حيث حصروها في ثلاثية :
الضروريات، والحاجيات، والتحسينات⁽¹⁾.

أقول :إن أنسنة المقاصد عند العلواني، تولدت من مجموعة من أهم الرؤى و
النظريات الكبرى المبثوثة في ثنايا كتاباته ومقولاته العلمية الفلسفية؛ لأن نظريته في المقاصد
لا يمكن فهمها، وعرضها، ونقدها، بدون تفحص كبريات المسائل التي مهد بها العلواني نظريته
في المقاصد الشرعية العليا الحاكمة. وفي السطور التالية أتناول أهم جوانب تلك النظريات
الكبرى التي يتبناها العلواني كمنطلق منهجي في رؤيته للمقاصد الشرعية.

إسلامية المعرفة: يعتقد رواد إسلامية المعرفة بأن فلسفة العلوم الطبيعية والعلوم
البحثة هي فلسفة وضعية قاصرة، أفضت إلى منهج وضعي مادي، يفسر ما يجري في العالم
على أساس الجدل بين الإنسان والطبيعة، من دون وعي لدور الله في العالم، وباختزال دور
الباري، سبحانه وتعالى، يختزل الإنسان والعالم إلى مجموعة موجودات وأشياء مادية لا غير⁽²⁾
:لذا فإن إسلامية المعرفة يجاوز ذلك الجدل الفكري المعاصر كما يتجاوز المنهج الأصولي
التقليدي وجدلياته العقيمة إلى آفاق تجديدية قرآنية تواكب العصر والمصر وتتجاوز كل
الأسقف المعرفية المستقبلية⁽³⁾.

المنهجية الإسلامية: حيث يقدم العلواني مقترحاً بتطوير المنهج الأصولي القديم: بعد
أن قدم مجموعة من الانتقادات للمنهج الأصولي القديم ووجّه انتقادات لمنهج العلوم
الدينية، مثل مناهج الأصوليين، ومناهج المفسرين؛ لأنها لا تعصم ذهن الفقيه أو المفسر من
الوقوع في الخطأ، بل كل ما في الأمر، إنما هو إطلاق المعنى اللفظي على كلمة المنهج من باب
التجاوز، وإلا فإن المنهج لا بد أن يكون صارماً، ويعصم الإنسان من الوقوع في الخطأ، يقول
العلواني في ذلك...: «فكل هذه المعارف، أو القواعد، التي أطلق عليها اسم {مناهج}، إنما أطلق

(1) الرفاعي: عبد الجبار، ، تقديم كتاب مقاصد الشريعة لطفه جابر العلواني، ص. 9: طه جابر العلواني،
معالم في المنهج القرآني، مجلة الإحياء، مجلة فصلية تصدرها الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ع 27،
فبراير، 2008 م، ص. 56:

(2) الرفاعي: عبد الجبار، إسلامية المعرفة هل هي قضية فلسفية من دون مضمون فلسفي؟ مقالة نشرت
في موقع www.madarik.org : ، تاريخ 23/05/ 2014 م.

(3) العلواني، طه جابر، معالم في المنهج القرآني، مجلة الإحياء، مجلة فصلية تصدرها الرابطة
المحمدية للعلماء، المغرب، ع 27، فبراير، 2008 م، ص. 56:

عليها ذلك بالمعنى اللغوي لمصطلح المنهج، لأن المعنى العلمي الدقيق لا يطلق إلا على ضابط صارم يعصم الذهن من الوقوع في الخطأ (...). وبناء المقدمات الصحيحة للوصول بها إلى النتائج السليمة المنضبطة⁽¹⁾، ولهذا القصور المنهجي الذي تعانيه علوم الفقه - حسب زعمه - يحتاج الفقيه في الوقع الراهن، المشحون بصنوف التحديات إلى تطبيق منهج الجمع بين القراءتين، أو المنهجية الإسلامية، التي يعرفها بقوله «: منهجية الجمع بين القراءتين تعني: قراءة الوحي وقراءة الوجود معا قراءة مقاصدية، وفهم الإنسان القارئ كلاً منهما بالآخر؛ باعتبار القرآن العظيم معادلاً موضوعياً للوجود الكوني يحمل ضمن وحدته الكلية منهجية متكاملة، يمكن فهمها واكتشافها في إطار التنظير لتلك الوحدة الكلية، كما أن الكون يحمل ضمن وحدته الكلية قوانينه وسننه، والإنسان، وإن كان جزءاً من الكون، لكنه عند النظر يعد نموذجاً مصغراً للوجود الكوني ومستخلفاً فيه⁽²⁾. الطاقات البشرية المخرجة على المنهج المقاصدي للعلواني: بناء على ما وصفه الأستاذ الحسان شهيد في كتابه "النقد الأصولي، من تطبيقات الشاطبي إلى التجديد المعاصر، بأن مشروعه هو مشروع أنسنة المقاصد. ولعل المقصود من ذلك هو تركيزه على الفعل والبعد الإنساني في مجال الحكم الشرعي؛ وجدنا اهتمام العلواني بالطاقات البشرية وتكوينها المحكم وتأسيسها القرآني ولعل من عاشره وعامله في العقد الأخير من حياته في القاهرة يدرك مدي اهتمامه بمجالس القراءة والتدبر وتثوير القرآن وصولاً إلى معالم المنهج القرآني الذي يؤسس عليه التجديد الأصولي يعلم أصول فقه قرآني و منظومة مقاصد شرعية تهيم على الفكر الاجتهادي المعاصر وتخرج بالأمة من أزمة الفكر وفكر الأزمة! أقول: يتحدد مشروع تأسيس المقاصد، عند العلامة للعلواني، على تجديد الخطاب الأصولي جملة؛ لأن إعادة النظر في المقاصد العامة والغايات الكبرى للشريعة الإسلامية، يُستعمل في اتجاهين اثنين؛ فهو السبيل لتوجيه الدرس الأصولي وترشيده؛ حتى يستجيب الفقه للحاجيات الإنسانية المعاصرة من جهة، ومن جهة ثانية، هو المسلك الصواب في التكيف مع الواقع الإنساني العالمي المعاصر، بما يحمله من إكراهات وتفاعلات، يقول: "والمقاصد العليا الحاكمة في منظومتنا القرآنية هي لن تكون مجرد دليل من الأدلة، أو أصلاً من أصول الفقه المختلف فيها أو المتفق عليها، بل ستكون المنطلق الأساس لإعادة بناء قواعد

(1) العلواني، طه جابر، معالم في المنهج القرآني، مجلة الإحياء، مجلة فصلية تصدرها الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ع27،:، فبراير، 2008، ص. 56:

(2) مقاصد الشريعة، آفاق التجديد، مصدر سابق، ص101،:، و 110: ونحو الاجتهاد والتجديد، مصدر

سابق، ص. 158:

أصول الفقه وتجديدها، ولبناء الفقه الأكبر عليها بعد ذلك -إن شاء الله . -ولغلبة تراثنا الفقهي، وتصحيحه وتنقيته مما لحق به من شوائب عبر العصور، وإخضاعه لتصديق القرآن الكريم عليه، وهيمته على جوانبه المختلفة، وتحريره من الأبعاد الإقليمية والقومية؛ ليكون متاحا على مستوى عالمي، وقادرا على المشاركة في صياغة الثقافة العالمية المشتركة⁽¹⁾ وانطلاقا من نظريته "الجمع بين القراءتين"، يقدم العلواني طرحا مقاصديا جديدا تجاوز فيه التقسيم المقاصدي المتوارث من لدن الجويني مروراً بالغزالي وانتهاء بالشاطبي. وتقسيمه يتمثل في ثلاثية: التوحيد، والتزكية، والعمران، التي هي المقاصد الكبرى، وأصول القيم؛ لاستيعابها جميع المقاصد الأخرى، سواء تلك التي ذكرها الأصوليون إجماعاً أو اختلافاً، كما أنها « تمثل المقاصد العليا التي استخلف الإنسان لتحقيقها، وهي: التوحيد، والتزكية، والعمران، وهذه القيم الثلاث تمثل المقاصد العليا، والقيم الأساسية الكبرى، والمبادئ الأصلية، وهي في الوقت ذاته صالحة في كل زمان ومكان، لتكون مقياساً لسائر أنواع الفعل الإنساني، ولجميع الآثار المترتبة عليه في الدنيا والآخرة، توضح للإنسان ما في ذلك الفعل من صلاح وفساد، وما يمكن أن يترتب عليه من استقامة أو انحراف، قدر ما ينسجم أو يختلف مع تلك المقاصد العليا الثلاثية⁽²⁾ .

المبحث الثالث: تطبيقات المقاصد عند العلامة العلواني

المطلب الأول: تطبيقات المقاصد العليا والكلية

توطئة: لا ينفك تطبيق العلواني للمقاصد بأقسامها عن تطبيقات المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها -وإن كان من أبرز مفكرها- فقد رسم أبعاد هذا الشق التطبيقي رواد المعهد العالمي للفكر الإسلامي- الفاروقي وأبو سليمان والعلواني ومنى أبو الفضل والمسيحي وآخرون- في أعمال مؤسسية وأكاديمية فكان إنشاء المعهد- في فريجينا بأمريكا- ولجانه وفروعه ثم تفاعله العلمي والأكاديمي بالبحوث والدراسات، كما مثلت الجامعة الإسلامية العالمية في كوالالمبور التي نشأت في الثمانينيات- بإشراف الأستاذ أنور إبراهيم في وزارة مهاتير محمد- تطبيقاً أكاديمياً لتفعيل المقاصد الشرعية في الشق الأكاديمي التعليمي والتي مازالت تؤتي ثمارها إلى اليوم

(1) . طه جابر العلواني، مقاصد الشريعة، مصدر سابق، ص. 140.

(2) . عبد الجبار الرفاعي، مقاصد الشريعة، آفاق التجديد، مصدر سابق، ص. 82-83.

(1) ..ومع مايعيشه عالمنا العربي والإسلامي من تغييب لتفعيل المقاصد الشرعية بمراتبها ومستوياتها التنزيلية؛ فإن الباحث يأمل أن يزيد الضغط الشعبي على الأنظمة الحاكمة للعودة بالأمة إلى المسار الصحيح الذي يخرجها من دوائر التبعية المذلة والاستلاب الحضاري المقيت؛ لأن العالم بحاجة لذلك ليبصر النور، وأمتنا بحاجة لذلك للإعذار إلى الله تعالى نسأل الله تعالى العون..

فقه الأقليات عند العلواني: يعد فقه الأقليات عند طه جابر العلواني تطبيقا عمليا للمنهج المقاصدي (2)؛ ولك أن تفهم ذلك للوهلة الأولى التي يؤسس العلواني فيها هذا النوع من الفقه حينما يقرر أنه لا يندرج تحت فقه الفروع بالمعنى الشائع قديما؛ بل إلى (الفقه الأكبر) الذي يراعي ظروف جماعة المكلفين عند تنزيل الأحكام تجاوزا للفرغ التشريعي أو الفقهي أو ماسي بفتور الشرائع الذي تسمو عليه الشريعة الخاتمة بمنظومة المقاصد العليا الحاكمة، فهو فقه نوعي يعتمد على الثقافة الكلية الجامعة بين كليات النصوص الشرعية ومفردات العلوم الإجتماعية عامة وعلم الاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية والعلاقات الدولية خاصة. أقول: إذا كانت دراسة الدكتور جمال الدين عطية (نحو تفعيل مقاصد الشريعة) طرعا تطبيقا عمليا في مجال المقاصد الكلية والخاصة والجزئية؛ فالضروريات الخمس أو الكليات الخمس: حفظ الدين و النفس والعقل و العرض (النسب أو النسل) والمال - وحول ترتيب هذه الكليات تعددت الرؤى الاعتبارية ولم تختلف في إطارها التطبيقي الوجوبي

(1) راجع: الإصلاح الإسلامي المعاصر، د. عبد الحميد أبو سليمان ط1 دار السلام 2006م القاهرة ص: 47-82. مقاصد الشريعة، د. طه العلواني، السابق نفسه ص: وما بعدها 152. والتعليم الديني بين التجديد والتجميد ط1 دار السلام 2009 القاهرة ص 58-59 وما بعده، الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية د. عبد الرحمن العضراوي السابق نفسه ص: 326-365. ص: 326-374 النظر المقاصدي رؤية تنزيلية د/محمد بن محمد رفيع ط1 دار السلام القاهرة 2010 م ص: 26-27. (بتصرف).

(2) . انظر: العلواني، مقاصد الشريعة، السابق ص: 97. والعلواني: نحو التجديد والاجتهاد، مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، ط1 دار تنوير... بالقاهرة 2008، ص: 36. وص 51. حيث يؤكد العلواني منهجية اعتماد الكليات التشريعية والبحث في الغايات والحكم التشريعية وتحكيمها في فهم النصوص الجزئية وتوجيهها كنوع من رد الجزئيات إلى الكليات والفروع إلى الأصول. وهو ما يمثل المنهج المقاصدي لديه. فهمها واكتشافها في إطار التنظير لتلك الوحدة الكلية كما أن الكون يحمل ضمن وحدته الكلية قوانينه وسننه، والإنسان وإن كان جزءا من الكون لكن عند النظر يعد أنموذجا مصغرا للوجود الأكبر، ومستخلفا فيه. «طه جابر، نحو الاجتهاد والتجديد، ص: 158.

عبر منظومة تطبيق الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً داخل ديار الإسلام وخارجها⁽¹⁾. حيث يرى الدكتور عطية أن مراتب هذه الكليات خمسة: الضروري وما دون الضروري والحاجي والتحسيني وما وراء التحسيني، وفي الإطار التطبيقي لتفعيل المقاصد حصرها في مجالات أربعة: الفرد والأسرة والأمة والإنسانية ووضع تصورات التفعيل لكل مجال بشكل يحقق الكليات الخمس. وفي إطار تفعيل المقاصد وتطبيقها في مجال الاجتماع البشري يضع الدكتور عطية أمثلة تطبيقية لما يمكن تطبيقه وقياسه عملياً⁽²⁾. فإن تناول العلواني لفقه الأقليات المسلمة في الغرب وما تستند إليها أوليات المسلمين في أوروبا وأمريكا خاصة من مقاصد عليا (التوحيد – والتركية والعمران) ومقاصد ضرورية (حفظ الدين والنفوس والعقل والنسل والمال) بل ومقاصد حاجية وتحسينية يعد ترجمة تطبيقية لتفعيل مقاصد الشريعة في الواقع المعاصر بمنظور كلي أُمِّي يتجاوز الرؤية الجزئية للنصوص الشرعية إلى الرؤية الكلية الاستقرائية التي يؤسس العلواني عليها منهجيته المقاصدية ، إن الصلة الوثيقة بين عناصر الهم الفكري والواقعي لدي جمال الدين عطية والعلواني- على سبيل المثال – مع المدرسة الفكرية للمعهد العالمي تؤكد تلك الرؤية الكلية للمنهج المقاصدي. أقول: من وجهة نظر الباحث المجال التطبيقي له شقان أولهما: الشق التطبيقي الأكاديمي بتنشئة جيل مفكر تمثل المقاصد بؤرة تفكيره وتصوره وهو ما يمكن تسميته ببناء المنهج الفكري؛ ومن ثم يتولد النموذج التطبيقي الواقعي وهو الشق الثاني وقد حرص العلامة العلواني على ذلك عبر مدارساته المستمرة للرؤية الكلية في القرآن الكريم مع طلاب العلم والتي كنت طرفاً في العديد من مجالسها في العقد الأول من هذا القرن .

المطلب الثاني: نماذج من تطبيقات المقاصد الخاصة و الجزئية عند العلواني

(1) . وانظر: نحو تفعيل مقاصد الشريعة د. جمال الدين عطية ط1 دار الفكر دمشق – بيروت مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي 2001م ص: 28-107 وتصوره الجديد للمقاصد وترتيبها، ومثله ما ذكر في كتاب: المدخل إلى المذاهب الفقهية ، د. علي جمعة ط4 دار السلام القاهرة 2012م ص: 393-399. وحديثه عن مدخل حول ترتيب الكليات الخمس ومنطقية هذا الترتيب لملاءمته للتغيرات المعاصرة ومنطلقات التعامل بالإسلام مع الداخل والخارج وكلامه له وجهته المعتمدة وإن خالفت الترتيب الموروث منذ الغزالي.

(2) . وانظر: نحو تفعيل مقاصد الشريعة د. جمال الدين عطية السابق نفسه ص: 142-175. وفيه الكفاية التطبيقية .

يرى العلواني أن نظرية المقاصد -كما برزت وتبلوت على أيدي علمائنا السابقين - قد تكون قد ساعدت على جعل خطاب التكليف هو المحور، إذ إن المكلف -في إطار خطاب التكليف -يضع همه إلى الوصول إلى حالة الإحساس بفراغ ذمته والخروج من عهدة التكليف بقطع النظر عن أثر فعله في الواقع ونتائج ذلك الفعل فالواقع بالنسبة للمكلف هو تصوره للقضية أو ما رسمه الفقيه في ذهنه فما دام قد حصل لديه ظن غالب بأن الدليل الشرعي قد دل على أن ذلك مخرج له من عهدة التكليف فذلك الواقع الذهني هو الواقع بالنسبة إليه، وبأداء الفعل وفقاً له يخرج من عهدة التكليف أما لو اعتمدت نظرية المقاصد العليا منطلقاً فإن الوضع سيتغير بحيث يلاحظ الواقع كما هو في نفس الأمر. وباعتماد هذه المنظومة المقاصدية يرى العلواني أن علاقة الأمة وجميع أفرادها بالقرآن الكريم باعتباره منشأً للأحكام والسنة النبوية باعتبارها مصدراً مطبقاً للأحكام ستتغير ناهيك عن غيرها مما عرف بالأدلة المختلف فيها⁽¹⁾.

وإذا كنت أرى اتفاق النُّظار على أن غائية أبواب الفقه وما تستوعبه من الأحكام الشرعية وعللها تمثل دائرة المقاصد الخاصة والجزئية على الترتيب؛ فلكل باب من أبواب الفقه مقاصده وغايته ولكل حكم شرعي حكمة وغاية أو قل: له علة ومقصد، فالعبادات بأنواعها تقصد التزكية والتعبد والتطهير عقلاً وجسداً ونفساً وروحاً وأسرة ومجتمعاً ونظم حياة؛ حتى إن الإمام ابن خزيمة نص على أن من أقسم بأنه ليس في الشريعة الإسلامية حكم واحد لا علة له فإنه لا يحث في يمينه، وأبرز من اهتموا ببيان المقاصد الخاصة والمقصد الجزئي أبو حامد الغزالي في الإحياء ومن المعاصرين ولي الله الدهلوي في حجة الله البالغة وتبعهم الإمام ابن عاشور⁽²⁾! فإن المتأمل لمنهج العلواني في تطبيق المقاصد الخاصة بالفعل الإنساني الحاصل في وجوده بين تقدير العزيز الحميد وعوالم أمره وإرادته وعالم الأشياء الذي هو عالم تحقيق مشيئته أو الحاصل بتفاعل بين حركة الغيب وحركة الإنسان وعالم الطبيعة المسخر وهذا الفعل يتعلق به خطاب الشارع لتصويبه وتسديده وجعله مؤثراً في قضايا التوحيد والتزكية والعمران وفقاً لمتطلبات محددة في دوائر تلك المقاصد العليا. حينها ندرك ما

(1). انظر: العلواني، نحو التجديد والاجتهاد، مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، ط1 دار تنوير... بالقاهرة 2008، ص: 54-55. وص 51.

(2). راجع: التعليم الديني بين التجديد والتمديد دطه جابر العلواني، طبعة 1 دار السلام 2009م بالقاهرة، ص 156. نحو تفعيل مقاصد الشريعة د. جمال عطية السابق نفسه ص: 137-138 (بتصرف).

أدركه العلواني أن اللاقتضاء أو التخيير أو الوضع من المنظور الأصولي هو بعض من أنواع التعلق لا كلها؛ لأن نجاح التطبيق البشري للخطاب إيجاباً أو سلبية التطبيق متعلق بتحقيق منظومة المقاصد العليا التوحيد والتزكية وال عمران باعتبار أن التوحيد حقه تعالى والتزكية مؤهلاته الخاصة لعباده للقيام بالتوحيد وال عمران معاً وال عمران نصيب الكون من الفعل الإنساني.

وعليه فمرد التوفيق والإخفاق في الفعل الإنساني قائم على رؤية الإنسان الكلية وتصوره للأسئلة النهائية التي إن اضطربت اضطربت مسيرة الإنسان في هذه الحياة⁽¹⁾ !

ولعل المتعامل مع المقاصد يدرك أن هذا الفن عندما يتعلق بإنتاج الأحكام الشرعية ليس ترفاً ذهنياً، إنما هو استنباط منضبط ومنهج مخصوص لاستفادة الأحكام واستثمارها من أدلتها؛ هذا ما نراه جلياً في تراثنا الفقهي وخصوصاً في فقه النوازل من خلال الكثير من الأمثلة المعبرة عن هذا النهج، ومن خلال المحاولات التنزيلية والتشغيلية للمقاصد في دائرة الأحكام والفتاوى الشرعية المعاصرة وما يتعلق بتنقيح المناط ووسائل البحث عن العلل والأوصاف في الأحكام حيث أنتج لنا البحث العديد من الدراسات العلمية المعنية ببيان المقاصد الخاصة والجزئية للعبادات أو المعاملات أو الأحوال الشخصية أو الحدود والعقوبات أو الميراث والأوقاف، وكيفيك أن تُعمل محرك البحث على شبكة الإنترنت لتجدها ماثلة أمامك سواء أكانت الدراسة في المقاصد أوتابعة لباب القياس ومنه إلحاق بنفي الفارق، وما يخصنا ما في دائرة المقاصد موضوع بحثنا. وفي السطور القادمة-من خلال فرعين-نقدم نماذج لتلك التطبيقات والدراسات⁽²⁾.

(1). انظر: العلواني، نحو التجديد والاجتهاد، مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، ط1 دار تنوير... بالقاهرة 2008، ص: 59-60.

(2) راجع: التجديد في علم أصول الفقه في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق د. محمد فتحي العتري السابق، ص: 302، وانظر: في الاجتهاد التنزيلى د. بشير بن مولود جحيش كتاب الأمة رقم 93 نشر وزارة الأوقاف القطرية 1424هـ-2003م. وحديثه في الفصل الأول عن تحقيق مناهات الأحكام ومراتب التحقيق ص 51-59 وما بعدها. وراجع: فقه المستقبل رؤية تأصيلية تطبيقية د. محمد فتحي العتري ط1 دار المطبوعات الجامعية الإسكندرية مصر 2012م.

الفرع الأول تطبيقات المقاصد الخاصة عند العلواني

المقاصد الخاصة هي: المعاني التي لوحظت في باب معين من أبواب التشريع المخصوص، مثل: مقصد الردع في باب العقوبات، ومقصد منع الضرر في باب المعاملات المالية، ومقصد عدم الإضرار بالمرأة في باب الأسرة⁽¹⁾. فهي مقاصد متجانسة من الشريعة، أو مجموعة متجانسة من أحكامها، وكذلك الخاصة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والكونية لضبطها بموازين الشريعة⁽²⁾. ومن العلماء الذين كتبوا في مقاصد الشريعة الخاصة، قديماً وحديثاً، سواء أكان ذلك في كتب خاصة، أم أبواب ضمن كتبهم، ومن أشهر من كتب وألف في المقاصد الخاصة "الحكيم الترمذي" في القرن الثالث الهجري في كتابه: "الصلاة ومقاصدها وأسرارها"، وصدوق بن بابويه (381هـ) في كتابه: "علل الشرائع"، والغزالي في كتابه: إحياء علوم الدين، فقد عُني بأسرار الشريعة في العبادات والعادات والمعاملات، وولي الله الدهلوي في كتابه "حجة الله البالغة"، ود. جمال الدين عطية في كتابه "مقاصد الاقتصاد"، ود. فتح الباب عبدالحليم في كتابه مقاصد التربية، ود. عمر سليمان الأشقر في كتابه: "مقاصد المكلفين"، ود. عبد الوهاب أبو سليمان في كتابه: "المقاصد في المناسك". إلخ. ومن النماذج التطبيقية للمقاصد الخاصة ما يلي: في باب الإمامة أو السياسة الشرعية بصفة عامة: فمقصد إقامة الإمام حفظ الحوزة أو بياضة الدين، ورعاية الرعية، كف الاختلاف الظلم، والانتصاف للمظلومين، استيفاء الحقوق من المتنعمين⁽³⁾. ومن واجبات الدولة في مجال التوزيع على مستوى المجال الفردي والمعيشة العام: أولاً: واجبات الدولة على مستوى المجال الفردي: حماية الملكية الخاصة، ومجابهة كل اعتداء على هذا القطاع، وتدخل في هذا الباب أحكام الغصب والسرقه وأمثالها. مراقبة قيامها بواجبها الاجتماعي من حيث اعتبارها حاكمة، من هنا وضع الشارع قوانين لحماية ذلك، مثل: (الحجر، الكسب المحرم، لا ضرر ولا ضرار) من هذه القوانين التي وضعها الإسلام للحفاظ على الملكية الخاصة الاستهلاك أو التبادل اللامعقول عبر الحجر على السفهيه والمريض المورث والمدین وغير ذلك. و التبادل اللامعقول للملكية بما لا ينسجم مع القيم اللاأخلاقية والاقتصادية التي يؤمن بها الإسلام عبر أحاديث منع الكسب

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية دراسات في قضايا المنهج والتطبيق ص: 80، الاجتهاد المقاصدي، الخادمي السابق نفسه ص: 138 (بتصرف).

(2) راجع: نحو تفعيل مقاصد الشريعة د. جمال الدين عطية السابق نفسه، ص: 131-136. (بتصرف).

(3) راجع: نظرية المقاصد عند الجويني ص: 142. (بتصرف).

الحرام، ومنع الاعتداء على حقوق الأفراد الآخرين، وحقوق المجتمع العليا عبر أحاديث منع الضرر، الفرار من أداء الوظائف الاجتماعية الكبرى عبر النصوص التي تفرض الزكاة والضرائب المالية الأخرى، وتحري الامتناع عنها. ومن ثم نستطيع القول بأن: أكبر وظيفة للدولة في مجال الملكية الخاصة هي حمايتها من جهة السيطرة عليها؛ لتقوم بواجبها الاجتماعي من جهة أخرى .

ثانيًا: واجبات الدولة: توفير مستوى المعيشة المناسب، وذلك من خلال التكامل والتعادل: التكافل ونعني به أن يكون كل فرد في المجتمع الإسلامي ضامنًا لأمرين واجبين لا تخلفُ فيهما، وهما: التكافل الفردي: الحاجيات الأساسية الضرورية الفورية لكل فرد في المجتمع الإسلامي. الحاجيات الأساسية الضرورية لمجمل المجتمع الإسلامي، والتي لا يمكن أن يتم قوامه بدونها. التكامل الاجتماعي: ونعني به أن تكون الدولة ضامنًا لتحقيق الأمرين التاليين: توفير الحاجات العرفية للأفراد حتى يصلوا إلى المستوى الغني. تأمين أفضل الحالات الممكنة للحياة الاجتماعية. تحقيق التعادل، والمراد به التقارب الطبيعي بين هذه المستويات - بالقضاء على الطبقة المفرطة - بامتلاك الحد الطبيعي الذي يمكن الفرد من معيشة متوسطة عرفًا⁽¹⁾. والإنسان مدني بطبعه فهو لم يخلق ليحيا وحيدا فوحدته الصغرى ليست الفرد بل الأسرة ووحدته الكبرى الإنسانية لا القبيلة أو الجماعة بالمعنى الأيديولوجي المعاصر وهو ما يمكن التعبير عنه بالقوم. ذلك أن الله تعالى جعل بين الوحدة الصغرى والكبرى شعوبا وقبائل ومجتمعات لها غاية التعارف والتآلف والتعاون وتحقيق العمران . وفي دورات الصعود والهبوط لدي الأمم والشعوب تحدث انشطارات وتقع صراعات وتظهر تباينات بين الأمم والشعوب أحيانا وقد يبدو تلك الانشطارات والانقسامات في الأمة الواحدة ذاتها وبين فصائلها أو بين أجيالها ، وبأسباب مختلفة لذلك فإنه لا بد أن يكون لكل أمة آليتها ومنهجها الحاكم لتلك التطورات وجعلها تصب في إطار البناء الايجابي الفاعل لا الهدم والتخريب والتفكك ؛ هنا يأتي دور المنهج المقاصدي لهيمن على تلك التطورات والتغيرات بل والصراعات⁽²⁾ ! داخل

(1). راجع: الشريعة الإسلامية-دراسات في قضايا المنهج والتطبيق 169-175. (بتصرف).

(2). انظر: العلواني، نحو التجديد والاجتهاد، مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، ط1 دار تنوير... بالقاهرة 2008، ص: 68-69. فهما واكتشافها في إطار التنظير لتلك الوحدة الكلية كما أن الكون يحمل ضمن وحدته الكلية قوانينه وسننه، والإنسان وإن كان جزءا من الكون لكن عند النظر يعد أنموذجا مصغرا للوجود الأكبر، ومستخلفا فيه. «طه جابر، نحو الاجتهاد والتجديد، ص: 158.

هذا الإطار المنهجي للمقاصد يقدم العلواني حلاً يضمن إعادة بناء الأمة ويزيل حالة الانشطار والانقسام والصراع ويوجه الاختلاف نحو الائتلاف تحت كليات القرآن وقوانينه الثابتة ومنها قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) ﴾ آل عمران :103. وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65) ﴾ سورة الأنعام 65، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (14) ﴾ المائدة :14. وعلى أساس تلك الآيات البيّنات يجب أن تركز كل جهود من يقوم بواجب الإصلاح والبناء في الأمة المسلمة؛ حتى لا تضع جهود هباء ! وهذا المنهج يقدم العلواني حلاً لحالات الانقسام بين الأجيال وإعادة صياغة الواقع المعاصر وخطابه الدعوي وآلياته التطبيقية⁽¹⁾.

الفرع الثاني: من تطبيقات المقاصد الجزئية عند العلواني⁽²⁾

نشر للعلواني في عام 1979 كتاب الاجتهاد والتقليد؛ وبعد ذكره ضرورة الاجتهاد وحتميته للخروج من الواقع السيء وذكر العديد من المصطلحات ذات الصلة كالرأي والفتوى وموقف العلماء من الاستحسان وما ينبغي في المجتهد ونحوه من شروط الاجتهاد وما يجب على المجتهد ، وهل يخلو العصر من المجتهد ؟ ذكر جانباً من جوانب (وجوه الاجتهاد وكيفيته) بالنص ومع النص معنى ودلالة :كاستخراج علة الربا ،ومقدار النفقة الواجبة على الزوج معسراً كان أم ميسوراً وجلد الزاني بالاستحسان وإن اختلف الشهود في زاوية الرؤية وغير ذلك من أمثلة تراثية قديمة ؛أكد أنه لا يصح الاجتهاد بغلبة الظن حتى يقترن بأصل ؛لأنه لا يجوز أن يرجع في الشرع إلى غير أصل وهذا هو الظاهر من مذهب الشافعي وأما من قال بالجواز

(1). انظر: العلواني، نحو التجديد والاجتهاد، مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، ط1 دارتنوير... بالقاهرة 2008، ص: 69-73.

(2). انظر: العلواني، نحو التجديد والاجتهاد، مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، ط1 دارتنوير... بالقاهرة 2008، ص: 73-76.

لاعتبار الاجتهاد أصل لا يحتاج إلى الأصل كما ذكره الشوكاني في إرشاده فهو رأي مرجوح⁽¹⁾ !
فالمتأمل في مثل تلك الدراسات الأولى في إنتاج العلواني الفقهي والفكري يجد تباينا بينه وبين
ما آلت إليه إنتاجاته الفكرية والفقهية بعد عقدين من الزمان خاصة بعد الانتقال إلى أمريكا
واتساع الرؤية !

مسألة هل يجوز خلو العصر من المجتهد ؟ الراجح من المذهبين -والله تبارك وتعالى
أعلى وأعلم- ما ذهب إليه الحنابلة، ووافقهم علي بعض علماء المذاهب الأخرى، فلب يجوز
خلو عصر من العصور - شرعا عن مجتهد قائم لله -تبارك وتعالى -بالحجة ،وإذا وقع
فالمسلمون -جميعا - آثمون⁽²⁾ .

أقول : ومع أن رؤية العلواني في هذه الآونة وهي الفترة التي قضاها بالجامعة
السعودية إلا ان جذور الرؤية الكلية كانت موجودة حتى في الطرح الأصولي المجرد كما في أدب
الاختلاف في الإسلام والاجتهاد والتقليد .

لكن انطلاقا من المحددات المنهاجية للمنهج المقاصدي كما ذكر العلواني والمتمثلة في
:الرحمة رسالة ورسولا ، رفع الحرج ونفي الضيق ، أن الأصل حل الطيبات وحرمة الخبائث ،
الأصل في المنافع الإباحة ، والأصل في التكليف التشريف والتزكية لا الإذلال والإخضاع ، وأن
الشرعية وضعت لتحقيق المنافع والمصالح ، والأصل في العقود الإرادة الإنسانية الحرة،
والأصل في العبادة التوقف ؛فإن المتأمل للنظرة الجزئية للفروع والتصرفات وما تحتاجه من
الفتاوى والاجتهادات بل والتحقيقات لدي العلواني فسيجد من التطبيقات المعبرة عن أعمال
المقاصد الجزئية في الواقع المعاصر، حيث يسجها الفقيه أو المفتي بسياسات من الضوابط
المحكمة المانعة لأي استغلال سيء بذريعة ما هو قائم في الواقع من أوضاع أو ما تقتضيه
السياسات.لذلك أضحي ضرورة علمية -في نظر العلواني -إبراز جملة من القواعد والضوابط
في استعمال المقاصد في الاجتهاد الفردي أو المجمعى أو الفتوى. وهو ما سجله في دراساته حول
التجديد والاجتهاد وفصل القول فيها عن مرتكزات ومنطلقات ذلك المنهج القائم على المقاصد

(1). انظر: العلواني، الاجتهاد والتقليد في الإسلام ، ، ط1 دار الأنصار السعودية..سنة 1979، ص: 54-56
وجوه الاجتهاد .

(2). انظر: العلواني، الاجتهاد والتقليد في الإسلام ، ، ط1 دار الأنصار السعودية..سنة 1979، ص: 54-56
وجوه الاجتهاد .

القرآنية العليا والتي تتجاوز منهجية مقاصد الشريعة في المنظور الأصولي القديم وفي السطور القادمة نطرح بعض المسائل:

مسألة: نظرية التكليف وأثرها اللاهوتي اليهودي وفتوى صلاة الفريضة حال المشي خشية خروج الوقت⁽¹⁾:

ردا على سؤال: هل يجوز صلاة الفريضة ماشيا بالإلحاق كما يجوز الصلاة للراكب في الأحيان؟ جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: (مذهب أبي حنيفة، ومالك، وإحدى الروايتين عن أحمد، وهو كلام الخرقى من الحنابلة: أنه لا يباح للمسافر الماشي الصلاة في حال مشيه؛ لأن النص إنما ورد في الراكب، فلا يصح قياس الماشي عليه؛ لأنه يحتاج إلى عمل كثير، ومشى متتابع ينافي الصلاة، فلم يصح الإلحاق. ومذهب عطاء، والشافعي، وهو ثانية الروايتين عن أحمد، اختارها القاضي من الحنابلة: أن له أن يصلي ماشياً؛ قياساً على الراكب؛ لأن المشي إحدى حالتي سير المسافر، ولأنهما استويا في صلاة الخوف، فكذا في النافلة. والمعنى فيه: أن الناس محتاجون إلى الأسفار، فلو شرطنا فيها الاستقبال للتنفل؛ لأدى إلى ترك أروادهم، أو مصالح معاشهم. ومذهب الحنابلة، والأصح عند الشافعية: أن عليه أن يستقبل القبلة لافتتاح الصلاة، ثم ينحرف إلى جهة سيره. قال الشافعية: ولا يلزمه الاستقبال في السلام على القولين. اهـ أقول بالنظر إلى المحددات المهاجية للفكر المقاصدي عند العلوني في ضوء المقاصد القرآنية العليا ومنها التزكية لا يجوز إلحاق صلاة المفترض بالمتنفل والصلاة الواجبة بالنافلة، ففي هذه الفتوى امتنع الإلحاق لأن الصلاة لا تكون إلا مع السكينة والوقار وهما منتفیان للماشي فبطل الإلحاق لانتفاء المقصد الجزئي وهو الخشوع.

(1) موقع إسلام ويب رقم الفتوى: 427618

<https://www.islamweb.net/ar/fatwa/427618/?searchKey=0bq06B9OxnbngAp5gd8&wheretosearch=0&order=&RecID=9&srchwords=%C7%E1%C5%E1%CD%C7%DE&R1=0&R2=0&hIndex>

الخاتمة

بعد هذا الاستقراء الجزئي لمقولات العلواني لاستنباط المنهج المقاصدي وتطبيقاته عبر الإلحاق بالمقاصد القرآنية العليا و مقارنة بمقاصد الشرعية وما يتعلق بها من محددات وقواعد تتعلق بالأفعال و المآلات وعلاقتها بالفقه وفروعه توصل البحث إلى عدة نتائج هي:

أولاً: أن محددات المنهج المقاصدي عند العلواني هي: الرحمة للرسالة والرسول ،رفع الحرج ، أن الشريعة وضعت لتحقيق المنافع والمصالح ، أن الأصل في التكليف التشريف والتزكية لا الإخضاع والإذلال ، أن الأصل حل الطيبات وحرمة الخبائث ، أن الأصل في المنافع الإباحة ، أن الأصل في العبادة التوقف ، أن الأصل في صحة العقود الإرادة الإنسانية الحرة . هذا ما توصل إليه العلواني بالاستقراء التام لأي الكتاب والسنة النبوية المطهرة.

ثانياً: أن طبيعة المنهج المقاصدي عند العلواني قرآنية التأصيل والتنزيل من حيث التأسيس والتشغيل أي انها طبيعة كلية تتسم بالإطلاق ترد الجزئيات إلى الكليات ولا تحدّها حدود مكانية أو زمانية بالضبط كطبيعة الرسالة المحمدية المستمدة من كتاب الله تعالى.

ثالثاً: أن تفعيل وتشغيل المقاصد العليا الحاكمة يمكن الفقيه والمجتهد من تجاوز أزمة الدليل الجزئي عند تكييف الوقائع والتصرفات بمستوياتها كافة .

رابعاً: وظيفة المنهج العلمي عند العلواني حماية وصيانة عقلية الفقيه والمجتهد في الفهم والتنزيل ومن ثم عمليات الإلحاق بالمقاصد الشرعية بمستوياتها العالية والعامة بل والجزئية الخاصة كمستوى من مستويات تشغيل المقاصد في الوقائع والأحوال .

خامساً: أن المنهج المقاصدي عند العلواني يعني: استحضار المجتهد للمقاصد واعتبارها في كل ما يقدره أو يفسره، ليس في مجال الشريعة وحدها، بل في كل المجالات العلمية والعملية في إطار أخلاقي يوفق بين النص والواقع.

سادساً: أن للمنهج المقاصدي خصائصه المميزة وهي الظهور والثبوت والانضباط والاطراد كما بين العلواني في دراسته عن الاجتهاد والتجديد .

سابعاً: أنه لما كان المنهج المقاصدي عند العلواني قرآني النشأة والتطبيق فهو عندئذ يعتمد على تفعيل قوى الوعي والتدبر في المسلم بتفاعله الدائم مع القرآن الكريم .

ثامناً: أن المنهج المقاصدي سبيله الاستدلال الكلي بدعائم ثلاث: الاستقراء والتعليل والمنهجية القرآنية الكلية.

تاسعاً: أن المنهج المقاصدي -عند العلواني- يعد أوسع مجالات العمل بالنص الشرعي حيث العمل بالمقاصد العليا لما فيها من معايير واسعة مستوعبة للأفعال والتصرفات والتوجهات وتأطير السياسات العامة والاتفاقيات الأممية إذ لا يليق بأمتنا في عصر العلم أن تقيدنا الأيديولوجيات وحسب بعيداً عن النظر الكلي! لذا أرى أن عصر الأيديولوجيات في عالمنا العربي والإسلامي يجب أن ينتهي كما انتهى عند غيرنا لا لننسلخ بل لنعود إلى مصادرها بإطلاقاتها وخصائصها العالمية الأممية. فعندئذ تستوعب حضارتنا العالمين ونخرج من دوائر التآزيم.

عاشراً: أن تطبيقات المنهج المقاصدي الكلية والجزئية بكافة مراتبها ومجالاتها -على نحو ما وقف البحث- تؤكد قدرة الشريعة وحيويتها التفعيلية والتشغيلية للنهوض بدورها في إنقاذ العالم المعاصر من أزمتاته الفكرية والعملية وحمايته من دواعي الأثرة والأناية والاستبداد.

حادي عشر: أن النظر في المآلات كمحور من محاور الفكر المقاصدي التي طبقها العلواني -كمركز من مرتكزات الفكر المقاصدي- تعين على تحري المقصد الذي من أجله شُرع الحكم الشرعي في الواقعة المراد النظر فيها، فإذا تبين عدم تحقق المقصد عُدل بالحكم الأصلي إلى غيره. وأن هناك العديد من المفاهيم والمصطلحات -ومنها المآلات- في تراثنا الأصولي والفقهية تعين في استجلاء الواقع وفهمه، ولها دور كبير في استلها الماضى وعبره، واستشراف المستقبل والانشغال بقضاياها وآماله. التحري في أيلولة الواقعة المراد النظر فيها: هل سيتحقق المقصد الشرعي من الحكم الشرعي عند تطبيقه على هذه الواقعة أم لا؟ فعلى الفقيه بعد دراسة الأحكام الشرعية ومعرفة مقاصدها أن يتحرى فيما ستؤول إليه هذه الأحكام عند تطبيقها. وأحكام الشريعة في الغالب تؤول إلى تحقيق مقاصدها عند تطبيقها على الأفعال، وقد تتخلف أحياناً لأسباب ومؤثرات عدة، وعلى الفقيه أن يكون على بصيرة بها، وأن القرآن الكريم اهتم بالسنن الكونية والاجتماعية باعتبارها إرهابات للمآلات ومعنيات على تصورهما، كما اهتم بالزمن بكل أجزائه الماضى والحاضر والمستقبل كي يكون المسلم على بنية من أمره في حركته وسكنته وأسبابه ونتائجه. كما اهتمت السنة بالمآلات فوضعت الرخص واهتمت

بالزمان والمكان كأوعية للفعل الإنساني لا يمكن أن ينخلع المكلف منهما ومن خصائصهما، واهتمت أيضا بموارد الخير وأسباب الفتن والشر فبصرت الناس كيف يعملون وماذا يتقون؟ والم يقبلون وعم يحجمون؟ ليهلك من هلك عن بنية ويحيى من حي عن بنية.

التوصيات: للعلماء دور كبير في خدمة تراثنا ومصادرنا وواقعنا - كما فعل العلامة العلواني رحمه الله تعالى وطيب ثراه رغم ما وجه إليه من انتقادات وتشكيكات وإساءات - حيث كان التراث الفقهي والأصولي والمقاصدي شغله وهمه بالإضافة إلى استلهام الرؤية الكلية بالقراءتين للوحي والكون المعينة على استكمال جوانب الرؤية المستقبلية والنظر في المآلات. وعلى الأمة ممثلة في قادتها وعلمائها استلهام قواعد المقاصد والنظر في المآلات بما يحقق مصلحة الراعي الرعية في الدنيا والآخرة.. والله الموفق،،

المصادر والمراجع:

رجعت إلى كتب العلامة العلواني في مكتبتي والمتوفرة بالموقع الخاص به مع المراجع التالية :

1. الاجتهاد بين حقائق التاريخ ومتطلبات الواقع، د. أحمد بوعود ط1 دار السلام القاهرة 2005م.
2. الاجتهاد المقاصدي: حجيته، ضوابطه، مجالاته، للدكتور نور الدين بن المختار الخادمي سلسلة كتاب الأمة رقم 66 طبعة وزارة الأوقاف والشئون الدينية قطر 1419هـ.
3. الاجتهاد المقاصدي مفرداته وتطبيقاته د. محمد فتحي العتري طبعة جامعية خاصة، بجامعة الإنسانية ماليزيا 2016م.
4. الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام لشهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي (ت: 682هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غده، ط2 دار البشائر الإسلامية-بيروت- لبنان 1416هـ.
5. الإصلاح الإسلامي المعاصر، د. عبد الحميد أبو سليمان ط1 دار السلام 2006م القاهرة.
6. اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات د. عبد الرحمن معمر السنوسي ط(1) دار ابن الجوزي الدمام 1424هـ.
7. إعلام الموقعين عن رب العالمين لشمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم(ت: 651هـ) تحقيق: مشهور حسن آل سلمان ط دار ابن الجوزي 1423هـ.
8. تعليل الأحكام ..عرض وتحليل، للشيخ محمد مصطفى شلي طبعة الأهر 1947م القاهرة.
9. التعليم الديني بين التجديد والتجميد د. طه جابر العلواني، طبعة 1 دار السلام 2009 القاهرة.
10. التجديد في علم أصول الفقه في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق د. محمد فتحي العتري ط 1439هـ- 2018 المعهد العالمي للفكر الإسلامي الأردن .
11. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم(ت: 751هـ) تحقيق: مصطفى أبو النصر الشلي الناشر: مكتبة السوادي - جده ط1 1412هـ.
12. الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور ط2 دار العلم للملايين 1399هـ.
13. علم الدلالة عند العرب، عادل فاخوري: ط1 دار الطليعة، 1985 بيروت، لبنان.

14. الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية د.عبد الرحمن العضاوي ط1 وزارة الأوقاف 2010م الكويت.
15. في الاجتهاد التنزيلي د.بشير بن مولود جحيش، كتاب الأمة رقم 93 نشر وزارة الأوقاف القطرية 2003م.
16. فقه المستقبل رؤية تأصيلية تطبيقية د.محمد فتحي العتري ط1 دار المطبوعات الجامعية الإسكندرية 2012م.
17. القاموس الفقهي سعدى أبو جيب دمشق 1982 م نسخة مصورة في 2003م .
18. القواعد: لأبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرئ (ت: 758هـ) تحقيق أحمد بن عبد الله بن حميد جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية والاثار الإسلامي مكة المكرمة.
19. قواعد الأحكام في إصلاح الأنام للعز بن عبد السلام السلمي (ت: 660هـ)، تحقيق: د.نزيه حماد، ود.عثمان جمعة، ط1 دار القلم 1421هـ.
20. القواعد الأصولية بين النظرية والتطبيق رؤية جديدة د.محمد فتحي العتري، ط1 دار المطبوعات الجامعية الإسكندرية 2014.
21. الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد ،تحقيق محمد عابد الجبري طبعة مركز الوحدة العربية سلسلة التراث الفلسفي رقم 2 ابن رشد.
22. كيف نتعامل مع القرآن الشيخ محمد الغزالي ط(3) دار الوفاء والمعهد العالي للفكر الاسلامي في القاهرة 1413هـ – 1992م .
23. الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، د.أحمد الريسوني ط1 دار السلام القاهرة 2010 .
24. لسان العرب للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت: 711هـ) تحقيق: أمين عبد الوهاب ،ومحمد الصادق العبيدي ، ط إحياء التراث العربي 1418هـ .
25. مختار الصحاح لزين الدين الرازي (ت: 666هـ) ط المكتبة العصرية-بيروت-لبنان 1418هـ.
26. المدخل إلى المذاهب الفقهية، د. على جمعة، ط4 دار السلام القاهرة 2012م.
27. معجم لغة الفقهاء دكتور محمد رواس قلعه وآخرون ط1، دار النفائس بيروت 1996م .
28. مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية، د.منى أبو الفضل و د.طه جابر العلوانى دار السلام القاهرة 2009م .
29. مقاصد الشريعة محمد الطاهر ابن عاشور تحقيق محمد الطاهر الميساوي ط1 دار البصائر 1998م تونس.

30. مقاصد الشريعة ومكارمها الشيخ علال الفاسي طبعة مكتبة الوحدة الدار البيضاء المغرب 1963 م.

31. الفكر المقاصدي: قواعده وفوائده. د أحمد الريسوني منشورات الزمن كتاب الجيب. الكتاب 9. مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1999 م.

32. مشاهد من المقاصد، الشيخ العلامة عبدالله بن بيه، ط 2 دار التجديد الرياض السعودية 33. مقاصد الشريعة الإسلامية، د. طه جابر العلواني (عليه من الله سبحانه الرحمة) طبعة (1) دار الهادي بيروت 2001.

34. الموافقات للإمام الشاطبي تحقيق د. عبد الله دراز طبعة دار المعرفة بيروت (دت). 35. نحو تفعيل مقاصد الشريعة د. جمال عطية (عليه من الله سبحانه الرحمة) طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفكر دمشق 2001 م.

36. النظر المقاصدي رؤية تنزيلية د/ محمد بن محمد رفيع ط 1 دار السلام القاهرة 2010 م. 37. نظرية المقاصد عند الإمام الجويني دراسة أصولية د. خالد عبد الكريم رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم جامعة القاهرة 2008.

38. نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي د. أحمد الريسوني ط 2 الدار العالمية للكتاب الإسلامي 1992 م.

39. نهاية المطلب في دراية المذهب للجويني تحقيق: أ. د/ عبد العزيز الديب، ط وزارة الأوقاف- قطر 1428 هـ.

روابط مقالات وفتاوى رقمية موقع إسلام ويب:

<https://www.islamweb.net/ar/fatwa/427618/?searchKey=0bq06B9OxnbnagAp5gd8&wheretosearch=0&order=&RecID=9&srchwords=%C7%E1%C5%E=1%CD%C7%DE&R1=0&R2=0&hIndex>

<https://www.islamweb.net/ar/fatwa/224416/?searchKey=0bq06B9OxnbnagAp5gd8&wheretosearch=0&order=&RecID=6&srchwords=%C7%E1%C5%E=1%CD%C7%DE&R1=0&R2=0&hIndex>

<https://www.islamweb.net/ar/fatwa/135872/?searchKey=0bq06B9OxnbnagAp5gd8&wheretosearch=0&order=&RecID=3&srchwords=%C7%E1%C5%E=1%CD%C7%DE&R1=0&R2=0&hIndex>

الكليات المقاصدية القرآنية وأبعادها التربوية من طه جابر العلواني إلى فتحي حسن ملكاوي

د. كمال أمساعد

جامعة القاضي عياض - المغرب

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى بيان أن الإطار التربوي التعليمي للأمة الإسلامية لن يخرج عن القيم المقاصدية العليا والكليات القرآنية الموجهة لوجود الإنسان الحق وحضوره الحقيقي في هذا الكون، وقد سبق إلى تناول هذه الكليات بهذه الرؤية الناظمة الشيخ الدكتور طه جابر العلواني، لتمتد هذه الكليات المقاصدية وتُستثمر بعد ذلك في المشروع العلمي للأستاذ الدكتور فتحي حسن ملكاوي الذي ابتعث البعد التربوي لهذه القيم الكلية في محاولة لبناء منهاج تربوي يوحد شتات علوم هذه الأمة ويجمع شتات العقل المسلم وروحه. فما حدود الاستمداد من المشروع العلواني في إبراز فاعلية "المقاصد القرآنية الحاكمة" وتحديد تجلياتها في مجالات العلم والمعرفة، وجوانب السلوك والممارسة وميادين بناء الحياة وسبل تطويرها.

الكلمات المفتاحية: المقاصد القرآنية - منهاج تربوي - طه جابر العلواني - فتحي حسن ملكاوي.

"The coranic maqasidi principals and Their Educational Dimensions

From Taha Jabir Al-Owaini to Fahti Hassan Malkawi"

Abstract:

This research paper claims that the educational framework of the Islamic nation will not deviate from the higher Maqasid (Purposes) values and the Qur'anic universals directed to the existence of the true human being and his true presence in this universe. These colleges have previously been addressed with this organizing vision by Sheikh Dr. Taha Jaber Al-Alwani, so that these Maqasid universals may be extended and exploited after that. In the scientific project of Professor Dr. Fathi Hassan Malkawi, who investigated the

educational dimension of these universal values to build an educational curriculum that unites the diaspora of this nation's sciences and brings together the diaspora of the Muslim mind and spirit. So, what are the limits of drawing from the Alwani project in highlighting the effectiveness of the "Ruling Qur'anic Purposes" and defining their manifestations in the fields of science and knowledge, aspects of behaviour and practice, and the fields of developing human life.

keywords: Qur'anic Objectives - An Educational Curriculum - Taha Jaber Al-Alwani - Fathi Hassan Malkawi.

مقدمة:

إن الحضارة المعاصرة على كل ما أسدته للإنسان من خدمات في عمليات الكشف والتسخير، وعلى كل ما أنتجته من علوم ومعارف وآداب وفنون بقطع النظر عن طبيعتها لم تستطع أن تقدم «أطرا ووسائل تربوية إنسانية هادفة» يمكن أن نجد فيها ما يساعد الإنسان على تقويم نفسه وتهذيب سلوكه وتربية ذاته.

أما الإسلام فإنه منذ البداية أعلن عن مقاصده التربوية وأهدافه في التربية، وغاياته وقيمه الحاكمة، ووضع ذلك كله في مراتب يأخذ بعضها بعضه حتى تبلغ تلك الغاية الأسمى ألا وهي سعادة الإنسان في الدارين بشروطها وأركانها وضوابطها¹. "والقرآن المجيد المكنون قدم في الماضي أنجح الحلول لأزمة الإنسان المعرفية في عصر التنزيل، تلك الأزمة التي عرفت بالجاهلية، ولا يزال وحده القادر على تقديم مفاتيح الحلول المعرفية"².

فإذا كانت الرسالة الخاتمة الحاكمة قد بدأت بنبوة قائمة على التربية والتعليم والتزكية وتلاوة الآيات ومورست فيها متطلبات العمران والشهود الحضاري، فقد آلت الحاكمة فيها إلى كتاب الله تبارك وتعالى الذي يعتبر المصدر الأول المنشئ للأحكام، والمبين لكل

¹ ينظر: "التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة"، طه جابر العلواني، بيروت: دارالهادي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 2003، ص114.

² نفسه، ص96.

شيء¹. وهذه الحاكمية هي التي تعطي للإنسان قدرة مستمرة على تجديد الأحكام، وتوليد المعارف والعلوم وتوجيه السلوك، وتنظيم الحياة بشكل واسع في إطار القيم القرآنية المطلقة القادرة على استيعاب أي واقع إنساني مهما كان، وبفهم إنساني متجدد من حقه أن يكون مختلفاً من بيئة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر بأزماته المختلفة خاصة المرتبطة بالمجال التربوي والتعليمي.

لذلك فإن هذه الورقة البحثية تدّعي أن الإطار التربوي التعليمي للأمة الإسلامية لن يخرج عن القيم المقاصدية العليا والكمالات القرآنية الموجهة لوجود الإنسان الحق وحضوره الحقيقي في هذا الكون، وقد سبق إلى تناول هذه الكمالات بهذه الرؤية الناظمة الشيخ الدكتور طه جابر العلواني رحمه الله في كتاباته²، لتمتدّ هذه الكمالات المقاصدية وتُستثمر بعد ذلك في المشروع العلمي للأستاذ الدكتور فتحي حسن ملكاوي³ في كتب لاحقة⁴. وقد ابحت الدكتور ملكاوي البعد التربوي لهذه القيم الكلية الحاكمة والناظمة في محاولة لبناء منهاج تربوي يوحد علوم هذه الأمة ويلملم ويجمع شتات العقل المسلم وروحه.

إشكالية الورقة:

فما حدود الاستمداد من المشروع العلواني في إبراز فاعلية "المقاصد القرآنية الحاكمة" وتحديد تجلياتها في مجالات العلم والمعرفة، وجوانب السلوك والممارسة وميادين بناء الحياة وسبل تطويرها؟ وما هي-من خلال أعمال الدكتور فتحي حسن ملكاوي - آثار هذه القيم في "نظامنا المعرفي الإسلامي"؟ ومدى امتدادها إلى الجانب التطبيقي العملي في البناء والتكوين التربوي والاجتماعي، وفي حياة الفرد والمجتمع والأمة بصورة عامة؟

¹ - ينظر: حاكمية القرآن" طه جابر العلواني، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1996، ص22.

² - منها كتاب: "التوحيد والتزكية والعمران محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة".

³ - والدكتور حسن فتحي كما هو معلوم كان ممارساً فقد عمل في التعليم العام مدرساً ومشرفاً تربوياً ومشاركاً في وضع المناهج وتأليف الكتب المدرسية، من 1966-1978، كما أنه جمع بين التخصص العلمي الأكاديمي والتخصص البيداغوجي التربوي.

⁴ - منها: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"; و"منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"; و"نحو نظام معرفي إسلامي"; و"منهجية التكامل المعرفي: أساسيات في المنهجية الإسلامية".

أهداف الورقة:

تهدف الورقة البحثية إلى:

○ إبراز جانب مشرق من إسهامات الدكتور طه جابر العلواني رحمه الله، وتأثيره في المشاريع العلمية لمن بعده – أعمال الدكتور فتحي حسن ملكاوي أنموذجاً.

○ إبراز حاكمية القرآن الكريم وهيمنته القيمية، في مقابل كل فهم أو أعمال تجزيئي لنصوص الوحي.

○ إعادة الاعتبار للكتليات المقاصدية القرآنية الحاكمة واعتبارها قاعدة لكل بناء حضاري إنساني.

○ الوقوف على أهمية الوحدة البنائية للوحي وللهوية العلمية والمعرفية للأمة الإسلامية، وتشكل هذه الهوية بناءً على منظومة القيم المقاصدية العليا الكلية.

منهج الورقة:

تنتهج الورقة البحثية منهجاً وصفيًا وآخر تحليليًا تركيبياً في تعامل مباشر مع المؤلفات الأصيلة للمفكرين موضوع الدراسة مع الاستعانة بما تيسر من مراجع أخرى.

المبحث الأول: حاكمية القرآن والمقاصد العليا عند طه جابر العلواني.

أولاً: مدخل الأزمة والاستجداء بحاكمية القرآن

لقد كان جل المشروع العلمي والتراث المعرفي الذي خطته يد العالم الرباني طه جابر العلواني يدور حول الوحي الإلهي، فهو مشروع قرآني قائم على التمكين لخصائص القرآن الكريم في بناء الحضارة الإسلامية والإنسانية؛ "فالقرآن الكريم كتاب مكنون وهو يكشف عبر العصور عن مكنوناته؛ ليستوعب مشكلات وقضايا العصور -كلها- وبحسب سقوفها المعرفية، وعلى اختلاف أنساقها الثقافية والحضارية، فهو مصدق ومهيمن ومستوعب ومتجاوز؛ وفي استيعابه يستطيع أن يستوعب الكون وحركته والعالم وأزماته وإشكالاته"¹.

وهذا يعني أن تدبرنا للقرآن الكريم يكون ليس فقط لفهم معانيه، وأخذ الدروس والعبر والأحكام بل يجب أن يتعدى هاجسنا في هذا التدبر أفق الأحكام الشرعية إلى البحث عن حلول لأزماتنا المعاصرة في كل دقائقها وتفصيلها وتعقيداتها، "ذلك أن القرآن المجيد

¹ - "أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير" طه جابر العلواني، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2010، ص 6.

كتاب كوني¹ ونبي مقيم، وكل ما يوجّه إليه الآخرون أو يقدمونه من حلول فإنه أقوم، وأهّد سبيلا، وأحسن تفسيرا. وليس هناك على وجه الأرض كتاب كوني غيره، والمشكلات الكونية والأزمات العالمية تحتاج إلى مصدر كوني قادر على معالجة هذه الأزمات بأبعادها الكونية، والتصدي لها ومساعدة إنسان اليوم على تجاوزها والهيمنة على آثارها².

ولتحقيق هذه الغاية وتجسيد هذه الكونية كان القرآن الكريم مصدقا لما بين يديه ومهيما عليه، وكانت الشريعة التي يحملها شريعة تخفيف ورحمة ووضع الإصر والأغلال وغير ذلك من خصائص. "إن «لسان القرآن» قد حمّله منزل القرآن عز وجل «وحيا كاملا كافيا» للبشرية قادرا على الاستجابة لكل ظرف تاريخي مهما كانت خصائصه أو سقفه المعرفي، فيستوعبه، ويستمر في تجاوزه باتجاه المستقبل بعد أن يقوم بتلبية احتياجاته من الهداية والحقائق والنور"³.

وقد عرف سلفنا الصالح «مدخلا لأزمة»⁴ فكان القرآن المجيد يتنزل لمعالجة أزمات البيئة ومشكلاتها، مثل واقعة الإفك والتبني ومشكلات اليتامى والجهاد والربا...، وعصرنا أيضا يعيش مشكلات تؤرقه كمشكل التغيرات المناخية والجفاف، والفقر واختلال الموازين الاقتصادية والحروب والانقلابات السياسية وتغير القيم...، وهذا المدخل على صعوبته لكن فوائده عند التجربة لا تنحصر. فقد يقتضي هذا المدخل أن نقرأ القرآن مرات عديدة من أجل أن نصل إلى إدراك يعيننا على تقديم رؤية قرآنية في مسألة من المسائل؛ فلا ينبغي لأحد

¹ - الكتاب الكوني: كتاب معادل موضوعي للكون وحركته، ومستوعب لهما بكلياته ومكونه الذي يتكشف عبر الزمان. فما من جانب أو جزء أو موضوع من موضوعات الكون لا يستوعبه القرآن المجيد من أنواع الاستيعاب في كلياته، أو مقصده أو غائيته أو تقييمه، أو تفسيره أو الكشف عن علاقاته ووظائفه، وبعد أن يستوعبه القرآن الكريم يبين سبيل الهدى فيه بحيث يقوم بعمليات وضعه في سياقه ليجعل منه ميدانا من ميادين النظر والدرس والتأمل والاعتبار أو دليلا من أدلة الإبداع والخلق والرعاية. "أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير"، ص 80.

² - "أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير"، ص 80.

³ - "لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب" طه جابر العلواني، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2006، ص 9.

⁴ - ومعناه أن المعرفة والفهم، وإيجاد حلول أزمات الزمان أمورتنا من داخل القرآن وليس من خارجه، فلا بد من تدبر القرآن بمنطق الحاجة إلى الجواب إلى الحل والجواب عن التساؤلات، وهو ما أسماه الدكتور العلواني ب: مدخل الأزمة لتدبر القرآن.

أن يأتي إلى القرآن محملاً بآراء وأفكار وحلول، لبحث فيه عما يعضد ما ذهب إليه، وما تبناه فيحرم نفسه من فيض القرآن وكرمه وعطائه"¹.

وإحدى المشكلات التي تحتاج مناولة وإحاطة وبحثاً عميقاً مشكلة التربية والمعرفة والعلم، ومشكلة المناهج الهدامة الداعية إلى الإلحاد والمثلية والجنسانية²، ومشكلة الانحراف في تسخير العلم والمعرفة؛ فبدلاً من تسخيرهما لإسعاد الإنسان ومعالجة مشكلاته، صار العلم والمعرفة يسخران لتصنيع وسائل الدمار الشامل من الأسلحة النووية ونفاياتها مما يهلك الحرث والنسل...

ويبقى الحل لهذا المشكل بناء نظام تربوي ومنهج معرفي منبثق من الرؤية القرآنية؛ "فالقرآن المجيد المكنون بكونيته هو القادر على تقديم الحلول لهذه المشكلات التي أوقع الإنسان في حبالها غروزه وتمرده على ربه بل وعلى نفسه، ووضع عنقه تحت مقصلتها؛ لأنه لم يضبط العلم بالقيم، ولم يدرك حقيقة موقعه ولا جوهر مهمته في هذا الكون. ولأن تجاهله الغبي لعالم الغيب ووحدانية الخالق العظيم. وأنه هو الملك الحقيقي له وللعالم الذي استخلفه فيه قد دفعه إلى هذه المهالك التي لم يعد يعرف كيف ينقذ نفسه منها"³.

وهذا كله يتنافى والغايات التي حددها الله سبحانه للعلم والمعرفة، فالعلم والمعرفة ينبغي أن يكونا مصدر سعادة وعمران لا تدمير وشقاء، ولذلك فإن القرآن يربط بين العلم والمعرفة والتقوى والتزكية بأوثق رباط، ويحذر من خطورة العلم والمعرفة حين ينفصلان عن قيم التوحيد والتزكية والعمران ومهام الاستخلاف، والقيام بحق الأمانة التي حملها الإنسان. إن القرآن وحده القادر على إعادة بناء العلاقة واللحمة بين العلم والمعرفة ومقاصد القرآن العليا وتسخير العلم لخدمة البشرية لا لتدميرها. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁴.

ثانياً: المقاصد العليا عند طه جابر العلواني: تأصيل وتأثيل.

لقد عني القرآن الكريم عناية خاصة ببناء ما يمكن تسميته بمنهج تربوي كامل تأخذ كل حلقة فيه بعضد الأخرى حتى يبلغ الغاية ويصل إلى المنتهى في بناء عقلية الإنسان

¹ - "أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير"، ص 67.

² - خاصة بعد سيادة النموذج العلماني الغربي لفترة طويلة، بعدما أدت إليه الثورات العلمية المتلاحقة من تداخل بين الأنساق الثقافية والحضارية، وتباينت أثارها فبرزت ظاهرة الفصام بين الأجيال.

³ - "أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير"، ص 98.

⁴ - سورة فاطر، الآية 28.

وشخصيته؛ وهذا المنهج التربوي قائم على مقومات وخصائص التصور الإسلامي السليم ليتضح ما يمكن اعتباره النموذج المعرفي الإسلامي القادر على الإجابة عن الأسئلة النهائية¹، دون تجاوز شيء منها، وبناء قدرة ذاتية على النقد المعرفي الذي يمكن من الاستيعاب والتجاوز بشكل منهجي منضبط، في الوقت نفسه يعطي القدرة على التوليد المعرفي والمنهجي؛ وبه يتحقق الإبداع والتفسير المعرفي الذي لا يقوم على الإقناع والخطابة بل على المعرفة المنهجية التامة². والتصور الإسلامي لا يمكن ترجمته إلى نموذج معرفي إلا عبر مدخل قيمي يتجسد في منظومة من القيم والمقاصد الحاكمة التي جاء القرآن لإرساء دعائمها، "لأن المنظومة المقاصدية منظومة قيمية معيارية تصلح لأن تقاس عليها سائر أنواع المعرفة، لمعرفة وتمييز العلم النافع من العلم الضار، وهي أكثر الوسائل قدرة وفاعلية على ربط المعرفة بالقيم، ورأب الصدع بينهما"³.

والمقاصد العليا الحاكمة كليات مطلقة قطعية تنحصر مصادرها في المصدر الأوحد في كليته وإطلاقه وقطعيته وكونيته وإنشائه للأحكام؛ ألا وهو القرآن المجيد، أما السنة النبوية والسيرة فهما تبدوان تطبيقاً عملياً للقرآن في مقاصده العليا الحاكمة، تتكامل السنة معه في وحدة بنائية⁴. ومن شأن المقاصد العليا أن تكون قادرة على ضبط الأحكام الجزئية وتوليدها -عند الحاجة- في سائر أنواع الفعل الإنساني القلبي منها والعقلي، والوجداني والبدني؛ ليتحقق ربط الجزئيات بالكليات لتهتدي الكينونة الإنسانية بكليتها بهداية الله⁵.

وهي حاكمة لأنها تصدر عنها سائر المقولات والمفاهيم والرؤى والأحكام...وتصاغ على شكل منظومة ثلاثية كلية مترابطة، تترتب طولياً؛ بحيث يكون التوحيد مركزها، ثم تصدر عنه

¹ الأسئلة النهائية هي مجموعة الأسئلة التي تتصل بالخالق جل شأنه والإنسان والكون والحياة، والإجابة عنها هي التي تشكل "رؤية الإنسان الكلية" وتصوره الكامل لما تعلقت الأسئلة النهائية به، فإذا صحت الرؤية، وإلا اضطربت بها مسيرة الإنسان في الحياة. يراجع "مقاصد الشريعة" طه جابر العلواني، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2001، ص 150. و"خصائص التصور الإسلامي"، سيد قطب، القاهرة، دار الشروق 1984.

² - ينظر: "الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون" طه جابر العلواني، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2006، ص 59 وما بعدها.

³ - "مقاصد الشريعة"، طه جابر العلواني، ص 142.

⁴ - نفسه، ص 135 وما بعدها بتصرف.

⁵ - نفسه، ص 139.

التزكية، ويليها العمران؛ فمن دون التوحيد لا تزكية، ومع اختفاء إنسان التزكية، يغيب العمران بالصورة التي ينشدها التوحيد. نعم ربما يشاد العمران منبتاً عن التوحيد والتزكية، لكنه عمران مشوه تطغى فيه النزعة المادية، وتطمس القيم الأخلاقية¹. فالتوحيد يختص به تعالى، وهو حقه على عباده، والتزكية يختص الإنسان بها، والعمران هو نصيب الكون في هذه المنظومة التي وإن بدا عليها التعدد فإنها واحدة².

ولا يصح هنا الخلط بين المقاصد العليا الحاكمة و المقاصد كما قررها الأصوليين بما سمح به سقهم المعرفي في زمنهم؛ فالمقاصد العليا لا تعد مقاصد كلية إذا لم ترد بها رسالات الأنبياء كافة؛ لأنها تعبير عن وحدة الدين، ووحدة العقيدة، ووحدة المقاصد والغايات في جميع الرسالات وإن تعددت بعض جوانب الشرائع وتنوعت، فليس كل ما لاحت فيه حكمة أو علة أو ظهرت له مناسبة أو مصلحة عد مقصداً من المقاصد الشرعية العليا الحاكمة إذ إن المقاصد الحاكمة تستوعب «المقاصد الشرعية» بالمفهوم الذي ساد لدى الأصوليين، والذي قصروا دوره تقريباً على بيان العلة أو الحكمة أو الوصف المناسب الكامن في الحكم الشرعي، أو تحقيق مصلحة بمستوياتها الثلاثة: الضروري والحاجي والتحسيني³.

فبقيت المقاصد بهذا المعنى محدودة التداول في دائرة الفضائل، أو عدت نوعاً من الأدلة المعضدة لما تنتجه أدلة أصولية أخرى، لذلك كانت الحاجة ماسة لاكتشاف «المقاصد القرآنية العليا الحاكمة»، وتحديدتها بمنتهى الدقة، وتحويلها إلى قاعدة منهجية وأصول كلية قطعية، يمكن أن تؤدي إلى غرلة الفقه الإسلامي، وتمكين الفقهاء المعاصرين من منهج يمكنهم من معالجة مستجدات العصور، وحل الإشكالات الحادثة حلاً إسلامياً ينسجم وخصائص هذه الشريعة العامة الشاملة الرافعة للحرَج... والقادرة على الاستجابة لكل مستجدات الحياة الصالحة لكل زمان ومكان وإنسان⁴.

كما أن المقاصد العليا الحاكمة يمكن أن تساعد أيضاً على تطوير «نظرية معرفية عامة» في العلوم الشرعية كلها، وكذا في العلوم الاجتماعية أو «علوم العمران»، وأن تتعامل مع المنهج العلمي وتقوم عليه بل وتستوعبه، وتوظفه فتستفيد منه، وتعود على المنهج العلمي

¹ ينظر: "التوحيد والتزكية والعمران"، ص 9.

² ينظر: "المقاصد الشريعة"، ص 145.

³ نفسه، ص 138.

⁴ نفسه، ص 167 وما بعدها.

ذاته بكثير من الفوائد¹. فما هي معالم هذه المنظومة المقاصدية القيمة القرآنية العليا ومكوناتها؟

1. القيمة العليا الأولى - التوحيد:-

التوحيد لغة: مصدر فعله الماضي: وحد، ووحد الشيء جعله واحدا، سواء أكان قبل ذلك مما شأنه التعدد أم لم يكن من قبيل المتعدد حقيقة أو اعتبارا². ويراد بالتوحيد الإيمان بوحداية الله تبارك وتعالى في ذاته وصفاته وفي أفعاله، وتوحيده توحيد ألوهية وتوحيد ربوبية وتوحيد صفات، وجل سور القرآن الكريم توجّه نحو هذه القيمة العليا ومحاولة إبرازها وإظهارها باعتبارها أهم ما نزل الوحي به، وجاء به المرسلون³.

وقد حرص القرآن الكريم على توضيح كل معالم التوحيد صغيرها وكبيرها ليتمكن المؤمن من التحصن ضد سائر أنواع الشرك كبيرها وصغيرها، ظاهرها وخفيها، وعلى سلامة التوحيد تتوقف أركان الإيمان كلها، وعلى طهارته من سائر أنواع الشرك تتوقف دعائم الإحسان جميعها، ولا تقوم الرؤية الكلية الهادية إلا عليه؛ إنه وسيلة الإشعاع والإنارة لكل ما سواه. فلا يستقيم التصور الإنساني لمن خدش الشرك عقيدة التوحيد فيه⁴.

وقد أودع الله تبارك وتعالى في الإنسان القدرة على الفهم والإدراك؛ "فالذاكرة والحافظة الإنسانية، وطاقة التخيل والقدرة على النظر والتفكير، والملاحظة والحدس والاستيعاب وغيرها؛ كلها طاقات أودعها الله تعالى في الإنسان، ولا يستنير الفكر إذا لم تنعكس أشعة التوحيد عليه، ولا يهتدي السلوك الإنساني إلا به، ولا يرتقي إلى معارج التزكية إلا بسلامه، ولا يبلغ العمران إلا بسلوك سبيله، ولا تحقق عدالة إلا بعد اليقين به، ولا تقوم دعائم حرية أو تحرر أو مساواة إلا على قوامه"⁵.

2. القيمة العليا الثانية - التزكية:-

أي تزكية الإنسان لنفسه وتحليه بالطهارة الشاملة روحا وقلبا وبدنا، و«التزكية» قيمة عليا، وفي الوقت نفسه تعتبر أهم مؤهلات الإنسان للقيام بالوفاء بالعهد وبعملية

¹ ينظر: "المقاصد الشريعة"، ص 148.

² ينظر: "لمفردات"، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى 1412 هـ، مادة وحد.

³ ينظر: "أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير"، ص 60.

⁴ ينظر: "لتوحيد والتزكية والعمران"، ص 16.

⁵ "لتوحيد والتزكية والعمران"، ص 16.

الاستخلاف وأداء الأمانة، والنجاح في مهمة الابتلاء، فالإنسان الذي لم يقيم بتزكية نفسه ولم يتحل بصفة «التزكية» يفقد أهم المؤهلات التي تؤهله إلى أن يقوم بالوفاء بالعهد مع الله تبارك وتعالى¹: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾². أو أداء مهام الاستخلاف على وجهها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾³. والخالق سبحانه يعلم أن هذا الإنسان قبل بفطرته وخلقته على أن يقوم بعملية التزكية لنفسه أو التدسية لها والانحراف بها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾⁴.

إذن فالوفاء بالعهد، والقيام بمهمة الاستخلاف والوفاء بالأمانة وأدائها والقيام بها والنجاح في اختبار الابتلاء والقيام بمهمة العمران التي سنأتي إليها، كل تلك الأمور تتوقف على أن يكون هذا الإنسان إنساناً مزيكاً ومطهراً يتحلّى بالتزكية التامة، تزكية النفس والقلب والبيئة والأسرة والبدن وغير ذلك⁵. أما الإنسان الذي دسّ نفسه، وأهمّلها فهو لغيرها أكثر إهمالاً، ومثله لا يؤتمن على نفسه، فأنى له أن يؤتمن على الكون، أو يؤتمن على الأرض أو يحقق إعماراً فيها؛ "والحقيقة أن التوحيد وما ينبثق عنه، والعمران وما يتفرع عنه لا يقوم أي منها بدون عقلية قويمية ونفسية مستقيمة. وما أسمته الفلسفة بقيم الحق وقيم الخير وقيم الجمال كل أولئك لا يمكن أن يتحقق شيء منه في واقع الحياة بدون وجود إنسان التزكية، وبناء الشخصية المزكاة عقلياً ونفسياً"⁶.

3. القيمة العليا الثالثة -العمران:-

جاءت دلالات العمران في القرآن بما يفيد سكناً للإنسان في المكان، والعيش فيه، وتعميره وإصلاحه والاستقرار فيه، والأخذ بأسباب التمدن والحضارة، وتوظيف طاقاته وإمكاناته، وأداء حق الله سبحانه في إقامة الحياة البشرية وفق مقاصد شرائعه، وهدى أنبيائه، وقد جعل ابن خلدون من مصطلح "العمران" نمطاً عاماً لحياة الإنسان¹ يؤدي فيه

¹ - ينظر: "أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير"، ص 60.

² - سورة الأعراف، جزء من الآية 172.

³ - سورة البقرة، جزء من الآية 30.

⁴ - سورة الشمس الآيتان 9-10.

⁵ - ينظر: "أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير"، ص 61 وما بعدها.

⁶ - ينظر: "لتوحيد والتزكية والعمران"، ص 112 وما بعدها.

1- ينظر: "المقدمة"، ابن خلدون، دار النشر: دار القلم - بيروت، الطبعة الأولى 1978، ص 41 وما بعدها.

وظيفته في إعمار الأرض، يتعاون فيها أفرادها على المعاش البشري، وتوفير متطلبات الحياة الاجتماعية التي لا تتحقق إلا بهذا الاجتماع استجابة لأمر الله تعالى حين يقول: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾¹.

فالعمران حياة يحيها الفرد أجلا مقدرًا، وحياة تحياها الأمة بحضورها وأثارها في الواقع والتاريخ، وهو بناء الحضارة ولكن ليس المراد مطلق حضارة، بل بناء حضارة قائمة على قيم تعزز القيم التي جاء القرآن المجيد بها، وتنبت عنها، وأهمها القيمتان السابقتان قيمة التوحيد وقيمة التزكية. فالحضارة مشروع عمراني إلهي، استخلفنا الله تبارك تعالى في هذه الأرض لتحقيقه ولا يمكن أن نحققه إذ كنا متخلفين لا ندرك سنن الطبيعة، ولا كيفية التعامل معها، ولا ندرك ما في الكون، ولا كيفية التعامل معه.

فإذا كان الله تبارك وتعالى قد سخر لنا كل شيء من أجل إنجاز هذا المشروع العمراني وبناء حضارة مصحوبة ومحكومة بالقيم التي تتغلغل فيها، ثم أهملنا ذلك كله فلم نبين حضارة ولم نحقق عمرانًا، فذلك يعني أننا أخللنا بالقيمة العليا الثالثة، ألا وهي قيمة العمران ولم نستطع أن ندرك أن العمران والحضارة مشروع إلهي ما خلقنا إلا من أجله وأنه يمثل العبادة الإنسانية بأجل معانيها فالعمران هو مقصود العبادة الحقيقية للأمة العابدة أو جزء مهم منها².

المبحث الثاني: الأبعاد التربوية للمقاصد العليا القرآنية عند فتحى ملكاوي.

أولاً: المقاصد الكلية وأثرها في بناء التصور المعرفي الإسلامي

إذا كان القرآن الكريم هو المنهاج التربوي في مدرسة الإسلام، فسيكون من المناسب الاجتهاد في تحديد ما يمكن أن يهدي إليه القرآن من المقاصد العليا للوجود الإنساني في هذه الحياة³؛ اجتهاداً يوصل إلى منظومة من المقاصد القيمية الكلية تتكامل فيما بينها "لتأسيس رؤية كلية تحكم الوجود الإنساني في أدائه لوظيفة الخلافة على الأرض وهي معايير توجه السلوك البشري أفراداً ومجتمعات، وتبني الحضارة الإنسانية في جوانبها المادية والمعنوية وترشدنا بهداية الوحي الإلهي والسنة النبوية"¹؛ كما تتكامل لبيان حقيقة الرؤية العمرانية

1- سورة هود، الآية: 61.

2- ينظر: "أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير"، ص 63.

3 - ينظر: "منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية" فتحى حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن-عمان، ط 1441هـ/2020م، ص 232.

1- "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص 17.

والإستخلافية وأدوارها المكيّنة في صياغة وتشديد رؤية العالم من هذا المنظور، متكاملة عناصره منفتحة آفاقه في حركة الوعي والسعي والنهوض والتغيير¹.

ويهدف البحث في الكليات المقاصدية القيمية في القرآن الكريم إلى بناء الصلة بين مبادئ الإسلام الكلية وبناء المعرفة بوصفها -أي الكليات- إطارا مرجعيا يحكم رؤيتنا الكلية للعملية التعليمية في أطرها الفكرية العامة، وأسسها النفسية والفلسفية والاجتماعية، وهذه الكليات القيمية القرآنية الحاكمة التي تكوّن أصول الوعي وأصول السعي؛ يمكن أن تساعد على تطوير نظرية معرفية عامة في العلوم الشرعية كلها وكذلك في العلوم الاجتماعية وسائر المجالات العلمية².

كما يراد من هذه المنظومة القيمية الحاكمة أن تكون إطارا قيميا لمراجعة العلوم النقلية وقضاياها التاريخية والجغرافية، قبل أن تكون مدخلا قيميا إسلاميا في الحكم على العلوم المعاصرة ومعاييرها³؛ والتأسيس لصياغة الاستراتيجيات المتعلقة بدائرة العلوم بالمنظور المقاصدي يستشرف أصول السعي والتدبير، حتى تكتمل حلقات التفاعل بين الإنسان في الحياة وفي الكون ضمن رؤية توحيدية استخلافية عمرانية⁴.

وعليه فالقيم الكلية الحاكمة ترتبط بالعناصر الرئيسية الثلاثة في النظام المعرفي الإسلامي: الله والإنسان والكون، فتتحدد منظومة القيم الحاكمة في ثلاثة مفاهيم قيمية كبرى هي: توحيد الله وتزكية النفس وعمران الكون. وهذه القيم الثلاثة تكوّن معا إطارا مرجعيا مقاصديا لبيان غاية الحق من الخلق، والمنظومة المعيارية للقيم التي تنبثق عنها سائر القيم الرئيسية والفرعية في دين الله؛ وهي في نفس الوقت تعبير عن حقائق الأمور ووقائعها وليست شيئا خارجا عنها أو مفروضا عليها⁵.

ولعله من السهولة واليسر استخلاص الفائدة المترتبة على هذا الجمع بين عناصر هذه المنظومة، وأهميته في بيان الارتباط العميق بين هذه العناصر؛ "فتوحيد الله عز وجل حقيقة مطلقة يقود إليها التفكير والتأمل والبداهة العقلية، وهذا يريح الإنسان من حالات

1- ينظر: "المنهجية الإسلامية: سبوعية القيم كإطار مرجعي"، عبد الفتاح سيف الدين، دراسات سياسية، المعهد المصري للدراسات، إسطنبول-تركيا، ص1.

2- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص18.

3- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص17.

4- ينظر: "المنهجية الإسلامية: سبوعية القيم كإطار مرجعي"، ص5.

5- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص12.

الحيرة التي ينتهي إليها أي تصور آخر غير التوحيد، والتركيزية هي عملية ارتقاء بالنفس الإنسانية وسموها وتطهير للمجتمع الإنساني من ألوان الفساد والانحراف، ما ينمي مجتمعا موحدًا متماسكًا في بنيته وأنظمتها. أما العمران فهو سعي بشري لتوظيف طاقات الإنسان في تحقيق مقاصد الخلافة في الأرض، وتطوير الحضارة البشرية وترشيدها. وهكذا تستكمل هذه المنظومة الثلاثية عناصر رؤية العالم في التصور الإسلامي فيما يتعلق بالله والإنسان والكون¹. وهو ما يدفع إلى التأكيد على وجوب استجلاء الإشعاعات والتجليات التربوية للمنظومة الثلاثية للكتليات القرآنية على مختلف جوانب التفكير الإسلامي.

ثانياً: التجليات التربوية للكتليات المقاصدية القرآنية: اكتناه وتثمين

1. التجليات التربوية لكلية التوحيد:

إن العقيدة الإسلامية تجعل التوحيد الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، وهي حقيقة تستمد قيمتها من ذاتها، وغيرها من الحقائق إنما يصدر عنها، والكون كله خاضع بالفطرة لمقتضيات التوحيد، فإذا أراد أن ينسجم الإنسان مع فطرة الكون فلا بد له أن يتوجه إلى الله وحده بالعبادة؛ فهو سبحانه إله الناس (توحيد العبودية)، مثل ما هو جل شأنه رب الناس (توحيد الربوبية)، وملك الناس (توحيد الحاكمية)². والتوحيد رؤية عامة إلى الحقيقة والكون والزمان والمكان والتاريخ الإنساني والمصير في الإسلام، ويؤثر في كل عناصر الحضارة الإسلامية، ويبني بينها روابط محددة، وتتم إعادة الصياغة والشمول التي يحدثها الإسلام في كل عنصر من عناصر حضارته بدرجة تتراوح في العمق من تحويل بسيط في حالة الشكل والصورة إلى تغيير جذري في حالة الوظيفة، ومن عناصر هذه الحضارة نظامها المعرفي والعلمي³.

ويمكن أن نقف الآن عند بعض ملامح آثار التوحيد التربوية باعتباره إطاراً مرجعياً يتصل بالحالة العقلية والنفسية والسلوكية للموحد؛ فالحالة العقلية تتصل بمنهجية التعقل والتفكير والتدبر لتحقيق الفهم وبناء الوعي والإدراك، والحالة النفسية تتصل بالمشاعر والأحاسيس بما فيها من مؤشرات الإخلاص والحب والرضا وصلاح البال، والحالة

1- "منظومة القيم العليا: التوحيد والتركيزية والعمران"، ص 15.

2- ينظر: منظومة القيم العليا: التوحيد والتركيزية والعمران"، ص 15.

3- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتركيزية والعمران"، ص 50.

السلوكية تتصل بأشكال التعامل والحياة العملية الشخصية والمهنية والاجتماعية¹، ومن هذه الملامح أذكر ما يأتي:

1.1. وحدة المصدر وتكامل الوسائل:

إذا كان توحيد الله سبحانه هو أساس العقيدة ورأس الإيمان بالغيب فإن ذلك لا يعتبر بديلا عن التعامل مع عالم الشهادة؛ فالله الواحد سبحانه هو عالم الغيب والشهادة، وهو مصدر العلم والمعرفة. ومن ثم فنظرية المعرفة عند المؤمن تتكامل في مصدرين لا ثالث لهما: الوحي الذي يرسل به الله أنبيائه من عالم الغيب، وعالم الشهادة الذي يتضمن العوالم الطبيعية والاجتماعية والنفسية فتتفرع معرفة الإنسان إلى فرعين كبيرين هما: علوم النقل؛ ومرجعيتها آيات الله المسطورة، وعلوم العقل؛ ومرجعيتها آيات الله المنظورة في الطبيعة المادية والاجتماع البشرية والعالم النفسي؛ وعنها تتفرع سائر العلوم الأساسية والاجتماعية والإنسانية والتطبيقية². وهكذا فإن التوحيد تضمن بالضرورة وحدة مصادر المعرفة في نهاية المطاف، سواء كانت هذه المعرفة وحيا إلهيا صادقا، أو استدلالا من عالم الكون وظواهر الطبيعة، التي حث الوحي على تأملها وتدبرها والسير في أنحائها وفهم الظواهر والوقائع³.

2.1. وحدة الحقيقة:

إن وحدة الحقيقة هي الأساس الذي تقوم عليه نظرية المعرفة في الرؤية الإسلامية؛ فالله سبحانه هو الحق، وهو واحد، فلا تتعدد الحقيقة؛ وهي كامنة في أشياء هذا العالم والله سبحانه يطلعنا بالوحي عن شيء منها، ويأمرنا باكتشافها. وسنجد دائما أن الوحي لا يتنزل في شيء أو أمر بصورة تختلف عن حقيقته الواقعية التي خلقها الله خالق الحقائق سبحانه. وقوانين الطبيعة هي سنن الله في خلقه، يتحدث عنها سبحانه فمنها ما يعرضه الله للتفكير ومنها ما يطلب منا اكتشافه وصياغته، وسنجد تطابقا منطقيا وعمليا كاملا بين معطيات الوحي ومعطيات الاكتشاف في نهاية مطاف البحث⁴. وهذا التطابق هو ما نعبر به عن وحدة الحقيقة التي ترفض إمكانية حدوث تناقض بين الحقائق الواقعية ونصوص الوحي، أو

1- ينظر: "الفكر التربوي الإسلامي المعاصر: مفاهيمه ومصادره وخصائصه وسبل إصلاحه"، فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن-عمان، ط 1442هـ/2020م، ص 328.

2- ينظر: "الفكر التربوي الإسلامي المعاصر"، ص 328/329.

3- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص 68.

4- ينظر: "الفكر التربوي الإسلامي المعاصر"، ص 329.

بين معطيات العقل البشري ونصوص الوحي؛ كما تُبقي الباب مفتوحاً لإعادة الفهم البشري بظهور الجديد من الأدلة حتى تستقيم دلالات وحدة المعرفة¹.

3.1. الاتصال بين الإيمان والعلم:

إن التوحيد يدعو الإنسان إلى الربط بين الإيمان بالله الخالق من جهة، وممارسة العلم في ميادينه المختلفة من جهة أخرى، وعندما يدرك الإنسان فعل الله في كل الأحداث والأشياء فإنه يتتبع فعل الخالق²؛ ولذلك فالمسلم يؤمن أن الله الواحد هو العلة الوحيدة لكل شيء في هذا الكون، وأن الكون إنما يحدث بإرادة الله عن طريق مسببات الحادثة في الزمان والمكان، وكلها تخضع للبحث التجريبي والاستدلال العقلي، هذا التوحيد يلغي بالضرورة الاعتقاد بالسحر والشعوذة والخرافات والأساطير، ويتيح المجال لحركة العلم على هدى وبصيرة³. هكذا يكون التوحيد شرطاً للانطلاق العلمي؛ فالله الواحد سبحانه هو الذي أرسى النظام في الكون عن طريق السنن والقوانين، وهي قوانين تمكّن الإنسان من اكتشافها عن طريق البحث العلمي القائم على الاستدلال العقلي والملاحظة التجريبية. "فالكون بأشياءه وأحداثه وظواهره كلها تسلك في وجودها وحركاتها وفق القوانين والسنن، وكلها تسهم في حفظ هذا الكون بإذن الله وإبقائه صالحاً، والوقوف عند الانتظام والاتساق والجمال في هذا الكون يكشف عن سمو الخالق وعظمته ومن ثم إدراك القيمة السامية التي تمثلها إرادة الله ووحدانيته"⁴.

4.1. تحرير الطاقات الفكرية والعلمية للعقل:

تأتي أهمية بيان علاقة التوحيد بالمعرفة والعقل من أن الفكر الغربي المعاصر لا يزال يتأرجح بين فكرتين: تقوم الأولى على المذهب التجريبي الحسي، الذي يرى أن كل معرفة دينية هي معرفة دغمائية لا يمكن إثباتها ولا قيمة لها، ويكفي الفرد أن يجعل المعرفة الدينية مبنية على الاعتقاد بصحتها دون أن تخضع للنقد العقلاني والتجربة الحسية؛ وفقاً لهذه الفكرة فإن المعرفة الدينية في العقل الغربي قد تأثرت بالصراع المرير بين الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى والعقل العلمي التجريبي¹. أما الاعتقاد الديني القائم على التوحيد في

1- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتركية والعمران"، ص33.

2- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتركية والعمران"، ص54/53.

3- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتركية والعمران"، ص69.

4- "منظومة القيم العليا: التوحيد والتركية والعمران"، ص70.

1- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتركية والعمران"، ص70/69.

الإسلام فيعتمد على أن حقائق الإيمان هي حقائق عقلانية قادرة على النجاح في امتحان الشك والاختبار ومن ثم فإن إيمان المؤمن هو إيمان عقلي يقوم على الوضوح والاستدلال والحجة والبرهان ويعتبر كل حقيقة هي قابلة للمعرفة وفي متناول يد الإنسان والبحث¹.

5.1. اتساع أفق البحث:

حين يؤمن المسلم بعقيدة التوحيد تتحول هذه العقيدة في نيته وفي عمله إلى قوة أخلاقية تدفعه للحركة في الكون لتحقيق إرادة الله سبحانه، ويدخل ميادين الحياة في سائر مناحي النشاط الإنساني حتى يحدث التغيير المطلوب. فهذا العالم هو عالم السعي لكسب الرزق، وحقل العمل الذي يباشر فيه الإنسان مهمته الكونية². وإذا يتصل مبدأ توحيد الله سبحانه والإيمان بالمعتقدات الغيبية؛ فالإنسان المؤمن هنا مهما بلغ من العلم مما هو عليه من ظواهر الحياة الدنيا المحسوسة فإنه يؤمن بعوالم الغيب، ومن ثم تكون العوالم التي يعيش فيها الإنسان في الدنيا (العوالم الطبيعية والاجتماعية والنفسية) عوالم تمتد وتتسع حتى تكون أكبر بكثير من بيئته المحدودة؛ فيتواضع في علمه ويواصل طلبه للمزيد؛ وكل ذلك ينمي عند الإنسان الرغبة في النظر العميق على ما يتيسر مع معرفة وعلم عن آفاق الكون والحياة والإنسان، وانفتاح هذا العلم على المجهول الذي ينتظر الاكتشاف وعلى ما وراء ذلك من آفاق علم الله³.

6.1. الشعور بالعزة والتكريم:

ليس من عقيدة غير التوحيد تعطي الإنسان الكرامة دون تأليه أو امتهان، وليس غير عقيدة التوحيد من يعطي الإنسان قيمته الأخلاقية ورؤيته الإيجابية المتفائلة نحو الحياة، أما الغاية من خلقه فهي عبادة الله التي تحقق الخير الأسمى، فللحياة هدف أسمى هو تحقيق الإرادة الإلهية من مستوياتها الأرفع شأنًا والأعلى منزلة⁴. و"بالتوجه الخالص لله بالعبادة يشعر المؤمن أنه مسؤول أمام الله وحده ولا يطمع في فضل أحد سواه، وبذلك يتحرر من أي توجه إلى غيره؛ فلا يكون موزعا بين مرجعيات متعددة وولاءات متشاكسة، وهذه الحرية تمنحه ثقة بالنفس وشعورا بالعزة والكرامة، لأنه لا يحتاج إلى الخضوع لأي قهر أو إذلال أو مهانة. وهذه

1- "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص 68.

2- ينظر: "الفكر التربوي الإسلامي المعاصر"، ص 330.

3- نفسه، ص 331.

4- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص 71.

تربية على الحرية؛ حرية تفوق في معناها أي معنى آخر من معاني الحرية في القانون الطبيعي أو القانون الاجتماعي¹؛ وهي الحرية بمعنى الخلاص من القيود التي تعوق أو تحد من تفكير الإنسان وحركته وفعله، واتخاذ قراره عن رضا ذاتي².

7.1. الجودة والإتقان:

إذا كان مبدأ التوحيد يصل الإنسان بالله الواحد فإنه يحدد طبيعة هذه الصلة؛ فحضور الله سبحانه في قلب المؤمن والشعور الدائم بمراقبته يملأ قلبه بالحب والإخلاص له. ومن ثم فإنه يتوجه إليه سبحانه بأفضل ما يستطيع من قول أو عمل، ويحاول الوصول إلى درجة الإحسان فتكون درجة الإحسان عنده مقياسا لإتقان العمل وإجادته، وهو مقياس أكثر فاعلية من المقاييس التي تحددها دوائر ضمان الجودة التي تتصل غالبا بالنواحي الكمية المحكومة بمحكومات دنيوية نسبية. ويتجلى البعد التربوي للتوحيد في مسألة الإحسان والإتقان؛ بحفز الفرد إلى إنجاز العمل بدرجة عالية من النجاح، وتمكين المجتمع من تنفيذ برامج الإصلاح وخطة النمو والتقدم³. و"عندها كذلك تتجمع جميع صور النشاط البشري في صورة مثقنة خالصة لله سبحانه وتعالى، حيث يستشعر المؤمن حضور الله تعالى في قلبه، وفي كل خاطرة تمر به، وفي كل عمل يعمل⁴".

2. التجليات التربوية لكلية التزكية:

حين نعد القيم الثلاثة "منظومة" فإننا نهدف إلى تأكيد الصلة الوثيقة فيما بين مفردات هذه المنظومة، وتكاملها في تغطية المجال الذي تعمل فيه، مع أن التوحيد هو رأس الأمر في التفكير الإسلامي وجوهر التجربة الدينية، وأساس البناء الحضاري في الإسلام، فإن قيمته في حياة الإنسان ربما تبقى حبيسة التجربة الفكرية. والتصور الغيبي إذا لم تنبثق عنه التزكية في قلب الإنسان ومشاعره، وفي معاملات الإنسان وأنماط سلوكه. وهذه التزكية تصبح زهدا سلبيًا وانسحابًا من الحياة العامة إذا لم تتضافر التمثلات العلمية للتوحيد والتزكية في بناء المجتمع وعمرانه الحضاري، وتحقيق الاستخلاف البشري الذي أراده الله لهذا العالم¹. ومن ثم فإن موضوع التزكية هو إصلاح واقع الإنسان فردًا وجماعة وأمة ونوعًا بشريًا، وإصلاح

1- ينظر: "الفكر التربوي الإسلامي المعاصر". ص 330.

2- نفسه، ص 332.

3- ينظر: "الفكر التربوي الإسلامي المعاصر". ص 330.

4- نفسه، ص 329.

1- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص 12.

الإنسان مادة وروحا. والمقصد المباشر هو ترقية هذا الإنسان في مراتب التزكية والتنقية والتطهير في المشاعر والخلجات والخواطر النفسية، على مستوى الفرد الإنساني. وفي التطهير والبركة والنمو في ماله وممتلكاته، وفي الترقية والإحسان في علاقاته الأسرية والاجتماعية؛ ليكون الإنسان أقدر على تحقيق الإصلاح في البناء الاجتماعي والعمران البشري¹.

وبهذه الرؤية تحدثت المرجعية القرآنية عن التزكية، وأشبعَت بيانها وأظهرت قيمتها وحددت مجالاتها ووسائلها²؛ بوصفها واحدة في منظومة القيم العليا التي تختص بالإنسان الذي اختاره الله سبحانه خليفة في الأرض؛ ليقيم فيها العمران لذلك بين الله سبحانه كيف يترقى في مراتب التزكية في جسمه وعقله وقلبه، وفي سلوكه وتصرفاته، وفي ماله وممتلكاته وفي أنظمتها وعلاقاتها، وقرر أن فلاحه في الدنيا وفي الآخرة مرهون بما يكتسبه من التزكية.

وهذه بعض التجليات التربوية لمقصد وقيمة التزكية:

1.2. التزكية أساس صلاح الحالة النفسية والعقلية والسلوكية:

أساس التجليات التربوية لمقصد التزكية هو حالة الفرد النفسية التي تنعكس على حالته العقلية والسلوكية. وعلى هذا الأساس نحاول أن نفهم القسم الأطول في القرآن الكريم، فقد أقسم الله سبحانه بمخلوقاته المتعددة على أن طريق الفلاح في الوصول إلى المراد وهو تزكِيهِ النفس الإنسانية، وأن من لم يتحقق بتزكية النفس فإن مصيره الخسران. والنفس الإنسانية جسما وعقلا وروحا هي الفرد والجماعة وما يتاح لهذه الذات من عمر في حياتها ومال في ممتلكاتها، وبيئة هو مستخلف فيها. ولكن محور التزكية في كل ذلك هو الوجدان الإنساني الذي يكون موضوعا للتربية والتنمية.

2.2. الاستشراف إلى النتيجة والنجاح:

تزكية النفس هو قصد إلى الفلاح والنجاح على جميع المستويات، وهو مد التطلع والاستشراف إلى النتيجة التي تؤدي إليها التزكية في جميع صور الفلاح والنجاح في الحياة الدنيا والحياة الآخرة؛ وفعل "التَّزَكَّى" هو بذل الجهد الزائد على المعتاد من فعل التزكية، وهو وسيلة لتحقيق ما يبتغيه الإنسان، والفوز فيما يرجوه من فضل الله عليه من مصالح الدنيا ومنافعها، والنجاة من النار ودخول الجنة في الآخرة، وهو الفوز الأكبر. (وأولئك هم المفلحون)

1- ينظر: "الفكر التربوي الإسلامي المعاصر"، ص331/332.

2- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص121.

[البقرة الآية: 5] أي أدركوا ما طلبوا والفلاح: صلاح الحال في الدنيا وفي أحوال الآخرة: وذلك بالنجاة من العذاب في الآخرة¹.

2.3. التزكية وسيلة لتحقيق صلاح المجتمع في كليته:

إن المجتمع البشري سيبقى مهددا بالأزمات الخائقة في المجال الاقتصادي والسياسي، والمشكلات المستعصية في المجال الإنساني والاجتماعي، وأمراض القلق، والإحباط، والشقاء في المجال العقلي والنفسي؛ حتى يستعيد الإنسان قيمة التزكية في هذه المجالات كلها. والتزكية هنا لا تقتصر على توجيه المشاعر والخواطر النفسية إلى الفرد فقط، وإنما تتجاوز ذلك إلى تزكية علاقات المجتمع وأنظمته، وتقديم المعالجة الحكيمة لما يقع فيه من مشكلات². فالمجتمع المفلح هو المجتمع الذي يترقى أفراده في مدارج التزكية، وتتعزيز فيه الدعوة إلى الإصلاح، بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) [آل عمران 104]³. وستبين عندها أن أي برنامج لإصلاح الواقع في أي مجال من مجالاته، يعتمد أساسا على الإنسان والمستوى الذي يصل إليه في تزكية قلبه وضميره وتزكية عمله وسلوكه⁴.

2.4. التزكية تربية اجتماعية:

التزكية في المفهوم القرآني تربية اجتماعية متميزة فمع الارتباط الذي رأيناه بين التزكية فعلاً والفلاح نتيجةً، يمكن أن نتبع وسائل الوصول إلى التزكية للحصول على الفلاح، فنجد من هذه الوسائل ما يتجاوز مشاعر نفس الإنسان، لتصل إلى خصائص المجتمع⁵. "ويتم التذكير بالتزكية في سياق تنظيم العلاقات الاجتماعية المتصلة بخصوصيات المنزل، وصيانة الأعراض، والأمر بغض البصر للرجال والنساء، وحفظ الفروج والضمائر، وحفظ الخواطر والمشاعر من الانحراف"⁶. كما تتجلى قيمة التزكية في المقومات التي يريد الله سبحانه أن يقوم البناء الاجتماعي على أساسها ومن هذه المقومات ما يختص بالتربية على تزكية

1- ينظر: "منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"، ص242/243، و"الفكر التربوي المعاصر"، ص332/333.

2- ينظر: "الفكر التربوي المعاصر"، ص334.

3- ينظر: "منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"، ص241.

4- "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص123.

5- ينظر: "منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"، ص243.

6- "الفكر التربوي المعاصر"، ص334/335.

المجتمع بالتكافل الاجتماعي ليس بين المسلمين في المجتمع وحسب، وإنما بين جميع أفراد المجتمع وفئاته بقطع النظر عن أديانهم وأعمالهم وذلك تطبيقاً لمبدأ تكريم الإنسان¹.

3 - التجليات التربوية لقيمة العمران:

ينظر لقيمة العمران من منطلق "الفقه" بقيمة العمران، وعلاقة هذه القيمة بالحياة التي يريدّها الله للإنسان، فهو الفهم المنشود لخطاب الله تعالى المتعلق بأفعال الناس الذين توجه الخطاب إليهم، من حيث بيان ما يريد بهم ويندبهم إليه أو يحرمه عليهم وينزههم عنه. فالعمران إذن قيمة تحدد "فقه العمل" في الحياة الدنيا، ولأسيما عمل المجتمع المتعلق بنظم الإدارة والرعاية لشؤون الناس؛ بتيسير سبل الحياة لهم ورفع الحرج والمشقة عنهم، وكما يتجلى فقه العمران هذا في الجوانب المادية لحياة المجتمع من أبنية وطرق وزراعة وصناعة، يتجلى كذلك في الجوانب المعنوية لحياة المجتمع في استتباب الأمن وإقامة العدل وممارسة الشورى، وبالتكامل بين العمران المعنوي والعمران المادي يعيش كل الناس حياة كريمة طيبة². فإذا كان التوحيد قيمة معيارية عليا تختص أساسا بالرؤية الإسلامية للإله الخالق المدبر، ويقوم بها معتقدات الإنسان، ونتائج هذه المعتقدات وآثارها في فكر الإنسان وحياته، وإذا كانت التركيبية قيمة معيارية تختص بالرؤية الإسلامية للإنسان المخلوق المستخلف، يقوم بها سلوك الإنسان وجهود ترقيته في مراتب التركيبية في جسمه وعقله وقلبه، وفي سلوكه وتصرفاته، وفي أنظمة حياة الفرد والمجتمع. فإن العمران قيمة معيارية عليا تختص بالرؤية الإسلامية لوظيفة الإنسان في الكون المستخلف فيه، تقاس بها "قيمة" الحياة في عمر الإنسان الفرد أو عمر الجماعة أو الأمة، وسائر الجهود والإنجازات الحضارية "العمرانية" للفرد أو الجماعة أو الأمة³. ولابد أن أشير هنا إلى بعض أوجه أو آثار قيمة العمران التربوية:

1.3. العمران موجّه لسعي العقل المسلم:

لابد من الإشارة في هذا المقام إلى أن العمران بوصفه قيمة عليا يسهم في تحديد الإطار المرجعي للمعرفة والمنهجية الإسلامية في التفكير والبحث والسلوك، وعلى هذا الأساس يتيسر اشتقاق مجموعة من المبادئ النظرية والعملية التي ترشد سعي العقل المسلم في تطبيق هذه المنهجية، ومن هذه المبادئ على سبيل المثال لا الحصر؛ مبدأ تكامل متطلبات

1- ينظر: "منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"، ص 245.

2- ينظر: "منظومة القيم العليا التوحيد والتركيبية والعمران"، ص 127. و"الفكر التربوي المعاصر"، ص 338.

3- ينظر: "منظومة القيم العليا"، ص 169.

الحياة الاجتماعية: الزراعة والصناعة والتجارة والاتصال؛ ومبدأ تكامل ميادين المعرفة: علوم الوحي، والعلوم الإنسانية، والعلوم الطبيعية، والعلوم التقنية... ومبدأ تكامل الانتفاع والاستمتاع¹.

2.3. العمران ثمرة لتراكم العلوم والخبرات:

العمران المادي للأرض هو الجانب المادي من الحضارة البشرية، ويتحقق نتيجة تراكم الخبرة والتجربة مع مرور الوقت، وتطور معرفة الإنسان واكتشاف السنن والقوانين التي تحكم الأشياء والظواهر، وملاحظة أطوارها، واستشراف وقوع الأحداث والظواهر وتوقعها، ومن ثم استغلال ما تنتجه من فرص، وتجنب ما تمثله من تحديات، وبذلك التمكين في الأرض وتسخيرها². "فالعمران البشري يتطلب توفير فرص اكتساب المعرفة والعلم لجميع أفراد المجتمع؛ ولكن، من المؤكد أن الناس يتفاوتون في مدى استفادتهم من الفرص التعليمية المتاحة. والمقصد التربوي من هذه الظاهرة العمرانية يتجلى في شعور كل فرد بالتواضع فيما لديه من علم، وبالحاجة إلى الاستفادة من الفرص المتاحة للزيادة فيه. والتفاوت في الكسب العلمي بين المجتمعات يفرض عليها كذلك التعاون، وتبادل الخبرات والمكتسبات المعرفية بما يحقق النمو في الحضارة، والتقدم في العمران"³.

3.3. العمران حافز إلى التميز والإبداع:

إن فرص التعاون على اكتساب العلم والمعرفة، والخبرة في البناء العمراني والحضاري داخل المجتمع، وبين المجتمعات، لا تمنع التنافس والتسابق، والسعي إلى التميز والإبداع. فالركون إلى الوضع القائم والحالة الراهنة من العلم والمعرفة على مستوى الفرد ومستوى المجتمع ينتهي إلى التراجع والتخلف، ومن ثم العطالة الحضارية والعمرانية⁴. فمبدأ التعاون في التعليم والعلم ضمن الفريق، والعمل التربوي المشترك؛ كلها أمور مهمة لها فوائدها في الرفع من المستوى التعليمي العام للمجموع. بيد أن توفير الحوافز اللازمة للسبق والتميز بين الأفراد داخل المجتمع والتخطيط لتحقيق الإسهام المتميز لكل مؤسسة من مؤسسات المجتمع، ولحضور المجتمع ساحة العالم، وإضافة الجديد المفيد إلى الحضارة العالمية؛ كلها أمور مهمة تستدعيها المشاعر التربوية الفردية والجماعية في تحقيق الذات، وفي

1- ينظر: "منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"، ص 169.

2- "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص 139.

3- "الفكر التربوي المعاصر"، ص 339.

4- ينظر: "منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"، ص 250.

استمرار التقدم العلمي والمعرفي¹. والتبحر والإبداع في كل مجالات بناء المجتمع، والنهوض الحضاري للأمة، وأن يتم ذلك برؤية استشرافية مستقبلية، حتى لا يخلو تخصص من التخصصات، ولا زمن من الأزمان².

4.3. العمران مدخل لترقية الحياة الفردية والجماعية:

إن المجتمعات البشرية تنمو في العمران والحضارة، وتترقى عن طريق ما يصلها من الهدي الإلهي، وما يكون فيه من تزكية نفسية، وتوجيهات أخلاقية، وتشريعات اجتماعية، وتتراكم خبرات هذه المجتمعات عن طريق ما تكتسبه من المعارف والعلوم والتجارب، مما تتناقله هذه المجتمعات فيما بينها من هذه الخبرات النامية³. و"الترقي العمراني والتقدم الحضاري إنما يتم وفق قوانين الاجتماع البشري، وطبائع هذا الاجتماع، والسنن النفسية والاجتماعية للطبائع والوقائع، وهي سنن يمكن دراستها، وتوجيه السعي إلى الترقى في العمران البشري على أساسها. لذلك يلزم أن تتضمن المناهج الدراسية في مراحلها المختلفة ما يلزم من مستويات العلم بقوانين النمو والتطور في كل فرع من فروع العلم"⁴.

فمن الواضح أن دلالات العمران مفتوحة للسعي البشري في ترقية الحياة بما قد تصل إليه خبراتهم وتجاربهم من تسخير ما خلق الله لهم في هذا العالم؛ فجميع ما في الكون من وظواهر وطاقات هي مجالات للتفكير في طرق توظيفها في الاكتشاف والاختراع وفي فهم حقائق الإنسان والعمران البشري لبناء الأنظمة والقوانين وتنظيم العلاقات⁵، و"لذلك ينبغي أن تكون الدعوة إلى التغيير والإصلاح في واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة للتخلص من مظاهر التخلف العمراني والحضاري بصورة مبنية على دراسة قوانين التغيير في النفس والمجتمع، وأن تتضمن برامج التعليم وحدات ومجالات لدراسة هذه القوانين"⁶.

5.3 العمران دافع للالتزام بالنظام والقانون:

إن الجانب المعنوي من الحضارة البشرية يتحقق نتيجة تطور خبرة الجماعات والشعوب فيما يتعلق بتنظيم أمور الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وسن القوانين والأنظمة

1- ينظر: "الفكر التربوي المعاصر"، ص339.

2- ينظر: "الفكر التربوي المعاصر"، ص342. و"منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"، ص254/253.

3- ينظر: "منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"، ص253.

4- "الفكر التربوي المعاصر"، ص341.

5- نفسه، ص309.

6- "منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"، ص253.

التي تحكم العلاقات بين الناس، فتنشأ الثقافات وتتكسر الأعراف والعادات، ويتقبل الناس الخضوع لسلطة الإدارة والقانون والحكم لتحقيق الأمن والاستقرار¹. حيث أدى تكاثر الناس وتضارب مصالحهم إلى تنظيم عمران حياتهم وإدارتها بصورة تحفظ الحقوق وتحقق الأمن، وهذا يقتضي الالتزام بالقوانين والتشريعات المدنية التي ربما يشعر معها الإنسان بالحد من حريته في التصرف، فتقدير قيمة الحضرة والتمدن والعمران البشري، وما تتطلبه من تنظيم يحقق المصالح العامة للمجموع؛ هي مسألة تربوية تعليمية يدعمها الرضا النفسي بحق العمران، وتعززها طرق التنشئة التربوية في الأسرة وبرامج التوجيه في المؤسسات التربوية والتعليمية².

خاتمة:

بعد هذه الجولة العلمية الممتعة في المشروعين العلميين للدكتور طه جابر العلواني والدكتور فتحي حسن ملكاوي بحثا عن الكليات المقاصدية القرآنية وأبعادها التربوية، أخلص إلى ما يأتي

يقرر المفكر طه جابر العلواني أن القرآن الكريم كتاب كوني مكنون وهو يكشف عبر العصور عن مكنوناته؛ ليستوعب مشكلات وقضايا العصور -كلها- بحسب سقوفها المعرفية، وعلى اختلاف أنساقها الثقافية والحضارية، فهو مصدق ومهيمن ومستوعب للكون وحركته والعالم وأزماته وإشكالاته وبخاصة المرتبطة بالمجال التربوي والتعليمي. ويرى أن القرآن الكريم قد عني ببناء منهج تربوي قائم على مقومات وخصائص التصور الإسلامي السليم، عبر مدخل قيمي يتجسد في منظومة من القيم والمقاصد الحاكمة التي جاء القرآن لإرساء دعائمها، وهي منظومة قيمية معيارية قطعية ومطلقة تصلح لأن تقاس عليها سائر أنواع المعرفة، وسائر الأفكار التربوية؛ وتصاغ على شكل منظومة ثلاثية كلية مترابطة، تترتب طوليا؛ بحيث يكون التوحيد مركزها، ثم تصدر عنه التزكية، ويلهما العمران.

سائر الدكتور فتحي حسن ملكاوي التقسيم العلواني للقيم المقاصدية بنفس الرؤية والتنظير المفاهيمي والغائي، ثم عمل على الكشف عن تجلياتها التربوية معتبرا أن البحث في الكليات المقاصدية القيمية في القرآن الكريم سبيل إلى بناء الصلة بين مبادئ الإسلام الكلية وبناء المعرفة بوصفها -أي الكليات- إطارا مرجعيا يحكم رؤيتنا الكلية للعملية التعليمية في

1- ينظر: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، ص 153.

2- ينظر: "الفكر التربوي المعاصر"، ص 338.

أطرها الفكرية، وأسسها النفسية والفلسفية والاجتماعية، وهذه الكليات القيمية القرآنية الحاكمة التي تكوّن أصول الوعي وأصول السعي؛ يمكن أن تساعد على تطوير نظرية معرفية تربوية عامة في العلوم الشرعية كلها وكذلك في العلوم الاجتماعية وسائر المجالات العلمية، وقد خلص إلى:

أن الموحّد يعتبر الله الواحد سبحانه مصدر العلم والمعرفة، وهو سبحانه الحق، وهو واحد، فلا تتعدد الحقيقة؛ لأن الله الواحد هو العلة الوحيدة لكل شيء في هذا الكون الذي يحدث بإرادة الله عن طريق المسببات الحادثة في الزمان والمكان. كما يحرر التوحيد الطاقات الفكرية والعلمية للعقل الموحّد، ويوسع أفقه البحثي، وينمي عنده الرغبة في النظر العميق على ما يتيسر مع معرفة وعلم عن آفاق الكون والحياة والإنسان، ومن التجليات التربوية كذلك شعور الموحّد بالعزة والتكريم، وسعيه إلى إنجاز العمل بدرجة عالية من النجاح والجودة والإتقان.

وتتمثل التجليات التربوية لقيمة التزكية على مستوى الفرد: في انعكاس حالة الفرد النفسية -حالة التزكية- على حالته العقلية والسلوكية، والاستشراق إلى النتيجة والقصد إلى الفلاح والنجاح على جميع المستويات. أما على مستوى الجماعة: فتتمثل في تزكية علاقات المجتمع وأنظمتها، وتقديم المعالجة الحكيمة لما يقع فيه من مشكلات، وتنظيم العلاقات الاجتماعية وتمتين مقومات البناء الاجتماعي.

أما التجليات التربوية لكلية العمران فقد خلص إلى أن العمران موجه لسعي العقل المسلم، وهو ثمرة لتراكم العلوم والخبرات وهو حافز إلى التميز والإبداع، كما أنه مدخل لترقية الحياة الفردية والجماعية، ودافع للالتزام بالنظام والقانون.

لائحة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1. "أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجية في التدبر والتدبير" طه جابر العلواني، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2010.
2. "لتوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة"، طه جابر العلواني، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 2003.
3. "الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون" طه جابر العلواني، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2006.
4. "الصراع على مرجعية القيم في العالم المعاصر"، فتحي حسن ملكاوي، 11/07/2020 <https://www.cilecenter.org/ar/resources/articles-essays/alsra-ly-mrijyt-alqym-fy-alalm-almasr>
5. "الفكر التربوي الإسلامي المعاصر: مفاهيمه ومصادره وخصائصه وسبل إصلاحه"، فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن-عمان، ط 1442هـ/2020م.
6. "لمفردات"، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى 1412..
7. "المقدمة"، ابن خلدون، دار النشر: دار القلم - بيروت، الطبعة الأولى 1978.
8. "المنهجية الإسلامية: سبوعية القيم كإطار مرجعي"، عبد الفتاح سيف الدين، دراسات سياسية، المعهد المصري للدراسات، إسطنبول-تركيا.
9. "الوحدة البنائية للقرآن الكريم" طه جابر العلواني، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2006.
10. "حاكمية القرآن" طه جابر العلواني، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1996.
11. "لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب" طه جابر العلواني، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2006.
12. "مقاصد الشريعة" طه جابر العلواني، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2001.
13. "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن-عمان، ط 1434هـ/2013م.

14. "منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية" فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن-عمان، ط 2020م.
15. "نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة" طه جابر العلواني، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2004.
16. "نحو نظام معرفي إسلامي"، فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن-عمان، ط 1420هـ/2000م.

"أسس الإصلاح عند طه جابر العلواني وفق النظر المقاصدي"

أ.د أحمد صالح قطران

أستاذ أصول الفقه والفكر الإسلامي جامعة صنعاء

مقدمة:

الأمة الإسلامية ولآدة، ولا يكاد يخلو زمان من أعلام الهدى الذين يصلحون ما أفسد الناس، ويبتكرون الوسائل، والوسائط التي تحافظ على الدين، وتوصله للناس نقيا عذبا متجددا، وتنفي عنه انتحال المبطلين، وتشكيك المشككين، فحفظ الله دينه الذي ارتضاه للناس باجتهاد الأعلام، وكل علم من الأعلام يتميز بجانب من جوانب الحياة، ويبرز في مسألة أو مسائل يعرف بها، فظهر عبر التاريخ أعلام المذاهب ومجددوها، وبرز أعلام في شتى العلوم، وفي عصر المؤسسة برز المعهد العالمي للفكر الإسلامي كمؤسسة رائدة تتلمذنا على منتجاته المعرفية الثرية والمتنوعة، والمتميزة منذ أن دخلنا الجامعات، وتعلمنا على مجلة إسلامية معرفية⁽¹⁾ بشكلها وإخراجها المميز، واقتنينا أعدادها وعرفنا عبرها عددا من الأعلام المتكررة.

وقليلة هي الشخصيات التي يتمكن القارئ من تتبع طروحاتها ويدرك مراميها وأهدافها بسهولة ويسر لقرب تلك الطروحات من قلب وروح الأمة، ومن تلك الشخصيات شيخنا العلواني، فما إن يقرأ القارئ بعض نتاجه المعرفي حتى يتمكن من إدراك مراميه وهمومه، فلا نطالع كتابا من كتبه أو بحثا من أبحاثه أو مقالا من مقالاته، إلا نجده مكتنزا بمعاني الإصلاح، والشهود الحضاري، ويعبر عن ذلك بصورة مباشرة وغير مباشرة، ولا يجد القارئ صعوبة في معرفة ذلك.

وبالاستقراء الجزئي، والتتبع البسيط يستطيع القارئ الوقوف على ما يراه شيخنا العلواني أسسا للإصلاح والتحول الحضاري، وفق نظرة مقاصدية تجمع بين دلالات النص وأبعاده المعرفية المتنوعة والمستوعبة لكل مستجدات الحياة بالنص المباشر، أو بالمعنى والدلالة وفق قواعد الاجتهاد استنادا لقاعدة(أن النصوص متناهية، والحوادث غير

¹ - صدر العدد الأول منها في شهر المحرم عام 1416هـ يونيو 1995م وفي عام 2020م ابتداء من العدد 99 عدلت المجلة اسمها إلى الفكر الإسلامي المعاصر، وللأسف لم نجد سببا لتغيير العنوان. لأن العنوان القديم فلسفة، بينما العنوان الجديد فضفاض لا يشي بشيء دقيق.

متناهية⁽¹⁾، يقول الشهرستاني: (نعلم قطعاً وبقيناً أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات: مما لا يقبل الحصر والعد؛ ونعلم قطعاً أيضاً أنه لم يرد في كل حادثة نص، ولا يتصور ذلك أيضاً؛ والنصوص إذا كانت متناهية، والوقائع غير متناهية؛ وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار)⁽²⁾ وتفاعل الواقع وتأثيراته التغييرية، وبناء على ذلك، فإنني أرى أن الأسس التي يمكن استشفافها في مشروع طه جابر لتكون مدميك لإصلاح مسار الأمة ثلاثة رئيسة، هي: محورية النص القرآني، والمؤسسية، والتفاعل الإيجابي مع الزمكان، ويتبع هذه الأسس مجموعة من المقدمات والمكملات، وسيروا على منهجية التنظير البحثي، فإنني اخترت لبحثي المشارك في المؤتمر العلمي المحكم طه جابر العلواني عطاؤه العلمي ومشروعه الإصلاحي عنواناً هو: أسس الإصلاح عند طه جابر العلواني وفق النظر المقاصدي.

أهداف البحث.

أطمح أن أحقق عدداً من الأهداف أهمها:

- بيان أسس الإصلاح وفق النظر المقاصدي عند العلواني.
 - اظهار تميز العلواني المنهجي في طرح رؤاه الإصلاحية.
- أهمية البحث.

أزعم أن البحث سيكون له الأثر في لفت نظر الباحثين لتتبع معالم المنهج الإصلاحي للعلواني، وتتبع طروحاته، وإبراز نظراته المقاصدية لإصلاح مسار الأمة، وأسس الشهود الحضاري فيها، والدفاع عنه.

منهجية البحث.

من المعلوم أن تتبع الآراء لمفكر ما يحتاج إلى تتبع نصوصه في مؤلف ما أو في عدد من

¹ - قواطع الأدلة في الأصول، أبو المظفر، منصور بن محمد السمعاني (ت 489هـ)، تحقيق محمد حسن الشافعي، دارالكتب العلمية، بيروت، ط/1، 1418هـ/1999م (84/2).

² - الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت 548هـ) تحقيق أحمد فهد محمد، دارالكتب العلمية، بيروت، ط/2 عام 1413هـ/1992م، (210/1).

المؤلفات ولأن غايته هو التتبع والاستنتاج، فإن المنهج الذي سأسير عليه هو المنهج الاستقرائي والاستنباطي.

حدود البحث.

حدود البحث المكانية كل مؤلفات الدكتور طه جابر العلواني، بحيث اتبع ما أريد إثباته في منتجه المعرفي الغزير والمتنوع، أما حدود البحث الزمانية، فطيلة حياته المعرفية دون التقيد بمرحلة عمرية معينة.

مخطط البحث.

يتكون البحث من مقدمة ومدخل وثلاثة مباحث على النحو التالي.

-المقدمة: وفيها ما سبق بيانه .

المدخل: وفيه التعريف بمفردات العنوان والمتمثلة في: (الأسس -العلواني -النظر المقاصدي)

المبحث الأول: محورية النص القرآني.

المبحث الثاني: محورية المؤسسة.

المبحث الثالث: محورية الزمكان.

الخاتمة..

"The Foundations of Reform According to Taha Jabir Al-Owaini in the Maqasidi Perspective"

Abstract:

The foundations of reform according to Taha Jaber Al-Alwani According to the teleological point of view Prof. Ahmed Saleh Muhammad Qatran Professor of the Fundamentals of Jurisprudence and Islamic Thought - Sana'a University This research aims to

- Explain the foundations of reform according to Al-Alwani's Maqasid view, and demonstrating Al-Alwani's methodological excellence in presenting his reform visions.

I expect that the research will have an impact in drawing the attention of researchers to trace the features of Alwani's reformist approach the researcher chose the inductive and deductive method.

The research consists of an introduction, a preface, and three chapters:

- Introduction: Definition of :(the foundations - reform - Alwani - the teleological view).
- The first topic: The centrality of the Qur'anic text.
- The second section: The importance of institutionalism.
- The third topic: The centrality of space-time.

The research concluded that:

1-Taha Jaber Al-Alwani is a first-class politician and military man. He fought his political and intellectual battles with courage and valor. Because of his political positions, he was arrested twice, imprisoned, and sentenced to death in absentia.

2-He retired from politics early, and chose the Sharia portal, specifically the principles of jurisprudence, and from there he advanced in all fields. He is truly an encyclopedic scholar.

3 -A Qur'anic man, when he devoted himself to Sharia knowledge, the Qur'an was his inspiration, and for this reason he wrote a number of books and articles, the most recent of which was the book Interpretation of the Qur'an by the Qur'an.

4- Institutionalization occupies a large space in his thinking and practices.

5- As a fundamentalist and thinker, his view of time and place is fundamentalist, in terms of their influence on the revelation of rulings and fatwas.

And finally. Studying such characters gives the student a high spirit. Therefore, I advise students to study the Sheikh's heritage, his books, and his approach in all the fields he researched.

مدخل:

مما درج عليه الباحثون عند تقديم البحوث، أو الأوراق البحثية التقديم لها بمدخل يشرح مفردات العنوان، ويبين مراميها؛ لتكون نبراسا في طريق القارئ الذي يريد التجوال في ثنايا البحث، وهذا ما قمت به، فهذا التمهيد يسير في الاتجاه ذاته، وتنحصر المفردات التي سيكون المدخل معنيا ببيائها: (الأسس-العلواني-النظر المقاصدي)

1-الأسُس:

الأسس جمع أساس، والأساس هو أصل البناء، وجمعه أسس⁽¹⁾ ويقصد بالأساس، القاعدة التي يُبنى عليها، فيقال: أسست البيت أي بنيته على القواعد⁽²⁾ ومن الناحية المعنوية يستعمل لفظ أسس للتدليل على القواعد والأصول التي يُبنى عليها غيرها من الأفكار والمعاني، فيقال: الأسس المنهجية لعلم كذا، أو أسس بناء المناهج، أو أسس علم كذا، أو ما يسمي به المؤلفون ما يقومون بتأليفه لوصف بعض القضايا لبيان أصولها وقواعدها⁽³⁾ ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي للفظة الأسس، وما عنيت هو الأسس التي رأيت أن شيخنا العلواني ركز عليها، ويمكن عدها أسسا للإصلاح ومرتكزاته إما تصريحاً أو تلميحاً كما سنذكر ذلك في ثنايا البحث.

2-العلواني:

قبل أن أُلج إلى ترجمته أنبه إلى أنني سأقتصر على بعضها، وهي المتعلقة بما قبل تركه المجال السياسي، فشيوخنا علم من أعلام الأمة قدم جهوداً جبّارة، واختط منهاجاً يندر القيام بمثله، وأثار الجدل وناقش وجادل واستدل، ولم يتوقف انتاجه العلمي إلى آخر لحظة

¹ - انظر: العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ)، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دارومكتبة الهلال، بدون ط ت، (7/334).

² - انظر: المصدر نفسه، 1/143.

3 - مثل: لأسس العامة للنحو عند الزمخشري، مفهوم المواطنة والأسس التي تقوم عليها في المانيا ومصر دراسة مقارنة، الأسس العامة للتربية الصالحة في الإسلام، الأسس العامة للعقود الإدارية دراسة مقارنة، الأسس العامة لمناهج تعليم اللغة العربية إعدادها تطويرها تقويمها، الأسس العامة لإعداد الإعلاميين، وغيرها من العناوين في شتى المجالات والعلوم.

في حياته، درسه الدارسون، أشاد به محبوه، وانتقده خصومه، ولج السياسة من أوسع أبوابها، غير أنه أغلق كل أبوابها بعد تلك التجربة التي وصفها وصفا دقيقا⁽¹⁾.

فهو طه جابر فياض العلواني ولد عام 1935م⁽²⁾ في مدينة الفلوجة من محافظة الأنبار تبعد عن بغداد 60 كيلو مترا إلى الغرب، من أسرة عربية سنية، والعلواني من الناحية القبلية ينتهي إلى البو علوان من دليم، وهي من فروع قبيلة زبيد الحميرية القحطانية⁽³⁾ ومعلوم أن القبائل القحطانية من اليمن.

عاش طفولته في الفلوجة، وكبقية أقرانه احتضنته كتاتيبها ثم انتقل في سير التعليم النظامي، حيث حصل على الابتدائية من المدرسة الابتدائية للبنين بالفلوجة في العام الدراسي 1948م 1949م، وهو ما يعني أن عمره وقتها كان ثلاثة عشر سنة، ثم حصل في العام 1952م على شهادة المدرسة الأصفية من المعهد الديني في الفلوجة، وكان أول ظهور له خارج الفلوجة حين تم تعيينه في بداية عام 1953م إماما وخطيبا⁽⁴⁾ لجامع الحاجة حسية الباجه جي⁽⁵⁾ وكان خطيبا ثوريا مصقعا يرتاد مسجده لصلاة الجمعة عدد من السياسيين، وقد التف حوله الشباب من كل التيارات الإسلامية خاصة من شباب الإخوان المسلمين لنبوغه العلمي⁽⁶⁾ وبعد عشرة أشهر أي في شهر نوفمبر من العام نفسه غادر إلى مصر، وتحديدًا إلى رحاب الأزهر؛ ليحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية، ثم شهادة الليسانس، من كلية الشريعة والقانون⁽⁷⁾.

1 - تجربي مع الحياة السياسية في العراق سيرة لا ذاتية ولا متحيزة، قدم له وحققه عثمان علي، منتدى المعارف، بيروت، ط/1، عام 2015م، 240/1.

2 - انظر: تجربي: 51/1

3 - انظر: موسوعة العشائر العراقية، ثامر عبد الحسن العامري، مكتبة الصفا والمروة، لندن، بدون ط
ت (39/2)

4 - انظر: تجربي، 52/1.

5 - وهي أخت السياسي العراقي مزاحم الباجه جي (ت 1982) وعمه ابنه الدكتور عدنان الباجه جي (ت 2019م)

6 - تجربي 56/1

7 - انظر: تجربي 63/1

وعاد بعدها ليمارس عمله خطيباً في الجامع ذاته ⁽¹⁾ كما عمل مدرسا في إحدى المدارس الثانوية في بغداد ⁽²⁾ ولم يتوقف عن الخطابة، وبعد الإطاحة بالملكية في العراق، وتولى السلطة الجمهوريون، فاحتدم الصراع بين مكونات الانقلاب على السلطة، فعبد الكريم قاسم (ت 1963م) ومن خلفه التيار اليساري، وعبد السلام عارف (1966م) ومن خلفه التيار القومي والإسلامي ⁽³⁾ وكان شيخنا خصما شديدا لليساريين، التقى بعبد الكريم قاسم في أغسطس آب 1958م، وفي العام نفسه التقى عبد السلام عارف، وكان وزيرا للداخلية ⁽⁴⁾ واعتقل من قبل محكمة المهداوي عام 1959م وافرج عنه بكفالة ⁽⁵⁾ التحق بالجيش كضابط احتياط ⁽⁶⁾ وأثناء عمله في الجيش أسس المنظمة العسكرية الإسلامية ⁽⁷⁾، وفي عام 1960م انظم للحزب الإسلامي العراقي، وكان عضوا في اللجنة المركزية للحزب ⁽⁸⁾ وإن كان فيما بعد قد جمد عضويته بطريقة الكبار ⁽⁹⁾

فهو عسكري وسياسي من الطراز الأول شجاع جسور خطط لاغتيال قاسم العراق ⁽¹⁰⁾ وكان قاب قوسين من السيطرة على الحكم في العراق، وصل أحد أعضاء منظمته إلى نائب رئيس الوزراء ⁽¹¹⁾ تطلع في شبابه أن يكون رجل أمة ⁽¹²⁾ فكان له ما أراد، فهو بحق رجل أمة، اعتزل السياسة تماما وتفرغ للفكر.

¹ - نفسه 63.

² - نفسه.

³ - نفسه 64.

⁴ - نفسه 143.

⁵ - نفسه 86.

⁶ - نفسه 115.

⁷ - نفسه 151.

⁸ - نفسه 89.

⁹ - نفسه 97.

¹⁰ - نفسه 82.

¹¹ - وهو اللواء الركن عبد الغني بن محمد سعيد بن عبد الغني بن محمد الراوي (ت 1433هـ)

12 - انظر: تجربتي: 58/1.

3-النظر المقاصدي

النظر: من نظر وهو التأمل والمعاينة⁽¹⁾ ويصور أنه: (عبارة عن قلب الحديقة نحو المرئي التماساً لرؤيته)⁽²⁾ والمعنى الاصطلاحي للنظر هو الغوص في المعنى وتلمس مدلول المشاهد، لذلك يعبر عنه بأنه: (ترتيب أمور معلومة على وجه يؤدي إلى استعمال ما ليس بمعلوم) وبعبارة أخرى (عبارة عن حركة القلب لطلب علم عن علم)⁽³⁾ أو هو (فكر يؤدي إلى علم أو اعتقاد أو ظن)⁽⁴⁾ والنظر المقاصدي عن المقاصديين هو (الاجتهاد الذي يستثمر مقاصد الشريعة في الإجابة عن قضايا العصر تشريعاً)⁽⁵⁾ فهو ترتيب الأحكام على مقتضى مقاصد الشريعة، فمن تكلم في الأحكام، ونظر في غاياتها ومآلاتها، وفق فلسفة التشريع الإسلامي التي تمزج بين مدلول النص، وتنزيل الحكم الشرعي أو الفتوى على وفق مقتضيات الزمان والمكان، فهو صاحب نظر مقاصدي⁽⁶⁾.

المبحث الأول: محورية النص القرآني

لا شك في هيمنة النص القرآني على ما سواه من الأفكار والآراء، وغير خفي ما لهذا النص من قدسية كبيرة عند المسلمين عابرة للزمان والمكان، ولهذا فكل من له باع في

1 - انظر: معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد ابن فارس القزويني الرازي (ت 395هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام 1399هـ 1979م. (5/ 444) أساس البلاغة، أبو القاسم جارا الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت 538هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ 1998م (282/2).

2 - الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، (ت 1094هـ)، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون ط، (904) نفسه (905)

4 - الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة الأنصاري، زكريا بن محمد بن أحمد (ت 926هـ)، تحقيق مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1411هـ (69)

5 - انظر: النظر المقاصدي رؤية تنزيلية، محماد بن محمد رفيع، دار السلام، القاهرة، ط1، عام 1431هـ 2010م (20)

6 - انظر: منهج النظر المقاصدي ودوره في بناء نظرية سياسية إسلامية، الطيب بن حزالله، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم الإسلامية، جامعة باتنة 1، الجزائر 1438هـ 2017م، (30)

الدرس الإسلامي بكل تفاصيله لا يرجع إلى القرآن، فعمله عري عن الفائدة، بل ولا أثر له، ولا يترتب عليه أي تفرعات، أو تشقيقات، فكل عمل بغير القرآن فهو هوى⁽¹⁾.

والمطلع على الانتاج المعرفي لشيخنا العلواني يدرك لأول وهلة مكانة القرآن في تفكيره، وفي رؤاه المتعددة والمتنوعة، وباستقراء بسيط على العناوين للمؤلفات المنشورة له المستندة إلى القرآن نجد ذلك واضحاً جلياً في عدد المؤلفات المنشورة التي تربو على عشرين عنواناً، فهذه المؤلفات تدل عناوينها ومحتوياتها على محورية القرآن في تفكيره، وحرصه الشديد على استلزام القرآن في كل مفردات الحياة، إلى جانب عدد كبير من المقالات والمقابلات التي تصب كلها في خانة حاكمية القرآن، ومكانته في الحياة، وهذا يدل على عمق النظر المقاصدي التي كان يتمتع به الشيخ، فالقرآن أس المقاصد، وهو المنهل الروي في الاستدلال المقاصدي وهو ما أدركه الشيخ في مشروعه المقاصدي المتنوع⁽²⁾، ولمحدودية المساحة المخصصة للبحث يصعب تتبع كل معالم وتفاصيل وجهة نظره في هذه المسألة؛ لذلك سنقتصر على بعض النقاط التي تدل على محورية القرآن لدى شيخنا على النحو الآتي:

- القرآن نبي مقيم

تصور القرآن بأنه نبي مقيم بين البشرية فكرة لم يسبق من قال بها، وقد تتبعنا جذور الفكرة، فلم نجد من نص عليها، وكل من قال بها استند إلى رؤى الشيخ، فقال في وصف علاقته بالقرآن: (لأنني أؤمن أنَّ القرآن المجيد بمنزلة نبي مقيم تركه رسول الله ﷺ فينا امتداداً للنبوَّة التي خُتِمت، وللرسالة التي بلغت وأخذ تبليغها مداها)⁽³⁾، و قال: (فإن القرآن الكريم قد يَسَّرَ الله لِلذِّكْرِ، وجعله نبياً مقيماً، يخاطب به الأحياء، كما يخاطب به من هم في حكم الأموات ليبعث فيهم الحياة، ويوجد فيهم حقيقتها) مستدلاً بقوله تعالى: ﴿أَوْمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ

¹ - انظر: هذا القرآن، عبد الحي العمراني، مطابع فضالة، المغرب، بدون ط، عام 1404هـ/1984م(9).

2 - انظر كتابه: نحو التجديد والاجتهاد مرجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، دار تنوير، مصر، ط:1، 1429هـ/2009م(193)

3 - حوار مع القرآن: تجربة ذاتية ودعوة للتدبر، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط/1، 1435هـ/2014م، (10).

لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام/122)⁽¹⁾ فتصور القرآن نبيا مقيما بيننا غاية في بيان مكانة القرآن وقدرته في إقامة الحياة وإدارتها، فالتوجه للقرآن لبناء كل مفاهيم الحياة، وتغيير كل ما فيها من أساسيات الإصلاح⁽²⁾ فشيخنا صاحب هذه الفكرة الفريدة، فهو أول من أوردتها - أعني فكرة إقامة القرآن مقام النبي بين المسلمين.

- القرآن منهج حياة.

القرآن هو الكتاب الوحيد الذي منّ الله به على البشرية، وأودعه تلك الطاقات الهائلة للاستيعاب الرأسي والأفقي لكل مفردات الكون، فهو يكتنز كما هائلا من القدرات العصبية على العد، القدرة على تصحيح مسار البشرية، فهو الكتاب الذي يمكن أتباعه والمؤمنين به من القيام بحق الاستخلاف بكل تفاصيله قياما كاملا، وتحقيق غاية الله ومراده من الخلق بإقامة العمران في الأرض، واستثمار كل السنن بكل تفاصيلها⁽³⁾، وفي هذا يقول: (ولهذا أنزل الله تعالى القرآن نصا مطلقا محفوظا معصوما يتسع لكافة قضايا الوجود وحركته، على مستوى الكون الطبيعي المسخر للإنسان المستخلف معا، فهو كلام الله تعالى والكتاب الشامل المحيط)⁽⁴⁾ وقال: (ولا شك أن القرآن الكريم يشتمل على الدين كله- عقيدة وشرعية ونظم حياة، ما فرط الله فيه من شيء، فهو تبيان لكل شيء)⁽⁵⁾

- مستويات التلقي والتأثر بالقرآن.

يختلف الناس في مستويات التلقي للقرآن، ومستويات التأثر به من شخص إلى آخر بحسب السعة العلمية والمملكة التدريية، وقد وصف ذلك فقال: (وهنا يكون نصيب كل فرد في ذلك المجتمع مماثلاً لنصيب الأراضي المتنوعة من الغيث، فهناك أراضٍ تهتر وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، وهناك أراضٍ تحتفظ بالماء ليستفيد به الإنسان والحيوان والنبات، وهناك

1 - تفسير القرآن بالقرآن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط/2، عام 2022م (11).

2 - انظر: المقاصد القرآنية العليا ودورها في بناء العمران الإسلامي عند الدكتور طه جابر العلواني مفهوم الأمة نموذجاً، عماد الدين عشاوي، مركز نما للبحوث والدراسات، بيروت، بدو ط (27)

3 - انظر: معالم في المنهج القرآني (22)

4 - الأئمة الفكرية ومناهج التغيير، دار الهادي (160)

5 - إشكالية التعامل مع السنة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرنند - فرجينيا - الولايات المتحدة

الأمريكية، ط/1، عام 1435هـ 2014م (16)

أراض أجادب لا تنبت زرعاً ولا تمسك ماءً⁽¹⁾ وفي هامش الصفحة أورد حديث «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قِيلَتِ الْمَاءُ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أُمِسَّتِ الْمَاءُ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»⁽²⁾ فالشيخ يورد معنى الحديث، ويأتي بتطبيقه في التعامل مع النص القرآني، ويصرف معنى الحدث من الدلالة على العموم لكل ماورد عن النبي ﷺ إلى القرآن وهو صرف حسن، فالهدى كل الهدى في القرآن، وما عداه تبعاً له تأكيداً أو تفسيراً⁽³⁾، والشيخ قد عاش حياته العلمية ما ترك تدبر القرآن وتأمله لحظة واحدة⁽⁴⁾

- القرآن كفيل بالقضاء على الفتن.

إن القرآن الكريم كتاب الله المنزل على رسول الله ﷺ يمتلك مقومات تقرب وجهات النظر، وتضييق فجوة الخلاف إذا حسنت النوايا؛ لذلك ما إن يعود الناس إليه حتى يعتصموا ويجمعوا عليه، وهو الأمر الذي أكد عليه، فقال: (وإذا التبس على الناس شيء بعد غيابه - صلوات الله عليه وسلامه - فإنهم سيجدون في المنهاج القرآني ومحجته البيضاء، ما يستطيعون الرجوع إليه والاهتداء به والعودة إلى وضوح الطريق، واستقامة السبيل واستنارة الصراط بذلك المنهج فهو منهاج للتأسيس وللتجديد كذلك، وفيه جميع الضمانات المطلوبة للأمن من التيه والضلال اللذين قد يقع الإنسان فيهما بطول الأمد وقسوة القلوب، وعوامل الضعف البشري!!)⁽⁵⁾ ولم يقف عند هذا الحد بل يرى أن القرآن كفيل بتخليص البشرية من كافة أزمانها باعتباره منهج حياة⁽⁶⁾ وهنا ملحظ مقاصدي يشير إليه الشيخ، وهو مقصد الوحدة والتجمع والاعتصام بحبل الله المؤكد عليه بقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

1 - تفسير القرآن بالقرآن (11).

2 - رواه البخاري، كتابُ العلم، بابُ فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ.

3 - وهذه هي وظائف السنة.

4 - تفسير القرآن بالقرآن، (18).

5 - معالم في المنهج القرآني، دار السلام، القاهرة، ط:1، عام 1431هـ 2010م (71).

6 - انظر تفاصيل ذلك في كتابه: أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، دار الشروق،

القاهرة، 2005م.

وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ (آل عمران/103) فالآية تحمل كثيراً من المعاني والدروس التي تختزل الماضي والحاضر والمستقبل: الأمر بالاعتصام وتذكر الفرقة، والعودة إلى الاعتصام، ومراجعته باستمرار، فمن أراد الأخوة، فالاعتصام هو المخرج، ومن أراد القوة، فحبل الله هو الوسيلة⁽¹⁾

- علاقة السنة بالقرآن.

ثمة قضية ناقشها الأصوليون والمفسرون والمتكلمون، وهي علاقة السنة بالقرآن، هل هي علاقة تبعية أو علاقة تساوي؟ والحقيقة أن الخلاف بين الأصوليين خلاف شكلي، فمن يقول باستقلالية السنة عن القرآن، وأنها معه في رتبة واحدة في إنشاء الأحكام لا يعارض فكرة تبعيتها للقرآن في كونها مفسرة له، ومن يرى أنها تابعة للقرآن لا يعترض على القول بأن السنة أنشأت أحكاماً باستقلال⁽²⁾ والشيخ يذهب إلى تبعية السنة للقرآن، فقال: (إذا كان القرآن هو المصدر المنشئ للفكر والمعرفة والحضارة والأحكام الشرعية وتنظيم سائر العلاقات، فإن السنة النبوية المطهرة هي المصدر المبين الملزم للقرآن العظيم. ففي القرآن العظيم تبيان لكل شيء وفي السنة بيان لكيفية ربط قيم القرآن بالواقع، وبكيفية تنزيل النص على الواقع. وفي دراسة الكون، والتجارب والخبرات محاولة لفهم الواقع وحسن تكييفه والقدرة على الذهاب بأزماته، ومشكلاته إلى النص واستنطاقه الحلول لتلك الأزمت وتلك المشكلات)⁽³⁾.

وفي هذه النصوص وغيرها يظهر النظر المقاصدي المتنوع لشيخنا ونظراته المتأمله في علاقة القرآن بكل بمفردات الحياة والكون، ومصدريته المطلقة، ثم علاقته بالسنة، فالاستدلال المقاصدي بما ورد في السنة يضيف على مصدرية القرآن فضاء بيانياً جديداً متجدداً⁽⁴⁾، فالباحث المقاصدي يسترشد بأقوال وتصرفات رسول الله ﷺ؛ لتنزيل النص على

1 - انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب (ت 1385 هـ) دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط: 17، عام 1412 هـ، (443/1).

2 - انظر تفاصيل ذلك: مُحَدِّدَاتُ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - دراسة تقويمية، عبد الرزاق أحمد أسعد رجب، سعيد محمد علي بواعنة، مجلة كلية الشريعة والقانون بتفهننا الأشرف الدقهلية، مصر المجلد 19، العدد 3، 2017 م، (1508-1463).

³ - الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، دار الهادي، بيروت، ط: 1، عام 1424 هـ 2003 م (196).

4 - انظر: النظر المقاصدي في فهم الحديث النبوي ونقده: دراسة تأصيلية تطبيقية، عمار أحمد الحريري، التجديد، المجلد السادس عشر، العدد الحادي والثلاثون. 1432 هـ 2012 م، (235-197)

الواقع، واستنطاق ذلك القول والتصرف لاستنتاج ما يحل به المشكلات ويواجه المستجدات⁽¹⁾.

المبحث الثاني: إعادة الاعتبار للمؤسسية.

عندما جاء الإسلام ظهر في بيئة فردية صرفة لا تعرف شيئاً عن المؤسسة، وكانت البيئة عبارة عن قبائل ممزقة تمتاز بالنجدة نعم؛ لكن رأي زعيم القبيلة هو الفيصل ، وعندما أراد القرآن بيان الفارق بين المؤسسة، والفردية ضرب مثلين أحدهما: فردانية فرعون التي احتلت مساحة كبيرة في القصص القرآني، وكان عنوان حكمه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر/29) فليس للمؤسسة الجماعية في حكمها مدخل ، وفي نهاية المطاف قاد قومه إلى الهلاك ، والآخر: تمثل في ملكة سبا التي كان عنوان حكمها: ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (النمل/32)، المؤسسة في أبهى صورها في زمانهم، وفي نهاية المطاف قادت قومها إلى النجاة، قال عنها القرآن، وهي تتخذ القرار الحق: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل/44) ومن لطائف القرآن أنه أورد نموذجين متناقضين لذكر وأنثى في ظل النموذج العربي عند نزول النص الذي يرى أن المرأة جزءاً من المتاع، وبدأ الإسلام يخطط طريقه ويشقه لتأسيس المؤسسة التي سيكون لها الدور الكبير في هزيمة مشركي العرب، وفي ظهور الحضارة الإسلامية، فاستمرت الدولة الإسلامية في إعادة الاعتبار للمؤسسية، حتى وصلت إلى أوج مجدها، لكن ما لبث الوضع حتى حل الانحراف، فظهر تسلط الفرد واستبد المستبدون، وحلت الفردية محل الجماعية، وعاد الحاكم إلى جاهليته، وفردانيته، وكانت النتيجة الطبيعية تساقطت أطراف الدولة، فتشرذمت ، وتقرمت إلى أن وصلت اليوم إلى حالة التشظي المقيت، و تنادى المفكرون كل يدلي بدلوه في تشخيص الداء، ومن أولئك طه جابر الذي استشف أن من أهم الأسباب التي طوحت بالأمة الضعف المؤسسي ، فبدأ البعد المؤسسي يراوده من وقت مبكر، ومعلوم أن المؤسسة قضية مركزية في الحياة التشريعية الإسلامية، وتحتل مكانة سامقة في البعد المقاصدي على اعتبار أنها الوسيلة المثلى لتطبيق مقاصد الشريعة، وفق آلية الاجتهاد المؤسسي الجماعي الذي يراعي التفاصيل والعموم بصورة متكاملة⁽²⁾، وهو الأمر الذي كان

1 - انظر: نحو التجديد والاجتهاد مرجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية (158).

2 - انظر: مؤسسة الاجتهاد ووظيفة السلطة التشريعية، إسماعيل حسن حفيان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط/1، عام 1436هـ/2015م، (32)

يرمي إليه الشيخ في كل اجتهاداته وأفكاره، وفي هذه المبحث سنناقش موقفه من المؤسسة، في عدد من الفقرات على النحو الآتي:

- ممارسة المؤسسة.

فهو من وقت مبكر بدأ ممارسة المؤسسة، فانظم إلى الحزب الإسلامي ليحتل عضوية اللجنة المركزية في عام 1960 ميلادية، حيث تناقش مع بعض الشخصيات الإسلامية في العراق لتأسيس الحزب الإسلامي، ولإيمانه بالمؤسسة ناقش من عرض عليه الفكرة، ثم اتفقا على أن يكون للحزب قيادة منتخبة بطريقة مؤسسية واضحة، ثم أسهم في تأسيس الحزب، وقام مع مجموعة من قيادات الحزب بصياغة برنامجه، وهنا يصف نظرته فقال: (كانت هناك دواعٍ فكرية جعلتني أقبل بالانضمام إليه فكونه حزباً سياسياً قدم برنامجاً سياسياً قبل من أعلى هيئة قضائية في العراق، وبرنامجه برنامج عصري مستمد من الشريعة إلا أنه لا يغفل عن المستجدات في الواقع الإسلامي. وكان إيماني بأن التحولات الانقلابية جعلت العمل الفردي لا قيمة له ولا وزن، وما عاد في مقدور الفرد المستقل أياً كان أن يؤدي دوراً فاعلاً في خدمة الأمة، كل تلك الأسباب جعلتني لا أتردد في الانضمام إلى الحزب) ⁽¹⁾ فلما شعر أن الحزب حاد عن المؤسسة المنفتحة التي كان ينشدها ⁽²⁾ أنهى علاقته بالحزب بطريقة طبيعية غير ملفتة.

وبدأ قاسم العراق يعرض عليه بعض المغريات ليثنيه عن العمل الإسلامي، لكنه كان يعتذر بلطف ⁽³⁾ ثم التحق بالجيش كضابط احتياط، ولم تبارحه المؤسسة للتغيير، فشكل مع مجموعة من زملائه المنظمة العسكرية الإسلامية، وكان هدفها كما صرح بذلك العمل على انقلاب أبيض ⁽⁴⁾

ثم لما غادر العراق، وغادر الحياة العسكرية، بقي إيمانه بالمؤسسة ودورها، وإمكانيتها في تكوين مجتمع الوعي؛ لذلك نجده يتحدث بصوت واضح عن تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وهو مؤسسة قلَّ نظيرها، كان لها إسهام كبير في صناعة الوعي،

1- تجربتي مع الحياة السياسية في العراق، سيرة لا ذاتية ولا متحيزة، قدم له وحققه عثمان علي، منتدى المعارف، بيروت، ط/1، 2015م (89/1)

2 - نفسه، (104/1).

3 - نفسه، (113/1).

4 - نفسه، (151/1).

ونشر إسلامية المعرفة بشكل كبير ، فقال: (فقررنا بعد المداولات أن نُنثئ مؤسسة تعمل على بلورة القضايا الفكرية الأساسية، وتنصرف لقضية الفكر لا لقضية السياسة، فكانت عندنا قناعة أن السياسة بطبيعتها تتعامل مع الممكن والواقع، وستظل مرتبطة بالواقع والممكن، أما أنا فعندي طموح أن أقارن بين عصر النبوة وعصري هذا، وأن أعرف لم حدث الهجر؟⁽¹⁾ و قال الأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان أحد رواد المعهد عن انضمامه للمجموعة: (كان انضمام الأستاذ الدكتور الشيخ طه جابر العلواني إلى فريق إسلامية المعرفة في الرياض بعد عودة مؤسسه وباذري بذرته المؤسسية في الولايات المتحدة الأمريكية بإنشاء جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين عام 1972م، التي نشأت فرعاً من فروع نشاطات اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا)⁽²⁾ وبقي هاجس ممارسة المؤسسية ظاهراً في كل حياته حتى اختاره الله، فقد كان عضواً في كثير من المؤسسات الإسلامية، منها أنه: (كان عضواً مؤسساً في رابطة العالم الإسلامي، وعضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن، وعضواً في مجمع الفقه الإسلامي الدولي في جدة، والرئيس المؤسس لمجلس الفقه الإسلامي في أمريكا الشمالية، ورئيس التحرير المؤسس لمجلة إسلامية المعرفة، والرئيس المؤسس لجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية في فيرجينيا، وشغل منصب أول أستاذ كرسي للبرنامج المشترك في الدراسات الإسلامية الذي تقدمه عشر جامعات أمريكية في منطقة واشنطن العاصمة. وغير ذلك كثير)⁽³⁾. وبقي يمارس المؤسسية من خلال المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وجامعة قرطبة إلى أن توفي.

ومن الناحية النظرية لم يألُ جهداً في بيان أهمية المؤسسية، وله بحث ضمَّنه عدداً من المفاهيم المؤسسية⁽⁴⁾

¹ - طه جابر العلواني: التحديات التي تواجه هيمنة القرآن على التراث من مقابلة حررها، محمد عزت، ومنشورة في موقع مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، بشهر سبتمبر 2020م

² - مقالة لعبد الحميد سليمان، كتبه وهو في الرياض في 15 رمضان 1428هـ / 2007/9/27م، المقال منشور في موقع أكاديمية العلواني، في أرشيف الدكتور طه، في خانة قالوا عنه.

³ - الشيخ طه جابر العلواني: عالم ومفكر فقدناه، فتحي حسن ملكاوي، إسلامية المعرفة (الفكر الإسلامي المعاصر) السنة (21) العدد (83) شتا 1437هـ / 2016م (6010) ..

⁴ - التأسيس والمؤسسية، ضمن كتاب المؤسسية في الإسلام: تاريخاً وتأسيساً، ضمن مجموعة من الأساتذة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط1، عام 1433هـ / 2012م، (15- 43)

- الإسلام شريعة المؤسسة.

لأنك أن الإسلام من أول لحظات الوحي اهتم بالمؤسسية اهتماما بالغا، وقد أشار الشيخ في أكثر من فقرة لهذه المسألة، فقال: (وأول مؤسسة عُني القرآن بإرساء دعائمها للبناء عليها وجعلها قاعدة ومنطلقاً لسواها كانت « الأسرة »، التي اعتبرها الإسلام المؤسسة القاعدة التي يقوم بناء « المجتمع والجماعة والأمة » عليها فكأنه أسس عليها لشبكة العلاقات التي تقوم هذه الكيانات - كلها - عليها، وجميع الموجهات والمؤشرات والتشريعات ذات العلاقة بالأسرة تندرج تحت مبدأ بناء المؤسسة الأم، أي: الأسرة)⁽¹⁾ ثم قال: (ولذلك فقد عني القرآن المجيد بربط شبكة العلاقات في المؤسسة الأم، وفي سائر المؤسسات القائمة عليها بمنظومة القيم التي عمل على إرساء دعائمها بمستوياتها المختلفة، فأعلاها القيم والمقاصد القرآنية العليا، وهي التوحيد والتزكية والعمران، وعليها بنيت أوصاف الإيمان، والكفر، والنفاق، والهدى، والضلال والاستقامة، والانحراف، وما إلى ذلك)⁽²⁾.

- الاجتهاد الجماعي لاستيعاب مفردات الواقع.

العنصر المؤسسي في فكر الشيخ يصاحبه في غالب اطروحاته، ومما يناقشه أن مواجهة الواقع وفقهه يتطلب جهدا جماعيا، فقال: (فالمنهجية تفترض بمنطقها الكلي تعدد المباحث وتكاملها لتشخيص الواقع الموضوعي والتعمق في فهم دلالات النص، واسترجاع الموروث بطريقة تحليلية نقدية تستنطقه من داخله، وعلى هذا النحو يأمل معهدنا (المعهد العالي للفكر الإسلامي) أن يكون قناة قادرة على ربط الجهود العلمية المتنوعة والمتعددة، والتنسيق بينها لتؤدي ثمرة جماعية تستجيب لكافة مشكلات الواقع)⁽³⁾

ثم يسترسل ويصف دور الاجتهاد الجماعي المتعدد المستند إلى النص والمعتمد المتغيرات المتنوعة في مجالات الحياة المختلفة، ويذكر أن الاجتهاد الجماعي كفيل بنقل الأمة من واقع الأزمة إلى واقع النهضة، وضرب مثلا بدور المعهد العالي للفكر الإسلامي الذي أثر تأثيرا إيجابيا في كثير من المجالات رغم إمكانياته المحدودة غير أنه اعتمد أسلوب الاجتهاد

¹ - نفسه، (15- 43)

² - نفسه، (15- 43)

³ - نفسه ، (185)

الجماعي، وأن هذه التجربة أوجدت قناعة و يقينا بضرورة الجماعية، وفي المقابل يحذر من الأحادية التي لم تثمر إلا تمزيق الأمة، والإسهام في تعميق الأزمة والفرقة⁽¹⁾

- نوعية المؤسسة.

يذهب إلى أن المؤسسة في الفلسفة الإسلامية تختلف عن غيرها من الفلسفات الأخرى، فهي مؤسسة قيمية أخلاقية وسطية لها غايات كبرى فقال: (والقرآن المجيد مليء بالموجهات نحو بناء المؤسسات الوسطية والأخلاقيات الأساسية لبناء ودعم واستمرار المؤسسة الأم الكبرى ألا وهي « الأمة »، وتشريعاته كلها في المأكل والمشرب والمعاملات والنكاح والجنایات وقواعد الأخلاق والسلوك، كلها انبثقت عن تلك المنطلقات لبناء المؤسسة الكبرى، وترسيخ دعائمها بالمؤسسات الصغرى والوسيطه، لتصبح الأمة في النهاية بنياناً مرصوصاً لا يُخترق ولا يتزعزع ولا يأتيه الخلل من أي جانب، فلا غرابة أن يأتي وصف المؤمنين بالبنين المرصوص لا يُخترق ولا يتزعزع ولا يأتيه الباطل من أي جانب)⁽²⁾

- شمولية المؤسسة.

والمؤسسة ركيزة إصلاح الواقع الإسلامي، وقد اعتبرها من ركائز الخروج من الأزمة فقال: (تصور مجموعة من المؤسسات الحضارية القادرة على حماية ذلك الشق الثقافي، والوسائل التربوية القادرة على تجديد الذات باستمرار)⁽³⁾ ثم قال: (فإن « الفكر المؤسسي » الذي عمل القرآن على إرساء دعائمه لم يربطه بحكومة أو بدولة، بل ربطه بـ « الأمة القطب الوسط الخيرة الشاهدة على الناس المؤمنة بالله الواحد الأحد، الأمرة بالمعروف الناهية عن المنكر »، فكل مؤسسة من المؤسسات - صغرت أو كبرت - ينبغي أن تكون جزءاً فاعلاً في منظومة « الأمة »، تؤدي دورها بتناغم وانسجام وفاعلية، انطلاقاً من شرعية الأمة ومرجعيتها التي تحدد لكل مؤسسة دورها في تحقيق أهداف الأمة وغاياتها)⁽⁴⁾

1 - نفسه ، (186)

2 - نفسه، (15- 43)

3 -خواطر في الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رسائل

إسلامية المعرفة، 1409هـ 1989م (19)

4 - التأسيس والمؤسسية، (15- 43)

ثم يجزم أن المؤسسة في الإسلام ليست جزئية أو لتنظيم شأن من الشؤون، بل هي شاملة لكل مناحي الحياة، فيقول: (من هنا نستطيع أن نلمس أن « فكرة المؤسسة » منذ بدأ نزول الوحي كانت بمثابة الروح الشائعة في الإسلام كله عقيدة وشريعة ونظم وممارسة حياتية، فما من شيء إلا ونستطيع أن نلمس هذا الجانب فيه بشكل واضح بارز من التصور والمعتقد إلى العبادة والمعاملة ونظم الحياة، وكل التشريعات المتعلقة بالفرائض العينية، والكفائية نستطيع - عند التحليل - أن نجد فيها جوانب التأسيس، فيما أن تبنى على غيرها كالإيمان والعقيدة وإما أن يبنى غيرها عليها. وفكرة (المؤسسة) ومبدؤها في الإسلام لم تأت لتنظيم شأن إداري فحسب، أو الخروج من دائرة الفردية وما يعترها، بل من أجل تنظيم الحياة كلها)⁽¹⁾.

- المؤسسة وقاية من التسلط.

في طروحاته المتعددة ينظر إلى المؤسسة نظرة إكبار، ويرى أنها عاصم من الانحراف الفردي، وأنها عقل الأمة الجمعي التي يتحقق بها العدل والحيدة فيقول: (المؤسسة والمؤسسية وقاية من النزعات الفردية والممارسات التي تفتقر إلى الحيدة والموضوعية، وأقرب إلى تحقيق الانضباط والنظام والعدالة، وقد تُحدث آثاراً جيدة في شيوع وترسيخ الروح الجماعية، والتآلف والمودة، وتقليل سلبات المشاعر)⁽²⁾ وهو رأي يؤيده من كان قبله، ويؤيده الاستقرار السياسي اليوم في العالم المتقدم الذي انتهج المؤسسة.

- فكرة المرحلية في المؤسسة.

من الأمور الجديرة بالاهتمام المرحلية، وفي المؤسسة فكرة المرحلية فكرة محورية، ومفصلية فليس ثمة مؤسسة تنبت مكتملة، وبالتالي فلا بد منها وقد نص الشيخ على ذلك فقال: (إنَّ الأمة تحتاج مؤسسات لمرحلة التكوين والبناء، وقد تكفل الله بتوفيرها لهذه الأمة، فكانت ثلاثة دعائم إلهية هي: النبيُّ الرسول، والقرآن المجيد، وحملة رسالة الإسلام الأولون. وهناك مؤسسات لتدعيم البناء وحفظه، ومنحه عوامل البقاء، ودرء عوامل الهدم عن الأمة، وهناك مؤسسات لتمكين الأمة من أداء دورها المناط بها، وتحقيق أهدافها ومقاصدها، وتوفير

¹ - نفسه، (15- 43)

² - نفسه، (15- 43)

مقومات رقيها الدائم، ونمائها، فالفكر المؤسسي الذي يضعه القرآن يُنتظر منه أن يدور في هذه⁽¹⁾

- استلهاهم المؤسسية الغربية.

ثم في موضوع آخر من كتبه يتحدث بموازنة غير منفصلة عن فكرة المؤسسية التي وصلت إليها الحضارة الغربية، أنها من الأمور الجيدة، يمكن الاستفادة منها وتحليلها ودراستها، واستلهاها في الإطار الإسلامي، لإعادة الاعتبار للأمة ودورها في إدارة شؤونها⁽²⁾ فهو لم يرفض الفكر المؤسسي الغربي، ولم يُطالب برفضه بل استلهمه واستفاد من التجارب في إقامة المؤسسات، وأسس هو ومجموعة من زملاءه مؤسسة في الغرب⁽³⁾ كان لها الأثر الفكري الكبير في العالم الإسلامي.

والبعد المؤسسي في فكر الشيخ ليس بمنكور، ولا مستغرب، فإلى جانب نظريته المقاصدية التي تشبّرها منذ نعومة أظافره ودرسها، ودّرسها وتعلمها وعلمها، وبحثها وطبقها في مسيرته السياسية والتعليمية⁽⁴⁾، فهو ابن المدرسة البغدادية التي تأسست فيها أعظم حضارات الإسلام، ونبع فيها آلاف الأعلام، وانتشرت فيها كل المذاهب الإسلامية المقبولة، وغير المقبولة⁽⁵⁾ وعلمت العالم وصنعت المعرفة، وأسهمت في تطويرها، فقد تنبه المسلمون في بغداد لنظرية التراكم المعرفي والحضاري، فترجموا المعارف اليونانية، والهندية، والفارسية، واستفادوا منها، وطوروها⁽⁶⁾ وأسسوا للحضارة الإنسانية.

1 - نفسه، (15- 43)

2 - الأزمة الفكرية المعاصرة-تشخيص ومقترحات علاج، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فريجينيا، 1409هـ 1989م (30)

3 - اقصد المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

4 - انظر: التجديد المقاصدي عند المدرسة الأثرية المعاصرة طه جابر العلواني نموذجاً، أحمد محمد بيبرس، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات سوهاج، العدد 26، 2020م (184).

5 - فالإمام أبو حنيفة أسس المذهب في العراق، والإمام مالك انتشر مذهبه في العراق، والإمام الشافعي أسس مذهبه في بغداد، والإمام أحمد تأسس مذهبه في بغداد، والجعفرية نشأت في العراق، والزيدية نشأت في العراق، والاسماعيلية نشأت في العراق، وما من فكرة انتشرت في العالم الإسلامي إلا وكان لبغداد القسط الوافر فيها، فالمدرسة البغدادية بحق مدرّس الحضارة الإسلامي الأوسع.

6 - انظر: الحضارة العربية الإسلامية، شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر العربي، دمشق، إعادة ط/1، عام 1423هـ 2002م (190)

والقول بضرورة المؤسسة رأي يقول به ويتبناه رجالات الإصلاح في العصر الحديث⁽¹⁾، ولم يكن الشيخ مبتدعا، فالمؤسسية مطلب إسلامي يؤيده الشرع، والعقل وتدعمه التجربة في التاريخ الإسلامي كله، بل أصبحت من لوازم نهضة الأمة. فكلما ضعفت المؤسسة ضعفت الأمة، وما أردّها، وأوردها موارد التخلف والهلاك إلا غياب المؤسسة وتسلب الفرد⁽²⁾ ومنطلق الشيخ في طروحاته عن المؤسسة يستند إلى النظر المقاصدي، فالمؤسسية وسيلة لتحقيق غايات إقامة الأمة، وانتقالها من دائرة التلقي إلى دائرة صناعة الحياة، وإدارتها⁽³⁾.

المبحث الثالث: تأثير الزمان والمكان

لا شك أن الزمان والمكان وعاء لتحرك الأفكار⁽⁴⁾ ولا غرابة إن اعتبرناهما التفسير الزماني والمكاني للنص الإسلامي، وكل علم من الأعلام ممن يشتغلون في الحقول المعرفية الإسلامية يفترض أن يراعي هذه المسألة مراعاة دقيقة، غير أن ملكات الناس، ونظراتهم تتفاوت في إدراكهم لأهمية المكان والزمان الذي يتحركون فيه، فمنهم المدرك الاستراتيجي، ومنهم المدرك العادي، ومنهم من يغلب المكان على الزمان، ومنهم العكس، ومنهم من يوازن موازنة دقيقة بينهما، وقد ابتكر الأصوليون قاعدة: لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان⁽⁵⁾؛ لأن تغيير الأحوال والأوضاع، والأزمان، والأماكن مما يؤثر تأثيرا كبيرا في سير الأحكام، والاجتهادات، والأفكار، فغاية الشريعة هي تحقيق العدل، ومصالح العباد في العاجل والآجل، وجمود الأحكام على زمن معين أو مكان معين يؤثر سلبا على مصالح الناس، ويؤثر على مسار

1 - انظر: المؤسسة في الإسلام: تاريخا وتأصيلا، أحمد فؤاد باشا، وآخرون، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط/1، عام 1433هـ 2012م، و المؤسسة والمؤسسات في الحضارة الإسلامية، محمد عمارة، سلسلة رسائل الإصلاح رقم (3) دار السلام، القاهرة، بدون ط، (15).

2 - انظر: إشكالية الاستبداد والفساد في التاريخ الإسلامي، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرنند - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، ط/2، عام 1433هـ 2012م، (13).

3 - انظر: التأسيس والمؤسسية (10)

4 - انظر: تغير الأحكام في الشريعة الإسلامية، إسماعيل كوكسال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/1، 1420هـ 2000م، (82)

5 - انظر: الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، محمد صديقي آل بورنو، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/4، 1416هـ 1996م (310).

العدالة⁽¹⁾، وقد أطلق المفكرون على فكرة تغير الزمان والمكان مصطلح فقه الواقع، ومعناه إدراك متطلبات الزمان والمكان، وتتبع متغيراتها، والاجتهاد على وفق ذلك التغير⁽²⁾ والمفكر الذي لا يراعي متغيرات الزمان، والمكان في طروحاته لا ثقة بفتواه، ولا برأيه الفقهي، أو الفكري، أو السياسي⁽³⁾.

وفي كثير من طروحاته يناقش الشيخ الأفكار المتعلقة بالواقع، ففي موضوع الإشادة بابن خلدون يصفه بأنه القاضي الفقيه، وعالم الاجتماع الذي تحدث عن أثر الواقع في تغير الأفكار والأخلاق سلبيًا وإيجابيًا، فتغير العمران أدى إلى ظهور ما يلائمه من الاجتهادات والأفكار⁽⁴⁾ ويمكن مناقشة طروحات الشيخ في عدد من النقاط على النحو التالي:

- الواقع في المنظور القرآني.

للشيخ قراءة شاملة لفكرة الواقع، فقد نظر إليه من زوايا متعددة، ومن أهم الزوايا المنظور القرآني فقال:

(فالواقع في المنظور القرآني يبدأ فكرة في الذهن قد تكون فكرة بسيطة يمكن إدراجها في إطار التأمل الأولي، فإذا تفاعل الذهن معها، واتضح بذلك التفاعل أبعادها انتقلت لمرحلة التصور وصارت لتلك الأفكار صورة أو صور في الذهن، وتتضح لها في هذه المرحلة (خصائص ومقومات) تميزها عن صور أو تصورات أخرى، فإذا تفاعل الذهن معها وحصلت له بها القناعة انتقلت إلى « العقل » ليطبق عليها منطقها، ويختبر بذلك سلامتها، ويطمئن إلى جدواها وفائدتها، فإذا بلغت منه هذا المبلغ انتقلت إلى القلب ليربط عليها، ويحيطها بما يثبتها فيه، فكأنها حزمة تحتاج إلى رباط يحيط بها ويحفظها من التفلت، وهنا تصبح « عقيدة » و

1 - انظر: المدخل الفقهي العام، مصطفى أحمد الزرقاء، دار القلم، دمشق، ط/2، عام 1425هـ 2004م، (941/2)

2 - انظر: فقه الواقع والتوقع وأثره في اختلاف الفتاوى والأحكام القضائية، عاشور خضراوي، رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، جامعة وهران 1، الجزائر، عام 2018م، (27).

3 - انظر: المرجع نفسه، (57)

4 - الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، دار الهادي، (174)

إيماناً يقينياً⁽¹⁾ فهو بهذا يجعل إدراك الواقع أمراً عميقاً يتطلب من الفقيه والأصولي والمفتي والقاضي أن يقلب النظر في كل مناحي الحياة.

- فهم الواقع بالتزامن مع إعادة قراءة النص.

من المسلمات المعرفية أن معرفة الواقع مقدمة طبيعية لترتب الأهداف والنتائج عليه، فالطبيب لا يمكن أن يصف الدواء أو يصف ما يحتاجه المريض إلا بعد تشخيصه تشخيصاً تاماً، والاقتصادي لا يمكن أن يقترح حلاً اقتصادياً قبل أن يعرف الواقع الذي عليه الوضع الاقتصادي السابق لمقترحه، وديننا جاء لمعالجة واقع عالمي كان ضارب الجذور في الوثنية والتخلف، مثقلاً بالأمراض، والعاهات، والشيخ ينطلق في المعالجة من هذه المسلمة، فيقول: (وإذا كنا مدعويين لإنقاذ أنفسنا ضمن شروط هذه العملية، فلا بد من أن نتجه بحوثنا إلى فهم الواقع بذات الوقت الذي تعيد فيه قراءة وفهم النص القرآني، وقراءة الواقع تعني فهم الأنساق الحضارية، والأنماط الثقافية والمناهج المعرفية ومكامن المأزق في كل منها)⁽²⁾ هنا يؤكد أن فهم الواقع هو البداية الصحيحة لتتبع وكشف "منهج القرآن المجيد في إعادة بناء الأمة"، ففقه الواقع يتناول العقيدة وأركانها، وأثرها في بناء الرؤية الكلية، ويتناول الأفكار والتصورات، ومعرفة الدواعي والدوافع والإرادات، ووسائل تقييم الفعل الانساني ومعرفة مآلاته، وآليات التغيير التي ابتكرها الإنسان؛ لأن فقه الواقع سيؤدي إلى نقلة حقيقية في كيفية صياغة أسئلتنا المتعلقة بأزمات واقعنا بشكل صحيح، الأمر الذي سيقود إلى إجابات قرآنية تسهم في حل هذه الأزمات⁽³⁾ ثم يقول: (إذن، فإن أولى البدايات لإحداث التغيير والنقلة النوعية للمجتمع وفي كل الاتجاهات إنما تبدأ بإعادة قراءة النص القرآني وفهمه ضمن مساحات الواقع المعاصر)⁽⁴⁾

وهذا التنظير الذي يزاوج بين قراءة النص وقراءة الواقع مزاجية تأثيرية ينطلق من البعد المقاصدي الذي يرى أن الواقع بشقيه الزماني والمكاني هو المساحة التي يتحرك فيها النص، ويتفاعل معها تفاعلاً قيمياً.

1 - انظر: معالم في المنهج القرآني (79).

2 - الأزمة الفكرية ومناهج التغيير الأفاق والمنطلقات، المعهد العالمي للفكر الإسلامية، ط2، 1417هـ 1996م، (39)

3- انظر: قراءة في كتاب: "معالم في المنهج القرآني" لـ طه جابر العلواني، عماد الدين عشاوي، ، [https:// islamonline.netK](https://islamonline.netK)

4 - الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، دارالهادي، (51)

خاتمة:

تتبع طروحات أصحاب الهمم العالية من الأمور المحمودة، بل والواجبة لمن أراد المعالي، والتي تبعث في الروح التوثب والتفتح والنشاط، وقد قيل مصاحبة الأجياد تزيد الجود جودا، وهذا ما حصل، فقد صحبت الشيخ في حياته العلمية والسياسية حتى وجدت نفسي في حوارى بغداد وأزقتها، وفي العراق عموما وواقعها السياسي وأحزابها القومية واليسارية والإسلامية، ومعه تحمست مع خطبه في جامعته، ومع قلمه، ونقده، وفرحت لفرحه وحننت لحزنه، ومع رحلتي معه يمكن أخرج للقارئ بعدد من الاستخلاصات أهمها:

- 1- طه جابر العلوانى سياسى وعسكرى من الطراز الأول، خاض معاركه السياسية والفكرية بشجاعة وبسالة، وطاف من أجل العراق السياسى عددا من الدول العربية، والأجنبية، وبسبب مواقفه السياسية اعتقل لمرتين، وسجن، وحكم عليه غيابيا بالإعدام.
 - 2- اعتزل السياسة في وقت مبكر من عمره ثم اتجه إلى تحقيق حلمه، وهدفه في أن يكون رجل أمة، فقد حاول تحقيق هذا الهدف بالطريق السياسى، ولكنه لم يتمكن، فاتجه للعلم، واختار بوابة الشريعة، وتحديدًا أصول الفقه، ومنه تقدم في كل المجالات، فهو بحق عالم موسوعي.
 - 3- رجل قرآنى من الصف الأول فهو مع القرآن منذُ طفولته حتى مع انشغاله بالسياسة فقد كان القرآن مصاحبا له في كل حياته، ولا يفارقه، فلما تفرغ للعلم الشرعى كان القرآن ملهمه، ولهذا ألف فيه عدد من الكتب والمقالات أخرها كتاب تفسير القرآن بالقرآن، وله نظرة أن القرآن هو نبي مقيم بين المسلمين بل بين البشرية.
 - 4- تحتل المؤسسة حيزا كبيرا في تفكيره وممارساته.
 - 5- باعتباره أصوليا ومفكرا، فإن نظريته للزمان والمكان نظرة أصولية، من حيث تأثيرهما في تنزيل الأحكام والفتاوى.
- وأخيرا،

إن دراسة مثل هذه الشخصيات ومصاحبتهما تمنح الدارس روحا محلقة، ولهذا انصح الدارسين بدراسة تراث الشيخ، وكتبه ومنهجه في كل المجالات التي طرقها، بالإضافة إلى ذلك أنصح ورثة الشيخ بجمع مقالاته ومقابلاته في موسوعة متكاملة تجمع تراثه وإتاحتها للبحث، وقد أحسن المعدون لهذا المؤتمر العلوي في تقديم هذا العلم الذي أسمع الدنيا. والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

- 1- أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، دار الشروق، القاهرة، 2005م.
- 2- الأزمة الفكرية المعاصرة-تشخيص ومقترحات علاج، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، 1409هـ 1989م.
- 3- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، دار الهادي، بيروت، ط/1، عام 1424هـ 2003م.
- 4- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير الآفاق والمنطلقات، المعهد العالمي للفكر الإسلامية، ط/2، عام 1417هـ 1996م.
- 5- أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت 538هـ) تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، عام 1419هـ 1998م.
- 6- إشكالية الاستبداد والفساد في التاريخ الإسلامي، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هيرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، ط/2، عام 1433هـ 2012م.
- 7- إشكالية التعامل مع السنة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هيرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، ط/1، عام 1435هـ 2014م.
- 8- التأسيس والمؤسسية، ضمن كتاب المؤسسية في الإسلام: تاريخاً وتأسيساً، ضمن مجموعة من الأساتذة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط/1، عام 1433هـ 2012م.
- 9- التجديد المقاصدي عند المدرسة الأزهرية المعاصرة طه جابر العلواني نموذجاً، أحمد محمد بيبرس، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات سوهاج، العدد 26، 2020م (184).
- 10- تجرّبي مع الحياة السياسية في العراق سيرة لا ذاتية ولا متحيزة، قدم له وحققه عثمان علي، منتدى المعارف، بيروت، ط/1، عام 2015م.
- 11- تغير الأحكام في الشريعة الإسلامية، إسماعيل كوكسال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/1، عام 1420هـ 2000م.
- 12- تفسير القرآن بالقرآن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط/2، عام 2022م.
- 13- الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري (ت 926هـ) تحقيق مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط/1، عام 1411هـ.
- 14- الحضارة العربية الإسلامية، شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر العربي، دمشق، إعادة ط/1، عام 1423هـ 2002م.
- 15- حوار مع القرآن: تجربة ذاتية ودعوة للتدبر، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط/1، عام 1435هـ 2014م.

- 16- خواطر في الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رسائل إسلامية المعرفة، عام 1409هـ 1989م.
- 17- الشيخ طه جابر العلواني: عالم ومفكر فقدناه، فتحي حسن ملكاوي، إسلامية المعرفة (الفكر الإسلامي المعاصر) السنة (21) العدد (83) شتا 1437هـ 2016م (6010).
- 18- طه جابر العلواني: التحديات التي تواجه هيمنة القرآن على التراث مقابلته حررها، محمد عزت، بشهر سبتمبر 2020م، ومنشورة في موقع مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.
- 19- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ)، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بدون ط.
- 20- فقه الواقع والتوقع وأثره في اختلاف الفتاوى والأحكام القضائية، عاشور خضراوي، رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، جامعة وهران 1، الجزائر، عام 2018م.
- 21- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت 1385هـ) دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط: 17، عام 1412هـ.
- 22- قراءة في كتاب: "معالم في المنهج القرآني" لـ طه جابر العلواني انظر: ، عماد الدين عثماوي <https://islamonline.netK>.
- 23- قواطع الأدلة في الأصول، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (ت 489هـ) تحقيق محمد حسن، اسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، عام 1418هـ 1999م.
- 24- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت 1094هـ)، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون ط.
- 25- مُحَدِّدَاتُ العلاقة بين السُنَّة النبويَّة الصحيحة والقرآن الكريم -دراسة تقويمية، عبد الرزاق رجب، سعيد بواعنة، مجلة كلية الشريعة والقانون بتفهننا الأشراف الدقهلية، مصر المجلد 19، العدد 3، عام 2017م، (1508-1463).
- 26- المدخل الفقهي العام، مصطفى أحمد الزرقاء، دار القلم، دمشق، ط: 2، عام 1425هـ 2004م.
- 27- معالم في المنهج القرآني، دار السلام، القاهرة، ط: 1، عام 1431هـ 2010م.
- 28- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد ابن فارس القزويني الرازي (ت 395هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام 1399هـ 1979م.
- 29- المقاصد القرآنية العليا ودورها في بناء العمران الإسلامي عند الدكتور طه جابر العلواني مفهوم الأمة نموذجاً، عماد الدين عثماوي، مركز نما للبحوث والدراسات، بيروت، بدون ط.

- 30- الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني (ت 548هـ) تحقيق أحمد فهري محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/2 عام 1413هـ 1992م.
- 31- منهج النظر المقاصدي ودوره في بناء نظرية سياسية إسلامية، الطيب بن حرز الله، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم الإسلامية، جامعة باتنة 1، جمهورية الجزائر، عام 1438هـ 2017م.
- 32- مؤسسة الاجتهاد ووظيفة السلطة التشريعية، إسماعيل حسن حفيان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندين، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط/1، عام 1436هـ 2015م
- 33- المؤسسة في الإسلام: تاريخاً وتأصيلاً، أحمد فؤاد باشا، وآخرون، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط/1، عام 1433هـ 2012م.
- 34- المؤسسة والمؤسسات في الحضارة الإسلامية، محمد عمارة، سلسلة رسائل الإصلاح رقم(3) دار السلام، القاهرة، بدون ط.ت.
- 35- موسوعة العشائر العراقية، ثامر عبد الحسن العامري، مكتبة الصفا والمروة، لندن، بدون ط.ت.
- 36- نحو التجديد والاجتهاد مرجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، دار تنوير، مصر، ط:1، 1429هـ 2009م.
- 37- النظر المقاصدي رؤية تنزيلية، محمد بن محمد رفيع، دار السلام، القاهرة، ط/1، عام 1431هـ 2010م.
- 38- النظر المقاصدي في فهم الحديث النبوي ونقده: دراسة تأصيلية تطبيقية، عمار أحمد الحريري، التجديد، المجلد السادس عشر، العدد الحادي والثلاثون. 1432هـ 2012م ، (197-235).
- 39- هذا القرآن، عبد الحي العمراني، مطابع فضالة، المغرب، بدون ط، عام 1404هـ 1984م.
- 40- الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية محمد صديقي آل بورنو ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/4، عام 1416هـ 1996م.

"تجديد علم أصول الفقه في فكر الدكتور طه جابر العلواني: الدواعي والآفاق"

د. محمد لخضر

أستاذ عرضي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة مولاي إسماعيل - مكناس

ملخص:

لم يغب عن الفكر الأصولي -في معظم المراحل التاريخية- رصد حاجات علم أصول الفقه، وما وقع فيه من مآزق، ومحاولة تجاوز إشكالاته، وتذليل صعوباته، ومواصلة السير بمباحثه في مضمار التجديد.

وقد تميز العصر الحديث بدعوات لا حصر لها لتجديد هذا الفن، والتفاعل مع حاجاته، ومعالجة إشكالاته، الشيء الذي جعل العلماء يصفون هذا العصر: بعصر النهضة. ويعتبر الدكتور طه جابر العلواني أحد رواده، وجهوده ليست خافية على أهل الشأن.

ومن ثم، فإن هذا البحث يسعى للوقوف على المشروع الإصلاحية لهذا العالم العلم، وبيان أهميته، وحاجة "الفكر الإسلامي المعاصر" للاستفادة من مداخله في تجديد علم أصول الفقه؛ والاهتداء من خلالها إلى آفاق الاستثمار والتفعيل في الواقع؛ استكمالاً للجهود، وسعياً لبلوغ التجديد الأصولي المنشود.

وقد أفضى البحث إلى جملة من الخلاصات التي يمكن الاستفادة منها في معالجة إشكالات علم أصول الفقه، وذلك من خلال مداخل ثلاثة، هي: المدخل المنهجي، والمدخل المعرفي، والمدخل التربوي.

الكلمات المفتاحية: التجديد الأصولي - طه جابر العلواني -أصول الفقه -دواعي التجديد -آفاق التجديد.

"Renewal of the Science of Usul al-Fiqh in the Thought of Dr. Taha Jabir Al-Owaini: Reasons and Perspectives".

Abstract :

Fundamentalist thought - in most historical stages - did not lose sight of monitoring the needs of the science of jurisprudence, and the dilemmas that occurred in it, and trying to overcome its problems, overcome its difficulties, and continue moving its investigations into the field of innovation.

The modern era was characterized by countless calls to renew this art, interact with its needs, and address its problems, which led scholars to describe this era: the Renaissance. Dr. Taha Jaber Al-Alwani is considered one of its pioneers, and his efforts are not hidden from those concerned.

Hence, this research seeks to identify the reform project of this scholar, explain its importance, and the need for "contemporary Islamic thought" to benefit from its approaches in renewing the science of jurisprudence. Through it, guidance is given to the prospects for investment and activation in reality. In continuation of the efforts, and in an effort to achieve the desired fundamental renewal.

The research has led to a number of conclusions that can be used to address the problems of the science of jurisprudence, through three approaches : the methodological approach, the cognitive approach, and the educational approach.

Keywords: Fundamentalist renewal - Taha Jaber Al-Alwani - Principles of jurisprudence - Reasons for renewal - Prospects for renewal.

مقدمة:

لا يخطئ الباحث في "الفكر الإسلامي الحديث" ولعاً بجهود المفكرين في تجديد "علم أصول الفقه" تنظيراً وتنزيلاً؛ من خلال جهود فردية، وأخرى جماعية -توافقت في مجملها من

حيث الأهداف، والغايات، واختلفت من حيث أبعاد التجديد ومجالاته؛ تسعى إلى اقتراح حلول مناسبة لتجاوز مآزق هذا الفن وإشكالاته، والإسهام في الدفع به لأداء وظائفه المنوطة به في مسيرة المستجدات، والتفاعل مع المتغيرات.

ويعد الدكتور طه جابر العلواني أحد الأعلام الذين تميزوا بتقديم إضافات نوعية في هذا المجال؛ إذ ألفيناه يدعو إلى إعادة النظر في منهج "علم أصول الفقه"، واقترح في هذا الشأن جملة من الحلول المنهجية والمعرفية الكفيلة بإعادة هذا الفن إلى وضعه الصحيح بين العلوم، وتحويله إلى منهج بحث في الأدلة الشرعية يساعد في استنباط الأحكام للقضايا المعاصرة، ويكون منهجاً للبحث والمعرفة؛ يسهم في معالجة المشاكل المنهجية التي تعاني منها مختلف العلوم سواء الشرعية، أو الاجتماعية¹.

ومن ثم فإن هذا البحث يروم إلقاء الضوء على جهود هذا المفكر الإسلامي في تجديد علم "أصول الفقه"؛ وبيان أهميتها، وحاجة "الفكر الإسلامي المعاصر" للاستفادة من مداخلها؛ بما يساعد على الاهتداء إلى آفاق استثمارها وتفعيلها؛ استكمالاً للجهود، وسعيًا لبلوغ التجديد المنشود.

أولاً: إشكال البحث: يسعى هذا البحث للإجابة عن إشكال عام وأسئلة فرعية:

الإشكال العام:

كيف يمكن الاستفادة من فكر الدكتور طه جابر العلواني في تجديد علم أصول الفقه؟
الأسئلة الفرعية: تفرع عن هذا الإشكال أسئلة أطرت البحث، تم تحديدها في الآتي:

- أ. ما دواعي تجديد علم أصول الفقه في فكر الدكتور طه جابر العلواني؟
 - ب. ما المداخل المنهجية والمعرفية لتجديد علم أصول الفقه في فكر الدكتور طه جابر العلواني؟
 - ج. ما آفاق تجديد علم أصول الفقه انطلاقاً من فكر الدكتور طه جابر العلواني؟
- ثانياً: أهداف البحث: يضطلع البحث باستيفاء الأهداف الآتية:
- أ. رصد الدواعي العامة والخاصة لتجديد علم أصول الفقه عند الدكتور طه جابر العلواني.

¹ ينظر مقدمة الطبعة الثانية من كتاب "أصول الفقه منهج بحث ومعرفة": د. العلواني (ص: 9).

ب. تجلية المداخل المنهجية والمعرفية لتجديد علم أصول الفقه في فكر الدكتور طه جابر العلواني.

ج. استجلاء آفاق تجديد علم أصول الفقه في فكر الدكتور طه جابر العلواني.
ثالثاً: هيكلية البحث: يقتضي تناول موضوعات هذا البحث؛ تقسيمه إلى مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وفق مايلي:

المبحث الأول: دواعي تجديد علم أصول الفقه في فكر د.طه العلواني.

المطلب الأول: الدواعي العامة لتجديد علم أصول الفقه في فكر الدكتور طه جابر العلواني

قضى الله سبحانه وتعالى أن تكون شريعة الإسلام متسمة؛ بالخلود، والشمول، والصلاحية لكل زمان ومكان؛ تلکم الخصائص التي تسترشد بنور الوحي الرباني، وتُقَوِّم بالتجديد المستمر لعلاقة العقل بمصادر المعرفة الإسلامية، في ضوء القواعد المساعدة على مواكبة متغيرات الواقع، ومسايرة مستجدات الحياة.

ولا نجانب الصواب إذا قلنا منذ البداية: إن التجديد مقوم أساس للحفاظ على خصائص الشريعة الإسلامية؛ إذ ليس يخفى أن النبي ﷺ أكد على أن: "الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"¹، فربط ﷺ إقامة الدين في الأمة بوجود عملية التجديد التي يتصدى لها العلماء الراسخون المصلحون، وبين أهم معالمها في قوله ﷺ: "يحمل هَذَا الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عَدُولَهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ"².

ومن ثم فشريعة الإسلام تستمر وتدوم بجهود العلماء الربانيين الذين ينفون عن الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ويسترشدون بأنوار الوحي في استنباط الأحكام الشرعية لما يستجد في حياة الناس من نوازل.

¹ حديث صحيح، ينظر: سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، رقم الحديث: 4291، (109/4).

² حديث صحيح، ينظر: السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الشهادات، باب الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث، رقم الحديث: 20911، (353/10).

وما أجمل كلام العلامة طه جابر العلواني في هذا السياق، يقول: "لم تعد رسالة الإسلام في حاجة لنبي جديد ولا إلى وحي منزل، بل هي في حاجة إلى علماء ربانيين ومجتهدين قادرين على حماية وعمها، يجددون لها فهم دينها، وينزلون آيات ربها على واقعها، أو ينزلون الواقع على قيم الوحي مهما كانت متغيراته التاريخية والاجتماعية، ويصوبون فهمها له بما ينفونه عن حقيقة الدين من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويلات الجاهلين في كل عصر ومصر، ويعرفون كيف يربطون الناس بالكتاب الكريم، وبالسنة النبوية المطهرة..."¹.

فكيف يحافظ التجديد على خصائص الشريعة الإسلامية، في نظر العلامة طه جابر العلواني؟

تنطلق عملية التجديد في فكر العلامة طه جابر العلواني من مدخلين أساسيين:

المدخل الأول: تقويم الفكر الإسلامي وإصلاحه.

ينطلق الدكتور طه جابر العلواني في تقويم الفكر الإسلامي من رصد واقع الأمة في تعاملها مع مصادر المعرفة الإسلامية؛ خاصة وأن "الفكر البشري هو ثمرة لتعامل المحدود (العقل) مع المطلق (الوحي)، وتنزيله على الواقع، وتقويم الواقع به بصياغة ملائمة، وحلول مناسبة، وأبنية عقلية ومعرفية سليمة"².

وليس يختلف النقاد والباحثون على أن واقع الأمة واقع مأزوم؛ -وبتعبير الدكتور العلواني- "بلغت أزمته حد الاستفحال منذ وقت غير قصير"³، ومن هنا جعل يصف الواقع الراهن بقوله: "إن جدار التخلف أصبح سميكاً، والاستلاب الحضاري أصبح متحكماً إلى حد بعيد، إلى درجة يمكن معها أن نقول: إن الكثير من جوانب العلوم والمعارف اليوم غادرت منطلقاتها الإسلامية، وتخلت عن أهدافها، وأصبحت خارج السياق الإسلامي"⁴.

وقد رصد الدكتور العلواني الأزمة الفكرية في الواقع بتفصيل، وأرجعها إلى: مشكلات بيئية تهدد الأرض والكون، وتفاقم الأزمات الاجتماعية، وكثرة الحديث عن نهاية العالم،

¹ نحو التجديد والاجتهاد: مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية؛ د. طه جابر العلواني (ص: 54)

² إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات؛ د. طه جابر العلواني (ص: 15-16)

³ الأزمة الفكرية ومناهج التغيير: المنطلقات والآفاق؛ د. طه جابر العلواني (ص: 5)

⁴ إصلاح الفكر الإسلامي؛ د. طه جابر العلواني (ص: 6)

وأشراط الساعة، والمشكلات والأمراض التي تحيط بالنظام التعليمي والتي أعيت الخبراء والمفكرين¹.

ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى إصلاح الفكر الإسلامي، ومعالجة مظاهر الخلل فيه، أكثر من أي وقت مضى، يقول الدكتور العلواني: "إن حاجة هذه الأمة إلى الإصلاح الفكري، والحضور الثقافي، والشهود الحضاري؛ أشد من حاجتها إلى الغذاء والهواء"².

ومن بين مداخل الإصلاح التي يقترحها في هذا الصدد إعادة تشكيل العقل الفقهي وفق الخصائص العامة للإسلام، وهي:

- 1- عالمية الإسلام وعموم رسالته وشمولها لجميع مناحي الحياة.
- 2- حاكمية وهيمنة كتاب الله على ما عداه، باعتباره المصدر الأول لإنشاء الأحكام، ولبناء تصورات المسلم وأفكاره، ومواقفه، ومنطلقاته.
- 3- شريعة تراعي التخفيف والرحمة بالمكلفين.
- 4- نبوة خاتمة تشمل على الهدى كله، ولم تعد البشرية بعدها في حاجة إلى وحي ينزل ولا إلى نبي يرسل، بل إلى تلاوة، وتدبر، وفهم ينفي عن الرسالة الخاتمة؛ تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويلات الجاهلين.
- 5- أمة مخرجة للناس نموذجاً ومثالاً، قادرة على استقطاب البشرية كلها نحو الهدى لتصبح أمة قاطبة³.

المدخل الثاني: إسلامية المعرفة.

إن ما يعرفه العالم اليوم من تطور علمي وتكنولوجي جعل بعض العلماء يدعون إلى إعادة النظر في أبعاد مختلفة من علم الأصول؛ والاستفادة من مستجدات العلوم في فقه التنزيل، وفهم الواقع، وإدراك المآلات، ومنها: "أن علوماً جديدة ظهرت؛ وينبغي إدخالها في العلوم التي يتكون منها علم أصول الفقه ويعمل بها داخله؛ ومنها: علم الاجتماع، والطببيات، وما كان مثلها في إرشاد الفقيه المجتهد إلى إدراك الصواب في تصور موضوع الاجتهاد؛ تصوراً تاماً، وإدراك ما يخفى منه عن ذوي النظر المجرد من الاسترشاد بتلك العلوم"⁴.

¹ الأزمة الفكرية ومناهج التغيير: المنطلقات والأفاق؛ د. طه جابر العلواني (ص: 13-19)

² إصلاح الفكر الإسلامي؛ د. طه جابر العلواني (ص: 2)

³ مقاصد الشريعة؛ د. طه جابر العلواني (ص: 22)

⁴ تجديد علم أصول الفقه: للسريري (ص: 66).

وإذا كان هذا هو الظاهر من التطور العلمي والتكنولوجي، فإن المتأمل في الحقائق يجد أن ثمة أزمتا كبرى يعاني منها الفكر العالمي، بل صارت تلك الأزمتا تشكل خطراً على الإنسانية جمعاء، ومنها: التحيز، وفصل العلم عن الأخلاق والقيم. ومن هنا ألفتنا العلامة طه جابر العلواني يدعو إلى: "إعادة الربط بين المعرفة والعلوم والقيم، أو بعبارة أدق؛ استرجاع العلم إلى دائرة القيم، بعد أن استلبته الوضعية المنطقية، وثبت خطأ وخطورة هذا الفصام بين المعرفة والعلوم والقيم على البشرية"¹.

والمدخل الذي يقترحه العلامة طه جابر العلواني لمعالجة هذه الأزمة، لا يتعلق بإصلاح الفكر الإسلامي فحسب، بل يتعداه إلى إعادة تشكيل العقل المعاصر بشكل عام؛ يقول: "إن عالمية الأزمة تتطلب عالمية الحل، وليكون الحل الإسلامي على مستوى خطاب عالمي فإن مدخله الأساس هو "المنهجية المعرفية" القائمة على القرآن المجيد. فهي وحدها القادرة على إعادة تشكيل العقل المعاصر، وبناء مدركاته بناء سليماً"².

إن "المنهجية المعرفية" في نظر العلامة طه جابر العلواني؛ تقتضي تقعيد ضوابط للفكر الإنساني؛ تساعد في إخراج العقل الإنساني من حالة التوليد الذاتي للمفاهيم من خلال التأملات والخواطر، وتحمله على اكتشاف إطار مرجعي صالح لأن يقوم بتحديد طرق إنتاج الأفكار وتوليدها واختبارها، ونظم المفاهيم، والنظريات، وقوانين العلوم، في ضوء هذه القواعد المنهجية؛ فيتم بذلك قراءة الوحي والكون بمنهجية واحدة، وانطلاقاً من إطار مرجعي ثابت، وهو ما سماه "بالجمع بين القراءتين"³ في إسلامية المعرفة.

ولما كان علم أصول الفقه أحد أهم العلوم المنهجية التي تختص بتقعيد القواعد التي تيسر للعلماء سبل تحقيق الاتصال بين العقل والنقل، كان هذا الفن أحق الفنون باستثمار هذه المداخل التجديدية قصد استرجاع مكانته الطبيعية؛ باعتباره منهلاً لبقية العلوم، ومرجعاً يحتكم إليه عند اختلاف الفهوم.

تلكم إذا أهم الدواعي العامة لتجديد علم أصول الفقه، فما الدواعي الخاصة التي تستوجب تجديده في نظر العلامة طه جابر العلواني؟

¹ إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم (ص: 31)

² ابن تيمية وإسلامية المعرفة (ص: 63)

³ ابن تيمية وإسلامية المعرفة (ص: 63)

المطلب الثاني: الدواعي الخاصة لتجديد علم أصول الفقه في فكر الدكتور طه جابر العلوانى.

يتفق الأصوليون¹ على أن كتب الأصول تتضمن أموراً توجب التجديد؛ منها ما ظل عالقاً في المباحث الأصولية منذ القديم، ومنها ما ظهر في العصور المتأخرة بفضل مجموعة من العوامل المؤثرة.

لقد تصدى المتأخرون لرصد إشكالات هذا العلم، وبيان أوجه اختلاله؛ فنجد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني (ت: 1186هـ) من أوائل الذين كشفوا عن هذه الإشكالات، في كتابه الماتع: "مزالق الأصوليين وبيان القدر المحتاج إليه من علم الأصول"؛ والذي أبان فيه مختلف جوانب الاختلال في مباحث هذا العلم؛ المنهجية منها، والموضوعية.

كما يعد الشيخ أحمد الوزير (ت: 1376هـ) من أبرز المجددين في العصر الحديث، وكتابه "المصفى في أصول الفقه"؛ من أنفس الكتب التي اعتنت بمجال التجديد الأصولي: تنظيراً، وتفعيلاً؛ إذ وضع من خلاله اليد على الجرح، ونجح في تجاوز كثير من الاختلالات التي رصدها في هذا الصدد؛ مفصلاً الكلام في ستة دوائر على هذا الفن؛ وهي: المنطق، وعلم الكلام، والفروع، والتدقيق الفلسفي، والتخريج، ومسائل الفضول.

وتبعه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ) الذي دعا في كتابه: "أليس الصبح بقريب؟" إلى تجديد العلوم الشرعية، والعربية؛ من حيث البحث والتدريس، مركزاً على "أصول الفقه"²، هذا بالإضافة إلى التجديد الذي أدخله صراحة على هذا العلم؛ من خلال كتاب "مقاصد الشريعة الإسلامية".

وعلى هذا المهبى؛ انطلق العلامة طه جابر العلوانى من توجيه النقد لمظاهر الخلل في علم الأصول، واقتراح الحلول المناسبة لتجاوزها، ويمكن إجمال أهم الإشكالات الأصولية التي رصدها -والتي تستدعي التجديد-؛ في الآتي:

أ- ابتعاد علم أصول الفقه عن وظيفته المنهجية:

¹ من المتقدمين: الإمام الجويني، وابن حزم، والغزالي، والرازي، والأمدى، وصولاً إلى الشاطبي، والزرکشي. ومن المتأخرين: الشوكاني، والوزير اليميني، وصولاً إلى ابن عاشور، وانتهاء بأصحاب الدعوات التجديدية في الوقت المعاصر.

² ينظر تفاصيلها في كتاب: أليس الصبح بقريب؟ لابن عاشور (ص: 177).

تميز علم أصول الفقه منذ تأسيسه بمعالم منهجية بارزة؛ أسهمت في ضبط الدرس الأصولي؛ وتحديد مكوناته، ووظائفه، وطرق البحث فيه، ومسالك تطويره وتجديده، وقد استفادت من هذه المعالم المنهجية مختلف العلوم الشرعية، فصار هذا العلم قائداً وضابطاً للعلوم الإسلامية الأخرى، وموجهاً لمنهجية التفكير الإسلامي بشكل عام، ومؤسساً لكل ممارسة تشريعية، أو قضائية؛ للمجتمعات الإسلامية.

غير أن العلماء لاحظوا منذ فترة ليست بالقصيرة تراجع علم الأصول عن أدواره الفعالة في البناء الفكري والحضاري، وانحصار دوره الريادي بين العلوم الشرعية؛ وقد ألقى العلامة طه جابر العلواني يؤكد ذلك، ويعزوه إلى بعض الأسباب التاريخية، يقول: "هناك عوامل في تاريخنا... قد فرضت علينا مخاوف أدت إلى وضع كثير من القيود؛ نجم عنها تحول العقلية الإسلامية، والتوجه الفكري فيها نحو الأمور الجزئية، والابتعاد عن التفكير الشمولي الذي يعتبر طابعاً مميزاً للتفكير الإسلامي، وكان لذلك أثره البالغ في حلولنا ومعالجاتنا الفقهية، حيث وسمت بهذه السمة، وأخذت هذا الطابع"¹.

إن التدبر في هذه العوامل التي أدت إلى انحصار الدور الريادي لعلم أصول الفقه، وتراجع عن ذلك المنهج الكلي الشمولي الذي يستوعب كل مكونات الأمة؛ يجعلنا نقف أمام عوامل عامة، وخاصة:

أما العوامل العامة التي أسهمت في تراجع علم أصول الفقه عن أدواره المنهجية الشمولية؛ فمنها القديم والحديث:

لقد بدأت الإرهاصات التاريخية لتراجع علم أصول الفقه في القديم؛ "مع انفصام القيادتين السياسية والفكرية، الأمر الذي أدى بدوره إلى تتابع ذلك المسلسل من الانحرافات الفكرية، والانقسامات السياسية..."²

أما في العصر الحديث؛ فقد سخرت القوى الاستعمارية كل الوسائل للقضاء على مفهوم الأمة، وبث الصراع بين المسلمين من خلال إشعال فتيل النعرات القبلية والعرقية، وهو الحال الذي يصفه الدكتور العلواني بقوله: "وها نحن اليوم في هذه المرحلة لم يبق لنا من مفهوم رصيد الأمة سوى مشاعر وأحاسيس متناثرة محدودة بأننا عرب وبأننا مسلمون، ثم

¹ أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة: (ص: 79)

² إصلاح الفكر الإسلامي (ص: 27)

نذهب في تفسير كل من العروبة والإسلام مذاهب شتى نصطرح حولها لزيد في تفتيت مكوناتنا الاجتماعية، وتمزيق أوصالنا¹.

وأما العوامل الخاصة التي أسهمت في تراجع علم أصول الفقه عن تلکم الأدوار المنهجية الشمولية: فيؤكد الدكتور طه جابر العلواني في شأنها أنه: "لا بد من إدراك أن من غير الممكن أو الميسور في عصرنا هذا وجود المجتهد المطلق"².

وعليه؛ فإنه من المهم الوعي بتعذر وجود مجتهد مطلق؛ وذلك نظرا لاتساع بلاد المسلمين، واختلاف التخصصات العلمية، وكثرة النوازل، وتعدد الألسن واللغات، وتنوع الثقافات، وهو ما يصعب من استيعاب مختلف المتغيرات والمستجدات في مختلف البقاع عن طريق جهود فردية.

ب- توقف الاجتهاد، والركون إلى التقليد:

وأحسب أن هذا الإشكال ناتج عن سابقه، وهذا ما جعل المحققين يعدون توقف علم أصول الفقه عن أداء وظائفه العملية من مظاهر الخلل في هذا الفن؛ حتى إن بعضهم³؛ يصفه بالعقم عن إمداد الحياة التشريعية والعملية بما هي في حاجة إليه من حلول للمشكلات المستجدة، وافتقاده لفاعليته المعهودة في الإجابة عن النوازل، وبتعبير العلامة العلواني فقد "أتى على فقهننا حين من الدهر صار فيه أقرب إلى الجمود والعجز منه إلى الحياة"⁴.

وهذا ما أثر في ثقافة الناس، وانتشرت على الألسن بعض الأمثال التي تبين العجز الفقهي؛ يقول الدكتور طه جابر العلواني: "شاعت في ثقافتنا عبارات تحول بعضها إلى أمثال

¹ الأزمة الفكرية ومناهج التغيير (ص: 23)

² أصول الفقه منهج بحث ومعرفة (ص: 71)

³ هذه الدعوة ينطلق منها أصحاب الدعوات التجديدية المعاصرة على اختلاف في الصياغة والعبارة، ينظر على سبيل المثال: نحو منهج جديد لدراسة علم أصول الفقه: محمد الدسوقي (ص: 142)، تجديد الفكر الإسلامي: للتراي (ص: 36)، تجديد علم أصول الفقه: الواقع والمقترح، د. علي جمعة، مجلة المسلم المعاصر العدد 125/126 (ص: 44).

⁴ مقاصد الشريعة: طه جابر العلواني (ص: 15)

سائرة، وتغلغل بعضها في آدابنا، مثل: ما ترك السالف للخالف شيئاً، ونحو: ليس في الإمكان أبدع مما كان¹.

والحقيقة أن هذا الجمود والعجز الذي يظهر في الفقه وأصوله في العصور المتأخرة، إنما أثر فيه تصور الفقهاء للمجتهد المطلق، واعترافهم بالعجز عن بلوغ مرتبة الإمام مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد -في الفقه-، مثل ما أثرت المذهبية الكلامية على الأصوليين؛ فعكف المتأخرون منهم على تراث المتقدمين لا يزيدون على شرح كلامهم، وتوضيحه، واختصاره. لأجل ذلك انتشر التقليد²، وتوقفت الوظيفة الاجتهادية والتجديدية في بعض الحقب والمراحل التاريخية.

ج- عجز المناهج الأصولية المتأخرة عن إكساب الملكة الاجتهادية:

ليس يخفى ما تعاني منه المناهج التعليمية -في الأمة الإسلامية- من إكراهات أثرت في تكوين الملكات الفقهية، وتخريج فقهاء وأصوليين، وإلى ذلك أشار الشيخ محمد الخضري بقوله: "عندنا مانعان يحولان بيننا وبين تكوين فقيه: الأول: هذه الكتب التي بين أيدينا (يقصد كتب المتأخرين التي تتصف بالتعقيد في العبارة). والثاني: طرق التعليم"³.

وذلك راجع إلى جملة من الأسباب نعد منها:

أ- اعتماد مصنفات المتأخرين في التدريس الجامعي؛ مع ما تتصف به من تعقيد وغموض من حيث العبارة والأسلوب، وعدم خدمتها لتنمية الملكات؛ وذلك بالنظر إلى السمة التي تغلب عليها، حيث تجد الكتاب الواحد محشواً بالمتن، والشروحات، والحواشي، والتعليقات؛ مما يجعل الطالب أمام نصوص متعددة؛ صعبة الفهم، وربما تنفره من تعلم هذا الفن.

ب- النظرة التجزئية للعلوم الشرعية، وتأثرها بالمنهج العالمي الذي صار يوصف بعصر التخصصات، فصرنا نسمع متخصص في الأصول، ولا يفقه شيئاً في الفقه، أو

¹ إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم (ص: 31)

² يقول الإمام الشوكاني في مقدمة كتاب إرشاد الفحول وهو يتحدث عن بعض مظاهر الخلل في كتب المتأخرين: "... لا سيما في مثل هذا الفن: الذي رجح كثير من المجتهدين بالرجوع إليه إلى التقليد من حيث لا يشعرون..." إرشاد الفحول: (1/16).

³ تاريخ التشريع: للخضري، -بتصرف- (ص: 221-222).

ربما لا يتقن النحو، وغيرها من العلوم الضرورية، بينما العلوم الشرعية ينظمها نسق واحد، وتحقق التكامل بينها خدمة للنص الشرعي.

ج- تأثر المناهج التعليمية بالفكر الغربي، الذي يفكر بثقافة الاستهلاك والإنتاج، وينظر إلى الإنسان باعتباره مشروعاً منتجاً في سوق الشغل، ولا يهتم بالجوانب التربوية والأخلاقية.

وعموماً؛ فإن هذا لم يغيب عن فكر العلامة طه جابر العلواني، بل كان في صلب اهتماماته، وقد وضع اليد على الجرح في بعض كتاباته، وقد ألفيناه يصف النظام التعليمي بقوله: "أما نظام التعليم في هذه البلاد فقد أعييت الخبراء أمراضه، ومشكلاته بأنواعه المختلفة؛ حيث فقد النموذج، وانعدم فيه المثال. فالإنسان مجرد طاقة استهلاكية"¹.

د- إدخال مسائل الفضول في علم الأصول:

لقد أشار العلامة طه جابر العلواني إلى ما يلحق بهذا النوع من المسائل المحشورة في مباحث علم الأصول؛ والتي لا تفيد داخل مظانها، فكيف بخارجها؟ وذكر منها: "حكم الأشياء قبل مجيء الشرع، والتزاع في مسألة شكر المنعم، ومباحث حاكمية الشرع، والعناية الزائدة بالحدود والتعريفات والانشغال بمناقشتها، ونزاعهم في مسائل القراءات الشاذة، وعربية جميع القرآن"².

وهكذا؛ فإن العلوم التي أدرجت بعض مباحثها عفي لم أصول الفقه كثيرة؛ منها: المنطق، والجدل، وعلم النحو، وعلم الكلام، وهي في الحقيقة لا تفيد في علم الأصول، ولا تعين في استنباط الفقه، ومن ثم كان وجودها من باب الفضول، لأجل ذلك يُرجع المحققون سبب هذا الاستطراد إلى أمرين اثنين: الأول: أن قصد الأصوليين من ذلك هو: "أن يوفرُوا للمجتهد كل ما يحتاجه من آلات؛ مما أدى إلى اختلاط الأصول بالمنطق، واللغة، والنحو، والكلام"³. والثاني: غلبة هذه العلوم على أصحابها؛ فتجدهم يستطردون فيها داخل المباحث الأصولية من باب الفضول.

¹ الأزمة الفكرية ومناهج التغيير (ص: 17)

² أصول الفقه منهج بحث ومعرفة (ص: 80)

³ أليس الصحيح بقريب؟: لابن عاشور، (ص: 177).

والحق الحذاق بذلك بعض القضايا الأخرى، من قبيل اختلافهم في هذا العلم هل يحد، أم يرسم؟ بل منهم من قال لا يحد ولا يرسم¹؟، وقالوا المراد بالعلم: "الاعتقاد الجازم المطابق، ولا سبيل مع هذا إلى الظن في الأصول"²، وكذا اشتغالهم "بالكلام النفسي، وما يترتب عليه في الفروع"³، "وهل يقر النبي ﷺ على الخطأ أم لا؟"⁴، ومسألة: "هل كان النبي ﷺ متعبداً بشرع قبل النبوة؟ ومسألة أقل الجمع، ومسألة التكليف بالمحال"⁵، إلى غير ذلك من المسائل التي لا ثمرة فيها، والتي توصف بأنها: "طويلة الذيل، قليلة النيل"⁶.

يقول الإمام الشوكاني: "وكثيراً ما يقع ذلك في أصول الفقه؛ فإنه قد اختلط فيها المعروف بالمنكر، والصحيح بالفساد، والجيد بالردىء، فربما يتكلم أهل هذا العلم على مسائل من الرأي ويحررونها، ويقررونها، وليست منه في شيء، ولا تعلق لها به بوجه...ولذلك

¹ وهذا ما انتقده أبو بكر بن العربي في كتاب: "العواصم من القواصم"؛ يقول: "وأنت ترى، ما انتهى الفضول بعلمائنا في تعرضهم لحد العلم، أن بلغ القول فيه مع الخصوم: إلى عشرين عبارة ليس منها حرف يصح، وإنما هي خيالات، والعلم لا يقتنص بشبكة الحد، وإذا لم يعلم العلم، فماذا يطلب، أو إلى أي شيء وراءه يتطلع؟ وإنما أنشأ هذا حثالة المعتزلة، وكلهم حثالة، لإضمارهم الإلحاد، قصد إيقاع التشكيك والإلباس على الخلق في الحقائق، ليتذرعوا بهذه الطريقة إلى مقصدهم الفاسد، وجعلوا يفيضون في الاعتقاد والعلم حتى أنشأوا كلاماً يملأ الفضاء، حقه أن يقابل بالإعراض"، العواصم من القواصم: لابن العربي، (ص: 29).

² الخلاف في هذه القضية راجع إلى عدم تحرير محل النزاع، فالقائلون بأن "أصول الفقه" قطعية لا تحتل الظنيات يقصدون بذلك أصول الأدلة والقواعد الكلية للشريعة، فهذه الأصول لا يخالف أحد في قطعيتها، وأما القائلون بأن أصول الفقه تشتمل على كثير من الظنيات، فإنما يتكلمون عن "علم أصول الفقه"؛ الذي أدرجت فيه كثير من الظنيات، ودليل ظنيتها، كثرة الخلاف فيها، وهو ما سعى الشاطبي إلى إقصائه من "أصول الفقه"، وافتتح كتابه بالتأكيد على أن أصول الفقه قطعية لا ظنية. ينظر تفاصيل هذه القضية في كتاب: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: للريسوني (ص: 152).

³ مزالق الأصوليين: الصنعاني (ص: 74).

⁴ المصدر نفسه (ص: 75).

⁵ أليس الصبح بقريب؟ لابن عاشور، (ص: 177).

⁶ مزالق الأصوليين: الصنعاني (ص: 24).

قال المتأخرون¹: كل مسألة تذكر في أصول الفقه؛ ولا ينبغي عليها فروع فقهية، أو آداب شرعية، أو لا تكون عوناً في ذلك؛ فهي غير داخلية في أصول الفقه².

فلا ريب أن لهذه الإشكالات المنهجية أثراً كبيراً في تعقيد مادة علم الأصول، وإغلاق مباحثه، وهي من الأسباب الرئيسية في ابتعاد هذا العلم عن وظائف، وضمور ملكاته لدى الطلبة والباحثين.

هـ- حاجة بعض المباحث الأصولية إلى مزيد عناية وتجديد.

إن المتدبر في فكر العلامة طه جابر العلواني يجده يؤكد على حاجة بعض المباحث الأصولية إلى التجديد المستمر، نذكر منها ثلاثة مباحث كبرى، وهي: مباحث السنة النبوية، ومباحث المقاصد، ومباحث فقه الواقع والأولويات، وسيأتي الحديث عنها بتفصيل في المبحث الآتي.

المبحث الثاني: آفاق تجديد علم أصول الفقه في فكر الدكتور طه جابر العلواني.

نحى الدكتور طه جابر العلواني في دعوته التجديدية لعلم أصول الفقه، منحى جامعاً يرمي إلى معالجة إشكالية المنهج في علم الأصول، ويهتم بالإشكالات المعرفية التي ينبغي الالتفات إليها، لتجديد الدرس الأصولي وإعادته لأداء وظائفه المنوطة به، في التفاعل مع متغيرات الواقع. وهكذا ألفيناه يقترح لهذا الغرض مدخلين اثنين:

أولاً: المدخل المنهجي، و آفاقه التجديدية في الدرس الأصولي.

يدعو الدكتور طه جابر العلواني في هذا الصدد إلى إعادة النظر في منهج علم أصول الفقه، وتطويره ليكون منهجاً للبحث والمعرفة، وليسهم في معالجة المشاكل المنهجية التي تعاني منها مختلف العلوم سواء الشرعية، أو الاجتماعية، ويرى أن قراءة "أصول الفقه بقراءة

¹ والإمام الشوكاني يقصد تحديداً الإمام الشاطبي الذي قال: "كل مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبغي عليها فروع فقهية، أو آداب شرعية، أو لا تكون عوناً في ذلك؛ فوضعها في أصول الفقه عارية".

الموافقات: ت: مشهور آل سلمان (ج1/ص:37)

² أدب الطلب ومنتهى الأرب: للشوكاني، (ص:119).

إسلامية واعية، مستلهمة توجهات منهجية القرآن المعرفية؛ يستطيع أن يقدم مؤشرات هامة على طريق معالجة إشكالية المنهج¹.

من أجل ذلك يقترح الدكتور طه جابر العلواني جملة من الحلول المنهجية الكفيلة بإعادة علم الأصول إلى وضعه الصحيح بين العلوم، وتحويله إلى منهج بحث في الأدلة الشرعية؛ يساعد في استنباط الأحكام، والتفاعل مع قضايا العصر؛ ويمكن إجمال مقترحاته في الآتي:

- 1- تخلص علم الأصول مما لا يحتاجه الفقيه الأصولي؛ من مباحث علم الكلام ونحوها مما أسلفنا ذكره في مسائل الفضول².
- 2- دراسة أساليب التعبير لدى العرب في عصر الرسالة؛ دراسة لغوية فقهية، وملاحظة التطورات التي مرت بها هذه الأساليب ومفاهيم المفردات اللغوية؛ للتمكن من فهم النصوص الفهم المطلوب³.
- 3- ضرورة إيلاء الأدلة أو الأصول الاجتهادية؛ كالقياس، والاستحسان، والمصلحة، وغيرها؛ عناية خاصة، ودراسة تاريخية، من خلال البحث في الظروف التي أملت على المجتهدين القول بها، واستثمارها في تنمية الحس الفقهي لدى الباحثين في مجالات الفقه والأصول⁴.
- 4- لا بد من إدراك أن من غير الممكن أو الميسور في عصرنا هذا وجود المجتهد المطلق، وما دام الأمر كذلك فإن المجامع العلمية هي البديل للمجتهد المطلق⁵.
- 5- تيسير العلوم الشرعية، وتسهيل دراسة ما يحتاجه منها أولئك المتخصصون في العلوم الأخرى⁶.
- 6- التركيز على فقه الصحابة والتابعين، والقواعد التي استنبطوا منها ما استنبطوه؛ وخاصة فقه الخلفاء الراشدين، ومعاصريهم؛ من أهل الفتوى من الصحابة،

¹ ينظر مقدمة الطبعة الثانية من كتاب "أصول الفقه منهج بحث ومعرفة": د. العلواني (ص: 9).

² أصول الفقه منهج بحث ومعرفة: د. العلواني (ص: 80).

³ المرجع نفسه (ص: 80-81).

⁴ أصول الفقه منهج بحث ومعرفة: د. العلواني (ص: 81).

⁵ المرجع نفسه (ص: 81).

⁶ المرجع نفسه (ص: 81).

وكبار التابعين، لتكون هذه الدراسات بين أيدي أولئك الذين يراود منهم الاستجابة التشريعية لمطالبات مجتمع إسلامي معاصر¹.

7- الاستفادة من المنهج العلمي التجريبي في علم أصول الفقه، باعتبار النفع الذي سيتحصل من ذلك، والذي سيمتد إلى جميع العلوم الإسلامية، وقد نقل الشيخ علي جمعه كلاماً للدكتور العلواني في هذا الصدد، يقول: "لو توصلنا إلى هذا؛ وأوجدنا نوعاً من التكامل بين المنهج الأصولي في مجال الوحي، والمنهج العلمي التجريبي؛ فربما يؤدي هذا إلى إصلاح، وتغطية المساحات الخالية؛ بما لم تتعرض منه العلوم الإنسانية، والاجتماعية، وإلى إصلاح قضيتنا الفقهية التي نعاني منها"².

8- الاستفادة من مناهج البحث الاجتماعي؛ (مثل: الاستبيانات) لتطوير "فقه الواقع"، وهو الفقه الذي يستفيد من الدراسات الاجتماعية، والنفسية؛ من أجل معرفة أفضل بالمحكوم عليه، وحسن تنزيل الأحكام على الوقائع. كما يدعو إلى الاستفادة من أدوات المنهج التجريبي، في بعض المساحات الفارغة ضمن المباحث الأصولية، يقول: "لذلك فإنني أعتقد أن استخدام هذا المنهج، وتطويره؛ لن يخدم العلوم الإنسانية، والاجتماعية وحدها، ولكن الفائدة متبادلة"³.

وعلى هذا يمكن القول: إن المنهج الذي يقترح الدكتور طه جابر العلواني في تجديد علم أصول الفقه يركز على ثلاثة محاور: تصفية علم أصول الفقه من الدخيل أولاً، وتوجيه الجهود نحو التراث الإسلامي بغية تطوير القواعد الأصولية ثانياً، والاستفادة من المناهج العلمية الحديثة في دراسة الواقع، وحسن تنزيل الأحكام ثالثاً.

وقدم بهذا المقترح إضاءات بارزة؛ يمكن إدراجها في حدود المعقولات الرامية إلى التجديد المنهجي المنشود، بل إن الحاجة ماسة لتطوير البحث فيما اقترحه في المحورين: الثاني، والثالث؛ بتوجيه الجهود نحو تصنيف دراسات أصولية تطبيقية تنطلق من التراث الإسلامي، وتجلية طرق استثمار المناهج العلمية الحديثة في تجديد المباحث الأصولية.

¹ المرجع نفسه (ص: 81-82).

² نقلاً عن مقال: تجديد علم أصول الفقه: الواقع والمقترح لعلي جمعة مجلة إسلامية المعرفة، العدد 126/125، السنة: 1428هـ/2007م. (ص: 18).

³ تجديد علم أصول الفقه: الواقع والمقترح لعلي جمعة مجلة إسلامية المعرفة، العدد 126/125، السنة: 1428هـ/2007م (ص: 18).

ثانياً: المدخل المعرفي و آفاقه التجديدية في الدرس الأصولي.

لا جرم أن "علم أصول الفقه" عرف منذ نشأته تطوراً تدريجياً من حيث موضوعاته ومباحثه، ويرجع الفضل في تطور كثير من مباحثه إلى ما وقع فيها من اختلاف واضطراب؛ إذ إن تأصيل الأصوليين للقواعد الأصولية، وإجابتهم عن إشكالاتها، وبيانهم المسالك القويمية لاستثمارها وحسن تنزيلها؛ أسهم في تجديد أبواب كبيرة في هذا الفن، وفتح آفاقاً جديدة لدراستها، واستكمال الناقص منها؛ فالجصاص الحنفي أكمل الناقص عند الشافعي، والغزالي طور فكر الجويني، والشاطبي استثمر جل الدراسات الأصولية المتقدمة في بناء موضوعات كتاب "الموافقات"، وهكذا ظل الخلف يواصل جهود السلف ويستدرِك ما فاتهم.

ولم يغب عن ذهنهم التمييز بين الثابت والمتغير في هذا العلم، وذلك شأن مختلف العلوم، بل إن ذلك شأن الحياة كلها، وإلى هذا أشار الدكتور طه جابر العلواني بقوله: "من الأمور المعروفة أن في كل علم أو شأن من شؤون الحياة أموراً تقبل التطور وتحتاجه، وربما لا تتحقق إلا به، وأموراً أخرى ثابتة، والمنطق الإسلامي يوجب أن يكون هناك تكامل بين الاثنين، ولذلك كان لأصول الفقه قواعد ثابتة، لا تقبل تغييراً، وأخرى تعتمد على التطور والتجدد الدائمين، وذلك واضح في مسائل الاجتهاد"¹.

والملاحظ أن تجديد الموضوعات والمعارف الأصولية غالباً ما تفرضه الضرورة الوقتية على العلماء؛ خاصة إذا تعلق الأمر بسوء فهم، وإعمال، وكان الخلل بادياً في وظائف هذا الفن من: التفسير، والاستنباط، وتنزيل الأحكام.

لأجل ذلك كانت الضرورة في نظر العلامة طه جابر العلواني تستلزم في عصرنا الحاضر؛ إعادة النظر في بعض المباحث الأصولية؛ تأصيلاً لمفاهيمها، وتفاعلاً مع إشكالاتها، وتجديداً لمباحثها، وبياناً لقواعد استثمارها، ومن أبرزها:

أ- مباحث السنة النبوية:

إن هذا الأصل عرف سوءاً في الفهم، والإعمال؛ من لدن كثير من الناس؛ الذين يتمسكون بظواهر الأحاديث النبوية دون مراعاة للقواعد الأصولية (عمومها وخصوصها، مطلقها ومقيدها، ومجملها ومبينها...)، ولا يفرقون بين الحديث وفقه الحديث، ولا بين الرواية والدراية.

¹ أصول الفقه منهج بحث ومعرفة (ص: 79)

لقد نبه النبي ﷺ إلى هذا الخلل الذي يلحق العقول القاصرة عن فهم مراتب التشريع، والمتجربين على الدين من غير اكتساب مناهج الفهم وأصول الفقه، وذلك في قوله ﷺ: «نضر الله امرأ سمع منا حديثاً، فحفظه حتى يبلغه غيره، فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»¹.

فالمتمدبر لهذا الحديث يجد أن في قوله ﷺ: "رب حامل فقه ليس بفقيه"؛ دلالة على أنه ليس كل حامل فقه فقيه؛ فهناك من يحفظ نصوص الدين ولا يفهمها، ولا قدرة له على استنباط معانيها ومقاصدها وأحكامها. كما أرشد ﷺ: في قوله: "رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه"؛ إلى مراتب الفقه؛ إذ الفقهاء يتفاوتون في الفهم والفطنة، وإدراك الحقائق، والمعاني، والحكم، وفيه إشارة إلى: أن "لا عبرة للتقدم الزماني في العلم، بل قد يكون المتأخر أولى من المتقدم"². كما يفهم من الحديث أيضاً؛ التحذير من التجرؤ على النصوص الشرعية ممن ليس أهلاً لذلك، أو القول على الله ورسوله ﷺ بغير حق.

وإذا كان كثير من الناس -في زماننا- وقعوا في هذا الإشكال؛ فإن الدكتور طه جابر العلواني يرجع سبب ذلك إلى غياب المنهج العلمي الأصولي، وعدم الانضباط للقواعد الأصولية المساعدة على الفهم السليم؛ "فقضية فهم السنة النبوية، ومنهج دراستها وتحليلها، ومعرفة سائر أبعادها، وكيفية اتخاذها مصدراً للمعرفة، والحضارة، والثقافة الإسلامية؛ قضية من أهم القضايا الفكرية التي يجب على العقل المسلم أن يوليها عناية واهتماماً؛ وذلك لأن تحديد أصول الإسلام ومصادره، وتوضيح قضاياها، ومناهج فهمها؛ تعتبر الأساس الأهم في بناء العقل المسلم، وتصحيح مسيرته، وإعادة بناء النسق المعرفي، والثقافي، والحضاري، للأمة الإسلامية"³.

¹ حديث صحيح؛ ينظر: سنن أبي داود، أحاديث زيد بن ثابت، رقم الحديث 618، (505/1). وفي رواية الإمام أحمد في مسنده قال ﷺ: "نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه، قرب مبلغ أحفظ له من سامع"، ينظر المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود، رقم الحديث: 4157، (221/7).

² ينظر تعليق المحقق، مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود، رقم الحديث: 4157، (224/7).

³ تقديم الدكتور طه جابر العلواني لكتاب: كيف نتعامل مع السنة؟ د. القرضاوي تصدير الطبعة الأولى (ص: 8).

فلا سبيل إذن لتجاوز هذه الإشكالات والبناء الصحيح للعقل المسلم إلا بالرجوع إلى مناهج الفهم، وأصول الاستنباط؛ التي تمكن من التعامل الصحيح مع مصادر المعرفة الإسلامية: قرآناً، وسنة.

لأجل ذلك، ألفينا الدكتور طه جابر العلواني ينادي بضرورة اهتمام الدراسات الأصولية والحديثية؛ بمناهج فهم السنة النبوية؛ يقول: "فإن مناهج الفهم للسنة تعتبر من أكثر الدراسات الأصولية، والحديثية؛ ضرورة وأهمية، فلقد كانت تلك المرحلة (النبوية) تجسيدا علمياً لمنهج الله على الأرض، وكان القرآن العظيم يقود حركة التطبيق، والتجسيد للمنهج في الواقع، ويهيم على سائر جوانبها ليصوغها وفقاً لمنهجها، ويجعلها التعبير الكامل عنه؛ لترجع البشرية إليه دائماً وأبداً¹".

وقد تفاعل مع هذه الدعوة نخبة من العلماء في العصر الحديث، ومنهم: الدكتور يوسف القرضاوي؛ الذي جعل يدعو المفكرين، والمجددين؛ إلى التصدي لهذا التعامل الفاسد مع السنة النبوية في زماننا، يقول: "...بعد أن ساء تعامل المسلمين في عصور التخلف مع سنة نبهم، كما ساء تعاملهم مع قرآن ربهم؛ كان على علماء المسلمين ودعاتهم، ومفكرهم، وكل المعنيين بتجديد الدين، وإصلاح الأمة، بتنوير عقولها، وإيقاظ قلوبها، وتحريك عزائمها؛ أن يقوموا بواجبهم في هذا المجال²". فصنف كتابا بارزا في الموضوع بين فيه مظاهر الخلل الذي تسرب إلى تفسير نصوص السنة، وأزاح الشبهات التي علق بها، وأعاد رسم المعالم الهادية إلى صحة الفهم، والضوابط العاصمة من الزلل في التفسير والاستنباط؛ وجاء كتابه موسوماً بـ: "كيف نتعامل مع السنة النبوية؟"، وقدم له الدكتور طه جابر العلواني.

وفي هذا الاتجاه أيضاً برزت جهود الشيخ محمد الغزالي من خلال كتابه: "السنة النبوية بين أهل الفقه، وأهل الحديث"، الذي قصد من خلاله إلى إنصاف السنة النبوية، والدود عنها من جرأة القاصرين، وذوي العقول الكليّة.

ويعتبر كتاب: "حجية السنة" للدكتور عبد الغني عبد الخالق؛ أبرز ما كتب في التصدي للشبهات، والإشكالات المثارة حول السنة، حتى إن الدكتور طه جابر العلواني وصفه بقوله إنه: "أهم ما كتب عن السنة في هذا القرن على الإطلاق³". لقد كانت الموضوعات التي

¹ المرجع نفسه، تصدير الطبعة الأولى (ص: 11).

² كيف نتعامل مع السنة النبوية؟ للدكتور يوسف القرضاوي (ص: 7).

³ تقديم الدكتور طه جابر العلواني لكتاب: حجية السنة: لعبد الغني عبد الخالق (ص: 21).

عالجها في كتابه؛ فارقة بين: الضلال والهدى، والحق والباطل، "ولم يدع أية مسألة ذات علاقة أياً كانت؛ بحجية السنة: إلا تناولها بما تستحقه من البحث، والتمحيص؛ فتعرض لمسألة: "مساواة السنة للكتاب في الحجية"، كما تعرض لمسألة: "استقلال السنة بالتشريع"، مفنداً آراء من نازع في ذلك من أهل العلم¹.

في ضوء ذلك؛ قدم الدكتور طه جابر العلواني جملة من الاقتراحات؛ التي ينبغي توسيع البحث فيها؛ تجديداً لمباحث السنة النبوية، نجملها في الآتي:

■ العمل على تحويل مجرى اهتمام الدراسات الأصولية؛ من القضايا المحسومة تاريخياً، إلى القضايا التي لم تحسم بعد².

■ العناية بالتصنيف الموضوعي للسنة، والاستفادة من المناهج العلمية النافعة في هذا المجال؛ لتحقيق أهداف جعل السنة النبوية مصدراً للمعرفة الإنسانية والاجتماعية بكل أنواعها، وعدم الاقتصار على جعلها مصدراً للمعرفة الفقهية وحدها³.

■ معالجة أزمت فهم السنة النبوية: بوضع الشروط المساعدة على الفهم الصحيح، والعصمة من سوء الفهم، وتحديد عوامل تفاوت الفهم واضطرابه في بعض الأحيان عبر التاريخ، وتحديد خواص، وصفات، ومميزات؛ العقل القادر على فهم السنة وحسن التعامل معها، تحديد علاقة الفهم بالالتزام الإسلامي، وكيف يتغلب على النظر الجزئي؟ تحديد طرق معالجة أزمة الفهم، وسائر الجوانب المؤثرة فيه⁴.

■ تأصيل ضوابط الأبعاد الزمانية والمكانية المساعدة على الفهم⁵.

■ إيجاد مناهج تساعد في فهم السنة، من خلال الفصل في الاختلافات الجوهرية؛ بين القضايا الجزئية، والقضايا الفكرية، والظواهر الاجتماعية⁶.

■ البحث في طرق استثمار دليل السنة النبوية؛ لمعالجة مشكلات الأمة، وتصحيح مسارها⁷.

¹ حجية السنة: لعبد الغني عبد الخالق (ص: 31)

² تقديم الدكتور طه جابر العلواني لكتاب: كيف نتعامل مع السنة؟ (ص: 8).

³ تقديم الدكتور طه جابر العلواني لكتاب: كيف نتعامل مع السنة؟ (ص: 8).

⁴ المرجع نفسه (ص: 11).

⁵ المرجع نفسه (ص: 12).

⁶ المرجع نفسه (ص: 12-13).

⁷ المرجع نفسه (ص: 13).

ب- مباحث مقاصد الشريعة:

تأتي مقاصد الشريعة في المباحث الأساسية التي يدعو الدكتور طه جابر العلواني إلى توسيع مجال البحث فيها، وفي سبل استثمارها، وقد ألفيناه يدعو إلى ضرورة: "الاهتمام بمعرفة" مقاصد الشريعة"، وتنمية دراساتها، والعمل على وضع قواعد أو ضوابط لها¹.

ومعلوم أن مباحث مقاصد الشريعة عرفت منذ القديم تطوراً تراكمياً من حيث المفاهيم والمباحث؛ فالمتقدمون دأبوا على الحديث الجزئي عنها ضمن مباحث العلة، وعقب ذلك؛ تطور الفكر المقاصدي، وصارت مباحثه مستقلة ومفردة. غير أن ثمة مجالات ما تزال في حاجة إلى بحث وتنقيح، بدءاً بعلاقة المقاصد بالنصوص الشرعية، وصولاً إلى طرق ومجالات استثمارها.

إن المقاصد في نظر العلامة طه جابر العلواني بمثابة الجسر الذي يصل بين التعاليم الشرعية وواقع الحياة، لأجل ذلك ألفيناه يدعو إلى تأسيس منهج مقاصدي شامل لا يتوقف عند حدود التعليل اللفظي والقياس الجزئي، "بل ينطلق من منهج استقرائي شامل يحاول الربط بين الأحكام الجزئية وصياغتها في قانون عام دلت على اعتبار الشرع له الكثير من الأدلة، وتضافرت عليه العديد من الشواهد، وبذلك يعتبر هذا القانون الكلي مقصداً من مقاصد الشريعة، فيتحول إلى حاكم على الجزئيات، قاض عليها، بعد أن كان يستمد وجوده منها"².

ويعتبر الدكتور طه جابر العلواني أن "تشغيل منظومة المقاصد العليا الحاكمة القرآنية، سوف يؤدي إلى غرس قابلية التجديد الذاتي في أصولنا وفقهنا، وسوف تقيهما وتحفظهما من عوامل الفتور والظرفية التي تصيب الشرائع"³.

ولا نجانب الصواب إذا قلنا: إن الدكتور طه جابر العلواني أسهم في التأصيل للمقاصد العليا الحاكمة، وبيان محدداتها، ومنهج تفعيدها، وأكد على أهمية فقه المقاصد، ونادى بضرورة تأسيس منظومة مقاصدية جامعة من القرآن والسنة، إلى غير ذلك من الجهود المتميزة التي لا يتسع المقام لبسط الحديث فيها، والتي يمكن اعتبارها بمثابة منارات يسترشد بها في حقل التجديد المقاصدي المنشود.

¹ تقديم الدكتور طه جابر العلواني لكتاب: كيف نتعامل مع السنة؟ (ص: 82)

² مقاصد الشريعة (ص: 124)

³ مقاصد الشريعة (ص: 140)

ج- مباحث فقه الواقع والأولويات:

إن المتدبر في القواعد الأصولية يجد أن الأصوليين لم يلتفتوا إلى تقرير مباحث فقه الواقع، والأولويات -كما فعلوا في تقرير قواعد التفسير والاستنباط-؛ ولم تحظ عندهم بالعناية اللازمة من حيث تحديد مداخلها ومخارجها، ولم يرد في شأنها إلا النزر اليسير من القواعد.

وهذا ما جعل الدكتور طه جابر العلواني يقول: "حينما يقال فقه الأولويات: قد يتبادر إلى الذهن أنه فقه معروف، بل قد يعتبره البعض بديهيا في حقيقته... لكنه إذا ما جاء لاقتناص ما ظنه قريبا رآه بعيدا يتفلت من بين يديه"¹.

وإذا كان تأصيل هذه القواعد التي تساعد في فهم الواقع والمآل عزيزا؛ فإن ممارستها لم تغب عن فكر المتقدمين، وقد دلت الوقائع على مراعاتهم لكل ما يحيط بالوقائع من ظروف، وملابسات، وقرائن، ولا يحكمون في المسائل إلا بعد تصور جميع الجزئيات والتفاصيل التي تحيط بها؛ فينظرون في الأفعال، والمقاصد، والحال، والمآل، وهذا ما يقرره الإمام الشاطبي؛ يقول: "فتحقيق المناط الخاص نظر في كل مكلف بالنسبة إلى ما وقع عليه من الدلائل التكليفية؛ بحيث يتعرف منه مداخل الشيطان، ومداخل الهوى والحظوظ العاجلة، حتى يلقيها هذا المجتهد على ذلك المكلف مقيدة بقيود التحرز من تلك المداخل"².

وقد أولى الدكتور طه جابر العلواني فقه الأولويات عناية خاصة، وذلك باعتباره مدخلا من "المداخل المركبة التي يتداخل فيها السمع، والعقل، والعرف، والتجربة، والخبرة، وكثير من العلوم الاجتماعية الإسلامية التي يمكن أن تعين في تحليل الماضي، وفهم الحاضر، واستشراف المستقبل، ليتم بمقتضى ذلك تحديد ما هو أولوي"³.

ومن هنا قام رحمه الله برصد جملة من الآثار السلبية الخطيرة، والأمراض الكثيرة التي تعاني منها الأمة نتيجة عدم أخذها بفقه الأولويات، وعنايتها به⁴، وفقا لذلك؛ جعل ينادي بضرورة العناية بتقرير قواعد فقه الواقع والأولويات، وأكد على أهميتها في حسن تنزيل الأحكام؛ قال رحمه الله: "قد يكون أولى للناس بأن يجعلوا من «فقه الواقع» علما مستقلا، أو

¹ مقاصد الشريعة (ص: 63)

² المواقفات (25/5).

³ مقاصد الشريعة (ص: 75).

⁴ ينظر كلامه في هذا الصدد في كتاب: مقاصد الشريعة ابتداء من (ص: 78)

جزءًا لا يتجزأ من علم «أصول الفقه» في بنائه الجديد، «فقه الواقع» مثل مقاصد الشريعة، والمقاصد القرآنية العليا الحاكمة؛ عليه يتوقف الفهم الدقيق والإدراك العميق لمرامي النصوص وأهدافها، وكيفية بناء الأمم بها¹.

خاتمة:

بعد هذه الجولة المثمرة في دواعي تجديد "علم أصول الفقه" وآفاقه في فكر الدكتور طه جابر العلواني، أزف أوان قيد النتائج والخلاصات، ويمكن إجمالها فيما يأتي:

(1) تتنوع إشكالات "علم أصول الفقه" في العصر الراهن بين ثلاثة أقسام هي: الإشكالات المنهجية، والمعرفية، والتربوية.

أ- تتجلى الإشكالات المنهجية في انتشار التقليد، واتصاف مصنفات المتأخرين بالصعوبة والتعقيد، وتوقف علم الأصول عن أداء وظائفه العملية، وانحصار أدواره بين سائر العلوم الشرعية.

ب- وتشمل الإشكالات المعرفية: حاجة بعض المصطلحات الأصولية للضبط وتحجير محل النزاع، خاصة تلك التي انتشر فيها الخلاف اللفظي بين أهل المذاهب من الشافعية، والأحناف، والحنابلة، والمالكية، مثل: المصلحة، والاستحسان، واعتبار المأل... إضافة إلى حاجة بعض القواعد الأصولية إلى مزيد بحث ودراسة. ومن ذلك: مباحث السنة، والمصلحة، وقواعد فقه التنزيل، ومراعاة الواقع، والمأل، وفقه الأولويات. وكذا توسيع البحث في منهج الاستفادة من مستجدات العلوم في فهم الواقع وتنزيل الأحكام.

ج- أما الإشكالات التربوية فتظهر في عجز المناهج الأصولية المتأخرة عن اكساب الملكات الأصولية والفقهية.

(2) إن الانطلاق من رصد هذه الإشكالات يساعد في تحديد حاجات علم أصول الفقه في الوقت المعاصر، وفتح آفاق واسعة لتطوير مباحثه يمكن الاستفادة منها في عملية التجديد المنشود، وذلك وفق الآتي:

القسم الأول: آفاق تجديد منهج علم أصول الفقه:

إن إحكام ترتيب مادة علم أصول الفقه، وتخليه مباحثه من مسائل الفضول،

¹ مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية (ص: 80).

وتحري البساطة في أساليب وعبارات تدوين مباحثه، جدير بتجاوز الإشكالات المنهجية في هذا الفن.

القسم الثاني: آفاق تجديد موضوعات علم أصول الفقه:

إن الضرورة تستلزم في عصرنا الحاضر: إعادة النظر في بعض المباحث الأصولية؛ تأصيلاً لمفاهيمها، وتفاعلاً مع إشكالاتها، وبياناً لقواعد استثمارها، ومن أهمها: مباحث السنة النبوية، ومباحث المصلحة (المقاصد)، وقواعد الاجتهاد التنزيلى، ولا شك أن ذلك مدخل أساس لتجديد مضامين علم أصول الفقه.

القسم الثالث: آفاق تجديد منهج تدريس علم أصول الفقه:

إن الأمة في حاجة إلى الاستفادة مما يقترحه الدكتور طه جابر العلواني في مدخل: إسلامية المعرفة لإصلاح نظامها التعليمي، خاصة من حيث إرجاع العلوم إلى دائرة الأخلاق والقيم، وإيلاء "التربية على القيم" عناية خاصة في تدريس العلوم، وكذا الاستفادة من المستجدات الحديثة في إصلاح المناهج التعليمية.

والله أعلم وأحكم، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

- ابن تيمية وإسلامية المعرفة: للدكتور طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط: 2، 1415هـ/1995م.
- أدب الطلب ومنتهى الأدب، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: 1250هـ)، المحقق: عبد الله يحيى السريحي، دار ابن حزم - لبنان / بيروت، ط: 1، 1419هـ - 1998م.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير: المنطلقات والآفاق؛ د. طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط: 2، 1417هـ/1996م.
- إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم؛ د. طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط: 2، 1417هـ/1996م.
- إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات: د. طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط: 2، 1414هـ/1994م.
- أصول الفقه الإسلامي منهج بحث ومعرفة: د. العلواني، أبحاث علمية (1)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط: 2، 1415هـ/1995م.
- أليس الصبح بقريب؟ المؤلف: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام، ط: 1، 1427هـ / 2006م.
- تجديد علم أصول الفقه، المؤلف: العلامة أبي الطيب مولود السريحي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 2005م.
- حجية السنة، المؤلف: عبد الغني عبد الخالق، دار الوفاء، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (1)، د: ت، ط.
- خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي لعبد الوهاب خلاص؛ دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.
- سنن أبي داود؛ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
- كيف نتعامل مع السنة؟، المؤلف: الدكتور يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط: 2، 1423هـ/2002م.

- مجلة إسلامية المعرفة، العدد 126/125، السنة: 1428هـ/2007م.
- مزالق الأصوليين وبيان القدر المحتاج إليه من علم الأصول، المؤلف: العلامة الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ت 1182هـ، تحقيق وتعليق: محمد صباح المنصور، مكتبة أهل الأثر، الكويت، ط: 2، 1425هـ-2004م.
- مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية: منى أبو الفضل، طه جابر العلواني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط: 1، 2009م.
- مقاصد الشريعة: طه جابر العلواني، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط: 1، 1434هـ/2001م.
- الموافقات للشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان الناشر: دار ابن عفان الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/1997م.
- نحو التجديد والاجتهاد: مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية؛ د. طه جابر العلواني، دار تنوير للنشر والتوزيع، مصر، ط: 1، 1429هـ/2008م.
- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، المؤلف: أحمد الريسوني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط: 2، - 1412 هـ - 1992 م.

معالم في التجديد الأصولي عند العلامة طه العلواني رؤية نقدية

د. محمد عوام

باحث بمركز المقاصد للدراسات والبحوث- المغرب

ملخص:

يشكل هذا البحث لبنة أساسية في تناول قضية التجديد الأصولي عند العلامة طه العلواني، بناء على أسس معرفية ومنهجية، لطالما شغلته، وعني بها كثيرا، وهي تحكيم المقاصد العليا القرآنية الحاكمة، التي أصبحت معيارا للنقد والمراجعة للتراث عامة، وتراثنا الأصولي والفقي خاصة. ورد الاعتبار للكليات التي ينبغي النظر من خلالها للجزئيات، بدل اجترار الفقه التجزيئي، الذي أحدث شرخا في فهم المستجدات والواقع، وما زال يراوح مكانه.

وعلى ضوء معيار المراجعة القرآنية طفق العلامة طه يعرض القواعد الأصولية وينتقدها، ويكشف عن خلفياتها الفكرية أو السياسية، كما هو الشأن في دليل الإجماع مثلا. حتى يتسنى لهذه القواعد بناء على معيار المراجعة، أن تكون محدداً منهجية، قادرة على الاستيعاب والتجاوز والبناء، فتصبح جزءا من الحل المنهجي، وبديلا عن المناهج الوضعية المأزومة. من ثمة كان ولا بد من التطرق إلى معالم هذا التجديد الأصولي عند أستاذنا طه، من خلال بعض القضايا التي ظهر لنا أنها من الأهمية بمكان.

الكلمات المفتاحية: الأصول، الظاهرة، الكليات، المقاصد، المنهجية

مقدمة:

يعتبر العلامة الدكتور طه جابر فياض العلواني رحمه الله من أبرز الأصوليين المعاصرين، والمفكرين المبرزين، الذين استوعبوا التراث الإسلامي أصولا وفروعا، ونقلا وعقلا، فقد كان موسوعيا في ثقافته، مع إلمام بواقعه، ومستجدات عصره، مكنه ذلك من أن يخوض غمار البحث في قضايا وإشكالات معرفية، لها ارتباط بما اصطلح عليه هو نفسه بأزمة الفكر المعاصر، فكانت بذلك كتاباته لا تخرج عن هذا السياق في المعالجة، فتطرق إلى بيان أهمية المنهج الأصولي، وإشكالية التعامل مع السنة النبوية، والمنهجية الإسلامية، والوحدة البنائية للقرآن المجيد، والمقاصد العليا الحاكمة: التوحيد، والتزكية، والعمران، وغيرها من القضايا.

غير أن ميزة أستاذنا طه رحمه الله، أنه كان مستحضرا دائما للمنهج الأصولي في مطارحاته الفكرية والمعرفية، مما أنشأ لديه -بطول الخبرة والتجربة- آراء تجديدية ونقدية للمنهج الأصولي، لاسيما أنها بدأت معه مع تحقيقه (المحصول) للفخر الرازي (ت606هـ)، ظهر ذلك في تعليقاته النفيسة، ونقوده الماتعة. وتوطنت وتوسعت -أيضا- بما سماه "علم المراجعات"¹، الذي استند فيه على "المنهجية المعرفية القرآنية" و"المقاصد والكليات الشرعية العليا الحاكمة" في مراجعته للعلوم النقلية، والنقد العلمي المنهجي لنظرية المعرفية.

ومع طول البحث والانغماس فيه بقوة، رأى أنه لا بد من توظيف المنهج الأصولي في دراسة الظواهر الاجتماعية، ولا سيما علم الاجتماع، فألفيناه، على إثر ذلك، يفرق بين "النازلة" أو "الظاهرة الفقهية" و"الظاهرة الاجتماعية"، حيث تكون الأولى في الغالب فردية، والثانية جماعية، فكانت له بذلك آراء سديدة في هذا المضمار.

على أن مؤلفاته بصفة عامة، لا تخلو من نظرات ومعالج تجديدية في علم الأصول، سواء أتت على شكل إضافات نوعية، أو انتقادات منهجية وعلمية. وقد عبر عنها في حوار معي نشرته في كتيب بعنوان (قضية في حوار: تجديد علم أصول الفقه مع العلامة طه جابر العلواني) وقد تضمن أفكارا ومعالج تجديدية نفيسة، تنم عن عمق إدراك أستاذنا طه العلواني رحمه الله لقضية تجديد المنهج الأصولي، والإشكالات التي تحف هذه الدعوات سواء من حيث المبدأ، أو الواقع، أو النتائج.

من هنا جاءت عنايتي في هذا البحث المتواضع، بدراسة آرائه التجديدية لعلم أصول الفقه، فأردت أن أتطرق إليها في أهم المعالم، وأبرز القضايا، التي استبان لي أن شيخنا طه قد ركز عليها، واعتنى بها، فبسطت الكلام عنها فيما يلي:

المبحث الأول: العلامة طه العلواني وعلم أصول الفقه.

لعلنا في هذا المبحث، لسنا في حاجة لبيان صلة أستاذنا طه العلواني بعلم أصول الفقه، فهو قد ترعرع في أحضانه، وشب في أكنافه، وتشرب قواعده، وخبر إشكالاته المنهجية

¹ نحو التجديد والاجتهاد مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، طه جابر العلواني، دارتنوير، مصر، الطبعة الأولى

والمعرفية. فكان بذلك ذا عقلية أصولية نظارة. غير أننا هنا نريد أن نتناول هذه الصلة من خلال التطرق لمسألتين، لطالما شغلت بال وفكر أستاذنا طه، وهما:

أولاً: علم أصول الفقه وإشكالية المنهج .

لقد شغلت قضية المنهجية فكر أستاذنا طه العلواني رحمه الله تعالى، وأخذت منه جهداً كبيراً، ووقتها كثيراً، حتى أصبحت تمثل مركزية تفكيره وعلمه وبحوثه، إذ لا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفاته، أو بحث من بحوثه، إلا وألفيناه يتصدى لقضية المنهج والمنهجية¹، تحريراً، وتوصيفاً، ونقداً، وأسلمة، وتجديداً.

وبما أن علم أصول الفقه يعتبر أحد المناهج التي أثرت في العلوم الإسلامية بقوة، بعد أن قام على سوقه، واشتد عوده، فأصبحت له الهيمنة التامة، حتى اعتبره ابن السمعاني في (قواطع الأدلة) "أصل الأصول وقاعدة كل العلوم"² فقد اعتنى به أستاذنا طه العلواني عناية فائقة، بل كان من العلماء المبرزين والمتخصصين فيه، إذ ما من قضية يناقشها، أو يحزر الكلام فيها إلا وتلتبس أنها مصاغة بخلفية الأصولي الأريب، وعقلية الفقيه المناظر المجرب. فلا غرو أن تكون قضية المنهجية إذن حاضرة بقوة من حيث كونها المنطلق للتأسيس والتغيير الحضاري، ولا عجب -أيضاً- أن يكون علم أصول الفقه، باعتباره منهجاً معرفياً حاضراً -أيضاً- لخوض غمار البحث في إشكالية المنهج التي أرقّت تفكير أستاذنا طه العلواني رحمه الله.

يقرر أستاذنا طه رحمه الله حقيقة علمية ومعرفية أن المسلمين كانوا سابقين "إلى وضع المناهج، وتطويرها، وتحديد طرائق البحث، والتفكير، ووسائل المعرفة... ولم يقتصرُوا على المنهج الاستنباطي في مجال العلوم النقلية، بل تجاوزوا ذلك إلى المنهج الاستقرائي في مجال التاريخ والعلوم الاجتماعية.

¹ أقر أستاذنا بأن للمنهج تعاريف متعددة، واختار تعريفه بقوله: "إنه وسيلة إلى قيادة العقل الإنساني إلى الحقيقة، أو إلى ما يغلب على الظن أنه الحقيقة. حتى لو لم تكن هي الحقيقة في الواقع ونفس الأمر، فالحقيقة مثل كثر دفين يبحث الإنسان بوسائل متعددة: كالحفر وقراءة التاريخ والخرائط، والتفكير والنظر والعقلي والتذكر والتدبر وما إليها...." معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى 1431هـ/2010م، ص 27.

² قواطع الأدلة في الأصول، أبو مظفر منصور بن محمد السمعاني، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى 1418هـ/1999م، ج 1، ص 17.

ويمكننا القول: إن عقلية التيهيج أو المنهجية أصبحت هي السمة البارزة للأمة المسلمة، الأمر الذي منحه القرآن للعقل المسلم على المستويات العامة. لكن لا بد من الاعتراف أيضا بأن عقلية التيهيج والامتداد بالتطوير المنهجي للعلوم، واستحداث مناهج للعلوم المستجدة، قد توقف عن التواصل، وأصبح الذي نمتلكه في هذا: عبارة عن أصول تاريخية متوقفة لم يكتب لها الامتداد، في الوقت الذي تطورت فيه المناهج عند الغربيين، وبلغت شأوا واسعا.¹

وهذه الرؤية المعرفية المتعلقة بالمنهج، وإن كنا نتحدث عنها في علم أصول الفقه، فإنها لا تخرج عند أستاذنا طه عن الإطار العام في تشخيصه للأزمة الفكرية ورؤيته الإصلاحية، حيث يعتبر المنهج من المقومات الأساسية للإسلامية المعرفية، وأن إصلاح المنهج جزء مهم في إصلاح الفكر. فهو يحدثنا عن هذه القضية المركزية، التي رابطت من أجلها بقوله: "إصلاح مناهج الفكر، وإعادة التشكيل الثقافي، وتصويب مسار المعرفة لتنضبط بمنطلقاتها، وتحقيق أهدافها الإسلامية، يستدعي رؤية شمولية متوازنة، وضبطا للنسب المختلة، إذ لا يمكن أن يتصور أن يكون الإصلاح والتصويب في جانب بمعزل عن بقية الجوانب الأخرى المؤثرة".²

ومظاهر الاختلال الواقعة في الأمة، وكثرة عللها وإخفاقاتها، يرجعها أستاذنا طه إلى العلة المركزية والجذرية، إنها الأزمة الفكرية والمنهجية المستفحلة، والتي ذاعت وانتشرت، وفشت وهيمنت، فأصبحت لها تجليات وتداعيات على سائر المجالات الأخرى. فهي إذن الداء والعقبة الكأداء، في ظل أوضاع متردية، وعن هذه العلة الأساس يقول أستاذنا طه فيما نصه: "لم يعد يوجد أدنى شك في أن أساس "علة" هذه الأمة هو في اعتلال فكر الأمة، وفي منهجية فكر الأمة، وما يترتب على ذلك من اعتلال نظام التعليم السائد فيها، مما يشكل تربة خصبة للداء".¹

¹ إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، طه العلواني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي بالرياض والمعهد العالمي للفكر، إسلامي بيرندن أمريكا، الطبعة الثانية 1414هـ/1994م، ص 87.

² إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، طه العلواني، مرجع سابق، ص 5. وانظر إسلامية المعرفة المبادئ العامة-خطة - العمل- الإنجازات، طه العلواني، منشورات المعهد العلمي للفكر الإسلامي، ط 1/1406هـ/1986م، ص 73.

¹ إسلامية المعرفة، العلواني، مرجع سابق، ص 32.

ويؤكد عليها –أيضا- في كتابه (إصلاح الفكر الإسلامي) بقوله: "كان تشخيصنا لأزمة الأمة: أنها أزمة فكرية، ورأينا أن سائر الأزمات الأخرى التي نلمحها في أكثر من جانب، ما هي إلا نتيجة لها، أو مظهر من مظاهرها، أو انعكاس لها في جانب محدد. فالأزمة الفكرية -في نظرنا- هي الأزمة الأم، والعللة الكبرى".¹

فكان لا بد من الالتفات إلى عمق الأزمة في بعدها المنهجي، مما جعل أستاذنا طه يحث على العناية بها، وبذل الجهود من أجلها، قال رحمه الله حاثا المؤسسات العلمية وعلى رأسها المعهد العالمي للفكر الإسلامي على ذلك: "البعد المنهجي الذي لا بد أن تتجه الجهود إليه، وبه ينبغي أن تقاس الحاجة والإنجاز، كذلك لتكتشف الأبعاد الغائبة".²

على أن غياب هذا البعد المنهجي، ووضوح معالمه، كان من وراء غياب منهجية للتعامل مع التراث في بعده الشمولي والمعرفي، نتج عنه منطق سكوني، مع غياب منطق نقدي قوي، قادر على إحداث تغير عميق، يكسر تلك السكونية المعرفية، التي أثرت على الواقع، وحالت دون النهوض به حضاريا ومعرفيا، وتجديده وتطويره، من خلال المقاصد الكلية.

وقد ألمع أستاذنا طه العلواني إلى هذا المسلك السكوني ونتائجه الوخيمة بقوله: "إن الأزمة في دائرتها الإسلامية تبدو واضحة في افتقاد منهجية للتعامل مع تراث ذي شمولية لها ما يبررها، لكنها تصطدم على الدوام بمنطق سكوني في تفسيره وتأويله، يجعلها عاجزة عن استعمال مداخل التصديق والاسترجاع والاستيعاب والهيمنة القرآنية، وأخيرا التركيب المفتقد عالميا كمداخل منهجية للتغيير".³

وبناء على إصلاح مناهج الفكر، وتشخيص الأزمة الفكرية، كان ولا بد من أن يأخذ علم الأصول حظا مهما، وغير يسير من المراجعة والتجديد عند أستاذنا طه، غير أنه يعتمد في ذلك المرجعية القرآنية، لأن "القرآن الكريم –كما يقرر أستاذنا طه- هو المرجعية الأولى في عملية إنشاء الأحكام، والأفكار، والمعتقدات، والتصورات، والتشريع".¹

¹ إصلاح الفكر الإسلامي، العلواني، مرجع سابق، ص 27.

² أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، طه العلواني، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي القاهرة، الطبعة الأولى 1417هـ/1997م، ص 63.

³ المرجع السابق، ص 40.

¹ نحو إعادة بناء علوم الأمة، طه العلواني، مرجع سابق، ص 153.

إذن هذا معيار النقد والتجديد والمراجعة لأصول الفقه، كما يراه أستاذنا طه. وقد ذهب فيه شأوا بعيدا، بحيث تعرض جميع القواعد عليه، وتمحص وتراجع على ضوئه وهديه. من ثمة انتقد أستاذنا طه "الدعوات التي تعالت للحديث عن تجديد علم أصول الفقه" واعتبرها "دعوات مشروعة من حيث المبدأ، غير عملية من حيث التنفيذ، غير مجدية من حيث النتائج." ثم طفق يبين هذا الملمح النقدي ويفسره، فقال: "أما كونها مشروعة، فلأننا في حاجة إلى فقه يحكم المستجدات، ويبت في الوقائع والنوازل الحادثة. هذا أمر لا شك فيه، وأمر يحتاج في الوقت نفسه إلى وضع أصول لهذا الفقه، الذي نحتاجه لبيان أحكام النوازل والوقائع الحادثة. فهل الأصول التي حددها أسلافنا ستكون بئىء مما نسميه تجديدا، أو تطويرا، أو إضافة، أو حذفًا، قادرة على الاستجابة لبيان أحكام الوقائع الحادثة؟ هذا أمر أشك فيه."¹

فهو يضع بذلك القضية في سياقها الواقعي، وبعدها الزمني، واستشراف نتائجها المستقبلية، لا من حيث المبدأ، الذي يعني مشروعية التجديد. غير أنه يربط هذا التجديد بمدى قدرة أصول الفقه على الاستجابة لبيان حكم المستجدات. وهو يعكس نقدا للبنية الأصولية كما هي عند أسلافنا، وما علق بها من رواسب.

والذي يظهر أن هذه الرؤية النقدية، لا تعني أن أستاذنا يتنكر للأصول بالجملة، وإنما يريد منها أن لا تظل حاكمة للجزئيات، أو أن يطغى عليها فقه الجزئيات، بل أن تكون أصولا تنطوي على الكليات والمقاصد العليا القرآنية الحاكمة، حتى نتمكن من استيعاب كثير من القضايا والمستجدات. فهو يرى بذلك عناية الأصوليين بالكليات من حيث التأصيل تكاد تكون شحيحة وضامرة.

والإشكال هنا ليس إشكالا متعلقا بجهة التقعيد فحسب، وإنما هو متعلق —أيضا— بعمق المنهج وإشكالاته المعرفية، ومدى قدرته على أن يكون منهجا استيعابيا، له ارتباط بالبنى الواقعية، وقدرته على تحليلها وتفكيكها، وإيجاد الحلول لها. إذن فهو إخراج الأصول من حيز الجزئيات إلى حيز الكليات، وهو من السعة ما لا يخفى.

¹ قضية في حوار تجديد علم أصول الفقه مع العلامة طه جابر فياض العلواني، محمد عوام، دار الكلمة مصر، الطبعة الأولى 1440هـ/2019م، ص 16.

ثانيا: توظيف المنهج الأصولي في العلوم الاجتماعية. من "الظاهرة الفقهية" إلى "الظاهرة الاجتماعية".

يمثل علم أصول الفقه عند أستاذنا طه العلواني رحمه الله منهجا معرفيا، على ضوء قواعده وآلياته يتم تحديد الحكم الشرعي أو البحث عنه، في ما يسميه بـ "الظاهرة الفقهية"، فهو بذلك منهج استنباطي. وهذه الظاهرة سواء كانت إنسانية أو اجتماعية. ويقصد بذلك أن الحكم الشرعي قد يتعلق بالفرد على حدته، خاصا به، لا يتعدى لغيره، لا سيما فيما يعرف بالنوازل والمستجدات، التي لم يسبق لها مثيل، وقد يتعلق بالجماعة، فيصير متعلقا بظاهرة جماعية، وبطبيعة الحال فإن الظاهرة أوسع من الفرد. يقول أستاذنا طه: "إن أصول الفقه باعتباره منهج بحث ومعرفة، مختص بالظاهرة الفقهية، وهي إنسانية أو اجتماعية على أية حال، ولكنها تحمل خصوصية لا يمكن تجاهلها، من حيث أنه يتناول هذه الظاهرة في إطار البحث عن حكم فقهي لها، مستمد من الأدلة الشرعية التفصيلية، فهو منهج استنباطي يعتمد على بعض المناهج الوسيطة كالمنهج اللغوي، والتاريخي بشكل ما..."¹

ولئن كان علم أصول الفقه قد وُلد ابتداء لمعالجة "الظاهرة الفقهية" على حد تعبير أستاذنا طه، فكان بذلك منهجا معرفيا، ينشئ الأحكام الفقهية عبر منهجه التقعيدي وأنساقه المعرفية، إذ هو ينتهي إلى العلوم النسقية، التي تحتكم إلى نسق معرفي وقواعد،² فلا جرم أنه أيضا يصلح أن يكون منهجا معرفيا يستوعب باقي التخصصات، ويعالج كما يقول أستاذنا طه "أزمة أو إشكالية المنهج الراهنة، أو تقدم منهجا بديلا عن مناهج البحث المأزومة، توظف فيها الخبرة الفكرية الإسلامية."³

وبناء على اعتبار علم الأصول منهجا معرفيا، فإن أستاذنا طه يرى ضرورة إعماله في دراسة العلوم الاجتماعية، وتحليل الظواهر الاجتماعية، إذ يذهب إلى ما يمكن أن نسميه بـ "الوحدة المنهجية" بين علم الأصول وعلم الاجتماع، على المستوى المنهجي توظيفا وتقصيذا، بالرغم من الخلاف الحاصل بين "الظاهرة الفقهية" و"الظاهرة الاجتماعية" على المستوى

¹ أصول الفقه الإسلامي منهج بحث ومعرفة، طه جابر فياض العلواني، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الثالثة 1415هـ/1995م، ص 7.

² انظر في المنهجية والحوار، رشدي فكار، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الثالثة 1987م، ص 45.

³ أصول الفقه الإسلامي منهج بحث ومعرفة، طه العلواني، مرجع سابق، ص 7.

العام، إذ يتوسل بالمنهج الأصولي لدراسة الظواهر الاجتماعية، بناء على "تحليل جوانبه المختلفة والعناصر الأساسية التي يتألف منها".¹

وألّفينا أستاذنا طه يؤكد على هذا التكامل المعرفي بين علم أصول الفقه والعلوم الاجتماعية في كتابه (التعليم الديني بين التجديد والتجميد)، عند تناوله لـ(المساقات التخصصية في تخصص الفقه وأصوله) إذ يرى أنه "إذا كان هذا العلم، يمكن أن يساعد علماء الاجتماعيات المسلمين، في الحصول على محددات منهجية، تساعد في تطوير طرائق البحث في علومهم إسلامياً، لتكون علومهم إسلامية، ويكون بينها وبين العلوم النقلية علاقة جدلية، تعود على النوعين من العلوم: النقلية والاجتماعية بكثير من الفوائد، خاصة إذا لوحظت ضوابط "التداخل" بين العلوم".²

وهذه القضية، يبدو أنها شغلت بال وفكر أستاذنا طه، فنبه إليها أيضاً في كتابه (أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة)، إذ ذهب إلى أن تجديد أصول الفقه مرتبط بفهم قوانين الحركة الاجتماعية، وإدراك قواعد سنن التغيير. وفي ذلك يقول: "فمحاولات التجديد في "أصول الفقه" أو في "الفقه" أو بناء علوم معاصرة تحل محل "علم الكلام" لن تحل "إشكالية الربط بين النص القاطع والواقع المتغير بسنن الصبرورة والزمان والمكان".³

فهذا نوع من التوظيف المنهجي لعلم أصول الفقه في العلوم الاجتماعية، لتقارب الظاهرتين المعالجتين بينهما من بعض الزوايا، الظاهرة الفقهية والظاهرة الاجتماعية. ونحن نرى أن المنهج الأصولي يمكن إعماله، على المستوى المنهجي، في كافة العلوم، فنحقق بذلك تقصي العلومنا ومعارفنا على المستوى الوظيفي بتحديد وظيفتها أو وظائفها، والمستوى المنهجي، بأن تكون لها منهجية منضبطة، وقواعد مؤصلة، في تحليل الظواهر ودراساتها، وتحليلها وتفكيكها، عبر المحددات المنهجية، التي يزخر بها علم الأصول. مثل منهجية التعليل،

¹ المرجع السابق، ص 8.

² التعليم الديني بين التجديد والتجميد، طه العلواني، دار السلام مصر، الطبعة الأولى 1430 هـ/2009 م، ص 138.

³ أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، مرجع سابق، ص 42.

والكشف عن طريقه، سواء النقلية أو العقلية، وكيفية التأويل ومنهجية ضبطه، ومبدأ التقصيد المنضبط، وقاعدة العرف وضوابطه، وكيفية نشوئه وغير ذلك.

وهذه المحددات المنهجية الأصولية التي يتحدث عنها أستاذنا طه، قد سبق لابن خلدون أن وظيفها وأعملها في دراسة الظواهر الاجتماعية وتحليل المعطيات والروايات التاريخية، في مواطن من مؤلفه الماتع (المقدمة)، فميز بذلك بين الصحيح منها والسقيم، والقوي والضعيف، فكشف بذلك عن المغالطات التي وقع فيها كثير من المؤرخين وأئمة النقل، وفي ذلك يقول ابن خلدون رحمه الله: " وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات، إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولا بدّ من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد.¹

على أن أصول الفقه، كما يقول أستاذنا طه العلواني رحمه الله تعالى: "هو قواعد منهجية بعضها ما يزال صالحا لأن يتصف بأنه محدد منهجي، أو قاعدة منهجية. وبعضها لم يعد صالحا لذلك".² ومعنى هذا أن قضية توظيف المنهج الأصولي في ما يسمى بالعلوم الإنسانية، يحتاج إلى تحديد طبيعة القواعد المنهجية المنطوية في علم الأصول، وإفرادها ببحوث مستقلة، مع بيان وظيفتها ومقصدتها المنهجية.

وقضية توظيف المنهج الأصولي في العلوم الاجتماعية، ومدى إفادة العلمين بعضهما من بعض، قد سبق للمعهد العالمي للفكر الإسلامي أن فتح بابها، وخاض غمارها، وحث الباحثين على اقتحام لججها، فكان سباقا إلى عقد ندوات وحوارات ونقاشات منذ سنة 1988م.³

¹ المقدمة، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دارنهضة مصر، ج 1، ص 292. 291.

² قضية في حوار تجديد علم أصول الفقه مع العلامة طه جابر فياض العلواني، محمد عوام، مرجع سابق، ص 25.

³ انظر علم أصول الفقه والعلوم الاجتماعية، جمال الدين عطية، محاضرة طبعها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 17/11/1988. والمنهج في علم أصول الفقه، عبد الحميد مذكور، بحث قدم إلى ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي، الجزائر 1989م. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الجزائر 1989م.

وهذا التوظيف، أعني به توظيف المنهج الأصولي في العلوم الاجتماعية، يأتي عند أستاذنا في سياق مشروع كبير ومهم وهو "أسلمة المعرفة"، الذي رسم خطته ومعاله، وسطر أهدافه وغاياته في دراسات كثيرة نظريا وعمليا، وعنه يحدثنا بقوله: "أن نمح كل الطاقات الممكنة لحركة "أسلمة المعرفة" في مجالات توجيه العلوم الطبيعية، وإعادة بناء العلوم الاجتماعية والإنسانية، وإن تطور هذه العلوم في وحدتها الكونية، سوف يشكل حافزا لمعظم الغربيين على الانفتاح على منهجنا أو اكتشافه أو الإفادة منه".¹

غير أن أستاذنا طه رحمه الله ما لبث أن طور هذا التوجه، بعد أن ساقه البحث للوقوف على أزمة العلوم الاجتماعية والإنسانية المنهجية والمعرفية، فاكشف بدائل تصلح أن تكون على حد تعبيره "منهجية قرآنية"، وهي ما يطلق عليها "المقاصد القرآنية العليا الحاكمة"، المُحددة في التوحيد، والتزكية، والعمران، لتكون حلا منهاجيا للخروج من وضعية المنهج المأزوم، وعن ذلك يحدثنا بقوله: "إن اتخاذ "أصول الفقه منهج بحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية" لن يخرجها من أزمتها، ولن يخرج المنهج العلمي الوضعي من أزمتها، كما أنه لن يستطيع إحداث "نقلة نوعية" في الفقه ذاته،...ولذلك فإنه لا بد من اكتشاف بدائل، والبديل عندي يتم بالكشف عن "المقاصد القرآنية العليا الحاكمة" بل يكاد ينحصر فيها من وجهة نظري المتواضعة".²

فالبديل المكتشف عند أستاذنا طه ينحصر -كما قال- في "المقاصد العليا الحاكمة"، تكون بديلا عن المناهج المأزومة، ولها أيضا وظيفة تصحيحية للمبغ الذي سارت فيه تلك "العلوم النقلية" والعلوم الإنسانية والاجتماعية.³

ومعنى هذا أن الوظيفة المنهجية الحاكمة لهذه العلوم، ستصبح منضبطة بالمقاصد العليا، مما يجعل إعادة النظر في المناهج، وما ينبني عليها من أنساق معرفية، وما يتحصل من خلالها من نتائج، محكومة بالمقاصد القرآنية العليا الحاكمة، فهي الميزان المقاصدي لضبط المناهج ومستلزماتها ونتائجها.

¹ أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، مرجع سابق، ص 39.

² نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية مراجعات منهاجية وتاريخية، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى 1430هـ/2009م، ص 17.

³ انظر المرجع السابق، ص 18.

فالمقاصد العليا الحاكمة، إنما هي بمثابة الميزان، والمناهج إنما هي من باب الوسائل، ولا جرم أن تعدد الوسائل الناجعة، المفضية إلى المقاصد الكلية الحاكمة، لا يخرجها عن كونها مطلوبة، إذا تحقق مقصودها منها. بمعنى أن علم أصول الفقه يصلح أن يتخذ منهج بحث ومعرفة في العلوم الاجتماعية والإنسانية بشكل عام، وليس الاقتصار منه على ما يسميه الأصوليون بـ"الأدلة المختلف فيها"، أو على حد توصيف الدكتور منى أبي الفضل "الأدلة المشتقة". وإن كنا نرى أن هذا التوصيف في حاجة إلى بيان، لأنه سبق للشاطبي أن أطلق عليها لواحق الأدلة، سواء كانت لواحق نقلية، مثل الإجماع وقول الصحابة، وشرع من قبلنا. وعقلية مثل الاستحسان والمصالح المرسلة.¹

ومهما يكن من اختلاف حولها، سواء كان معتبرا أو غير ذلك، فإن توظيف القواعد الأصولية خارج دراسة الظاهرة الفقهية، التي تعنى بحركية الفعل الإنساني، وإعمالها في كافة العلوم الإنسانية لا يحتاج سوى سبر القواعد التي تصلح أن تؤدي وظيفة منهجية معرفية، لتحليل الظواهر الإنسانية في كافة هذه العلوم. فإذا ذاك يصح لدينا القول بتفعيل المنهجية الأصولية في العلوم الإنسانية، وهو إطلاق من العموم لا نجد ما يمكن أن يشكل اعتراضا عليه، بدل حصر ذلك في "الأدلة المشتقة"، ولا سيما إذا علمنا أن دائرة الاختلاف فيها قد لا نجد له مسوغا في بعضها، سوى اجترار للتاريخ والخلاف المذهبي، الذي يَسْقُط جزء كثير منه عند التحقيق، كما هو الشأن في المصلحة، وشرع من قبلنا، والعرف.

وهنا نود أن نتطرق إلى ما جنحت إليه الدكتور منى أبو الفضل، وسكت عنه أستاذنا طه العلواني، وفي هذا المقام السكوت تأييد، وليس من باب لا ينسب لساكت قول، لأن السياق كان يقتضي التوضيح والتعليق منه. يقول طه العلواني: "فقد أدركت د منى بثاقب نظرها أن ميراثنا من أصول الفقه" أوجد الكاتبون فيه من الوشائج بينه وبين الفقه ما جعله لصيقا بالظاهرة الفقهية، لا ينفصم عنها بحال. بحيث صار من الصعب استصحابه إلى

¹ انظر الموافقات، أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، 1395هـ/1975م، ج 3 ص 41. والفكر المنهجي العلمي عند الأصوليين، محمد عوام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة 1435هـ/2014م، ص 155.

مجالات العلوم الاجتماعية أو غيرها، بل إنه قد أصابه شيء من العقم في المجال الفقهي كذلك نتيجة النظرات الجزئية.¹

واستدلت على ذلك بكلام ابن عاشور في (مقاصد الشريعة الإسلامية) في نقده لعلم أصول الفقه، واستبداله بمقاصد الشريعة، قال: "قد استمر بينهم الخلاف في الفروع، لأن قواعد الأصول انتزعوها من صفات تلك الفروع، إذ كان علم الأصول لم يدون إلا بعد تدوين الفقه بزهاء قرنين، على أن جمعا من المتفقهين كان هزيبا في الأصول،... وقل من ركب متن التفقه... لذلك لم يكن علم الأصول منتهى ينتهي إلى حكمه المختلفون في الفقه، وعسر أو تعذر الرجوع بهم إلى وحدة رأي أو تقريب حال."²

ثم عقت على كلامه بما يفيد التأييد، فقالت: "بأنه ما دام الأمر كذلك، فإن من الصعب اتخاذ ميراثنا الأصولي (أي: كما هو) قاعدة الانطلاق في مجال المنهجية في العلوم الاجتماعية الحديثة... ما لم تتم عملية مراجعة شاملة له، تعتمد إلى وضع الجزئي في إطار الكلي، وتقابل المنحى اللفظي بمنحى فكري حكمي، وتعيد الموازين في الأسس التي تمتد جذورها العميقة في ميراثنا الحضاري المتميز."³

ونحن نعقب على التعقيب بما يحتاج إليه بشيء من التهذيب، وهو أن ما ذكره ابن عاشور رحمه الله ليس مسلما له بالجملة، ثم إن المناهج بصفة عامة لا تخلو من نقص، وتوظيف المنهج الأصولي في العلوم الإنسانية لا يعني ضرورة اعتماد جميع ما حواه في بطنه، وإنما قصاره جلب قواعد تصلح أن توظف في تحليل الظواهر الاجتماعية والإنسانية، وتساعد على تفكيكها وتحليلها.

وقد سبق لي أن علقت على كلام الشيخ ابن عاشور رحمه الله في بحث لي، أقتبس منه قولي: "إن الخلاف في الأصول إنما امتد إليه من خارج قواعده وأسسها، وبخاصة حينما اقتحم عليه علم الكلام الباب، وتسور عليه المحراب، فزج به في متاهات الجدل بدل العمل. ثم إن الخلاف ليس حاصلًا في أدلته وقواعده العامة الكلية، التي يشهد لها الاستقراء ويعضدها، مما

¹ نحو إعادة بناء علوم الأمة، مرجع سابق، ص 25.

² مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، الطبعة الثالثة 1988م، ص 5.6.

³ نحو إعادة بناء علوم الأمة، مرجع سابق، ص 26.

تفيد به القطع، بل هو واقع في جانب من جوانبه، التي يمكن إعادة النظر فيها وبلورتها من جديد بالحذف والتحوير والتطوير.

والمقاصد التي توصل بها الشيخ ابن عاشور لتحديد من الخلاف، هي نفسها ولدت من رحم علم أصول الفقه، والحكمة والتعليل منه انبثقت، وفي أحضانه ترعرعت، ومن ألبانه تغذت، واستوت على سوقها.¹

نعم يحتاج علم الأصول إلى مراجعة شاملة، وإبراز قواعده الكلية، وإعادة صياغة بعضها، خارج السياق التاريخي الذي ولدت ونشأت فيه، المشحون بمسلك الجدل، حتى تصير قواعد علمية منهجية، تمثل لبنة في إرساء المنهجية العلمية، التي يمكن توظيفها في العلوم الإنسانية والاجتماعية. أما الاستغناء عنه، واستبداله بمقاصد الشريعة، لكون الخلاف يغشاه، فهذا فيه نظر. وابن عاشور نفسه، صاحب الدعوى، لم يتخلص منه بالكيفية التي أراد.

ومهما يكن من أخذ ورد في هذه المسألة، فتبقى لأستاذنا وزوجه الريادة والسبق المنهجي، في إثارة الإشكالات المنهجية والمعرفية المتعلقة بقضية توظيف علم الأصول في العلوم الاجتماعية، ولم يظلا حبيسا ترديد المقولات الأصولية من غير نقدها وتمحيص الكلام فيها. وإن كنا نرى أن هذا الموضوع ما زال في حاجة ملحة، لمزيد من البسط والبحث.

وصفوة القول مما سبق بيانه في هذا المبحث، نقيده فيما يلي:

- التأكيد على أن الأزمة الفكرية هي عمق الأزمات والإشكالات المستفحلة في الأمة.
- عقلية التهنيج أو المنهجية أصبحت هي السمة البارزة للأمة المسلمة.
- قضية التجديد الأصولي ينبغي أن تعالج في سياقها الواقعي، وبعدها الزمني، واستشراف نتائجها المستقبلية،
- تفعيل المقاصد القرآنية العليا الحاكمة، للانتقال من التفكير الجزئي الذي هيمن على فقهاء إلى التفكير الكلي.

¹ الخلاف في علم أصول الفقه، محمد عوام، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 34/2014، ص 11.

- توظيف المنهج الأصولي في العلوم الإنسانية، وبخاصة في العلوم الاجتماعية، سيساعد على تقصيد هذه العلوم منهجيا ومقصديا وتنزيليا، والعمل على أسلمتها.
- إعمال المحددات المنهجية الأصولية في تحليل وتفكيك وتعليل الظواهر الاجتماعية، فتعتبر بذلك إضافة نوعية، وهو لون من توسيع المنهجية الأصولية، وضرب آخر من أسلمة المعرفة.

المبحث الثاني: معالم التجديد الأصولي عند العلامة طه العلواني.

فلئن كان المبحث الأول قد انصب على بيان قضية علم أصول الفقه وإشكالية المنهج، وتوظيف المنهج الأصولي في العلوم الاجتماعية، بحيث لم يعد علم الأصول مقتصرًا على تحليل الخطاب الشرعي والبحث في القضايا الدينية والشرعية، وإنما تُؤخى منه أن ينتقل من النظر في الظاهرة الفقهية، المتعلقة تحديدًا بالبحث عن الأحكام الشرعية إلى أفق أوسع وهو أن يصير منهجًا للنظر في الظواهر الاجتماعية والإنسانية بصفة عامة، فإننا خصصنا هذا المبحث بالحديث عن معالم التجديد الأصولي عند أستاذنا طه العلواني رحمه الله، بالتطرق إلى نماذج نحسبها وافية بالمقصود، وهو التدليل على الفكر التجديدي الأصولي عنده.

ومن ثمة فهناك علاقة وطيدة بين المبحثين، سواء على مستوى المنهج من حيث تفعيله وتحليل الخطاب الشرعي به، وتجاوز الأزمة الفكرية، أو بالوقوف على أهم القضايا الدالة على المقصود من هذا المبحث، وهي معالم التجديد الأصولي، وإن كنا ابتداءً، نقر أننا لم نستقر كافة كتب أستاذنا طه الموجودة بين أيدينا، لا لشيء، إلا أن أستاذنا لم يفرد قضية التجديد الأصولي بمؤلف خاص، جمع فيه نظراته التجديدية الأصولية، وإنما نجد في ثنايا تلك المؤلفات والبحوث، المتنوعة في أطروحاتها وقضاياها، معالم التجديد الأصولي.

لأجل ذلك قررنا أن نتناول أهم القضايا في معالم التجديد الأصولي عند أستاذنا طه العلواني فيما يلي:

أولاً: علم الأصول والمذهبية الكلامية.

نقرر ابتداءً ما جرى عليه العلماء، من أن علم أصول الفقه مستمد من علم الكلام، وفي هذا يقول الإمام أبو حامد الغزالي: "وجه استمداده (علم الأصول) من الكلام أن الإحاطة

بالأدلة المنصوبة على الأحكام، مبناها على تقبل الشرائع وتصديق الرسل، ولا مطمع فيه إلا بعد العلم بالمرسل.¹

فقد وضع علماء الكلام أيدهم على علم الأصول، وضمنوه مصطلحاتهم وقضاياهم، فامتزج العلمان، حتى اعتبر علم الأصول فرعاً لعلم الكلام، وهو ما عبر عنه علاء الدين السمرقندي (ت539هـ) بقوله: "اعلم أن علم أصول الفقه والأحكام فرع لعلم أصول الكلام. والفرع ما تفرع من أصله، وما لم يتفرع منه فليس من نسله. فكان من الضرورة أن يقع التصنيف في هذا الباب على اعتقاد مصنف الكتاب."²

غير أن أستاذنا طه لا يرتضي هذه العلاقة بين الأصلين: أصول الفقه وأصول الدين، لذلك ذهب إلى أن علم الأصول في غنى عن الخلفية الكلامية، أو أن تكون له أية صلة بعلم الكلام. وفي ذلك يقول: "الخلفية الكلامية يكفيننا فيما أن ندرس التوحيد بدقة وبشمول، نتعلم كيفنعكس أضواء التوحيد، وأنوار التوحيد على مناحي الحياة المختلفة. وكيف نجعل منه كلياً ننظر إلى الجزئيات من خلاله. أعتقد أن هذا يكفي ويغني تماماً عن أية خلفية كلامية أخرى موروثية...نحن الآن نتكلم عن مذاهب انقرضت وما بقي منها إلا معالم في غاية البساطة."³

ويرى أستاذنا طه أن "الجماعات الكلامية خلطوا بين الفلسفة وبين الكلام وبين علوم الأوائل. وخرجوا بتركيبة عجيبة غريبة جداً. ليس من السهل الاستمرار فيها." لذلك جنح إلى تجاوز المذهبية الكلامية، فليس علم الأصول في حاجة إليها البتة. "والله الغني عن ذلك الميراث الكلامي الذي لم يصبنا منه إلا المتاعب والمشاكل."⁴

¹ المنخول من تعليقات الأصول، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق محمد حسن هيتو، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية 1400هـ/1980م، ص60.

² ميزان الأصول في نتائج العقول، أبو بكر علاء الدين السمرقندي، تحقيق محمد زكي عبد البر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية 1418هـ/1997م، ص2.

³ قضية في حوار تجديد علم أصول الفقه مع العلامة طه جابر العلواني، دار الكلمة، مصر، الطبعة الأولى 1440هـ/2019م، ص29، 30.

⁴ المرجع السابق، ص30.

وهذا الموقف الذي اتخذته أستاذنا طه من علم الكلام أو المذهبية الكلامية، لا يعني بالضرورة التنكر له بالجملة، وإن كان قد انطوى على قواعد مهمة، ونفائس منهجية قيمة، بقدر ما يقصد صاحبه منه الالتفات إلى خالص التوحيد، باعتباره مقصدا كلياً، والتحاكم إليه، وصَبَّح جميع علومنا ومعارفنا وحياتنا به، بدل الانغماس في الجدل الكلامي الذي أغرق في النزاع، وأذهب النجعة، وهذا ما عبر عنه في بيانه لمعنى التوحيد وقيمته المعرفية والعقدية.

وإزاء ذلك يقول: "التوحيد -هو قمة الهرم في هذه المنظومة القرآنية، عنه تتفرع سائرهما، وعليه يقوم بناؤها. والتوحيد الذي يأخذ هذا الموقع من هذه المنظومة- هو ذلك الذي جاء القرآن المجيد به نقياً خالصاً سليماً من سائر الشوائب، فلو شابهته أية شائبة، أو خالطته الأخطا فقد نقاه، وبطلت فاعليته، أو ضعفت آثاره، وانطفأت جذوته، وتوقفت تجلياته".¹

وهو في الوقت ذاته، لا يريد أن يجعل لعلم الكلام حظاً أو سلطة معرفية على علم الأصول، لاختلاف الوظيفة أو الوظائف لكل واحد منهما. ولا أن يكون مستمداً منه، مما يعني أنه مستقل بنفسه، وقائم بذاته،² إن لم يكن علم الكلام هو الذي في حاجة إلى علم الأصول، في تحليل الألفاظ والمعاني العقدية، وبخاصة في مبحث الدلالات.

وهو ما بسط القول عنه القاضي عبد الجبار الهمداني المعتزلي (ت419هـ) فيما نصه: "وإنما نذكر الآن جمل الأدلة لوقوع الحاجة إليها في باب معرفة أصول الشرائع، والوعد والوعيد، والأسماء والأحكام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإمامة، لأن هذه الأبواب أصلها الأدلة الشرعية، فلا بد من بيان أصولها".³

وقد اعتبر عبد السلام بن محمد عبد الكريم كلام القاضي عبد الجبار "من أقوى ما يكون دلالة على أن أصول الفقه ممهدة للأحكام العقدية، كما هي ممهدة للفروع العملية".⁴

¹ التوحيد والتزكية والعمران، العلواني، مرجع سابق، ص12. وانظر نحو التجديد والاجتهاد، طه العلواني، مرجع سابق، ص22.

² انظر أصول الفقه الإسلامي منهج بحث ومعرفة، طه العلواني، مرجع سابق، ص12.

³ المغني في أبواب العدل والتوحيد، القاضي عبد الجبار الهمداني، ج17، ص92.

⁴ التجديد والمجددون في أصول الفقه، عبد السلام عبد الكريم، المكتبة الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى 1424هـ/2003م، ص347.

وأستاذنا طه يلتقي مع كثير من الدعوات التي علت في عصرنا الحاضر، ترمي إلى تخليص علم أصول الفقه من الجدل الكلامي، وتضعه في سكتة الحقيقية ليولد العمل، الذي هو الفقه. وهو ما عبر عنه حسن الترابي بقوله: "لا بد أن نقف وقفة مع علم الأصول، تصله بواقع الحياة." وعلل ذلك بكون "قضايا الأصول في أدبنا الفقهي أصبحت تؤخذ تجريدا، حتى غدت مقولات نظرية عقيمة، لا تكاد تلد فقها البتة. بل تولد جدلا لا يتناهى، والشأن في الفقه أن ينشأ في مواجهة التحديات العملية. ولا بد لأصول الفقه كذلك أن تنشأ مع هذا الفقه الحي".¹

وقال -أيضا- عن مآل أصول الفقه في سياقه التاريخي وبخاصة في عصور الانحطاط والتقهقر: "أن يؤول علم أصول الفقه -الذي شأنه أن يكون هاديا للتفكير- إلى معلومات لا تهدي إلى فقه، ولا تولد فكرا، وإنما أصبح نظرا مجردا يتطور كما تطور الفقه، كله مبالغة في التشعيب والتعقيد بغير طائل. وقد استفاد ذلك العلم فائدة جليلة من العلوم النظرية التي كانت متاحة حتى غلب عليه طابع التجريد والجدل النظري العقيم. وتأثر بكل مسائل المنطق الهيليني وبعيوبه كذلك".²

نعم قد أحس غيرهم من المتقدمين مثل أبي الحسين البصري، والغزالي بهيمنة علم الكلام على الأصول واختلاطه به، فأرادا تخليصه منه، لكنهما مع ذلك لم يفلحا، وإنما بقيا وفيئين إليه إلى حد ما، وهو ما عبر عنه الغزالي في مستصفاه بقوله: "وبعد أن عرفناك إسرافهم في هذا الخلط، فإننا لا نرى أن نخلي هذا المجموع عن شيء منه، لأن الفطام عن الألوف شديد، والنفوس عن الغريب نافرة".³

ولئن تردد هؤلاء العلماء في التخلص من تأثيرات المذهبية الكلامية في علم الأصول، أو على الأقل تخفف بعضهم من أعبائها، وهم في ذلك قلة، فلا جرم أن ميزة أستاذنا طه، ومنحاه التجديدي فيها أن رفض إدخال أو خلط علم الكلام وعلوم الأوائل بعلم الأصول، وكأني به

¹ تجديد الفكر الإسلامي، حسن الترابي، دار القرافي، المغرب، الطبعة الأولى 1993م، ص 34.

² المرجع السابق، ص 36.

³ المستصفى من علم الأصول، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق حمزة حافظ، شركة المدينة المنورة، جدة، د.ت، ج1 ص 27. وانظر المعتمد في أصول الفقه، أبو الحسين محمد بن علي البصري المعتزلي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1403هـ/1983م، ج 1، ص 3.

يحسبها من مسائل الفضول، وليست من مسائل الأصول. وهذا يعبر عن إدراكه لوظيفة الأصول المنهجية في بناء الأحكام الشرعية، وهو لون من التقصيد لهذا العلم.

ثانيا: أصول الفقه والكليات المقاصدية القرآنية العليا الحاكمة.

لقد أولى أستاذنا طه عناية كبيرة لقضية الكليات، وإعمالها في الاجتهاد والقضايا المعاصرة، بدل الركون إلى التفكير الجزئي، الذي استحوذ على تفكيرنا الفقهي، حتى غدا فقها له ولع وشغف كبير بالجزئيات، وقد اعتبر أستاذنا هذا المسلك من الأمراض والانحرافات الخطيرة، التي أصابت أمتنا، حين استنكفت عن مسلك الكليات، وعكفت على الجزئيات، تبغي من وراءها حل المضكلات.

وحديث أستاذنا طه عن الكليات المقاصدية في سياق التجديد الأصولي -لأنه بالرغم من كون علم أصول الفقه عبارة عن قواعد كلية مجردة، تنزل على القضايا الجزئية بالتفصيل، حينما يعملها الفقيه، فإنه لا جرم في صميم التجديد لعلم الأصول، ذلك بصرف الفقيه عن النظر الجزئي إلى إعمال النظر الكلي، المتمثل في أهم القضايا وذلك باعتماد المقاصد العليا الحاكمة: التوحيد، والتزكية، والعمران، وبها ينبغي أن يعبر ويزن كافة القضايا، بدل الركون إلى القضايا الجزئية.

وبناء عليه فإن هناك تكاملا منهجيا ومعرفيا بين المقاصد العليا الحاكمة والمنهج الأصولي المتداول والمعروف، بل إن هذه المقاصد العليا الحاكمة، ينبغي أن تكون هي المعيار الحاكم على كافة القواعد الأخرى، ويجب مراعاتها فقها وتنزيلا وتنظيرا، لأنها قطعية. لكثرة الشواهد الدالة عليها.

وأستاذنا طه حين ينادي بإعادة الاعتبار للكليات والمقاصد الشرعية العليا الحاكمة، باعتبارها "كليات مطلقة قطعية" ووردت بها -على حد قوله: "رسالات الأنبياء كافة، ذلك لأنها تعبر عن وحدة الدين، ووحدة العقيدة، ووحدة المقاصد والغايات في جميع الرسالات، وإن تعددت بعض جوانب الشرائع وتنوعت".¹ فإنه يتقصد من ذلك أن تكون لها وظائف علمية وعملية، منها:

¹ مقاصد الشريعة، طه العلواني، دار الهادي لبنان، الطبعة الأولى 1421هـ/2001م، ص 138.

أولاً: وظيفة عرض القواعد الأصولية على هذه المقاصد العليا الحاكمة، حتى تُمحص ويُعاد النظر فيها، فهذه نحسبها وظيفة نقدية ومنهجية، نبه إليها أستاذنا طه، فهو يرى بذلك أنه "لكي يتحقق التجديد، لا بد من إعادة عرض هذه القواعد على المقاصد العليا الحاكمة: التوحيد، والتزكية، والعمران".¹

وعلى ضوء ميزان المقاصد العليا الحاكمة، جنح أستاذنا طه إلى إعادة النظر فيما دأب الأصوليون على تسميته بـ"الأدلة المختلف فيها"، فتحاكم وتغير، بهذا الميزان، وفي ذلك يقول: "أصول الفقه ليتجدد يحتاج إلى أن يعاد ربطه بمحاور القرآن المجيد وكمالياته بشكل دقيق، وتدريب طالب العلم على كيفية ربط الجزئي بالكلي. ويجب أن نحاكم هذه الأدلة المختلف فيها إلى المقاصد العليا الحاكمة وكماليات القرآن. وذلك أن معظم هذه الأدلة قد قامت على أدلة ضعيفة في غالبيتها".²

غير أن ما سعي بـ"الأدلة المختلف فيها"، أو على حد تعبير الإمام الغزالي "الأدلة الموهومة"، قد كان من وراء الاختلاف فيها النزعة المذهبية، فلذلك وقع الاختلاف فيها، لكن يبقى السؤال: هل سنستصحب هذا الخلاف، ونظل نردد الأدلة المختلف فيها أو الموهومة، من غير تمحيص وتدقيق، ولو كان الخلاف فيها ضعيفاً، لا يركز على مستند قوي، مثل ما وقع في المصلحة، والاستحسان، وشرع من قبلنا، أم أننا في حاجة لرفع الخلاف بعد التمحيص والتحرير والتحقيق في مستند الخلاف؟.

طبعاً إذا كان معيار المقاصد العليا الحاكمة جزءاً من إعادة النظر في مثل هذه القواعد الأصولية، فإنه من غير شك، أنه سيرفع الخلاف عنها، كما أن التطبيقات الفقهية كفيلة برد الخلاف الأصولي النظري التجريدي، إذ طفق المنكرون يستشهدون ويعملون هذه الأدلة في كثير من المسائل التطبيقية، ألفينا ذلك لأئحاً في تضاعيف مصنفاتهم، ومنبته في مؤلفاتهم، مما يؤكد أن الخلاف فيها لم يكن إلا خلافاً مذهبياً.³

¹ قضية في حوار، عوام، مرجع سابق، ص 24.

² المرجع السابق، ص 22، 23.

³ انظر الإمام الغزالي وأثره في الفكر الأصولي، محمد عوام، بحث دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سنة 1994، ص 146.

ثانيا: ذهب أستاذنا طه إلى أن يجعل من هذه الكليات حاكمة على الجزئيات، ويرد الجزئي إلى الكلي، فيدور في فلكه، لا أن يقع العكس، بأن يصبح للجزئي سلطة حاكمة على الكلي، بعدم تفعيله وتغييره، مما يفصح عن غبش في الرؤية المعرفية، وهيمنة التفكير الجزئي التجزئى على الاجتهاد، فينتج عنه عقم التغيير وسيطرة التقليد والجمود. ففي سياق حديثه عن (آثار تجاوز علم الأولويات) ذكر من أسباب ذلك: "الاستغراق بالجزئيات والتفاصيل، والانشغال عن الكليات، والعجز عن رد الجزئيات إلى الكليات والفروع إلى الأصول، وفهم العلاقة الدقيقة بينها".¹

وبهذا ألفينا أستاذنا طه، يتأخى من هذه المقاصد العليا الحاكمة، أن تكون حاكمة للقواعد الأصولية وللإجتهاد الفقهي، حتى تصبح لها امتدادات تشريعية. فهو بذلك يجعل منها مقاصد حاكمة على غيرها، بل لها دور بارز في سد الفراغ التشريعي في أفق الامتداد الزمني والواقعي، وهو ما يؤكده بقوله رحمه الله: "وبذلك تصبح المقاصد أو القيم العليا الحاكمة، التي يمكن أن نخضع لها سائر المقاصد الأخرى، ونجعلها إطارا للتجديد هي هذه المقاصد الثلاث: التوحيد، والتزكية، والعمران. وإعطاء أصول الفقه الامتدادات اللازمة، لتغطية الامتدادات اللازمة، لمأ الفراغ التشريعي والبت في أحكام المستجدات، وفقا لهذه المقاصد الكليات".²

وكل هذا يندرج عند أستاذنا طه في مسألة رد الاعتبار للكليات الحاكمة، والبعد عن اعتماد الدليل الجزئي، الذي قد لا يفي بالمقصود، لأجل ذلك نأى بجانبه عنه، ويؤكد ذلك بقوله في سياق بيانه لمنحاه التجديدي لأسس الكليات: "رد الاعتبار إلى الكليات القرآنية والكليات الشرعية -بوجه عام- بعد أن كاد الانشغال بالدليل الجزئي ودقائقه يطمس الأهمية البالغة لتلك الكليات ويعطل تشغيلها".³

وهذا النمط من التفكير، المستند إلى الكليات تفعيلا، وتقصيذا، وتنزيلا، سوف يفضي بنا لا محالة -حسب أستاذنا طه- إلى التمكن "دون شك، من تلبية حاجتنا الفقهية، والإجابة عن الأسئلة الهادفة ببسر وسهولة. ودون حاجة إلى لِي أعناق الفقه القديم، والتحليل

¹ مقاصد الشريعة، طه العلواني، دار الهادي لبنان، الطبعة الأولى 1421هـ/2001م، ص78.

² قضية في حوار، محمد عوام، مرجع سابق، ص21.

³ التوحيد والتزكية والعمران، طه العلواني، مرجع سابق، ص10.

على النصوص، أو البحث عن المخارج والحيل، وما إلى ذلك من أمور لا تتناسب ومقاصد الشارع. وسنكون بمنجاة من الوقوع في الحرج الذي نعاني منه في كثير من الأسئلة والوقائع المثارة.¹

ولئن كان هذا المنحى التجديدي بإعمال المقاصد الكلية العليا الحاكمة في تمحيص القواعد الأصولية، فيرفع عنها الخلاف كما سبق بيانه أنفاً، فلا جرم أن أستاذنا يُفعل الكليات والمقاصد العليا الحاكمة في نقد المتون، وتوجيه دلالتها، ليخرج بها عن النظر الجزئي، ودواعي التعطيل والتأويل الفاسد، حتى تكون دلالتها من السعة والرحابة بمكان. وفي ذلك يقول: "وهذه المقاصد العليا الحاكمة يمكن أن تساعدنا، مع مقاييس نقد المتون، لَنُمَيِّزَ بعض السنن، ومعرفة كيفية ربطها بالقرآن الكريم، فلا يقع نسخ، ولا تعارض، ولا تعادل بينهما."²

والجديد عند أستاذنا طه ليس في قضية عرض السنة على الكتاب وكلياته، وإنما في تحويلها إلى منهج متبع، ومبدأ ملزم وملزم ابتداء في آن واحد. وهو يقر بأن الفكرة قد عمل بها منذ القرون الأولى المنصرمة، زمن الصحابة وما تلاه. ويحدثنا عن هذه المسألة مبرزاً رأيه فيها بقوله: "إن فكرة عرض الحديث على الكتاب فكرة سليمة لا غبار عليها، والقول بها ليس بدعة ولا حدثاً في الدين. فقد كانت موجودة في عصر الصحابة، استعملها مَنْ أَكْثَرَ الرواية منهم ومن لم يكثر. ولكنهم في الواقع لم يستعملوها على أنها مبدأ ملزم به، بل على أنها حكم عند التنازع، وأصل يرجع إليه عند الاختلاف أو الشك في صحة بعض الأحاديث."³

وبهذا ترى أن أستاذنا طه أخرج المسألة من دائرة الأعمال المقصور على التنازع والخلاف، لتصبح منهجاً ينبغي الالتزام به، وإعماله ابتداء في نقد المتون، وتمحيصها، وبيان ما بها من علل، وليس فقط عندما يخالغ العالم الشك. وهذا فرق دقيق بين أن تصير القضية متعلقة بمنهج عام، لا يقبل التجزئة، وبين أن يكون العمل بها مقصوراً على مسائل معينة ومحددة، أثرت حولها الشكوك، وعدم الاطمئنان.

¹ قضية في حوار، محمد عوام، مرجع سابق، ص 22.

² المرجع السابق، محمد عوام، ص 23. وانظر إشكالية التعامل مع السنة النبوية، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنند فيرجينيا، الطبعة الأولى 1435هـ/2014م، ص 374.

³ إشكالية التعامل مع السنة النبوية، طه جابر العلواني، مرجع سابق، ص 173.

وبناء على هذا المنهج، جنح أستاذنا طه العلواني رحمه الله إلى عرض جميع شعب الإيمان الواردة في الحديث الصحيح: "الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"¹ على المقاصد العليا الحاكمة والكليات الشرعية. فعندها سنخرج من دائرة الضيق الناشئ عن التفكير الجزئي، الذي ينتهجه كثير من الفقهاء إلى رحابة وسعة التفكير الكلي، فنقدم الكلي الحاكم على الجزئي المحكوم.

ولعل هذا المثال التطبيقي منه، يفصح عن منحاه هذا، وهو حديث المرأة التي دخلت النار في هرة. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، فدخلت فيها النار، قال: فقال والله أعلم: لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض».²

قال أستاذنا طه في الحديث مُطَبِّقاً عليه الكليات، وراداً على من ظن أن الحديث يسوي بين المرأة والهرة، لمجرد الشبهة: "وحيث ننظر في الكليات القرآنية والمقاصد الحاكمة نجد أن العمران يقوم على الاستخلاف. فالمرأة مستخلفة في هذه الأرض. والقطعة جزء مما استخلفت فيه. ومطالب العمران تقتضي أن تقوم هذه المرأة المستخلفة بحماية هذا الحيوان ونحوه، لا بقتله. فإذا فعلت ضد ذلك، خانت أمانة الاستخلاف، فيكون دخولها النار، لا لأن هناك تسوية بينها وبين القطعة، بل لأنها خانت أمانة الاستخلاف."³

ولئن نص الحديث عن هذه الشعب الإيمانية جملة، فإن منها أصولاً، ومنها فروعاً وجزئيات، مما يقتضي حمل تلك الفروع والجزئيات على منطق تلك الكليات، حتى تعار بمعيارها، وتوجه على وفق مقتضياتها الكلية، دون لجوء إلى التلفيق والتأويل، أو غيرهما مما قد يعطلها. وهذا ما بسط القول فيه أستاذنا طه فيما نصه: " فحينما يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق." إذن من لا إله إلا الله إلى إمطة الأذى عن الطريق. عندنا حوالي سبعين

¹ أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان، رقم: 58.

² أخرجه البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، رقم 2365.

³ قضية في حوار، محمد عوام، مرجع سابق، ص 23.

خصلة أو أكثر. بعضها أصول، وبعضها جزئيات. هذه الجزئيات هي التي يفترض أن يشملها التوحيد وينعكس عليها، كما شمل الأصول، فيعطيها الصفة التوحيدية، أو يجعلها معززة بالتوحيد.¹

وعلى ضوء الكليات المقاصدية العامة العليا، فإن المبدأ عند أستاذنا طه تقديم "القاعدة العامة" المؤسّسة، التي جاءت بها آيات الكتاب المجيد على الأحاديث المناقضة لها في الظاهر، لأن الكتاب له الحاكمية المطلقة، وصير إلى التأويل إن أمكن ذلك. يقول رحمه الله في سياق حديثه عن أصول فقه للأقليات المسلمة: "الاعتراف بحاكمية الكتاب الكريم وأسبقيته، وأنه قاض على ما سواه بما في ذلك الأحاديث والآثار. فإذا وضع الكتاب الكريم قاعدة عامة – مثل مبدأ "البر والقسط" في علاقة المسلمين بغيرهم- ووردت أحاديث أو آثار يتناقض ظاهرها مع هذا المبدأ، كالمزاحمة في الطريق، أو عدم رد التحية بمثلها أو أحسن منها، تعين الأخذ بما في الكتاب، وتؤول الأحاديث والآثار إن أمكن تأويلها، أو ردها إن لم يكن ذلك."²

وأستاذنا طه حين يرسم هذه المعالم المنهجية انطلاقاً من الكليات العامة والمقاصد الشرعية الحاكمة، فلا جرم أنه يؤسس لبناء منهجي تكاملي، يعني يتكامل فيه البيان والمبين، في "وحدة بنائية"، تكون الكليات هي الحاكمة، وهي المفسرة، وإليها يؤول البيان، ونكون بذلك بمعزل عن التفكير الجزئي، الذي اعتمد في حل إشكالات معرفية، متعلقة ببعض الأحاديث التي اصطلح عليها بمشكل الحديث، أو مختلف الآثار والحديث.

وقد أفاض رحمه الله في بيان هذا المسلك في كثير من المواطن من كتبه، لاسيما المتأخرة منها، من ذلك هذا النص، نجلبه هنا بالرغم من طوله لأهميته في الدلالة على منهج الوحدة البنائية بين القرآن والسنة النبوية، من خلال المقاصد العليا الحاكمة، وفي ذلك يقول: "في دائرة بيان السنة النبوية للقرآن المجيد وإطار العلاقة الوثيقة بينهما تبدو علاقة البيان بالمبين بأجلى صورها وأوضحها في بيان السنة الثابتة الصحيحة لهذه المقاصد العليا الحاكمة – كما نزل القرآن المجيد بها، فإن السنة والسيرة تبدوان تطبيقاً عملياً للقرآن في مقاصده العليا الحاكمة، تتكامل السنة معه في وحدة بنائية، تُقرأ وتفهم في ضوءها آلاف

¹ المرجع السابق، ص 22.

² مقاصد الشريعة الإسلامية، طه العلواني، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى 1421هـ/2001م، ص 103.

الأحاديث الصحيحة والأفعال والتصرفات النبوية الثابتة- التي أدخلتها القراءات الجزئية المعضأة ولا تزال في دوائر "مختلف الحديث" و"مشكل الآثار" ونحو ذلك،¹

ثالثاً: ترتيب الأدلة.

ترتيب الأدلة من المسائل التي خاض فيها الأصوليون، ما من مصنف أصولي إلا ونجده قد بُني على تراتبية محددة للأدلة، وهو الشيء اللافت للنظر، ولم يكن ذلك منهم اعتباطاً، وإنما راجع ذلك إلى مفهوم الدليل نفسه، الذي أثر في البنية المعرفية لعلم الأصول، وإلى تفاوت درجات الأدلة، وقوة حجيتها الاستدلالية.²

وأستاذنا طه رحمه الله له وجهة نظر في الأدلة الأصولية، فلم يكن بذلك بدعاً من الأصوليين، مما يفيدنا في الكشف عن منحاه التجديدي فيها. فهو يصرح بأن الترتيب الذي جرى عليه الأصوليون (الكتاب والسنة والإجماع والقياس) لا يتبناه، ولا يقول به. وعلى حد تعبيره: "لا أراه هو الموقف الأسلم". وعلل ذلك "أنه لدينا مصدر واحد منشئ هو القرآن الكريم".³ وأدلته على ذلك نقيدها فيما يلي:

أولاً: أن القرآن المجيد تبيان لكل شيء، فهو بذلك مطلق وكلي، "والمطلق لا يتناهى"، بحيث يشمل كل الوقائع والجزئيات النسبية، من هنا يرى أستاذنا طه أن "ملايين أو بلايين الجزئيات أمام كليات القرآن مندرجة ومضمومة. ولا يمكن أن تندّ جزئية عنها، لو عرفنا كيفية التعامل مع كليات القرآن الكريم والسنة التي تبين لنا الذي يختلف فيه".⁴

وهذا المنطق المعتمد على الكليات القرآنية، في استيعابها لكافة الجزئيات، يرد أستاذنا طه على القول القائل بأن "النصوص متناهية والوقائع غير متناهية"، التي ألمع إليها الشهرستاني في (الملل والنحل)، وروح لها من جاؤوا بعده. ويعتبرها أستاذنا طه فكرة قد "جنت

¹ مقاصد الشريعة الإسلامية، طه العلواني، مرجع سابق، ص 137، 136.

² أنظر الفكر المنهجي العلمي عند الأصوليين، محمد عوام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندين، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى 1435هـ/2014م، ص 153.

³ قضية في حوار، محمد عوام، مرجع سابق، ص 31.

⁴ المرجع السابق، ص 32.

على العقل الفقهي والأصولي جناية كبيرة، ينبغي إعادة النظر فيها.¹

وقد يُرد بأن المقصود من تناهي النصوص، من حيث عددها، فهي محصورة بين دفتي الكتاب، معدود آيها، وليس المقصود بذلك دلالتها، التي تشمل الكليات والعمومات. وهذا ما يبدو من كلام الشهرستاني، الذي جزم به في قوله: "نعلم قطعاً وبقيناً أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد، ونعلم قطعاً أيضاً أنه لم يرد في كل حادثة نص، ولا يتصور ذلك أيضاً، والنصوص إذا كانت متناهية، والوقائع غير متناهية، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار، حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد."²

نعم قد تكون جناية قضية تناهي النصوص، من حيث أسيء فهمها، فتمحض عنها سوء في التنزيل والتطبيق، نتج عنه العناية بالجزئيات وهيمنة التفكير التجزيئي، مع ضمور بين واهتمام ضعيف بالكليات والتفكير الكلي. من هنا دخل النقص على العقل المسلم، الذي انغمس في بحر الجزئيات.

ثانياً: أن أستاذنا لا يقول باستقلالية السنة عن القرآن بالتشريع، إنما هي بيان له، وتابعة له، فهي بهذا المعنى التبعية تدور في فلكه، وهو ما عبر عنه بقوله: "فأنا لا أفصل السنة وأجعل لها كيانا مستقلاً عن القرآن، لأنني لا أؤمن بتناهي النصوص...السنة النبوية المطهرة ليست مصدراً ثانياً، بل مصدر مبين تقف إلى جانب القرآن، جاهزة للبيان...فالسنة موقعها إلى جانب القرآن، ليست بعيدة عنه. تدور حوله حيث دار، وتدور حول محوره بدون أي اختلاف، أو تناقض، أو تناسخ."³

فالعلاقة بين القرآن والسنة علاقة بيان، التي تحدد العلاقة الطبيعية بينهما، وهو بهذا يؤسس لما سماها بـ "نظرية البيان القرآني"، مستنكفاً عن المعنى الأصولي والكلامي، الذي جاء -حسب أستاذنا طه- متجاوزاً المعنى القرآني التأسيسي المحدد لهذه العلاقة. فتكون

¹ المرجع السابق، ص 33.

² الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد بن فريد، المكتبة الوقفية، القاهرة، د.ت، ج 1، ص 205.

³ قضية في حوار، محمد عوام، مرجع سابق، ص 33، 34. وانظر نحو منهجية معرفية قرآنية، طه جابر العلواني، دارالهادي، بيروت، الطبعة الأولى 2004/1425م، ص 192.

بذلك السنة كما يقول أستاذنا طه: "بيان تأويلي وتفعيلي للقرآن المجيد، لا تخرج عن محوره، ولا تدور خارج مداره، ولا تستقل عنه، بل هي ملازمة له ملازمة تامة، تدور معه حيث دارت."¹

وقد أفاض أستاذنا طه في الاستدلال لهذه النظرية من القرآن الكريم، بناء عنده على أن القرآن هو المنشئ للأحكام، والسنة بيان له، مما لا يقتضي أي تراتبية واستقلالية للسنة. يؤكد ذلك بقوله: "لا يشعر المسلم بوجود فاصل بين الكتاب الكريم والسنة النبوية، فالكتاب ينشئ الحكم، ورسول الله ﷺ يتبع الكتاب وينفذ ما جاء فيه، ويقدم للناس منهج اتباعه، لكن المعارك الدائرة -آنذاك- بين أهل الرأي وأهل الحديث هي التي جعلت الأمور تأخذ هذا الشكل الذي أدى إلى كثير من التصورات الخاطئة."² ويخلص من هذا كله إلى أن "القول باستقلالية السنة بالتشريع أمر غير واقع."³

ثالثاً: أن أستاذنا طه ربط ظهور دليل الإجماع بالخلفيات السياسية، وحتى إذا ما ارتبط بالمعلوم من الدين بالضرورة، -فهذا حسب رأيه- "لا يحتاج إلى إجماع عليه."⁴ وفي سياق نقده لفكرة الإجماع وكيفية نشوئها قال: "إننا أمة قد أصلت لفكرة "الإجماع"، واعتبرته دليلاً من أهم أدلتها الشرعية، فصار كثيرون من أبناء الأمة ينظرون إلى "النقد المعرفي" على أنه مُفرّق، مناف للإجماع الذي ينبغي أن يكون هدفاً لسائر أبناء الأمة وفصائلها."⁵

وعلى ضوء معيار المراجعة القرآنية للأدلة الأصولية، جنح أستاذنا طه إلى أنه إذا كان لا بد للإجماع من مستند، فإن ذلك المستند يرجع إلى القرآن الكريم والسنة المبينة، فمن الخطأ تقديم الإجماع على القرآن، وأن تلك الإجماعات إذا تعارضت معه، كان "لا بد من مراجعتها على ضوءه وهديه، لما يتصف به من التصديق والهيمنة."⁶

تلك وجهة نظر أستاذنا في هذا الدليل الأصولي الإجماعي، وذاك إشكاله حوله، ومن حقنا أن نتساءل هل الإجماعات تعارض القرآن الكريم؟ وهل تقديم الإجماع على الكتاب

¹ إشكالية التعامل مع السنة النبوية، طه العلواني، مرجع سابق، ص 156.

² المرجع السابق، ص 161.

³ قضية في حوار، عوام، مرجع سابق، ص 35.

⁴ المرجع السابق، ص 37.

⁵ نحو التجديد والاجتهاد، طه العلواني، مرجع سابق، ص 41.

⁶ المرجع السابق، ص 158.

المجيد، تقديم في الرتبة الأصولية أم تقديم في التنزيل الفقهي على اعتبار أنه مبني على مستند، وهذا المستند يُرجع إليه ابتداء وانتهاء؟ ألم يحقق العلماء في كثير من المسائل التي ادعي فيها الإجماع؟

فلا ريب أن الإجماع عند المحققين يرجع إلى النص من حيث دلالته، وهو دليل على رفع الاحتمال في الفهم، وقطع الظنية، بما يؤكد وحدة الفهم والتصور عند المجتهدين في مسألة ما. وليس في ذلك أي تقديم للإجماع على القرآن الكريم. ولا يخفى أن الإجماع -أيضا- ليس حجة في نفسه، وإنما هو حجة لتضمنه للدليل على ما حكاه الجويني والشريف التلمساني وغيرهما. قال إمام الحرمين الجويني في سياق حديثه عن مسالك إثبات حجية الإجماع: "فإن ذا التحصيل، لا يطمع فيكون إجماع الناس حجة لعينه، وإنما المطلوب المكتفى به استناده إلى حجة".¹ وقال أبو عبد الله الشريف التلمساني: "وإنما كانا (الإجماع وقول الصحابي) متضمنين للدليل، لأنه يحرم على الأمة وعلى الصحابي الحكم في مسألة من المسائل من غير استناد إلى دليل شرعي".²

وهنا نتساءل هل اعتماد معيار المراجعة القرآنية للأدلة الأصولية معيار يمكن أن يبطل بعض الأدلة والقواعد الأصولية المنتجة للفقهاء ومنها الإجماع؟

ومهما يكن من أمر، فإن دليل الإجماع من حيث المبدأ مسلم، ولم ينازع فيه إلا قليل من أمثال النظام المعتزلي، أما من حيث واقع الإجماعات والادعاءات الملتفة حولها، فهذه لم تسلم من المراجعة والبحث عن مدى وثوقيتها.³

رابعاً: أكتفي هنا فقط بتناول قاعدة أصولية، كان مثار خلاف وجدال بين الأصوليين، وهي شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا؟

¹ البرهان في أصول الفقه، أبو المعالي عبد الملك، تحقيق عبد العظيم محمود الديب، دار الوفاق، المنصورة، 1412هـ/1992م، ج1، ص438.

² مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، أبو عبد الله الشريف محمد بن أحمد التلمساني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الخانجي، مصر، 1962م، ص144.

³ أنظر قواعد الفقه، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقرئ، تحقيق محمد الدردابي، دارالآمان، الرباط، 2012م، ص137.

وقد أبدى أستاذنا طه اعتراضا عليها، بناء على معيار المراجعة الذي حدده أنفا. وموقفه من شرع من قبلنا مبني عنده على أن شريعتنا ناسخة لشريعة السابقين، المتضمنة للأصار والأغلال، التي طوقتها، فمن ثمة لا داعي للتمسك بشرائع السابقين، واعتبارها شرع لنا ما لم يرد ناسخ. وهو ما يرفضه أستاذنا ويجعله ضمن الدخيل على أصولنا وتراثنا الفقهي. وهو ما ينتقده عليهم في قوله: "فقد تعامل بعض الفقهاء مع كل شرائع الإصر والأغلال باستعداد كامل من بعض أصولييننا، للنظر فيما يأتي من يهود على أنه أصل مهم، يمكن أن يستفاد منه حكم، أو توجه، أو يستأنس، وبذلك أعطى لأخبار وعلماء تلك الشرائع مرجعية خاصة، تجعل الأمر وكأن الرسول ﷺ وأصحابه، مطالبون بالرجوع لأصحاب تلك الأديان والشرائع".¹

ومما اتكأ عليه أستاذنا طه في رد قاعدة "شرع من قبلنا شرع لنا"، أنها تفضي إلى وحدة طبيعة التكليف في الشرائع، وهذا من باب المحال، وهو ما عبر عنه بقوله: "فإذا كان شرع من قبلنا شرع لنا، فقد يعني ذلك أن طبيعة التكليف في شريعتنا كطبيعة التكليف في شرائعهم، وذلك محال".²

والحق أن هذه الاستدلالات فيها نظر، وبالرغم من محبتي له وعلاقتي المتينة به، فإنني لا أرى ما ادعاه وافيا بالمقصود مما أراد، ذلك أن القول بـ "شرع من قبلنا شرع لنا" عند المحققين، لا يعني البتة الرجوع إلى شرائعهم، أو الأخذ بما كانوا عليه من الأصار والأغلال التي حيطت بهم، وشرعوها لأنفسهم، وإنما يعني عندهم الأخذ بما ورد في القرآن الكريم، وسكت عنه، فلم يقره ولم يبطله. فهنا بنى عليه العلماء، واستنبطوا منه، لتوسيع دائرة الاجتهاد بناء على هيمنة القرآن وتصديقه، فتكون القاعدة صحيحة بهذا الاعتبار. لا على أساس الأخذ بما عندهم.

وهذا ما جنح إليه المحققون والأخذون به، لا على أنه قبيل المثبت في كتبهم، وإنما لأنه ورد في كتابنا. وعن ذلك يحدثنا السرخسي بقوله: "وأصح الأقاويل عندنا أن ما ثبت بكتاب الله أنه كان شريعة من قبلنا، أو ببيان من رسول الله ﷺ فإن علينا العمل به على أنه شريعة لنبينا عليه السلام، ما لم يظهر ناسخه. فأما ما علم بنقل دليل موجب للعلم على أنهم حرفوا

¹ المرجع السابق، ص 75.

² المرجع السابق، ص 77.

الكتب، فلا يعتبر نقلهم في ذلك لتوهم أن المنقول من جملة ما حرفوا، ولا يعتبر فهم المسلمين ذلك مما في أيديهم من الكتب، لجواز أن يكون ذلك من جملة ما غيروا وبدلوا.¹

فالأخذ بشرع من قبلنا، بعد تحقيق المراد منه، هو أخذ بالقرآن الكريم، وللشاطبي في ذلك قاعدة جليلة القدر، كثيرة النفع، تفيد ذلك، وإن كان الذين سبقوه قد عملوا بها، يقول رحمه الله في (الموافقات): "كل حكاية وقعت في القرآن، فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها، وهو الأكثر، رد لها، أو لا، فإن وقع رد، فلا إشكال في بطلان ذلك المحكي وكذبه، وإن لم يقع معها رد، فذلك دليل صحة المحكي وصدقه."²

وإذا كانت هذه القاعدة سليمة من حيث البناء عليها، وفقا لاعتبارات المثبتين، ولكونها راجعة للقرآن الكريم، تصديقا وهيمنة، فلا جرم أنه يبعد في الحسبان، جعل شرع من قبلنا من قبيل الوثائق التاريخية، كما ذهب إليه أستاذنا طه رحمه الله، منكر أن "تستقى منها مضمون تشريع ما، فإن الإسلام لا يعتد بذلك، ولا يلجأ إليه."³ وإنما المراجعة الصائية في نظرنا وفقا للمعيار القرآني، الذي استند إليه أستاذنا تقتضي البناء عليه، واعتماده في الاجتهاد والاستنباط.

ومن خلال ما سبق ألفينا أستاذنا يقسم الأدلة إلى قسمين فقط: الأول: النص ويشمل الكتاب باعتبار مصدرا منشئا، والسنة إنما هي بيان، تابع له. والثاني العقل، باعتباره "أداة منهجية" وقد بين أستاذنا طه وظيفته بقوله: "العقل ليس مصدرا للتشريع، وإنما هو مصدر للاجتهاد والاستنباط، حيث يفسر النص ويؤوله، ويقوم بعملية تكييف الواقعة مع النص."⁴

وصفوة القول مما سبق في درج الكلام هنا، أن المعايير التجديدية التي استند إليها أستاذنا طه في إعادة النظر في القواعد الأصولية، نلخصها فيما يلي:

¹ أصول السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق أبي الوفا الأفغاني، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج2، ص100، 99.

² الموافقات، أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ج3، ص353.

³ نحو التجديد والاجتهاد، العلواني، مرجع سابق، ص 63.

⁴ قضية في حوار، العلواني، مرجع سابق، ص36.

- اعتماد المقاصد العليا الحاكمة من حيث كليتها وإطلاقيتها، قاعدة منهجية ونقدية لتمحيص القواعد الأصولية، فتصبح لها بذلك وظيفة منهجية.
- رد الاعتبار للكليات في الاجتهاد الفقهي، وربط الجزئيات بالكليات، في نسق تعقيدي ومنهجي، حتى يصير فقهننا أكثر استجابة للواقع، وتفاعلا معه، وتصبح لها امتدادات تشريعية معتبرة.
- اعتماد قاعدة عرض السنة على الكتاب وكلياته، منهجا متبعًا ولازما قاعدة عامة حاكمة، وليست مقتصرة على محل النزاع والتعارض، وحل إشكال التناقض.
- السنة بيان للقرآن المجيد، بيان قولي، وفعلي، وتقريري، وليست مستقلة بالتشريع، أو مصدرا للتشريع، وإنما هي تابعة للمصدر المنشئ وهو القرآن المجيد.

خاتمة:

- لا أريد في هذه الخاتمة أن أعيد ما قلته في درج البحث، وإنما أريد فقط أن أؤكد أن تجديد علم الأصول عند أستاذنا طه العلواني رحمه الله تأسس على قضايا غاية في الأهمية، شكلت عنده دعامة أساسية منها:
- أنه لا يمكن أن يكون هناك تجديد للأصول، من غير ربطه بفهم قوانين الحركة الاجتماعية، وإدراك قواعد سنن التغيير. ضمن نسق تعقيدي ومنهجي.
 - عرض القواعد الأصولية على الكليات المقاصدية العليا الحاكمة، حتى تكون المراجعة صائبة، والتجديد سليما.
 - أن تكون للكليات وقعا في الاجتهاد والبناء والتجديد، وعلى ضوءها ينظر في الجزئيات، فيتأسس بذلك علم أصول فقهي يعنى بالكليات، بدل أن يبقى رهينا بالفقه التجزيئي.
 - علم الأصول قد انطوى على محددات منهجية، تصلح أن تؤدي وظيفة منهجية ومعرفية، لتحليل الظواهر الإنسانية. فتكون بذلك بديلا عن المناهج المأزومة.
- هذه بعض القضايا والأسس المهمة جدا وتفاصيلها، وغيرها مبثوث في صلب هذا البحث، غير أنني أقترح على الباحثين الغوص في أعماق بحوث أستاذنا طه ومؤلفاته، لاستخراج ما بها من نظريات وأنساق معرفية ومنهجية، تساعدنا على فهم تراثنا وتحليله، وإعادة بنائه وفق متطلبات عصرنا، ومستجدات واقعنا، بهذا النفس النقدي والمنهجي الذي تمتع به أستاذنا العلامة طه جابر فياض العلواني رحمه الله رحمة واسعة.

والحمد لله رب العالمين.

لائحة المصادر والمراجع:

- أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، طه العلواني، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي القاهرة، الطبعة الأولى 1417هـ/1997م.
- أصول السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق أبي الوفا الأفغاني، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- أصول الفقه الإسلامي منهج بحث ومعرفة، طه جابر فياض العلواني، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الثالثة 1415هـ/1995م.
- إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، طه العلواني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي بالرياض والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن أمريكا، الطبعة الثانية 1414هـ/1994م.
- إسلامية المعرفة المبادئ العامة-خطة العمل- الإنجازات، طه العلواني، منشورات المعهد العلمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 1406هـ/1986م.
- الإمام الغزالي وأثره في الفكر الأصولي، محمد عوام، بحث دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سنة 1994م.
- البرهان في أصول الفقه، أبو المعالي عبد الملك، تحقيق عبد العظيم محمود الديب، دار الوفاق، المنصورة، 1412هـ/1992م.
- تجديد الفكر الإسلامي، حسن الترابي، دار القرافي، المغرب، الطبعة الأولى 1993م.
- التجديد والمجددون في أصول الفقه، عبد السلام عبد الكريم، المكتبة الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى 1424هـ/2003م.
- التعليم الديني بين التجديد والتجميد، طه العلواني، دار السلام مصر، الطبعة الأولى 1430هـ/2009م.
- التوحيد والتزكية والعمران محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، طه العلواني، دار الهادي لبنان، الطبعة الأولى 1424هـ/2003م.
- الخلاف في علم أصول الفقه وأسبابه، محمد عوام، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 34/2014.

- علم أصول الفقه والعلوم الاجتماعية، جمال الدين عطية، محاضرة طبعها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1988/11/17.
- في المنهجية والحوار، رشدي فكار، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الثالثة 1987م.
- الفكر المنهجي العلمي عند الأصوليين، محمد عوام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنند، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى 1435هـ/2014م.
- قضية في حوار تجديد علم أصول الفقه مع العلامة طه جابر العلواني، محمد عوام، دار الكلمة مصر، الطبعة الأولى 1440هـ/2019م.
- قواعد الفقه، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقرئ، تحقيق محمد الدردابي، دار الأمان، الرباط، 2012م.
- قواطع الأدلة في الأصول، أبو مظفر منصور بن محمد السمعاني، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى 1418هـ/1999م.
- مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، أبو عبد الله الشريف محمد بن أحمد التلمساني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الخانجي، مصر، 1962م.
- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، الطبعة الثالثة 1988م.
- مقاصد الشريعة، طه العلواني، دار الهادي لبنان، الطبعة الأولى 1421هـ/2001م.
- مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية، منى أبو الفضل وطه جابر العلواني، دار السلام مصر، الطبعة الأولى 1430هـ/2009م.
- المستصفي من علم الأصول، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق حمزة حافظ، شركة المدينة المنورة، جدة، د.ت.
- معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى 1431هـ/2010م.
- المعتمد في أصول الفقه، أبو الحسين محمد بن علي البصري المعتزلي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1403هـ/1983م.
- المقدمة، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر.
- المغني في أبواب العدل والتوحيد، القاضي عبد الجبار الهمداني.

- المنخول من تعليقات الأصول، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق محمد حسن هيتو، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية 1400هـ/1980م.
- المنهج في علم أصول الفقه، عبد الحميد مدكور، بحث قدم إلى ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي، الجزائر 1989م. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الجزائر 1989م.
- الموافقات، أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، 1395هـ/1975م.
- ميزان الأصول في نتائج العقول، أبو بكر علاء الدين السمرقندي، تحقيق محمد زكي عبد البر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية 1418هـ/1997م.
- نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية مراجعات منهجية وتاريخية، طه جابر العلواني ومنى أبو الفضل دار السلام، مصر، الطبعة الأولى 1430هـ/2009م.
- نحو منهجية معرفية قرآنية، طه جابر العلواني، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى 1425/2004م.
- نحو التجديد والاجتهاد مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، طه جابر العلواني، دار تنوير، مصر، الطبعة الأولى 1429هـ/2008م.

"معالم التجديد في الدرس المقاصدي عند الدكتور طه جابر العلواني- رحمه الله-

يوسف عطية

باحث في الدراسات الإسلامية - المغرب

تقديم عام:

منذ أن استفاق العقل المسلم على آثار الحملات الاستعمارية في شقيها الفكري والعسكري، وعلى ذلك التطور الذي حققه العالم الغربي في مقابل التخلف الذي وصل إليه العالم الإسلامي..

منذ ذلك الحين والعقل المسلم يبحث عن مفاتيح لحل تلك العقد التي تكونت لديه وتقوقت عنده في عصور الانحطاط والتقليد والإخلاق إلى الأرض، والتي كانت سببا في توغل وتغول ذلك الاستعمار في مختلف بقاع العالم الإسلامي، فكان من نتائج ذلك أن بدأت تنضج أفكارا وأطروحات، وتطرح أسئلة متعلقة بالنهضة وأسباب الفوارق بيننا وبين الغرب، وبدأت تبلور مشاريع تجديدية وإصلاحية دشنها ورفع لواءها جملة من أهل الفكر والعلم والثقافة والإصلاح في عالمنا الإسلامي، نذكر من بينهم المفكر الأملعي والأصولي البارز الدكتور طه جابر العلواني -رحمه الله- الذي عرفت مشاريعه وأطروحاته الإصلاحية بأصالة المنهج وقوة الطرح، إضافة إلى الاستيعاب والشمول في معالجته للقضايا، فكان من بين تلك المجالات التي رام التجديد فيها وبها -رحمه الله-، مجال المقاصد الشرعية والدرس المقاصدي، نظرا لما تكتسيه المقاصد من أهمية في تنزيل الأحكام ومعرفة الحكم وفهم خطاب الشارع، فجاء بتنظيرات جديدة في هذا المجال، من أجل تمكين المنهج المقاصدي والدرس المقاصدي من القيام بدوره في تطوير المجتمع وإصلاحه، وتوجيه فكر الأمة إلى ما ينصلح به حالها.

فما هي معالم التجديد في الدرس المقاصدي عند الدكتور طه جابر العلواني؟ وإلى أي حد استطاع رحمه الله أن يحقق ذلك التجديد وينجح فيه؟

المحور الأول: في تعريف مفردات الدراسة: المقاصد، التجديد

أولاً: تعريف المقاصد

تفيد التعريفات اللغوية لمصطلح المقاصد على أن هذا الأخير يدل على "التوجه والاستقامة والتوسط، وسلوك السبيل السوي والطريق المستقيم"¹ وهي ذاتها الغايات التي ترومها الشريعة الإسلامية منذ أن نزلت.

و في الاصطلاح فمعلوم أن مقاصد الشريعة الإسلامية عرفت في عصرنا خروجاً عن المؤلف على مستوى التأليف والتعريف والاهتمام...، لذلك سأركز على تعريف الدكتور أحمد الريسوني نظراً لإيجازه وللوضوح والشمول الذي تميز به، ناهيك عن أنه جامع لمعاني المقاصد، يقول الريسوني: «إن مقاصد الشريعة هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها، لمصلحة العباد»²، وتعريف الريسوني ركز على القصد الابتدائي للشريعة، أي مقصد وضع الشريعة ابتداءً، وحاصل هذا التعريف أن الشريعة الإسلامية جاءت لجلب المصالح ودرء المفاسد.

انطلاقاً من التعريف السالف الذكر، فإن المقاصد تدفعنا لمعرفة المغزى من التشريع وطرح أسئلة من قبيل ما المصلحة المطلوبة من تحريم الربا؟ وما المفسدة المدفوعة؟ ما المصلحة من تشريع الصلاة؟ وما المفسدة المترتبة عن تركها؟ ما المصلحة من تشريع الصوم؟ وما المفسدة المترتبة عن تركه...؟ وهكذا

ثانياً: تعريف التجديد

مع كثرة الدعاوى التي ترتفع في عصرنا حول مفهوم التجديد وما يشوبها من إشكالات، أجدني مضطراً إلى تحرير هذا المفهوم مما علق به وبيان حقيقته حتى يزول كل لبس ارتبط به، خاصة أن التجديد يعتبر خاصية من خصائص شريعة الإسلام، حيث كانت معانيه ومظاهره حاضرة على مر تاريخ هاته الأمة، تبرز بين الفينة والأخرى حسب ما اقتضته الحاجة لذلك، وينسب قوة متفاوتة، بشاره من النبي ﷺ في قوله «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ

¹ "ينظر في ذلك، لسان العرب" ابن منظور (5 / 3642)، و"تاج العروس من جواهر القاموس" مرتضى الزبيدي (9 / 35-36)، و"مختار الصحاح" زين الدين الرازي (ص254)، وتفصيل ما أشارت إليه هذه المعاجم في بيان معنى المقاصد، ينظر إليه في كتابنا "إشكالية المنهج في الدرس المقاصدي المعاصر"، ص29

² "نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي" أحمد الريسوني (ص7)

سَنَةٍ من يَجِدُّ لَهَا دِينَهَا»¹، وإيداناً منه بأن «مقصد التجديد في الفكر الإسلامي حاجة تحتمها طبيعة هذا الدين، وتفرضها الخصائص التي خص الله بها هذه الشريعة الغراء»²

لكن هذا التجديد الذي قيل عنه ودون فيه الكثير، حتى أصبح محط جدل واختلاف وتجادب واستقطاب لا يقصد به «التخلص من القديم أو محاولة هدمه، بل الاحتفاظ به، وترميم ما بلى منه، وإدخال التحسين عليه»³

إن التجديد في الإسلام بمعناه العام والشامل «ليس نسخاً أو تأسيساً لفكر جديد، أو مجرد إحياء لفكر قديم، بل هو عملية تفاعل حيوي داخل فكر قائم لإعادة اكتشافه وتطويره وفقاً للفهم الزمني الذي يعي حاجات العصر، أي: أنه لا ينطلق من فراغ، بل له قواعده ومنهجيته ومرجعياته وثوابته وفي النتيجة يكون التجديد خطاباً نهضوياً يستهدف البنية الفكرية لتلبي جميع حاجات الإنسان المعاصر»⁴

تجديد يشكل في حقيقته عودة بالشيء «إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وهي منه، وترميم ما بلى، ورتق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى. فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر، فهذا ليس من التجديد في شيء»⁵، كما يتوهم الكثير من دعاة التجديد اليوم، أو ممن هم في حقيقة الأمر يسعون إلى التبديد تحت غطاء التجديد، و التجديد كذلك بهذا المعنى «لا يتجه إلى الدين كمنظومة من العقائد والأخلاق، وإنما يتجه إلى فهم الناس للدين بمعنى تنقية أفهام الناس تجاه الدين من الأمور السلبية والقشرية، إذ إن من الآليات الطبيعية للتجديد في كل الأمم والشعوب والثقافات هي العودة بفهم جديد ومعاصر إلى الأصول الكبرى والقيم الكبرى التي صنعت الحقب التاريخية المجيدة والتي تحولت إلى حقب نموذجية ومرجعية في الفضاء التاريخي لتلك الأصول والثقافات»⁶

¹- رواه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم حديث رقم 4291

²- "التجديد في الفكر الإسلامي" عدنان محمد أمامة (ص 21)

³- "الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد" يوسف القرضاوي (ص 30)

⁴- "الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر" سعيد شبار (ص 181-182)

⁵- "من أجل صحوة راشدة" يوسف القرضاوي (ص 30)

⁶- "تجديد الفهم للنص الإسلامي بين التأصيل المنهجي وفقه الواقع" حسن حميد عبيد الغرباوي، مجلة

جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية - المجلد - 24 العدد الثاني 2008 - (ص 560)

تجديد يشكل في جوهره بعثا لحالة من الجدة «والقوة والسلامة والمكانة إلى الشيء المجدد، حتى لكأنه شيء جديد ، وما هو بجديد»¹

تجديد لا تهيب ولا تسبب ولا انتقائية فيه، فهو «يعيد النظر في العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال منظور إسلامي صحيح، مستمد من فلسفة الإسلام الكلية، ونظرته إلى الدين والحياة والإنسان والمجتمع والتاريخ، ومستفيد من كل المدارس القائمة ومن نتائج بحوثها وتحليلاتها، دون أن يكون أسيرا لفلسفة واحدة منها، أو لفلسفتها جميعا»²

وعليه فإذا كان التجديد في فهم المجددين الربانيين وفي أعمالهم -كما يقول د. عدنان محمد أمانة - يعني «إعادة الدين بنصوصه وقواعده ومناهج الفهم والاستنباط فيه، إلى حالته الأولى التي أنزلها الله عليها، وإزالة كل ما تراكم عليه من سمات ومظاهر، طمست جوهره، وشوهت حقيقته»³ فإنه ينبغي أن ينصب هذا التجديد على منهج الفهم بما يجعل المكلف يدرك مراد الشارع في تشريعه مستوعبا لإشكالات الزمان والمكان. كما ينبغي أن يكون في منهج التطبيق وذلك بما يراعي أحوال المكلف وسياقات التنزيل، بشكل يوافق فيه مراد المكلف مراد الشارع، حيث يعتبر هذا المعنى للتجديد -في تقديري- معنى جامعا في دلالاته مانعا من دخول الشوائب والدخائل عليه، حيث يدرك كل متعرض لهذا الدور وهاته المهمة (مهمة التجديد) أنه ينبغي أن يكون على شرطي الشاطبي في الاجتهاد : «أحدهما: فهم مقاصد الشريعة على كمالها. والثاني: التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها»⁴

المحور الثاني: طه جابر العلواني ومعالم تجديد الدرس المقاصدي

1- الدكتور طه جابر العلواني-رحمه الله- مقاصديا:

لا أريد في هذا المقام أن أقف مع كل تفاصيل الحياة العلمية والدعوية والإصلاحية... للعلامة -طه جابر العلواني رحمه الله- لأن ذلك لا تستوعبه ورقة علمية موجهة، ولذلك سأركز على ما يهدف إليه هذا البحث، والمتمثل في إبراز الجانب المقاصدي في شخصية هذا العَلم.

ولد الباحث والمفكر والأصولي طه جابر العلواني بالعراق سنة 1935م وبها ترعرع، وقد كان للبيئة العراقية دور أساس في تكوين شخصيته العلمية.

¹ - "حديث التجديد" أحمد الريسوني (ص 58)

² - "من أجل صحوة راشدة" يوسف القرضاوي (ص 33)

³ - "التجديد في الفكر الإسلامي" عدنان محمد أمانة (ص 6)

⁴ - "الموافقات" (76 / 4)

قضى حياته كلها في العلم والتعليم، وجمع بين مختلف العلوم النقلية من علوم آلة وأصول فقه وتفسير وحديث وغيرها و«عرف بتعدد اهتماماته العلمية والعملية وعلى رأسها البحث في قضايا أصول الفقه ومقاصد الشريعة، ويشهد له تراثه في هذا الباب، فقد قام بتحقيق كتاب المحصول في أصول الفقه للإمام الرازي، وهو صاحب كتاب أصول الفقه الإسلامي منهج بحث ومعرفة، وكتاب نحو التجديد والاجتهاد: الفقه وأصوله أولا، وكتاب مقاصد الشريعة... وكلها كتب نفيسة في بابها تحمل نفسا تجديدا وعمقا معرفيا ومنهجيا. توفي -رحمه الله- يوم 4 مارس 2016، وذلك بعد أن ترك تراثا فكريا وعلميا وإصلاحيا زاخرا.

يعتبر طه جابر أحد مؤسسي المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأمريكا، ورئيسا سابقا له، ويعتبر كتابه "مقاصد الشريعة"، أحد المحاولات الرائدة التي حملت أطروحات تجديدية للدرس المقاصدي، حيث أفرد فيه فصلان اثنان: الأول خصه بالحديث عن "إغفال المقاصد والأولويات وأثره السلبي على العقل المسلم، والثاني خصه بالحديث عن "المقاصد الشرعية العليا الحاكمة" محددا إياها في " التوحيد-التزكية-ال عمران " والتي وصفها بكونها «كليات مطلقة قطعية تنحصر مصادرها في المصدر الأوحد في كليته وإطلاقه وقطعيته وكونيته وإنشائه للأحكام، ألا وهو القرآن المجيد. وذلك بقراءة وفهم وتدبر ينطلق من "الجمع بين القراءتين"، قراءة الوحي وقراءة الكون»¹، وذلك أن هاته المقاصد تحتل حسب نظره مكانة «المبادئ الدستورية-فيما يتعلق بالجانب التشريعي- من حيث قدرتها على توليد المواد الدستورية والقواعد القانونية»²

2- معالم تجديد الدرس المقاصدي عند الدكتور طه جابر العلواني رحمه الله

لا يستطيع المتتبع للدرس المقاصدي المعاصر والباحث فيه، أن يتجاهل الدور الأساس الذي قام به طه جابر العلواني، وكذلك المعهد الذي كان يرأسه، في تجديد هذا الفكر ومحاولة تصحيح مساره، وتقديم أطروحات قادرة على السير به نحو إصلاح واقع الأمة المشهود ليبليغ الواقع المنشود، فلقد سلك الدكتور طه جابر العلواني-رحمه الله- في اشتغاله على الدرس المقاصدي مسلكا فريدا حاول التجديد من خلاله على مستويات ثلاث:

أولها المفاهيم، وثانيها القضايا، وثالثها المنهج، وتفصيل ذلك فيما يلي:

¹ - "مقاصد الشريعة" طه جابر العلواني (ص 135)

² - "المرجع السابق" (ص 139)

المستوى الأول: المفاهيم

معلوم لدى الباحثين في الدرس الأصولي عموماً، أن الأصوليين اجتهدوا قديماً في صك جملة من المفاهيم، كان الهدف منها هو حمل معاني المقاصد الشرعية التي استنبطوها بالاستقراء التام لنصوص الشريعة الإسلامية، فجعلوا من المصطلحات الثلاث: الضروريات والحاجيات والتحسينيات، وعاء مفاهيمياً لمعاني المقاصد الشرعية، وقد سار الأصوليون على ذلك الطريق في استعمال تلك المصطلحات إلى يومنا هذا، لكن الدكتور طه جابر العلواني - رحمه الله - قد سلك مسلكاً جديداً، يتمثل في نحت مفاهيم جديدة لحمل معاني المقاصد الشرعية، أطلق عليها وصف المقاصد العليا الحاكمة وهي التوحيد والتزكية والعمران، معتبراً إياها «كليات مطلقة قطعية، تنحصر مصادرها في المصدر الأوحى في كليته وقطعيته وكونيته وإنشائه للأحكام»¹، وأن هذه المفاهيم «تستوعب» المقاصد الشرعية، بالمفهوم الذي ساد لدى الأصوليين²، ثم إن نسبة هذه المفاهيم وتفرعها عن المصدر الأول المنشئ للأحكام، يجعلها حسب العلواني أكثر قدرة على استيعاب المعاني المقاصدية، أكثر من تلك التي كانت عند الأصوليين مقتصرة على «بيان العلة أو الحكمة أو الوصف المناسب الكامن في الحكم الشرعي»³، كما أنه عاب تأخر التفات العقل الأصولي والفقه إلى «مقاصد الشريعة» وصياغتها في شكل دليل أصولي، وإحالة ذلك الدليل إلى القياس والمصلحة حتى بهت لون المقاصد باعتبارها دليلاً⁴، لذلك فقد استطاع العلواني أن يأتي بقاموس مقاصدي جديد على مستوى بيان حقيقة المقاصد الشرعية القادرة على حمل دلالات النصوص الشرعية وإبراز الأحكام والحكم المستنبطة منها.

استطاع كذلك طه جابر العلواني - رحمه الله - أن يأتي بعبارات ومفاهيم جديدة، في إطار مشروع إسلامية المعرفة - وهو المنظر الأول لذلك المشروع -، حملت تلك العبارات حمولة اصطلاحية عميقة، تضفي صفة القصدية والغائية على المعرفة الإسلامية، نذكر منها عبارة «الجمع بين القراءتين» و«منهجية القرآن المعرفية»، يقول طه جابر العلواني في هذا الصدد «إذا أوشكت أن تحتار وتضطرب في حقيقة المقصد، أو طبيعة الطريق جاء الوحي يسدد ويرشد، ودعي الإنسان إلى قراءته ليصح ويهتدي، فيجمع الإنسان ذاته - آنذاك - بين

¹ - مقاصد الشريعة، طه جابر، ص 135

² - المرجع السابق ص 138

³ - المرجع السابق ص 138

⁴ - ينظر هامش ص 138 من المرجع السابق

القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. ويكون الوحي المعين والمثبت للإنسان والهادي الأمين له في قراءته في الكون، وهكذا يستعيد الإنسان قدرته وفاعليته ويحقق انطلاقه، ويجد الإنسان نفسه قادرا على الإنجاز الحضاري دون أن يستبد به الشعور بمنطلقه الذاتي»¹، ويضيف قائلا « فالقرآن العظيم وحده يملك التصور المنهجي والمعرفي البديل على مستوى كوني»² لذلك فقد اعتبر - رحمه الله - « إسلامية المعرفة من أهم قواعد تجديد الدين، وإعادة بناء الأمة القطب، وإنتاج المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر»³، وبإمكانها كذلك العمل على إيجاد الوعي لدى الأمة المسلمة بخصائص القرآن المنهجية والمعرفية، لتتعلم كيف تقرؤه على مستوى عصرها، وكيف تجمع بين قراءته وقراءة الكون لتحافظ على نفسها وكيانها من عمليات التذويب، التي تمارسها المركزية الغربية»⁴، وعليه فقد نبه العلواني إلى خطورة المفاهيم وحساسيتها في علاقة المرجعية و المعرفة الإسلامية بغيرها من المرجعيات والمعارف، لذلك نجده ينص على أن « قضية المفهومات والأفكار تعتبر القضية ذات الخطورة الأهم»⁵، وأن « معالجة أية أزمة من أزمتنا وأمتنا والعالم - اليوم- لابد أن تتم من داخل "البنائية القرآنية" فهو "تبيان لكل شيء" ثم من "منهجية السنة النبوية الكلية" في الفهم والبيان والتطبيق، فمفاهيمنا التي تجتالها "العولمة" واحدا بعد آخر، وتحاول تدميرها يجب الكشف بالقرآن عن أهميتها وترابطها»⁶، فمن خلال هذا الكلام يوجه - رحمه الله- إلى إعادة بناء المفاهيم الإسلامية بناء قرآنيا، لأنه القادر على الحفاظ على خصوصيتها وصونها من الذوبان في ثقافة الآخر.

المستوى الثاني: القضايا

للعلواني - رحمه الله- منهج في غاية القوة والتأثير في التجديد الأصولي والمقاصدي وبناء فقه جديد، ويتجلى ذلك في تأصيله لما سمّاه بالمقاصد والقيم القرآنية العليا الحاكمة، وهي -عنده- «التوحيد والتزكية والعمران»، وما لبث العلواني يدافع في كتاباته، عن أطروحاته وقضيته الخاصة بإثبات قدرة المقاصد العليا الحاكمة على استيعاب القضايا الشرعية أكثر

¹ - لماذا إسلامية المعرفة، طه جابر العلواني، مجلة إسلامية المعرفة، العدد الأول السنة الأولى، ص 20

² - المرجع السابق، ص 26

³ - المرجع السابق، ص 22

⁴ - المرجع السابق، ص 29

⁵ - المرجع السابق، ص 25

⁶ - "الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر" طه جابر العلواني، ص 109.

من تلك التي أقرها الأصوليون قديما، فقد صرح في معرض حديثه عن أهمية إثبات المقاصد العليا الحاكمة الثلاث: التوحيد والتزكية والعمران، بأن ذلك كفيل بـ«أن تتفرع عنها المقاصد الأخرى بحسب مستوياتها»¹. وبعد هذا الإثبات وتفرع مقاصد أخرى عنها " يكون قد أصل لمرتكزات علمية للمقاصد، تتجاوز المرتكزات التي أصلها الشاطبي، وبنى عليها ورسخها من اقتفى أثره. وهي محاولة لفتح باب الاجتهاد في المقاصد، والامتداد بها في فضاء فسيح نلتقي فيه بمقاصد العقيدة بجوار مقاصد الشريعة، ونتعرف على مبادئ ومنطلقات للمقاصد من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة"²

وفي إطار الدفاع عن قضيته المركزية، فقد خصص العلواني فصلا كاملا من كتابه "نحو التجديد والاجتهاد مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية أولا: الفقه وأصوله"، عنوان ذلك الفصل بـ"المقاصد الشرعية العليا الحاكمة التوحيد- التزكية- العمران"، حيث تطرق فيه للحديث عن أهمية هاته المقاصد العليا ومكانتها وموقعها، معتبرا أن تشغيلها سوف «يؤدي إلى غرس قابلية التجديد الذاتي في أصولنا وفقهنا، وسوف تقيهما وتحفظهما من عوامل الفتور والظرفية التي تصيب الشرائع»³، لأنها حسب نظره تستوعب «المقاصد الشرعية» بالمفهوم الذي ساد لدى الأصوليين، والذي قصروا دوره تقريبا على بيان العلة أو الحكمة أو الوصف المناسب الكامن في الحكم الشرعي»⁴، كما أنها من شأنها أن تعمل «على ضبط الأحكام الجزئية، وتوليدها عند الحاجة في سائر أنواع الفعل الإنساني، القلبي منها والعقلي والوجداني والبدني، ليتحقق ربط الجزئيات بالكليات ولتتهدي الكينونة الإنسانية» بكليتها بهداية الله»⁵، ذلك أن تلك المقاصد العليا الحاكمة -كما يشير العلواني- «لن تكون مجرد دليل من الأدلة، أو أصلا من "أصول الفقه" المختلف فيها أو المتفق عليها، بل ستكون المنطلق الأساس، لإعادة بناء قواعد "أصول الفقه"، وتجديدها ولبناء "الفقه الأكبر" عليها بعد ذلك»⁶، إضافة إلى أن هاته المقاصد «سوف توجد في أهل الذكر والمعرفة في مختلف

1- "مراجعات في تطور المنهج المقاصدي عند المعاصرين" زينب العلواني (ص 8)

2- من تقديم الدكتور عبد الجار الرفاعي لكتاب "مقاصد الشريعة" طه جابر العلواني (ص 9)

3- "نحو التجديد والاجتهاد أولا: الفقه وأصوله" طه جابر العلواني (ص 197)

4- "المرجع السابق" (ص 195)

5- ينظر "مقاصد الشريعة" (ص 139)، وكذلك "نحو التجديد والاجتهاد أولا: الفقه وأصوله"، طه جابر العلواني، (ص 196)

6- "مقاصد الشريعة" العلواني، (ص 140) وينظر "نحو التجديد والاجتهاد أولا: الفقه وأصوله" (ص 197)

المستويات، حاسة نقدية ننطلق بها لمعايرة سائر أنواع المعارف الإسلامية والإنسانية والاجتماعية، وكذلك الحال بالنسبة لبعض العلوم البحتة، وتنقية كل منها مما لا يخدم هذه المقاصد أو قد يتعارض معها كلاً أو جزءاً¹، الأمر الذي سيمكن حسب العلواني من تشغيل هاته المقاصد العليا الحاكمة.

ذلك التشغيل الذي جزم العلواني أنه سيضفي «حيوية وفاعلية كبيرة على» خصائص الشريعة "لتعمل مع" منظومة المقاصد" على تنقية تراثنا الفقهي الأصولي وتحريرهما من فقه الإصر والأغلال والحيل، وفقه التقليد القائم على اعتبار فقه أئمة التقليد²، وسيمكن كذلك الاعتماد عليها من «بعث وإحياء وإطلاق طاقات التجديد والاجتهاد والاعتبار في مصدري الشريعة: المنشئ ألا وهو القرآن، والمبين تأويلاً عملياً وتطبيقياً، ألا وهو السنة في واقع الناس وفي مصادر الفقه وأدواته مما يعرف بالأدلة المختلف فيها، وسوف ينقل مهام التجديد والاجتهاد إلى القاعدة العريضة للأمة، كما أراد القرآن، وسوف يحقق تغييراً كبيراً في العقلية والنفسية الإسلامية وطاقاتهما»³.

لقد ذهب العلواني في رؤيته التجديدية هاته، إلى اعتبار: المقاصد العليا الحاكمة: التوحيد، التزكية، العمران، تشكل منطلقاً يشكل «النموذج المعرفي المهيأ للإجابة عن الأسئلة الفلسفية التي عرفت "بالنهائية" وباعتبارها معياراً وغاية في الوقت ذاته»⁴ يقول العلواني «وهذه أمور لا تجتمع كلها إلا في منظومة مقاصد عليا حاكمة وهي هذه التي تؤسس لها: التوحيد والتزكية والعمران»⁵.

لقد جاء العلواني بأدلة عديدة لإثبات قضيته، وهو كله ثقة بأن «هذه» المقاصد العليا "لابتنائها على الاستقرار التام لآيات الكتاب المحكمة ولكل ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيانه، ولتلقى العقول لها بالقبول فإنها "مقاصد حاكمة عليا" مطلقة لا يلحقها "التشابه"... كما لا يلحقها التغيير ولا التبديل ولا النسخ»⁶، معتبراً أن كل «ما قدمه

1- "ينظر مقاصد الشريعة" (ص 142)، وينظر كذلك "نحو التجديد والاجتهاد أولاً: الفقه وأصوله" طه جابر العلواني، (ص 198)

2- "نحو التجديد والاجتهاد أولاً: الفقه وأصوله"، طه جابر العلواني، (ص 199)

3- "المرجع السابق" (ص 201)

4- ينظر "مقاصد الشريعة" العلواني (ص 150-151)

5- "المرجع السابق"

6- "المرجع السابق" ص 147 وينظر، "نحو التجديد والاجتهاد أولاً: الفقه وأصوله" مرجع سابق، ص 209

الشاطبي وغيره من علماء المقاصد تعتبر ضمن مستويات المقاصد العائدة إلى المكلفين وهي "الضروريات" - و"الحاجيات" - و"التحسينيات" والتي يجب أن تربط بالمقاصد العليا الثلاث: التوحيد والتزكية والعمران.¹، فهي فرع عن أصل المقاصد العليا.

استدل كذلك العلواني في كل القضايا التي حاول إثباتها، بكون مقاصد الشريعة الإسلامية بالصيغ التي نعرفها «لم تأخذ من حوارات أهل الفقه والأصول ما أخذه الإجماع والقياس أو الاستحسان من الاهتمام، بحيث تؤدي تلك الحوارات إلى بلورتها وإنضاجها، وتحويلها إلى مصدر أساس للحكم الشرعي، ولتقييم الفعل الإنساني، فبقيت المقاصد محدودة التداول في دائرة التفاضل، أو عدت نوعاً من الأدلة المُعَصِّدة لما تنتجه أدلة أصولية أخرى، لذلك كانت الحاجة ماسة لاكتشاف "المقاصد القرآنية العليا الحاكمة"، وتحديدها بمنتهى الدقة وتحويلها إلى قاعدة منهجية وأصول كلية عقلية، يمكن أن تؤدي إلى غلبة الفقه الإسلامي، وتمكين القادرين من إمعان النظر في أصوله وفصوله...»²، وذلك لأن هاته المقاصد العليا «انبثقت من استقراء تام لآيات القرآن الكريم، ومن الممكن أن تتفرع عنها المقاصد الأخرى بحسب مستوياتها»³، ولانبثاقها من الاستقراء التام فهي كفيلة ببيان كليات وكذا جزئيات المعاني والقضايا المقاصدية.

المستوى الثالث: المنهج

لقد كانت قضية المنهج إحدى الدعائم الرئيسية التي أقام عليها العلواني مشروعه التجديدي بامتياز، كيف لا وهو يعتبر بين العلماء البارزين الذين اعتنوا واهتموا بمسألة المنهج والمنهجية، وقدموا مقترحات جادة لمعالجة مشكلاته، حيث يمكن لكل من تتبع المشروع الفكري الطهائي، أن يكتشف بكل سهولة مدى محورية الهم المنهجي في دراساته، بدءاً بمؤلفه الموسوم بـ"إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، ورقة عمل"، وكتابه: "نحو منهجية معرفية قرآنية"، وصولاً إلى كتابه: "معالم في المنهج القرآني..."

ففي إطار إحصائه للمشكلات المنهجية نجده رحمه الله - يشير إلى أن «أزمة المنهج تهدد إنجازات البشرية بالمصادرة والتراجع والدمار، ولذلك فإن هذه الأزمة الكونية القائمة على كونية المنهج لا يمكن الخرج منها، وإنقاذ المنهج العلمي من إشكالاتها إلا بكتاب كوني

1- "مراجعات في تطور المنهج المقاصدي عند المعاصرين" زينب العلواني ص 7

2- "نحو التجديد والاجتهاد أولاً: الفقه وأصوله" مرجع سابق، ص 228

3- "مراجعات في تطور المنهج المقاصدي عند المعاصرين" زينب العلواني ص 8

يستوعب التفكير، وينطلق في مجالات إعادة التركيب، ويستوعب العدمية والعبثية ويتجاوزها ليتجه باتجاه الغائية ويعيد بناء سائر التصورات والمفاهيم الكونية...¹، لذلك فقد انطلق من قوله تعالى ﴿لِكَلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾²، لإثبات وجود "منهج قرآني"³، وأكد على أن «منهجية القرآن هي حل لـ"إشكاليات العلم المعاصر" نفسه وترقية لبحوثه المنهجية»⁴، وما لبث - رحمه الله - يدافع عن منهجية القرآن، والمنهج القرآني في توجيه حركة الفكر الإسلامي، وحل مشكلاته المعاصرة.

استطاع العلواني كذلك أن يوظف مسألة المنهج توظيفاً فريداً في دعوته لتجديد الدرس المقاصدي، ومن أبرز ذلك ما أورده في كتاب "مقاصد الشريعة"، في الفصل الذي جعل عنوانه "إغفال المقاصد والأولويات وأثره السلبي على العقل المسلم" حيث قام في هذا الفصل بإحصاء جملة من المساوئ والاختلالات المنهجية التي حالت دون بلوغ مقاصد الشريعة النقلة المنهجية والابستمولوجية المنتظرة - على حد تعبيره -، محدداً إياها في تسع إشكالات وهي:

- 1- هيمنة النظر الكلامي المجرد.
- 2- هيمنة النظر الفقهي الجزئي.
- 3- سيطرة اتجاه القراءة المنفرد للوحي.
- 4- التركيز على الأدوات اللفظية أو السياق اللغوي.
- 5- التفكير الاطلاقي الذي لا يراعي النسبية الزمانية والمكانية.
- 6- الإغراق في التنظير والافتراضات، والبعد عن واقع الحياة العملي.
- 7- التأثر بالشرائع السابقة وسعة مساحة التعبديات فيها، وخاصة شريعة التوراة وما أضافه اليهود إليها.
- 8- عدم التفريق بين العبودية لله - المبنية على الحكمة - والعبودية للخلق، وافتراض التماثل بينهما.
- 9- عدم اعتبار خصائص الشريعة الإسلامية محدّدات منهجية، والاقتصار على الإشادة بها باعتبارها مناقب مجردة⁵.

¹ - "معالم في المنهج القرآني"، طه جابر العلواني، ص 23.

² - المائدة: 48

³ - "معالم في المنهج القرآني"، طه جابر العلواني، ص 68 تصرف

⁴ - "الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر" طه جابر العلواني، ص 106.

⁵ - "مقاصد الشريعة" طه جابر العلواني (ص 126-127)

وقد تأسف العلواني وهو يحصي تلك الإشكالات المنهجية، على كون «فقه المقاصد والأولويات لم يأخذ مداه في الفضاء الفقهي والفكري الإسلامي»¹، وإن وجد لدى ثلة من المجتهدين بشكل نظري ومعزول، وهي ملاحظة هامة منه رحمه الله، كشفت عن الإشكال المنهجي الخطير الذي منع «فكرة القياس التي استخدمها المسلمون في وقت مبكر-وحولها الأوربيون إلى منهج تجريبي- ومكنت من خروج العقل المسلم من الدائرة الضيقة التي حشر نفسه فيها: دائرة الانتقال من جزئي إلى جزئي»²، ورغم أن المنهج المقاصدي والنظر المقاصدي، عرف في بعض فترات التاريخ الإسلامي تطورا وازدهارا خاصة في القرن الثامن مع الإمام الشاطبي الذي مزج بين الأصول والمقاصد وصاغهما على شكل مشروع علمي إصلاحي، إلا أن أفكاره لم تنطبع في «العقل المسلم الذي كان يعيش انحطاطه يومذاك»³، واستمر إغفال المقاصد والأولويات لقرون عدة لدى المسلمين مما ترتب عنه جملة من الإشكالات أجملها العلواني في أربع وعشرين نقطة⁴.

لكل تلك الأسباب فقد دعا العلواني إلى «على بعث وإحياء وإطلاق طاقات التجديد والاجتهاد والاعتبار في مصدري الشريعة: ألا وهو القرآن، والمبين ألا وهو السنة، وفي مصادر الفقه وأدواته مما عرف "بالأدلة المختلف فيها" وسوف ينقل مهام التجديد والاجتهاد إلى القاعدة العريضة للأمة، وهو التجديد المنهجي كما أراده القرآن، الذي بإمكانه إحداث تغييرا كبيرا في العقلية والنفسية الإسلامية وطاقاتها»⁵، وفي ذلك ما فيه من تقصيد حركة العقل المسلم، وتحفيزه على الانتاج، وتوجيه مساره من ردود الأفعال إلى إنتاجها.

المحور الثالث: مناقشة المنهج التجديدي للدرس المقاصدي عند العلواني

لقد استطاع العلواني-رحمه الله- من خلال مشروعه التجديدي الجامع بين أصول الفقه ومقاصد الشريعة، أن يثبت لنا أنه "لا تجديد للمقاصد يذكر، دون التجديد في بنية علم أصول الفقه ككل"، ولم يكن المقصود عنده بالتجديد الأصولي، الحذف أو التغيير كما دعا إلى ذلك الكثير من الفضلاء ممن سعوا إلى تجديد هذا العلم، ولكن يكون ذلك بالتتميم

1-المرجع السابق، ص 126

2-المرجع السابق، ص 127

3-المرجع السابق، ص 128

4-ينظر ذلك في المرجع السابق ص 129، 130، 131

5-المرجع السابق ص 141 بتصرف

والتكامل ثم بوصف هذا العلم بروحه "مقاصد الشريعة" وهذا هو الأساس الأول وأعز ما يطلب فيه، يقول د. محمد كمال الدين إمام في بيان مكانة مقاصد الشريعة في العملية التجديدية لأصول الفقه: «وأهم ما في الظاهرة المقاصدية قدرتها على تعميم مضمونها من ناحية، وعدم فصلها بين الكليات والجزئيات من ناحية أخرى، فلم تكن المقاصد مدرجة في قواعد أو مقننة في نماذج، وإنما هي روح تسري في الحياة الإسلامية كلها، وهي روح تُستَقَى من خلالها أوامر ونواهي الدليل، وتدرّك بوحى منها مدارج التطبيق والتنزيل»¹، وهو ما ذهب إليه العلواني وهو يبين أهمية المقاصد العليا الحاكمة.

ثم إن الحاجة اليوم ماسة كذلك إلى «تجديد الضوابط الأصولية، والقواعد المقاصدية، فيما يتعلق بفقه الأولويات والموازنات. وكذا قواعد ترتيب الحجج والاستدلال. فأصول هذه الأمور تكاد تنعدم. فالخبراء يستنبطون مفاهيمها لأنفسهم، ويبقى غيرهم من أهل العلم تائهين في فتنة تعارض الظواهر ومقتضيات الدلالات! فتدخل الأمة بذلك في فتنة ردود الأفعال، من مثل ما يحصل اليوم من افتراق مفتون! ينشق بين قوم لا يشتغلون بالسنة، مكتفين فقط بالقرآن! وبين قوم آخرين لا يشتغلون بالقرآن مكتفين فقط بالسنة! وبين قوم آخرين لا يقبلون اجتهادا في الدلالة، ولا في مقاصد الشريعة، ولا نظرا في تحقيق المناط بين عموم وخصوص! وقوم غيرهم تسيبوا في تفسير الخطاب الشرعي، بما يخالف الأصول الكلية، والثوابت الشرعية. كل ذلك ردود أفعال لا شعورية، بسبب غياب العدل في العلم، والقصد في المنهج»²

إن الإمام والمعرفة بهذا المنهج التجديدي، الذي ينبغي أن يتخذ أصول الفقه ومعه مقاصد الشريعة -في سير مُوَحِّدٍ-، ليس مقتصرًا «على المختصين في العلوم الشرعية ترشيدا لأنظارهم واجتهاداتهم الفقهية كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، بل هذا العلم بالغ الأهمية لكل مسلم مهما كان اختصاصه العلمي، ومهما كان نشاطه في الحياة العلمية، وذلك لأن كل مختص في علم من العلوم، وكل مباشر لعمل من الأعمال ينبغي أن تكون آراؤه في اختصاصاته وتطبيقاته في أعماله جارية وفق أحكام الشريعة، محققة لمقاصدها، وهو ما يقتضيه مبدأ

1- "مقاصد الشريعة والدليل الإرشادي" محمد كمال الدين إمام (ص11).

2- "الفطرية بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام" فريد الأنصاري (ص225)

الشمول الذي اختص به الإسلام»¹، وهو أن تكون كل أعمال الإنسان الدينية والدنيوية موافقة لقصد الشارع.

تلك الموافقة التي لا يمكن اعتبارها مطلبا هينا أو سهلا دون كدح وكد واجتهاد...، ولقد كان هذا الأمر كافيا في جعل الإمام الشاطبي يختم كتاب المقاصد بفصل قال في مطلعته «لا بد من خاتمة تكرر على كتاب المقاصد بالبيان، وتعرف بتمام المقصود فيه بحول الله. فإن للقاتل أن يقول: إن ما تقدم من المسائل في هذا الكتاب مبني على المعرفة بمقصود الشارع، فبماذا يعرف ما هو مقصود له مما ليس بمقصود؟»²، وقد ضمن الطاهر بن عاشور كذلك كتابه "مقاصد الشريعة الإسلامية" مبحثا بعنوان "طرق إثبات المقاصد الشرعية" صدره بقوله «أحسبك قد وثقت مما قررت أنفا بأن للشريعة مقاصد من التشريع بأدلة حصل لك العلم بها تحقق الغرض على وجه الإجمال، فتطلعت الآن إلى معرفة الطرق التي نستطيع أن نبلغ بها إلى إثبات أعيان المقاصد الشرعية في مختلف التشريعات»³، فسار يعدد هاته الطرق ويناقشها كل واحدة على حدة.

وقد عمد د. أحمد الريسوني وهو يعلق على نظرية الشاطبي إلى إفراد فصل كامل جعل عنوانه «بماذا تعرف مقاصد الشارع؟»⁴، مشيرا إلى أن «كل كلام في المقاصد، وكل توسع في بحثها، وكل اكتشاف جديد لكلياتها، كل هذا متوقف على إيجاد وضبط المنهاج الصحيح لمعرفة مقاصد الشارع»⁵.

نفس الأمر أكده د. عبد المجيد النجار في كتابه "مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة" في محور وسمه بـ "مسالك العلم بمقاصد الشريعة" بين فيه، أن أعقد المشاكل التي تواجه الباحث في مقاصد الشريعة والمعتمد عليها في اجتهاده وتجديده «هي: كيف يمكن أن تعرف تلك المقاصد، سواء ما كان منها عاما، أو ما كان خاصا أو جزئيا؟ وكيف يمكن تحصيل يقين أو ظن بأن هذا النوع من الأحكام أو هذا الحكم العيني إنما وضعه الشارع لهذا القصد أو ذاك؟

1- "مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة" عبد المجيد النجار، (ص 21)

2- "الموافقات"، (2/ 29-297)

3- "مقاصد الشريعة الإسلامية" محمد الطاهر بن عاشور (ص 189).

4- "نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي" أحمد الريسوني (ص 271)

5- "المرجع السابق" (ص 317)

وكيف يمكن الفصل بين ما هو مقصد حقيقي للشارع وضع من أجله الأحكام وبين ما قد يكون مقصدا موهوما ينتهي إليه بعض الباحثين لسبب أو آخر من الأسباب¹.

لذلك فقد شكل هذا السؤال المنهجي الكبير، حجر الزاوية قديما وحديثا في تأسيس مبدأ الاستخلاف الحقيقي، المتمثل في قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾²، تلك العبادة بمعناها الشامل التي لن تتحقق إلا إذا كان "قصد الإنسان موافقا لقصد الرحمان" في كل المجالات قولاً وعملاً.

لذلك فإنني أحسب أن من مقدمات الإجابة عن ذلك السؤال في عصرنا الراهن، هي أن نأتي إلى تلك الدعوى التي رفعها الإمام الطاهر ابن عاشور، وهو ينادي بفصل مقاصد الشريعة عن أصول الفقه، ونقلها بشكل كلي لرفع بدلها شعار ضرورة وصل المقاصد وتوثيق علاقتها ليس مع أصول الفقه فقط - لأن هذا أمر لازم من الناحيتين المعرفية والمنهجية -، بل و مع باقي العلوم الأخرى ومجالات الحياة الإنسانية المعقدة والمتشابكة، حتى تسير هاته العلوم والمجالات على هدى و بصيرة تنظيراً وتفعيلاً، بحيث تكون هاته العلوم تابعة لمقاصد الشريعة منهجاً ومالاً، لا أن تكون المقاصد هي التابعة، أويتخذ منها وسيلة لتبرير الأخطاء والإنزلاقات التي يقع فيها الكثير من الباحثين والذين يرومون التجديد، وكذا النتائج الخاطئة التي تنتهي إليها الكثير من العلوم والتي غلبت مفاسدها مصالحتها كما هو ملاحظ اليوم في أكثر من مثال.

والكل قد يتفق اليوم -بعد أن قطع تاريخ الإنسانية أشواطاً في التقدم العلمي والتقني والتكنولوجي...-، على أن كثيراً من هاته العلوم التي لم تُرشد ولم تُقصد آل أمرها إلى إفساد حياة الإنسان وما زالت تفسدها في شتى المجالات (تدينا واجتماعاً وسياسة واقتصاد وبيئة...)، لذلك نجد من اللازم اليوم أن تحضر المقاصد العليا الحاكمة كما أصل لها العلواني -رحمه الله-، في كل العلوم بل في كل مجالات الحياة، وذلك على اعتبار أن «مقاصد الشريعة ليست جزءاً من الفقه فقط، بل هي الفقه الأكبر...، و هي بمنزلة الروح من جسد العلوم كلها. لها مكانتها من أصول الدين، ومكانها في الفقه وأصوله، وهي لباب علم التفسير، ومعيار حاسم في فهم الأحاديث، إضافة إلى ذلك فهي قطب جاذب لعلوم إنسانية وطبيعية، وفي مقدمتها علم

1- "مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة" عبد المجيد النجار(ص 20)

2- الذاريات:56

التاريخ بسننه العمرانية، وعلم الطب بكل أقسامه وفروعه، فالمقاصد ليست في تدبير مصالح الأديان فحسب، بل هي أيضا في تدبير مصالح الأنفس والأبدان، ومصالح العيش والعمران»¹ فإذا كان علم أصول الفقه هو محضن مقاصد الشريعة -وسيبقى كذلك-، ومقاصد الشريعة هي روح أصول الفقه -وستبقى كذلك-، فإنه لا تجديد للواقع على المستوى النظري إلا من خلال الإحاطة به ضبطا لمجالاته وقضاياه في ضوء هذا المنهج الشمولي الجامع بين الانطلاق من اعتبار أصول الفقه منهجا «لفقه الخطاب الشرعي، وتحقيق الموازنة بين مقتضيات الشرع، ومتغيرات الواقع»²، وباعتبار مقاصد الشريعة منهجا تجعل أصول الفقه يمارس دوره في «تقنين وتنظيم الأحكام والأفعال، بعيدا قدر الإمكان عن كل عبث أو احتكام إلى محض الهوى والتبريرات الوهمية»³ وهو ما تنبه له العلواني رحمه الله.

لذلك فإن التجديد في المقاصد الشرعية أو بالمقاصد الشرعية بالأحرى، ليس المقصود منه تطوير هذه المقاصد أو تغييرها زيادة ونقصانا، فثمة فرق كبير بين المفهومين التجديد والتطوير. وإنما المراد، هو إحياء المقاصد الشرعية وتوسيع مجالاتها، وتفعيلها في حياة الفرد والمجتمع، لتحقيق الخير والصالح في الحال والمآل، واعتماد المقاصد العليا الحاكمة هي المنطلق في ذلك، لابتنائها على الاستقراء التام المنطلق من نصوص الوحي قرآنا وسنة، ولقدرتها على استيعاب مقاصد الشارع الكلية والجزئية.

خلاصات وتوصيات:

لقد استطاع العلواني رحمه الله أن يبسط مشروعا تجديديا مكتمل الأركان والمعالم للدرس المقاصدي، سواء على مستوى المفاهيم أو على مستوى القضايا أو على مستوى المنهج، وقد كان رحمه الله حكيما - وهو الأصولي والخبير بقضايا المنهج - في اعتماد المقاصد العليا الحاكمة التوحيد والتزكية والعمران مفتاحا لباب ذلك التجديد، وذلك لقدرتها على فك شفرة الإشكالات المنهجية التي يتخبط فيها العقل المسلم منذ أن هيمن عليه التقليد والتعصب والإخلاد إلى الأرض فألقى به في غياهب الانحطاط، كما أن إطلاقية وقطعية تلك المقاصد

1- "المقاصد قبل الشاطبي: قراءة في التراث الفقهي" محمد كمال الدين إمام، مجلة الإحياء العددان، 37-38، ربيع الثاني 1434هـ/ مارس 2013م، موضوع العدد "علم مقاصد الشريعة وواجب التجديد" (ص 116)، بتصرف.

2- "تجديد أصول الفقه الإسلامي" حسن الترابي (ص 12)

3- "الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام" عبد المجيد الصغير (ص 187)

جعلتها قادرة على غرس قابلية التجدد الذاتي في فقهننا وأصولنا على حد تعبير الدكتور طه جابر العلواني- رحمه الله -.

ومن توصيات هذا البحث:

- ينبغي أن ينصب التجديد على منهج الفهم بما يجعل المكلف يدرك مراد الشارع في تشريعه مستوعبا لإشكالات الزمان والمكان. كما ينبغي أن يكون في منهج التطبيق وذلك بما يراعي أحوال المكلف وسياقات التنزيل، بشكل يوافق فيه مراد المكلف مراد الشارع
- ضرورة استمرار عملية الاجتهاد بشكل يجدد فهم نصوص الشرع في أذهان الأمة ويمكنها من تنزيلها على مواقع الوجود.
- اعتماد المقاصد العليا الحاكمة التوحيد والتزكية والعمران مدخلا لتجديد الدرس الأصولي والمقاصدي.

- فإذا كان علم أصول الفقه هو محضن مقاصد الشريعة -وسيبقى كذلك-، ومقاصد الشريعة هي روح أصول الفقه -وستبقى كذلك-، فإنه لا تجديد للواقع على المستوى النظري إلا من خلال الإحاطة به ضبطا لمجالاته وقضاياه في ضوء هذا المنهج الشمولي.
- إن التجديد في المقاصد الشرعية أو بالمقاصد الشرعية بالأحرى، ليس المقصود منه تطوير هذه المقاصد أو تغييرها زيادة ونقصانا، وإنما المراد، هو إحياء المقاصد الشرعية وتوسيع مجالاتها، وتفعيلها في حياة الفرد والمجتمع، لتحقيق الخير والصالح في الحال والمآل.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- 1- أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، فريد الأنصاري منشورات الفرقان، الطبعة الأولى الدار البيضاء-ذو القعدة 1417هـ/أبريل 1997م.
- 2- أعمال المنتدى الفكري السادس الذي نظّمته منظمة التجديد الطلابي بجامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرّاز فاس 15-17 جمادى الثانية 1433هـ/ 7-9 ماي 2012م بعنوان "دراسات في أعمال الفيلسوف طه عبد الرحمان إبداع فكري أصيل في التأسيس لنموذج معرفي بديل" الطبعة الأولى 1434-2013
- 3- التأسيس الانتمائي لعلم المقاصد، طه عبد الرحمان، مركز نهوض للدراسات والبحوث الكويت- لبنان، الطبعة الأولى 2022.
- 4- تجديد أصول الفقه الإسلامي، حسن التاريخي، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى، 1400هـ/ 1980م
- 5- التجديد الأصولي نحو صياغة تجديدية لعلم أصول الفقه، مؤلف جماعي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، و دار الكلمة الطبعة الأولى 1436هـ/ 2015م
- 6- تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان (الدار البيضاء – المغرب)، الطبعة الرابعة، 2012م
- 7- الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، طه جابر العلواني، دار الهادي، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.
- 8- الخطاب المقاصدي المعاصر مراجعة وتقويم، الحسان شهيد، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى بيروت 2013
- 9- سؤال العمل بحث في الأصول العملية في الفكر والعلم، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية 2012
- 10- سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، طه عبد الرحمان، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، الطبعة الأولى بيروت 2015
- 11- الفطرية بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام، فريد الأنصاري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

- 12- الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية 1419-1999م.
- 13- الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام قراءة في نشأة علم أصول الفقه ومقاصد الشريعة، عبد المجيد الصغير، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1415هـ-1994م
- 14- مجلة إسلامية العرفة، العدد الأول السنة الأولى، السنة 1995
- 15- مجلة الإحياء العددان، 37-38، ربيع الثاني 1434هـ/ مارس 2013م،
- 16- مراجعات في تطور المنهج المقاصدي عند المعاصرين، زينب العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي
- 17- مشاهد من المقاصد، عبد الله بن بية، الرياض السعودية، الطبعة الثانية، 1433هـ/ 2012م
- 18- معالم في المنهج القرآني دراسات معرفية، طه جابر العلواني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1431هـ- 2010م
- 19- مفهوم القطع والظن وأثره في الخلاف الأصولي، حميد الوافي، دار السلام، الطبعة الأولى 1432هـ/ 2011م
- 20- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام، ط 4. 1430هـ/ 2009م
- 21- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية 2008
- 22- مقاصد الشريعة والدليل الإرشادي، محمد كمال الدين إمام، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية، الطبعة الأولى 2011
- 23- المقاصد في الفكر الإصلاحي الإسلامي (في أفق نظرية جديدة للعمل الإسلامي)، محمد جبرون، طار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة 2010
- 24- نحو التجديد والاجتهاد: مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، طه جابر العلواني، دار تنوير للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1429هـ/ 2008م
- 25- نحو تفعيل مقاصد الشريعة، جمال الدين عطية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 1422 هـ/ 2001م
- 26- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، مكتبة الهداية الدار البيضاء المغرب، الطبعة الثانية 1432هـ/ 2011م.

فهرس الموضوعات

- 12 المنهجية المعرفية القرآنية عند العلواني دراسة في المفهوم والمحددات
د. محمد أمين الخنشوفي
- 39 من جهود د. طه جابر العلواني في مراجعات علوم القرآن كتاب "نحو موقف قرآني من النسخ"
نموذجاً.....
د. احمد الينبيعي
- 63 الرؤية الكونية القرآنية ومنطلق التغيير في المشروع المعرفي لطله جابر العلواني.....
دة. كريمة دوز
- 90 "وقفات علمية مع د. العلواني في كتابه "إشكالية التعامل مع السنة" (إسهام في نقد النقد).....
د. إدريس الشرقي
- 118 معالم "الوحدة البنائية للنص" عند العلواني وأثرها في منهج التعامل مع السنة عند المحدثين.....
د. محمد أزهر
- 150 المنهج التوحيدي للمعرفة وسؤال التكامل المعرفي عند طه جابر العلواني.....
دة: منى مغنوي
- 169 المنهج التوحيدي للمعرفة ودوره في البناء الحضاري عند طه جابر العلواني.....
رياض صديقي
- 196 التكامل المعرفي عند طه جابر العلواني مرتكزاته النظرية وتمثلاته الموضوعية وأبعاده
الحضارية.....
د. عبد النبي الدرداري

- 217مرتكزات التكامل المعرفي وتمثالاته تنظيرا وتطبيقا عند العلواني.....
مصطفى حسنيوي
- 238المحددات المنهجية القرآنية لاستئناف تجديد علم أصول الفقه: قراءة في مشروع الدكتور طه
جابر العلواني.....
حميد حقي
- 256المنهج المقاصدي عند طه جابر العلواني رؤية تحليلية.....
د. محمد فتحي العتربي
- 300الكليات المقاصدية القرآنية وأبعادها التربوية، من طه جابر العلواني إلى فتحي حسن ملكاوي.....
د. كمال أمساعد
- 326أسس الإصلاح عند طه جابر العلواني وفق النظر المقاصدي.....
أ.د أحمد صالح قطران
- 352تجديد علم أصول الفقه في فكر الدكتور طه جابر العلواني: الدواعي والآفاق.....
د. محمد لخضر
- 378معالم في التجديد الأصولي عند العلامة طه العلواني رؤية نقدية.....
د. محمد عوام
- 411معالم التجديد في الدرس المقاصدي عند الدكتور طه جابر العلواني- رحمه الله-.....
يوسف عطية

هذا الكتاب

إن الأمة التي تبحث في تراث رجالها وترجع إليه وتنظر فيه استثماراً وتقييماً وتقويماً، وتعرض اجتهاداتهم للدرس والتحليل والتفسير والتوجيه والنقد، لتستفيد من تجاربهم، أمة حية نشطة تستطيع أن تصلح حال حاضرها، وتبني أسس مستقبلها، وأحسب أننا اليوم - ونحن نعقد هذا المؤتمر الدولي العلمي المحكم في موضوع: طه جابر العلواني رحمه الله: عطاؤه العلمي ومشروعه الإصلاحي، - نقوم ببعض حق علماء الأمة علينا، خصوصاً الذين كان لهم الأثر الواضح في خلق حركية فكرية لامست قضايا الأمة وعالجت مواطن الركود والجمود في (ما من الواجب تنقيحه وتجاوزه داخل دائرة المعفو عنه)، في واقع تراجع فيه حضور الوحي في مواقع متعددة من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية... واستمرت فيه القناعة بما خلفه السابقون - وخاصة منه ما لا ينبغي على أسس الوحي الصارمة بشقيه: القرآن الكريم والسنة الطاهرة المطهرة - وهي الأسس التي وجب الرجوع إليها والعض عليها بالنواجذ، واستثمارها من أجل تجديد النظر في كثير من قضايا الأمة، تجديد بهذه الأسس لا بغيرها، وبهذه المصادر لا بغيرها، وبمقاصد هذه الأسس والمصادر لا بغيرها، أي تجديد لا يكون حيلة لتقليد الغرب فقط كما يقول محمد إقبال... وإنما التجديد يجب أن يكون بالإسلام لا بغيره.

وأملنا أن يكون مؤتمرنا هذا - وهو يتناول تراث طه جابر العلواني أحد رموز الثقافة الإسلامية المعاصرة - إضافة نوعية للجهود المبذولة في هذا المسعى الحضاري المنشود، الذي يتوخى إبراز جهود علماء المسلمين المعاصرين في تطوير الفكر الإسلامي المعاصر من خلال مصادره المعصومة المستندة إلى:

ماض محمود، هو مجال الاستفادة والاعتبار والاستمداد،
وواقع مشهود، هو مجال التحليل وإعادة التركيب،

ومستقبل منشود، هو مجال البناء واستعادة الريادة العلمية والإمامة الحضارية؛
وشرط كل ذلك منهجٌ قاصد وفقهٌ راشد، وروح وثابة معتزة بتراثها منفتحة على واقعها،
متطلعة إلى مستقبلها، مسترشدة بأصالتها، مستثمرة لكل كسب إنساني يتساق مع
تطلعات الأمة، وهي الشروط التي أسست بها الأمة مجدها، وصنعت بها حضارتها،
وسيجت بها عناصر دوراتها الحضارية على مر التجربة الإسلامية التاريخية.

